سلسلة الظاهر والباطن
الكتاب الثالث

عقائد الصوفية
في ضوء الكتاب والسُّنَّة

(الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة)

تأليف
محمود المراكبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، سبحانه هو المتفضل على عباده بالهداية والتوفيق، فالسعيد من هداه ربه إلى سواء السبيل، والشقي من أغلق سمعه، وحرم نفسه من أسباب الهداية واليقين، سبحانه كتب من الأزل سعادة المؤمنين، ويسر لهم في الدنيا سبيله القويم، وكتب في الذكر شقاوة المنكرين، ومع هذا أرسل إليهم الرسل ودعاهم أن ينضموا للموحدين، وعرفهم سبل النجاة، فاستحبوا العمى على الهدى، فحقت عليهم كلمة العذاب وباءوا بغضب من الله ﷻ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، سبحانه وتعالى متصف بكل كمال يليق به، ومنزه عن الشريك والنظير والولد، جل شأنه، لم يكن له كفوا أحد، هو وحده المعبود في الأرض والسموات، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف-٨٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى-١١]، أرسل إلى الناس رسلا، وتتابعوا تترا، واختصنا من بين الأمم بأحب الرسل إليه، وخاتمهم بين يدي الساعة، ختم الله به الأنبياء، وختم برسالته وهدايته الرسالات، فلا طريق يوصل إلى الله ﷻ إلا دل أمته عليه، وما من أمر يقرب من النار إلا حذرها منه. وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، أحبه أتباعه فوق محبة الأهل والولد، وأعلى من محبة النفس، صلوات ربي

وسلامه عليه، ولما بشر أصحابه بقوله: ﴿يحشر المرء مع من أحب﴾[1] كان ذلـك أحـب مـا سمعوه منه، وما قرت أعيـنهم بمثـل مـا قـرت بـالقرب مـن الرحمـة المهـداة، في جنـات الفردوس، اللهم صلِّ، وسلم، وبـارك عـلى البشـير النـذير، وعـلى الصـحابة المهـاجرين والأنصار، وعلى آل البيت الأبرار، وأمهات المؤمنين الأطهـار، وعـلى الأتبـاع والأخيـار، وعلى عباد الله الصالحين، والملائكة المقربين، والأنبياء، والشـهداء، والصـديقين، وحسـن أولئك رفيقا.

أما بعد، فيسرنا أن نقدم للمكتبة الإسلامية الكتـاب الثالـث مـن سلسـلة الظـاهر والباطن، وتأتي أهمية هذا الكتاب أنه المراد من كل هذه السلسـلة، وفي نفـس الوقـت هـو ختام البيان في موضوع انحراف الباطنية بأفكارهم الغريبة عن حقائق الإسلام، وقبـل أن أقدم لهذا الكتاب أجد لزاما علي أن أروي للقارئ الكريم قصتي مع التصوف، فأنا لسـت باحثا أكاديميا أتقدم برسالة لنيل درجة علمية، إن وراء هذه السلسـلة مـن الكتـب قصـة حقيقية، وتجربة واقعية غنية بالأحداث.

فقد كنت شيخا للطريقة الخلوتية العيونيـة، وكثـير مـن النـاس انخـرط في طريقـة صوفية، ثم تركها بعد فـترة، دون أن يـترك الموضـوع عنـده أي أثـر، ومـن ثـم لا يعـرف خلفيات الأمر وأبعاده، أما تجربتي فقد بدأت مع مشارف السبعينيات، فقد تلقيت طريـق القوم بإذن من رجل فاضل – رحمه الله – كان يشغل منصـبا رفيعـا – مستشـارا في مجلـس

---

١ حديث أنس متفق عليه، أخرجه البخـاري: ٣٤١٢ ، ومسـلم ٤٧٧٥ ، وأبـو داود في سـننه ٤٤٦٢ ، والترمـذي ٢٣٠٧ ، ٢٣٠٨ ، وأحمد في مسنده في أكثر من عشرة مواضع. حديث عبد الله بن مسعود متفق عليه، أخرجه البخاري ٥٧٠٢ ، ٥٧٠٣ ، ومسلم ٤٧٧٩ ، وأحمد ١ : ٣٩٢ ، ٤ : ٤٠٥ ، حديث أبو موسى الأشعري متفق عليه، أخرجه البخـاري ٥٧٠٤ ، ومسـلم، وأحمد ٤ : ٣٩٢

الدولة - وكان جم الأدب، كثير الصمت، صادق اللهجة، يميل إلى العزلة، دائم الذكر، حديثه طيب، ليس فيه غلو، ولا شطط، يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويأمر بمداومة ذكر الله ﷻ، ويحذر المريدين من الغفلة عن ذكر من لا يغفل ولا ينام، وقد أحببت الرجل حبا عظيما، وطلبت التلقين على يديه، في وقت كان يعد نفسه للابتعاد عن الطريق وتولية ابن الشيخ الكبير مكانه في مسئولية الطريق، لذلك فقد أمره أن يلقنني الطريق، وبدأت أسلك طريق القوم.

وقد توجهت من كل قلبي قاصدا وجه الله تعالى، والتزمت كل الالتزام بما أمرني به شيخي من الاستغفار والصلاة على النبي ﷺ، وذكر "لا إله إلا الله"، وبطبيعة الحال لم يكن عندي من العلم آنذاك إلا القدر الذي يعرفه عامة الناس، وبدأت أشاهد الرؤى، وتتابع عندي البُشريات، وبدأت ارتقي مراتب الطريق المرتبة تلو الأخرى، وأنا غارق في القراءة، وطلب العلم مع المداومة على ما أمرني به شيخي، ولم تمضِ ثلاث سنوات حتى أجازني شيخي، وكلفني بمشيخة الطريق، وما لبث الشيخ أن ترك الإخوان، واعتزلهم، وكلفني بمشيخة الطريق، ودعوة الخلق إلى طريق الحق، وتلقين المريدين بل وترقيتهم بها في ذلك الإجازة بمشيخة الطريق. وشعرت بعِظَم المسئولية، خاصة وأنا أستفتح الحضرات يوم الجمعة في مسجد التحرير بمصر الجديدة، ويوم الأحد بمسجد السيدة نفيسة رضي الله تعالى عنها، ومن إدراكي لأهمية إبلاغ الناس أمر هذا الدين، فقد ازددت شغفا بالعلم الشرعي، لِأُعَلِّم نفسي أولا، ثم لأنقل العلم الصحيح للمريدين، فقد اعتدت أن أجلس بعد الحضرة، وأتلقى الأسئلة، وكان مفروضا أن أجيب عليها، وهذا ما تلقيته، عن شيخي، عن شيخه، إلا أني آليت على نفسي ألا أُجيب عن أي سؤال من تلقاء نفسي، وإنما

أنقل ما تعلمته، وقرأته عن علماء الأمة، وسلفها الصالح، وإذا ما سُئلت عما لا أعلم فـإني أطلب من السائل أن يمهلني لأدرس سؤاله، وأجيب عليه في الحضرة التالية.

ثم أراد الله تبارك وتعالى أن تتكشـف أمـامي مواضـع الاخـتلاف بـين التصـوف، والكتاب والسنة. وكان في النفس شيء من بعض أجزاء الورد، وسـألت عنهـا، فقيـل لي: صبرا، وسيفتح الله عليك بمعانيها، فآثرت الانتظار، إلى أن عرضت لي أول قضية أثـارت انتباهي، وهو نص في الورد الـذي كنـا نـردده فـرادا، أو جماعـة في الحضرة، حيـث يقـول الشيخ: "اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي شاهد ربه بعيني رأسـه، وطـاب وما غاب"[١] وتذكرت حديث السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها المعروف في كتب العلم، والذي أخرجته معظم مصادر الحديث الشريف، وعلى رأسها البخاري ومسـلم، والـذي تستنكر فيه هذا القول وتستقبحه، وتصف من قال: إن محمدا رأى ربه بأنه قد أعظـم عـلى الله الفرية، فكانت دهشتي بالغة: كيف يخـالف شـيوخنا حقـائق الـدين وفهـم الصـحابة عنها، ومن أين أتوا بهذه الصيغ؟! فعكفت الشهور الطوال أدرس هـذا الموضـوع، أطـالع كتب الحديث وشروحها، وكتب السيرة ومـا يتعلـق بـالإسراء والمعـراج، وأشـهر كتـب التفسير، حتى اطلعت على أقوال الصحابة في هذا الموضوع، وانتهيت إلى أن الراجح عنـد علماء الأمة، أن رسول الله ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه يوم المعراج، وأن هذا الخبر انفرد به ابن عباس في رأي نقله عن كعب الأحبار، كما نُقل عـن ابـن عبـاس رأي آخـر، قـال فيـه: أن محمدا رأى ربه بفؤاده.

فبدأ الشك ينتابني إذ لم أكن أتصور أن هذا الطريق بعيد عن الكتاب والسنة، ففتح الله تبارك وتعالى عيني على مخالفات أكبر، وكلما ظهرت لي قضية أتفـرغ لهـا تمامـا، وكنـت

١ المحامد العونية العيونية في الصلاة على خير البرية، تأليف محمود أفندي عوني.

أشعر بتوفيق الله تعالى وتيسيره واضحا جليا، ومن ذلك أني كنت في يوم أدرس ظاهرة الشطح عند الصوفية، وفي ساعة متأخرة من الليل، احتجت مجموعة من الكتب تناقش الموضوع، وإذا بصديق يمر علي، فأسأله عن الكتب، فيأتيني بها من مكتبته في دقائق.

وهكذا بدأت تتكشف الأمور الواحدة تلو الأخرى، وظللت على هذه الحال ثلاث سنوات، أو أربع، ألتقي خلالها بمشايخ الطريق، ومنهم من يكاشف[1] الناس بكثير من الأحداث، إلا أن أحدا منهم لم يشعر أني أبحث في تأصيل الطريق، ومدى حيوده عن الكتاب والسنة.

وبعد دراسة متأنية تجمعت عندي جوانب القضايا، وحقائق معظم المخالفات الصوفية. ثم بدأت في مرحلة مفاتحة مشايخ الطريق وخلفاء الشيخ الأكبر، حتى أتبين مواقفهم وحقيقة عقيدتهم، وكان هاجسي الأكبر: هل ينتصرون لله ورسوله؟، أم أن حب الشيخ والطريق هو حقيقة دينهم؟ وما تركت منهم شيخا إلا وناقشته - خاصة صلاح القوصي، الذي طالت مناظراتي له الساعات الطوال، والليالي ذوات العدد، وقد طلبت منه حضور مريديه، وأتباعه معه لجلسات النقاش، إلا أنه أصر وبإلحاح على تجنيب الإخوة مثل هذه الأمور، وأنه سيبلغهم بما نصل إليه؟ وقد ظهر لي جليا أنه كان يتعمد إخفاء القصور في فهمه، وضحالة عقيدته، وأن تظل صورته المرسومة في أذهان تابعيه في أعلى مكانة ممكنة، ولم يكن له أن يعترض على حضور السيد/ عمر البدوي، وهو أخي في الله، سرنا معا الدرب كله، وكان متتبعا لمنهج التصحيح الذي وفقني الله ﷻ إليه -، وقد

---

١ المكاشفة: هي نوع من الفتح في الفهم الصوفي، ولشيخ الذي يكاشف الناس يبادرهم بأشياء حدثت معهم، أو ستقع لهم، وقد سمعت بنفسي مكاشفات عديدة من أكثر من شيخ، وقع بعضها كما أخبر، وأكثرها لم يقع، بل وقع خلاف قوله، وهي تستهوي أكثر زوار هؤلاء المشايخ الذين يذهبون إليهم حبا في سماع هذه المكاشفات.

وفقني الله تبارك وتعالى أيضا لدحض جميع دفاعاتهم، حتى ألجمهم الصـمت، وكثـيرا مـا كان يفتح فاه من الدهشة عندما ألقنه الحجة والدليل، فما وجدت عنـد القـوم دلـيلا، ولا برهانا، سوى قولهم: "إن شيخنا كان رجلا صالحا، وعالما في كلية أصـول الـدين، فكيـف يفوت عليه خلل؟ وتأتي أنت، وتنتقد ما استمر عليه الشيخ حتى وفاته"، وعجـز المشـايخ عن الإجابة عن تساؤلاتي، والتعقيب عـلى اعتراضـاتي، ولم يتمعـر وجـه واحـد مـنهم لله تعالى، ثم استقطب النقاش طامع في مكانة الشيخ الأكبر، وهو رجل مثقف حاصـل عـلى الماجستير في الكيمياء، وكان يعمل في السعودية آنذاك، فكان إذا سـمع حجتـي وافقنـي، حتى أنه قال لي: أقسم بالله لو أن ما تقوله صحيحا لأترك الجمل بـما حمـل، فظننـت أن الله سيهديه إلى الحق، إلا أنه طالبني بمهلة يقرأ فيها ما قرأت، وسار على خطة خبيثة، فقد أمر مريديه بالابتعاد عني، وأشاع أننـي كنـت عـلى وشـك أن يفـتح الله عـلي وأتلقـى: "كـن فيكون"، إلا أنني لم أحتمل الأنوار فتوقفت، وفُتنـت بـالعلم"، وطـالبهم بعـدم زيـارتي، وعدم الإنصات إلي، ولما نقضت إجازته عاد إلى السعودية، وبعث لي برسالة طـالبني فيهـا أن أكتب له عن المآخذ التي توصلت إليها عن التصوف، وتعهد بأن يبعث لي بالرد عليها، فبعثت له بقضية العدوان في الدعاء، والمنتشرة ليس في أوراد طريقتنا فقط، وإنما في معظـم أوراد الصوفية، وقلت له: سأبعث لك تباعـا موضـوعا تلـو موضـوع إذا بعـث لي بـالرد عليها، وما كان من الرجل إلا أن انقطع عـن الكتابـة، ولم يصـلني منـه الـرد حتـى الآن، وعندما قابلته بعد عشر سنوات، وسألته عن الـرد، قـال لي أنـه حـر يبعـث، أو لا يبعـث بالرد، وبعد ما يزيد على عشر سنوات، أراد الرجل أن ينفصل كليةً عن الطريـق، ويصـنع لنفسه طريقا خاصا، فما كان منه إلا أن غير جميع الأوراد، وزعم لمريديـه، أنـه تلقـى هـذه الأوراد من النبي ﷺ، وأنه أخرج من الأوراد جميع المآخذ التي أخذتها على الطريق، ففـرح

المريدون، واتصل بي بعضهم يدعوني لجمع الشمل، فقد حذف النبي ﷺ كل ما اعترضت عليه – على حد قوله – وعندما اطلعت على الأوراد الجديدة أدركت أن الرجل كاذب محتال، بل وفات عليه أشياء تثبت أن عقيدته لم تتغير، وإنما فقط تلونت وخفضت رأسها للعاصفة، ونفس المفاهيم الشركية موجودة، فالإلحاد في ذكر الله قائم، وعقيدة وحدة الوجود موجودة، والرجل يضحك على أتباعه السذج بحذف الأسماء السريانية، وسارت الأيام حتى أصدر الرجل ديوان شعر جديد سماه العتيق، وأخطر ما في الديوان التعليقات التي يشرح فيها مراده من نصف أبيات الديوان، وكل تعليق من هذه التعليقات كارثة كبرى، فالرجل يعلن أن له كرامات، وأنه يوحى إليه، وحدث له إسراء إلى جبال الأناضول، ومعراج إلى السماء السابعة، وأنه تعين القطب الغوث[1].. وسنتناول مزاعم الرجل في ثنايا هذه الطبعة من الكتاب.

ولما أصدرت كتابي الأول، أسميته: "القول المبين لنفع السالكين" كان عندي بعض الأمل أن يستمع الصوفية إلى نداء الكتاب والسنة، والإعراض عن البدع والشركيات، ولكن هيهات، فاستمر بحثي عن أصل هذه الأفكار. ومتى ظهرت في الإسلام؟ ومَنْ أول مَن أظهرها مِن الناس؟ محاولا الوصول إلى أصول الصوفية، والمنابع التي استقت منها هذه الأفكار.

ثم تيسر لي بفضل الله تبارك وتعالى كتابة هذه السلسلة التي سطرت فيها تجربتي كاملة، لمناقشة الأفكار الدخيلة على الإسلام، ولبيان حقيقة التصوف المعاصر، ومكانة أفكاره، ومعتقداته من الكتاب والسنة، ثم جاء سؤال مهم جدا سمعته من بعض أصدقائي ممن ينتمي إلى التجانية، يقول فيه: "لِمَ اعتراضك على التصوف ككل؟ قد يكون

---

١ راجع كتاب "موسى والخضر علما الظاهر والباطن" لمعرفة المقصود بالقطب الغوث.

طريقك الذي سلكته فيه بعض الشطط والزيغ، والانحراف، فما ذنب الطرق الأخرى؟ أهناك ما يؤكد أن كل الطرق على شاكلة طريقك؟ وشيخنا الحافظ عالم في الحديث، وريقنا مطابق للكتاب والسنة لا يخالفهما قيد أنملة"، والرجل بسؤاله هذا يحاول أن يحصر الاعتراضات في الخلوتية، أما التجانية، أو الشاذلية، والدسوقية، وغيرها، بل وباقي الطرق الصوفية فخالية من ذلك، والتصوف ككل بريء، فطلبت من الرجل كل ما طبع من كتب، وأوراد التجانية لأدرسها، فزودني بها، فهالني زخم المخالفات في التجانية، فعلمت أن الرجل يدافع بحسن الظن، وأنه لم يقرأ كتب طريقته، ولا يدري ما فيها، عندئذ قررت الحصول على ما أستطيع الوصول إليه من أوراد الطرق الصوفية، وبدأت مرحلة ثالثة، حين درست أوراد عشرين طريقة صوفية هي ما أمكنني الوصول إلي مصادرها، وكتب أورادها، وأخذت أتتبع أفكار الانحراف الممثلة في وحدة الوجود، وذكر الله بالأسماء السريانية، والعدوان في الدعاء، وغيرها من الأفكار - التي سنناقشها بالتفصيل في كتابنا هذا - وللأسف الشديد كان هناك اتفاق بين جميع الطرق الصوفية العشرين على نفس الأفكار والدعائم؛ لذا فقد تحول البحث من قضية طريق صوفي إلى مناقشة قضية التصوف ككل.

ومن هنا جاءت هذه السلسلة من الكتب، ولما كانت قصة موسى والخضر عليهما السلام هي: الدعامة الأساسية التي يرتكز عليها الصوفية والباطنية، فقد خصصت لها **الكتاب الأول: "موسى والخضر عليهما السلام"**، الذي أبين فيه كيف اعتمدت الفرق الباطنية على قصة موسى والخضر ولقائهما في تقسيمهم للدين إلى ظاهر وباطن، والكتاب يناقش ويجيب على مجموعة من الأسئلة، منها:

- مَن الخضر؟

- وهل حي للآن أم لا؟
- وهل هو نبي أم ولي؟...

ثم يأتي **الكتاب الثاني**: **"جذور الشيعة وجيش المهدي" الطبعة الثالثة من كتاب: "تسرب الفكر الباطني إلى الشرائع السماوية"**؛ ليناقش فكرة تقسيم الدين إلى ظاهر وباطن، وهي الفكرة التي اتكأ عليها الفكر الباطني عموما، ثم ناقشت في هذا الكتاب أيضا: كيف تسرب الفكر الباطني إلى الشرائع السماوية؟ والمراحل التي مر بها انحراف الباطنية من اليهود، ثم تأثير التأويل الباطني على عقيدة النصارى، ثم كيف تسرب الفكر الباطني إلى الإسلام؟ حتى ظهر فكر الشيعة، والغلاة من الإسماعيلية والدروز، وقد وفقني الله تبارك وتعالى في الطبعة الثالثة من الكتاب الثاني، حيث أضفت إليها إضافات أساسية، عمقت الدراسة وضاعفت الفائدة، والله ﷻ هو ولي التوفيق.

ثم يأتي الآن دور **الكتاب الثالث**: **"عقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة"** الذي بين يديك الآن، الذي هو عمود الرحى، والهدف من كل هذا الجهد؛ حيث يقيس مفاهيم الباطنية والصوفية في هدي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ثم يكشف عن مواضع الاختلاف بين التصوف، والكتاب والسنة، ثم يتعرض بالكشف عن أوراد عشرين طريقة صوفية [هي ما أمكننا جمعها]، وما في هذه الأوراد من تجاوزات، وتعدٍ في الدعاء وشركيات، واستعانة بالمشايخ، وطلب التصريف، وغلو في إطراء النبي ﷺ، والدخول في مفاهيم وحدة الوجود. وسوف تتعجب أخي القارئ من النتائج التي ستصل إليها بنفسك.

ثم يأتي **الكتاب الرابع**: **"القول الصريح عن حقيقة الضريح"**، والذي قد عقدت النية على كتابته منذ سنوات طوال حين تكشفت لي حقائق لا يعلمها كثير من الناس، ومما

زاد من أهمية نشر هذه الحقائق ما يحدث إلى الآن في الأضرحة [ونخص في هـذا الكتـاب ضريح الحسين وضريح السيدة زينب] من موالد، وحضرات ونذور، وتوسـل إلى الله ﷻ بآل البيت. ولما كانت الصوفية هـي المسئول الأول عـن إمـداد هـذه الأضرحـة والموالـد بالمريدين وغيرهم... فماذا سيفعل هؤلاء وهؤلاء عندما يتبين لهم أن هذه الأضرحة التـي يتبركون بمن بها من آل البيت لا تضم رفات أحد من آل البيت بها؟!

كـما أضـفت إلى المجموعـة كتابـا **خامسـا، هـو: "السـلوك القـويم عـلى الصراط المستقيم"**، والدافع وراء إضافة هذا الكتاب ما تلقيته من قرّاء السلسلة، حيث قالوا: أنت الآن أظهرت فساد المعتقدات الباطنية، وحذرت كل التحذير من دروب الصـوفية، فـماذا يفعل أتباع هؤلاء، وغيرهم ممن نبذوا تلك الأفكار وراء ظهورهم، فكيف يُقبلون على الله ﷻ؟ فكان من توفيق الله تعالى أن حددت السلوك الصحيح إلى رب العـالمين، في الكتـاب الخامس: وهو يشرح سلوك الفرد المسلم إلى الله تعالى.

وأسأل المولى الكـريم رب العـرش العظـيم أن يطيـل في أعمارنـا، وأن يحسـن مـن أعمالنا، حتى أقدم الكتاب السادس من هذه السلسلة والـذي سـيتناول: سـلوك الجماعـة المسلمة إلى سابق مجدها، وقليل من المؤلفين تناولوا هـذا الموضـوع، ونسـأل الله تعـالى أن يوفقنا إلى تناول هذا الموضوع بالشكل النافع للناس، وأن يجعل عملنا هذا في كفة حسناتنا في ميزان أعمالنا يوم العرض على الرب الكريم، إنه ﷻ نعم المولى ونعـم النصـير، وأسـأل الله تعالى أن يكون عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن يكتـب لنـا ثوابـه، وثـواب مـن ينتفع به إلى يوم الدين وصلِّ اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الأول

مرحلة الشطح

١. نشأة التصوف، وخرقة الصوفية

٢. ظاهرة الشطح ومراحلها

٣. الفناء الصوفي

٤. نتائج ظاهرة الشطح

٥. الحلاج: درويش صوفي، أم باطني خبيث؟

٦. محاولات الصوفية تصحيح مفهوم الفناء

الفصل الأول

نشأة التصوف وخِرقة الصوفية

يحاول بعض الباحثين نسبة التصوف إلى الصفاء، أو رداء الصوف الذي منه ظهرت الْخِرْقَة، أو إلى اشتقاق كلمة صوفي من الكلمة اليونانية سوفيا ومعناها الحكمة، أو إلى أهل الصفة، ولم يثبت صحة أي من هذه الأقوال، ومن المؤكد تاريخيا أن اسم الصوفية والتصوف لم يُعرفا في المجتمع الإسلامي في القرنين الأول والثاني الهجريين، ويحاول مؤرخو التصوف البحث في قضايا كثيرة نوجزها فيما يلي:

أولا: تاريخ ظهور الصوفية.

١. إن التصوف ظهر بعد عصر تبع الأتباع، وهذا ما يحدده القشيري في رسالته، حيث يناقش توقيت ظهور التصوف بقوله: "اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يَتَسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية سوى صحبة رسول الله ﷺ إذ لا فضيلة له فوقها، فقيل لهم: الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سُمي من صحب الصحابة: التابعين، ورأوا ذلك أشرف سمة، ثم قيل لمن بعدهم: أتباع التابعين، ثم اختلف الناس، وتباينت مراتبهم، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: الزهاد، والعُبَّاد، ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكل طريق ادعوا أن فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة[1].

٢. ولابن الجوزي تفسير آخر عن نشأة التصوف حيث يقول: "كانت النسبة في زمن رسول الله ﷺ إلى الإيمان والإسلام، فيقال: مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى

---

١ الرسالة القشيرية، لأبي القاسم عبد الكريم هوزان القشيري

العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاقا تخلقوا بها، ورأوا أن أول من انفرد بخدمة الله تعالى عند بيته الحرام رجل يقال له: صوفة، واسمه الغوث بن مر، فانتسبوا إليه، لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله ﷻ، فسُمُّوا بالصوفية"[١].

٣. بينما يؤكد ابن تيمية ما ذهب إليه القشيري أن كلمة الصوفية ظهرت للمرة الأولى قرب انتهاء القرن الثاني الهجري، حيث يقول: أما كلمة "الصوفية" بالجمع فقد ظهرت للمرة الأولى سنة ١٩٩ هـ، إذ أطلقت فيما يرى المحاسبي والجاحظ على مدرسة تنسكية شيعية نشأت بالكوفة في ذلك العهد، وكان أكبر زعمائها عايدك البناني الذي توفي في بغداد سنة ٢١٠ هـ".

كما يرى أن أول ظهور الصوفية في البصرة، وأن أول من بنى دويرة[٢]. الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وهو من أصحاب الحسن البصري.

ونحن نرى أن بداية تطور الفكر الصوفي كانت طبيعية، فقد ظهر أولا، تيار يحاول مواجهة إقبال الناس على الدنيا بعد زمن الفتوحات الكبرى، وانشغال كثير من المسلمين عما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فبدأ تيار ينادي بالزهد، وظهرت جماعات يسمون الفقراء، وأخرى تسمى البكائين، وثالثة تسمى المحبين، وأشهرهم رابعة العدوية، وقد ظهرت العديد من المؤلفات التي تتناول الزهد للعلماء[٣]، ثم ظهر أقوام[٤] من الصوفية تكلموا في الجوع، الفقر، والوساوس، والخطرات. ويلخص ابن الجوزي رأيه عن مراحل ظهور التصوف، فيقول: "إن التصوف بدأ أولا في شكل زهد وعبادة، وكان عند الصدر الأول منهم في شكل مجاهدة النفس للاستقامة، وتقويما لها وحملها على الصراط المستقيم

---

١ تلبيس إبليس لأبي الفرج بن الجوزي.

٢ دويرة تصغير دار، وهو مكان يخلو فيه الصوفي بعيدا عن الخلق.

٣ منهم: زائدة بن قدامة [ت ١٦٠]، وعبد الله بن المبارك [ت ١٨١]، ومحمد بن فضيل بن غزوان [ت ١٩٥]، ووكيع بن الجراح [ت ١٩٧] شيخ الشافعي، وله كتاب في الزهد، وأسد بن موسى المعروف بأسد السنَّة [ت ٢١٢]، وسعيد بن منصور [ت ٢٢٧]، ثم أحمد بن حنبل [ت ٢٤١]، وكتابيه الزهد والورع.

٤ مثل الحارث المحاسبي [ت ٢٤٣]، وكتبه: الوصايا، والرعاية، والتوهم، وأبو طالب المكي، وكتبه: عن علم وقوت القلوب.

حتى يصير تهذيبها خلقا جبلية".

إلا أن هناك تيار بدأ يطفو على الساحة يقسم الدين إلى ظاهر وباطن، ويستغرق في الحديث عن الروحانيات وأحوال القلوب، وقبل أن نستكمل مراحل تطور الفكر الصوفي نود أن نوضح حقيقة الزهد في عهد النبوة، فزهدهم ليس في لبس المرقع من الثياب، وإنما في إيثار الآخرة على الدنيا: أن لا تكون أوثق مما في يديك عما في يدي الله ﷻ، فهذا أبو بكر ؓ كان أغنى العرب عند بعثة النبي ﷺ، ولكنه بذل ما يفنى رجاء لما يبقى، وأمير المؤمنين عمر ؓ كان من أزهد الناس، وقد شغله العدل بين الرعية، وخوف المثول بين يدي الله ﷻ أن يتمتع بالدنيا، وهذا الخليفة الثالث عثمان بن عفان ؓ يشترى بئر رومة، ويشتري توسعات المسجد النبوي، ويجهز جيش العسرة، وغير ذلك من إقدامه على البذل والعطاء، وهذا علي بن أبي طالب يسير على درب النبي ﷺ وأصحابه، ويبذل نفسه التي هي أغلى من أموال الدنيا، يوم بدر، وأحد، وخيبر وباقي الغزوات. فزهد السلف الصالح ليس رهبانية ابتدعوها، ولا تحريم الحلال وإضاعة المال.

ثانيا: أول من سُمي صوفيا؟

١. ويرى بعض متأخري الصوفية ومنهم عبد الرحمن الجامي – المتوفى سنة ٨٩٨ هـ – أن أول من حمل اسم صوفي هو أبو هاشم الكوفي، بينما يترجم متقدمو الصوفية لأبي هاشم بالزاهد، ومنهم أبو نعيم في الحلية"[١]، ترجم له أبو نعيم في الحلية باسم فديم، ولم يعرفه بأكثر من: ممن عرف من متقدمي البغداديين بالنسك والتحقيق بالتصوف، وأهمها ما يخص بدء ظهوره وتاريخ وفاته[٢]، وهو نفس ما ذهب إليه أبو الفرج بن الجوزي في صفة الصفوة[٣]، ونسبه إلى الزهد، ولم ينسبه إلى

١ نفحات الأنس من حضرات القدس لعبد الرحمن الجامي ترجمة رقم ١ صفحة ٦٦

٢ راجع الحلية ١٠: ١١٢، ترجمة رقم ٤٦٧

٣ الذي هو تهذيب حلية الأولياء، ترجمة رقم ٢٤٥، صفحة ٢: ٣٠٦

التصوف. بينما يرى أبو عبد الرحمن السلمي صاحب طبقات الصوفية: "أن أول من سمي ببغداد: "صوفي" عبدك الصوفي، وكان من أورع المشايخ وأهيبهم"[١].

٢. ويقول الدكتور/ عبد الرحمن بدوي: "لكن هذه كلها أقوال لمتأخرين عن القرن الثاني، وليست لدينا روايات كتابية، وثيقة من القرنين الأول والثاني ورد فيها اسم: "الصوفي"، ولعل أقدم ما وصلنا من مؤلفات ذَكرت اسم الصوفي، والصوفية هو كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ المتوفى [سنة ٢٥٠، أو سنة ٢٥٥ هـ]، إذ يذكر "الصوفية من النساك"، ويورد أسماء من عُرف بالفصاحة منهم"[٢]، وقد ذهب قوم من عامة الصوفية إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصفة، ويرد هذا القول كثير من العلماء منهم ابن الجوزي الذي يقول: "ونسبة الصوفي إلى أهل الصفة" غلط لأنه لو كان كذلك لقيل صُفِّيّ"[٣].

ثالثا: من الصوفي؟

١. قال الشبلي: الصوفي في كل عهد موفٍ، وقال: التصوف ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك، وقال أيضا: الصوفي الذي لا يرى في الدارين مع الله غيره، وقال أيضا: هو المنقطع عن الخلق غير متصل بالحق، وقال أيضا: هو الذي لا يملك شيئا ولا يملكه شيء، وقال: الصوفية أطفال في حجر الحق.

٢. وقال أبو علي الروذباري: الصوفي من رمى الحركات بالأفكار، وسكن عند مجاري الأقدار، ولم يتناول الرفق إلا بمقدار.

٣. وسئل الحلاج عن التصوف، وهو مصلوب، فقال: أهونه ما ترى، وقال أيضا: الصوفي الذي لا يقبله أحد، ولا يقبل أحدا، وقال أيضا: الصوفي هو المشير عن الله

---

١ ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ترجمة رقم ٤٢٥ صفحة ١: ٤٢٥

٢ تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني د. عبد الرحمن بدوي ٨

٣ تلبيس إبليس لأبي الفرج بن الجوزي ٢٣٣

تعالى، فإن الخلق أشاروا إلى الله تعالى[1].

رابعا: الصوفية والخِرْقَة.

توارث مشايخ الصوفية أسلوبا معينا في تلقين المريد طريق التصوف، وأخذ العهد عليه بالالتزام بتعاليم مسلكهم، فيما عدا الطريقة النقشبندية التي شيخها الثاني بعد النبي ﷺ هو: أبو بكر الصديق، فتزعم باقي الطرق الصوفية أن النبي ﷺ اختار علي بن أبي طالب ليكون شيخ الصوفية الأول، وأنه لقنه مجموعة من الأسماء الحسنى، وتزعم صوفية من أهل السنة أن عليا اختار من بعده الحسن البصري، فلقنه أسرار الطريق: لذلك يتبوأ الحسن البصري مكانة كبرى عند الصوفية، وهو من كبار أعلام التابعين، وله دور بارز في علوم الدين، ولا خلاف بين جميع طوائف الأمة على عظمه وعلو شأنه، إلا أن الصوفية يحتكرون الحسن البصري لأنفسهم، ويجعلوه شيخا لطرقهم، والمتلقي للأسرار الباطنية، الذي لقنها لمن جاء بعده من مشايخ الطرق.

وبهذا الزعم جعلت الصوفية الحسن البصري أحق بالأسرار من أصحاب النبي ﷺ، ولم الإصرار على انتقال هذه الأسرار إلى الصوفية فقط، ووصولها إلى آلاف الطرق الصوفية، ومشايخها، وأقطابها، ولا يعرفها العشرة المبشرون بالجنة، ولا أهل بدر وأصحاب الغزوات من أصحاب النبي ﷺ، أليس المهاجرون والأنصار أولى بهذه الأسرار من مشايخ الطرق، والأقطاب، والأوتاد، والمجاذيب، وغيرهم؟!. ثم كيف جاز أصلا لعلي بن أبي طالب أن يتكلم فيما كتمه الرسول ﷺ؟! أيعقل أن يُسِر له النبي ﷺ شيئا، فيتكلم عنه، ويظهره، وينقله إلى الحسن البصري، ثم ينشره الحسن بدوره إلى الطرق الصوفية؟ أيذاع ويشاع بين الصوفية أسرارا لا يعرف عنها الشيخان: أبو بكر وعمر، وغيرهما من الرعيل الأول لأعلام الإسلام.

وللشيعة سلسلة أخرى من المشايخ يطلقون عليها اسم الأئمة، ويؤمنون أن عليا اختار ولده الحسن، ثم جاء بعده الحسين، ثم ابنه عليا زين العابدين، وهكذا استمرت الإمامة في نسل علي وهم آل البيت. وأنه ألبسهم الخِرْقَة التي توارثوها شيخا من بعد شيخ، أو إماما من

---

١ تهذيب الأسرار لعبد الملك بن محمد النيسابوري الخركوشي ٢٩

بعد إمام، لذا توارث الصوفية هذا التقليد، وكان إلى زمن قريب يُلبس الشيخ مريده خرقة من الصوف، ويظن أولئك أن لبس خرقة من الصوف ضروري لتهذيب نفس المريد، وتعليمه التواضع، وهذه الخِرْقَة كما هو واضح من اسمها، وكما يريدون أن يصوروها للمريدين، هي أقرب ما يكون إلى جوال من الصوف نسميه في مصر الشوال، أو الزكيبة من الصوف، وما زال كثير من المجاذيب يرتدونها إلى اليوم، ويشترط كثير من الصوفية – في القرون السابقة – لبس الخِرْقَة، ويضعون لها شروط معينة، منها أن يكون الشيخ نفسه قد وصل إلى مرتبة يحددها الشعراني بقوله: "وأما لباس الخِرْقَة، فشرطه عندي أيضا أن يعطي الله ذلك الشيخ من القوة ما ينزع به عن المريد – حال قوله له اخلع قميصك، أو قلنسوتك مثلا – جميع الأخلاق المذمومة، فيتعطل عن استعمال شيء منها إلى أن يموت ذلك المريد، ثم يخلع على المريد مع إلباسه تلك الخِرْقَة، جميع الأخلاق المحمودة التي هي غاية درجة المريد في علم الله ﷻ، فلا يحتاج ذلك المريد بعد إلباس شيخه له الخِرْقَة إلى علاج خُلق من الأخلاق، فمن لم يعطه الله تعالى ذلك [أي من المشايخ]، ففعله كالاستهزاء بطريق العارفين"[1].

ومن أمثلة ما ترويه الصوفية عن الحسن البصري قولهم، أنه سُئل عن العلم الباطن ما هو؟ فأجاب الحسن قائلا: سألت حذيفة عن علم الباطن[2]، فقال: سألت ميكائيل عن علم الباطن، فقال: سألت القلم عن علم الباطن، فقال: سألت الرب جل ثناؤه عن علم الباطن، فقال: علم الباطن سر من سري أخفيته عن خلقي، وأودعته عند خاصة عبادي، وهو نتاج معرفتي وموارثة خدمتي"[3]. ولا شك أن هذا كذب مفترى، فما كان لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أن يسأل ميكائيل عليه السلام، ثم يسأل ميكائيل القلم بدوره.

١ الطبقات الكبرى للشعراني ٢:١٦٠

٢ لم يثبت للحسن سماعا من حذيفة، فحذيفة بن اليمان استعمله عمر بن الخطاب على المدائن، ثم سكن الكوفة، ومات بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنهما بأربعين يوما، بينما ولد الحسن البصري لسنتين بقيتا من خلافة عمر، ونشأ في وادي القرى، ودخل المدينة وهو غلام، ومات سنة ١١٠ هـ، عن عمر يناهز ٨٨ سنة، ولا يعرف سماع للحسن من كثير من الصحابة، حتى اشتهر عنه أنه لم يروِ عن أحد من أهل بدر، كما لم يروِ عن ابن عباس، وجابر، وأبي هريرة.

٣ علم القلوب لأبي طالب المكي ٥٢ – ٥٣

مثل هذه الافتراءات واضح عليها علامات الوضع، ولا يقبل هذه الحكايات إلا جاهل أو أحمق، ومن أعمل عقله يفهم أن هذا من إلقاء الجن والشياطين في قلب وظن أصحاب البدع.

١. علي يُلْبِس الحسن البصري الْخِرْقَة:

لا غرابة أن يجد الباحث خبرا في أحد كتب الصوفية يجعل للخرقة صلة بعلي بن أبي طالب ﷺ، وأنه أول من سن لبس الْخِرْقَة في الإسلام، وحتى لا يكون هذا الفعل من عند علي، فقد زعموا أن الذي ألبسها لعلي هو الخضر، أو النبي ﷺ، والذي يعنينا هنا: كيف انتقلت هذه الخرافة إلى صوفية اليوم؟، ولا يستحيي الصوفية أن يزعموا أن عليا ﷺ هو الذي ابتكر هذا الزي العجيب، وأنه ألبسه بنفسه للحسن البصري، الذي يُعَدُّ المريد الصوفي الأول، الذي تلقت عنه أغلب المشايخ الأسرار الباطنة التي لا ينالها إلا من ارتدى الْخِرْقَة. يقول الملا علي القاري: "ثم إن من الكذب المفترى قول من قال: إن عليا ألبس الْخِرْقَة الحسن البصري، فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن سماعا من علي، فضلا عن أن يلبسه الْخِرْقَة، وهو قول ابن حجر، والسخاوي، والذهبي، وابن حبان، والعلائي، والعراقي، وابن الملقن، ومن الصوفية كالدمياطي، وغيره". ونفى اللقاء بينهما ولبس الْخِرْقَة أيضا الإمام الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة[1]، فهذا زعم ينكره علماء الحديث، والرجال، والتاريخ، فلم يثبت للحسن سماعا من علي ﷺ، ناهيك عن زعمهم أنه ألبسه خرقة الصوفية،[2] وحتى الشيعة ينكرون سماع الحسن من علي: فقد تتبع هاشم معروف الحسيني – في كتابه بين التصوف والتشيع – حياة الحسن وتنقلاته، ونفى لقاءه عليا رضي الله عنهما،[3]

---

١ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني حديث ١٠٦ صفحة ٢٥٢

٢ تمييز الطيب من الخبيث فيما اشتهر على ألسنة الناس من الحديث للشيباني حديث ١٠٦١ صفحة ١٤٥، وفي الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القاري صفحة ١١٨

٣ التصوف والتشيع لهاشم معروف الحسيني، صفحة ٤٨٦

وفي سير أعلام النبلاء يقول الذهبي: وروى الحسن بالإرسال عن طائفة كعلي، وأم سلمة، ولم يسمع منهما[١]، ويقول قتادة: ما شافه الحسن [أي لم يلق أو يسمع من] بدريا بحديث[٢].

٢. الخضر يُلْبِس ابن عربي الْخِرْقَة:

كثيرا ما يلجأ الصوفية إلى الخضر ﷺ لوضع تشريع جديد، أو لإدخال صفة الأسرار لأي بدعة يروجون لها، لذا لا يجد الشعراني مفرا من اللجوء للخضر، حيث يقول: "وَلَبِسَ [الخرقة] على هذا الشرط سيدي الشيخ محيي الدين بن عربي من الخضر ﷺ عند الحجر الأسود، وأخذ عليه العهد بالتسليم لمقامات المشايخ"[٣]. ويهدف الشعراني بهذه الحكاية إلى إثبات أمور عديدة منها:

- شرعية لبس الْخِرْقَة.
- حياة الخضر إلى زمان ابن عربي.
- علو مقام ابن عربي.
- والأهم من هذا في تصورنا هو: تحذير العامة من الاعتراض على المشايخ، لأنهم عازمون بطبيعة الحال على مخالفة الشرع في أغلب أمورهم، وينبغي إرهاب الناس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا الأسلوب ما زال هو الأسلوب المحبب عند المشايخ، فإذا خالفت بدعهم، وسقت لهم الدليل من كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، فإنهم يحذرون أتباعهم منك، ويتهمونك بالقراءة بدون إذن المشايخ، وبالتالي وقعت في الفتنة!

٣. الْخِرْقَة والزي الخاص للصوفية:

يشرح الشيخ زكريا الأنصاري في كتابه الفتوحات الإلهية: كيف يلقن الشيخ المريد، فيقول: إذا أراد الشيخ أن يأخذ العهد على المريد فليتطهر، ويأمره بالتطهر من الحدث

١ سير أعلام النبلاء، للذهبي ٤:٥٦٦

٢ سير أعلام النبلاء، للذهبي ٤:٥٦٧

٣ الطبقات الكبرى، للشعراني ٢:١٦٠

والخبث: ليصلح لقبول ما يلقيه عليه من الشروط في الطريق. ثم يستطرد الشيخ قائلا: ثم يضع الخِرْقَة للمريد بيده، ويقرأ الفاتحة عليها، ويدعو الله تعالى، ويُلبسها الشيخ بيده للمريد، قاصدا بذلك النيابة عن الله ورسوله، ثم يذكر له سبب لبسها، بخلاف التوبة والتلقين، فإن سببها يذكر قبلها"[1]. ومن المعلوم أن ارتباط الصوفية بالخرقة راجع إلى ما سبق أن أشرنا إليه من فعل علي بن أبي طالب مع الحسن البصري - بزعمهم -، وبرغم أن مسألة الخِرْقَة قد اختفت الآن من الطرق الصوفية إلا أن مكانتها كبيرة عندهم، لذا يقول السيد محمد توفيق البكري تحت عنوان فضيلة الخِرْقَة السمراء: "مما يدل على فضل الخِرْقَة السمراء والعَلَم الأسمر أنها شعار النبي ﷺ وصحابته... حدث جابر ﷺ، قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء". ثم يذكر الشيخ عددا من الأحاديث عن لون عمامة النبي ﷺ ورايته. ثم يذكر فضيلة الزي الأخضر، ويقول: ومما يدل على فضيلة هذا الزي ما رواه الحافظ الترمذي، عن أبي رمثة، قال: "رأيت النبي ﷺ، وعليه بردان أخضران"، ولا ينسى الشيخ أن يذكر فضيلة الزي الأحمر، فيقول: "ومما يدل على فضل الزي الأحمر، والخرقة الحمراء، ما روى جابر بن عبد الله ﷺ، أن النبي ﷺ كان له حمراء [أي حلة] يلبسها في الأعياد والجمع، وفي صحيح البخاري، عن البراء بن عازب ﷺ، قال: ".. ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ.

---

١ الفتوحات الإلهية في نفع أرواح الذوات الإنسانية لزكريا الأنصاري ٢٥

الفصل الثاني

ظاهرة الشطح ومراحلها

بدأ يظهر الشطح الصوفي: الذي يمكن شرح ظاهرة الشطح عند الصوفية، بأنها نتيجة مرور الصوفي بأربع مراحل هي:

أولا: الوجد.

ويُعرفه الصوفية بقولهم: "والوجد هو: ما صادف القلب من فزع، أو غم، أو رؤية معنى من أحوال الآخرة، أو كشف حالة بين العبد وبين الله ﷻ، قالوا: وهو سمع القلوب وأبصارها، فمن ضعف وجده تواجد، والتواجد ظهور ما يجد في باطنه على ظاهره، ومن قوي تمكن فسكن، قال النوري: الوجد لهيب ينشأ في الأسرار، ويسنح عن الشوق، فتضطرب الجوارح طربا، أو حزنا، عند ذلك الوارد، وقال بعضهم: الوجد بشارات الحق بالترقي إلى مقامات مشاهداته"[1].

ويقول أبو النصر السراج الطوسي[2] في كتابه الشهير "اللمع": "إن الوجد مكاشفات من الحق، ألا ترى أن أحدهم يكون ساكنا فيتحرك، ويظهر منه الزفير والشهيق؟ وقد يكون من هو أقوى منه ساكنا في وجده لا يظهر منه شيء من ذلك، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج- ٣٥]، وأول الوجد رفع الحجاب، ومشاهدة الرقيب، وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السر، وإيناس المفقود، وهو فناؤك أنت من حيث أنت، وقال أبو سعيد [الخراز] رحمه الله: الوجد أول درجات الخصوص، وهو ميراث التصديق بالغيب، فلما ذاقوها وسطع في قلوبهم نورها، زال عنهم كل شك وريب"[3]، ويقال أن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند ذكر الموت، وفرّق بعض المشايخ بين الوجد والتواجد

---

١ التعرف بمذهب أهل التصوف، لأبي بكر محمد الكلاباذي ١٣٤

٢ والطوسي يصفه فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق، أنه أعظم مؤرخ صوفي في تاريخنا قديمه وحديثه.

٣ اللمع لأبي النصر السراج الطوسي ٣٧٦

بقولهم: "التواجد من الوجد بمنزلة التباكي من البكاء"، ويروى عن سيد الطائفة الجنيد، قوله: لا يضر نقصان الوجد مع فضل[1] العلم، وفضل العلم أتم من فضل الوجد"[2]، ويقول القشيري: "الوجد يصادف قلبك ويَرِدُ عليك بلا تعمُّد وتكلف، ولهذا قال المشايخ: الوجد المصادفة، والمواجيد ثمرات الأوراد، فكل من ازدادت وظائفه [أي نوافله] ازدادت من الله تعالى لطائفه"، ويَنقل عن شيخه أبي علي الدقاق، قوله: الواردات من حيث الأوراد، فمن لا ورد له بظاهره، لا وارد له في سرائره"،[3] وقال عمرو بن عثمان المكي: "لا يقع على كيفية الوجد عبارة، لأنه سر الله تعالى عند المؤمنين الموقنين"[4].

وحكي عن سهل بن عبد الله التستري، أنه قال: "كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل"، ومن أهمية الوجد في الفكر الصوفي ألف فيه أبو سعيد أحمد بن بشر بن زياد الأعرابي كتابا سماه "الوجد"، وقد لخصه الطوسي في كتابه "اللمع".

ثانيا: الغلبة.

وهي حال يمر بها الصوفي إذا زاد عليه الوجد حتى يغلبه، ويعرفونه بقولهم: "والغلبة: حال تبدو للعبد لا يمكنه معها ملاحظة السبب، ولا مراعاة الأدب، ويكون مأخوذا عن تمييز ما يستقبله، فربما خرج إلى بعض ما ينكر عليه من لم يعرف حاله، ويرجع على نفسه صاحبه [أي صاحب الغلبة]، إذا سكنت غلبات ما يجده، ويكون الذي غلب عليه: خوف، أو هيبة، أو إجلال، أو حياء، أو بعض هذه الأحوال"[5].

ثالثا: السكر.

فإذا ازدادت غلبة الوجد على الصوفي وصل إلى حالة السكر، والسكر هو أن يغيب

---

١ الفضل: الزيادة.

٢ اللمع لأبي النصر السراج الطوسي ٣٨١

٣ الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم هوزان القشيري ٨٥

٤ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ٢٠٢

٥ التعرف بمذهب أهل التصوف، لأبي بكر محمد الكلاباذي ١٣٧

الصوفي عن تمييز الأشياء، وقد أطلق القشيري على السكر غيبة، حيث يقول: "فالغيبة، غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، لاشتغال الحس بما ورد عليه، ثم قد يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب"[١]. وكتب يحيى بن معاذ إلى أبي اليزيد، يقول: "سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته، فكتب أبو اليزيد في جوابه: سكرت وما شربت من الدُّرر، وغيري قد شرب بحور السموات والأرض، وما روي بعد، ولسانه مطروح من العطش، ويقول: هل من مزيد؟!"[٢]. وتعبير السكر يذكرنا بمن يشرب الخمر حتى يغيب عن وعيه وإدراكه، فالصوفي إذا غلبه الوجد غاب عن نفسه، وربما نطق بما يؤخذ عليه، وهو ما يسمى بالشطح.

رابعا: الشطح.

أن يتحدث الصوفي في حال سكره وغلبة الوجد عليه، ويعرف الصوفية الشطح بقولهم: "هو عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته، وهاج بشدة غليانه، وغلبته". وقالوا: "الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى، تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب، وهي من زلات المحققين، فإنه دعوى حق يفصح بها العارف، لكن من غير إذن إلهي"[٣]. بينما يعرف صوفي معاصر الشطح بقوله: "هو محاولة لوصف ما لا يوصف، والكلام في الشطح على السكر فلا يؤاخذ صاحبه. والشطح تعبير عن حالة اختلاط، لا يميز فيها صاحب الطريقة الحق من الخلق، ولا الباطن من الظاهر، ولا المسمى من حقيقة الأسماء، فالحق قريب إلى درجة أنه لم يعد ثمة ما يفصله عنه، وهو حقيقة كل سارٍ ومتحرك"[٤].

نلاحظ التدرج في تعريف الصوفية لمراحل الشطح، فهو يبدأ بالوجد، ثم الغلبة،

---

١ الرسالة القشيرية، لأبي القاسم عبد الكريم هوزان القشيري ٦٣

٢ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني ١٠:٤٠ – أبو اليزيد البسطامي ٤٥٨

٣ معجم مصطلحات الصوفية، د. عبد المنعم حفني ١٤٠، والجرجاني في التعريفات بند شطح

٤ النصوص في مصطلحات الصوفية، لمحمد غازي عرابي ١٧٥

فالسكر، وينتهي بالشطح الذي يصدر عن أهل المعرفة، وأن قولهم حق في ذاته، والخطأ فقط في الحديث عنه ونَقْلِهِ للناس، وفي نفس الوقت يعتبر من زلات المحققين، حيث أظهروه بدون إذن إلهي، وأن الشطح حالة اختلاط لا يميز فيها الصوفي بين الحق والخلق. ولا يكتمل الحديث عن الشطح دون الإشارة إلى فرسانه الأوائل، وأشهرهم البسطامي والحلاج.

خامسا: الشطح والبسطامي.

البسطامي هو: أبو اليزيد طيفور بن عيسى بن سروشان، كان جده مجوسيا فأسلم، ويترجم له السلمي في طبقات الصوفية، فيقول: "كان من الزهاد، والعباد، وأرباب الأحوال، وهو من أهل بسطام، [ت ٢٦١][1]، وأبو اليزيد البسطامي من الشخصيات التي اعتنقت مبدأ العشق الإلهي الذي بدأ ظهوره في القرن الثالث، وانتهى بمذهبي الاتحاد، ووحدة الأديان على يدي الحلاج، فسار البسطامي على طريق الزهد والتقشف الهنديين، وانتهى بقولته الشهيرة: "أنا هو وهو أنا". ومن أقواله: "غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره، وأعرفه، وأحبه، وأطلبه، فلما انتهيت [أي بعد وصوله]، رأيت ذكره سبق ذكري،، ومعرفته تقدمت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي أولا حتى طلبته"[2].

ويقدم البسطامي أشهر أمثلة الشطح في الفكر الصوفي، حيث يقول: "عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله، وسُمِع البسطامي يوما يقول: "يا رب أفهمني عنك، فإني لا أفهم عنك إلا بك"[3]. ويقول أيضا: "لم أزل أجول في ميدان التوحيد، حتى خرجت إلى دار التفريد، ثم لم أزل أجول في دار التفريد، حتى خرجت إلى الديمومية، فشربت بكأسه شربة، لا أظمأن من ذكره أبدا". وسُئِل أبا يزيد البسطامي يوما: "ما علامة العارف؟ فقال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل-٣٤]، وقال: عجبت لمن عرف الله كيف يعبده؟

---

١ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ٦٧

٢ طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ٧٢

٣ طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي ٧٢

وقيل له: إنك من الأبدال السبعة الذين هم أوتاد الأرض، فقال: أنا كل السبعة"[1]. وتجاوز البسطامي أقصى درجات الشطح، وبلغ اختلاطه منتهاه، حتى أنه لم يفرق بين الحق ﷻ ونفسه، فتراه يقول: "غبت عن الله ثلاثين سنة، وكانت غيبتي عنه ذكري إياه، فلما خنست عنه وجدته في كل حال حتى كأنه أنا"[2].

---

١ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني ١٠:٣٧

٢ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني ١٠:٣٥

الفصل الثالث

الفنـاء الصـوفي

جمع الله تبارك وتعالى بين لفظي الفناء والبقاء في الآية الكريمة من سورة الـرحمن ﴿كُـلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن٢٦-٢٧]

ودلالة الآية محكمة واضحة، لا يختلف الناس حول معناها، فالفناء فناء الخلق، والبقاء بقـاء الحق تعالى، فالله جل جلاله قضى من الأزل أن لمخلوقاته ابتداء، ولِآجَالِها انتهاء، ولا بد مـن ميلاد لجميـع الكائنـات حتـى الكواكـب والأجـرام السـماوية، ثـم لا بـد مـن مـوت جميـع المخلوقات ومنهم الملائكة المقربون، حتى ملـك المـوت الـذي وكلـه الله في قـبض الأرواح، يجري عليه الفناء، والله وحده هو الباقي قبل الأزل، وقبل دوران الأفلاك والأجـرام، وبـدء السنين والأيام، وهو سبحانه باقٍ بعد الأبد، وبعد فناء الأكوان.

ومن يؤمن بعلو الله ﷻ على خلقه، ويميز بين صفات الخالق، وصفات المخلوق يـدرك تماما أن البقاء نعت ملازم للربوبية، والفناء نعت ملازم لجميع المخلوقـات، ومـنهم الـبشر، ولكن الصوفية وقعـوا في الشـطح والاخـتلاط، ولم يفرقـوا بـين صـفات الخـالق وصـفات المخلوق، لذا نراهم اصـطلحوا عـلى معـان جديـدة للبقـاء، والفنـاء، والقـبض، والبسـط، والجمع، والفرق، وفرق الفرق، والصحو، والسكر، والغيبة، والمحـق، والـتجلي، والـتخلي، والمشاهدة، والمكاشفة، والسر، وسر السر، تلك المصطلحات، وغيرها التي تختلف تماما عـن القرآن والسنة.

وإذا أردنا أن نعرف: كيف؟ ومتى بدأت هـذه المفـاهيم في الإسـلام؟ وكيـف زحفـت لتحتل الصدارة في الفكر الصوفي؟ فالإجابة: إن "أول من تكلم في علم الفنـاء والبقـاء هـو: أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز [المتوفى سنة ٢٧٧ هـ]"[1]، الـذي يصـفه الصـوفية بقـولهم:

---

١ الطبقات الكبرى، لعبد الوهاب الشعراني ١:٧٨

"وهو سيد من تكلم في علم الفناء والبقاء"[١]. والفناء الذي يقصده أبو سعيد الخراز هو: "أول مقام لمن وجد علم التوحيد وتحقق به، فناء ذكر الأشياء عن قلبه، وانفراده بالله وحده"[٢]. ولما سئل عن علامة الفاني أجاب أبو سعيد الخراز بقوله: من علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى، ثم يبدو له الآيات من قدرة الله تعالى، فيريه ذهاب حظه، ومن رؤية حظه، ويبقى عليه ما كان لله ﷻ"[٣]، ويعرف الخراز أول حال الفناء، فيقول في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهَ ﴾ [النحل-٥٣]، فيقول: أخلاهم في أفعالهم من أفعالهم، وهو أول حال الفناء"[٤]

وتعليقنا على قول الخراز، أن التوحيد في الفهم الصوفي أصبح لغزا لا يعرفه عامة المسلمين؛ لأنهم لم يفنوا عن أنفسهم، أما أهل الخصوص الواصلون إلى مقام الفناء – حسب زعمهم – فهم الموحدون الذين انفردوا بالله وحده، وسُئل أبو الحسين النوري عن الفناء، فقال: "والذي نفسي بيده، إنه لأول مقام من مقام التصوف"، وهكذا أصبحت كلمة الفناء أول مقام في التصوف، ويقول السهروردي: "أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرة، فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات، وبقاء الموافقات، وهذا تقتضيه التوبة النصوح، وبعضها إشارة إلى زوال الرغبة، والحرص، والأمل، وهذا تقتضيه تزكية النفس، وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق، وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه، ولكن الفناء المطلق هو ما يستولي من أمر الحق ﷻ على العبد، فيغلب كون الحق سبحانه على كون العبد، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر، وفناء باطن، فالفناء الظاهر هو أن يتجلى الحق ﷻ بطريق الأفعال، ويسلب عن العبد اختياره وإرادته، فلا يرى لنفسه ولا لغيره، إلا بالحق سبحانه، ثم يأخذ في المعاملة مع الله ﷻ بحسبه، حتى سمعت أن بعض من أُقيم في هذا المقام من الفناء كان يبقى أياما لا

١ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني ١٠: ٢٤٦، ترجمة رقم ٥٦٩

٢ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني ١٠: ٢٤٦، ترجمة رقم ٥٦٩

٣ تهذيب الأسرار لعبد الملك النيسابوري الخركوشي ٣٨٤

٤ تهذيب الأسرار لعبد الملك النيسابوري الخركوشي ٣٨٥

يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق تعالى فيه، ويقيض الله سبحانه له من يُطعمه ويسقيه، كيف شاء وأحب، وهذا لعمري فناء لأنه فني عن نفسه، وعن الغير نظرا إلى فعل الله بفناء فعل غير الله ﷻ. والفناء الباطن: أن يُكَاشَف تارة بالصفات، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات، فيستولي على باطنه أمر الحق تعالى حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس" [١]، ويعرف الصوفية الفناء بقولهم:

- الفناء: "تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات، فكلما ارتفعت صفة [بشرية] قامت [صفة] إلهية مقامها، فيكون الحق سمعه وبصره كما نطق به الحديث". فكأن الفناء الصوفي بهذا التعريف هو نوع من حلول الصفات الإلهية محل صفات العبد البشرية
- الفناء: "من استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينا، ولا أثرا، ولا رسما، ولا طللا" [٢].
- الفناء: "أن لا ترى شيئا إلا الله، ولا تعلم إلا الله، وتكون ناسيا لنفسك، ولكل الأشياء سوى الله، فعند ذلك يتراءى لك أنه الرب، إذ لا ترى، ولا تعلم شيئا إلا هو، فتعتقد أنه لا شيء إلا هو، فتظن أنك هو، فتقول أنا الحق، وتقول ليس في الدار إلا الله، وليس في الوجود إلا الله"، [٣] بينما يعرف محمد غازي عرابي الفناء بقوله:
- الفناء: "سقوط الأوصاف الذميمة، والبقاء عكسه، وهو ثبوت النعوت المحمودة".
- الفناء: "هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل، فجعله دكا، وخر موسى صعقا". ويعرف أبو القاسم القشيري في رسالته

١ نقلا عن نشر المحاسن الغالية المعروف بكفاية المعتقد ونكاية المنتقد لليافعي ٢٠٩

٢ نقلا عن نشر المحاسن الغالية المعروف بكفاية المعتقد ونكاية المنتقد، لليافعي

٣ معجم مصطلحات الصوفية، د. عبد المنعم الحفني ٢٠٨

الفناء بقوله:

- الفناء: "هو الغياب في الأوقيانوس الأعظم.. وقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى-٦]، فاليتم [عنده]: موت كل علاقة للعارف بمن حوله، وانقطاع حباله من الزمان والمكان، والأيس والليس، أما الإيواء: فعودة إلى نجدة الفاني الذي غاص في بحر الوجود، قال العارف بالله أرسلان الدمشقي: ما صلحت لنا وفيك بقية لسوانا، فإذا حولت السوى أفنيناك عنك، فصلحت لنا فأودعناك سرنا"[١].

ومن الغريب أن لا يستدل الصوفية على أقوالهم بآيات من كتاب الله ﷻ، أو أحاديث شريفة من المصادر الصحاح، وإنما دليلهم وحجتهم أحوال الحلاج، وأمثاله التي سنناقش في كتابنا هذا دورها في انحراف الفكر الصوفي وحيوده عن حقائق الدين، ثم ألا يجد محمد غازي في دين الإسلام، أو حتى في مفردات اللغة العربية، كلمة تعبر عن مفهوم الفناء حتى يطلع علينا بالأوقيانوس الأعظم الذي لا يعرفه أحد من المسلمين، **إن غموض الألفاظ مقصود في هذا المقام**، فلو صرح الرجل بعقيدته لأفشى أسرار القوم، ولاتضح أنه يرمز إلى فناء العبد في الله، وهو يعرف أن ما يعنيه ليس إلا الاتحاد مع الله، ولما كانت الضرورات تبيح المحظورات فهو مضطر للتعامل مع الأوقيانوس حتى ولو كان الأعظم!!

١ النصوص في مصطلحات الصوفية لمحمد غازي عرابي ٢٥٩

الفصل الرابع

نتائج ظاهرة الشطح

أدت هذه الأقوال إلى ظهور أحوال ومقامات صوفية، عبّروا عنها بمصطلحات خاصة بهم لا يتسع المجال لبحثها، مثل: الغيبة، والحضور، والجمع، والفرق، وجمع الجمع، وفرق الفرق، وعين الجمع، ثم راح الصوفية يحثون أتباعهم على التواجد، ويقولون لهم: إن التواجد من الوجد بمنزلة التباكي من البكاء، وأن السماع طريق لحصول التواجد، حتى أن الطوسي أفرد للسماع جزءا من كتابه "اللمع" أسماه كتاب السماع. وقد انقسمت الصوفية – فيما يخص الشطح – إلى ثلاث فرق:

١. **الفرقة الأولى**: انضمت إلى علماء أهل السنة المعاصرين لهم، في إنكار هذه الدعاوى وتلك الشطحات، ومنهم سيد الطائفة الجنيد كما تسميه الصوفية، ومنهم أبو سليمان الدارني [توفي ٢١٥ هـ] الذي يقول: "ربما وقعت النكتة من كلام القوم في قلبي، فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة: لأن الله ﷻ ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي فيما سوى ذلك".

٢. **الفرقة الثانية**: حاولت تأويل الشطحات، وإيجاد معاني شرعية لها، وقد جانبهم التوفيق غالبا.

٣. **الفرقة الثالثة**: اعتذرت عن أهل الشطح، ورأت في أقوالهم أحوال سكر ومذاقات للعارفين، هي حق في ذاتها، ولكنها قيلت بدون إذن إلهي، فأدت إلى هذا اللبس، وذاك الغموض، ولا لوم على قائليها لغلبة الحال عليهم.

٤. وتعليقنا أن هذه الآراء، وأمثالها أعطت العذر، وقدمت المبرر لمن أراد الخروج على الشريعة، وبالتالي فتحت باب الزعم بوجود ما يسمى الطريقة والحقيقة، وأن الشريعة هي علم الظاهر، وأن الحقيقة هي علم الباطن.

وهذه التفسيرات هي الخطوات الأولى التي وصلت بالتصوف إلى النتائج التالية:

١. تعطيل الصوفية لاستخدام ميزان الشريعة على هذه الأقوال، وحجتهم أنهم كيف ينكرون على من وصل إلى مقامات الوجد والسكر وهذه أحوال أهل المعرفة والتحقيق..

٢. الميل إلى الأفكار الباطنية والإقرار بأن الحقائق تخالف الشريعة، أو فيما يبدو لعامة الناس على الأقل.

٣. ظهور أقوال يتجرأ أصحابها بنسبتها إلى الله ﷻ، ويزعمون الحديث نيابة عنه سبحانه، وبذلك أصبح العارفون بالله عندهم، يتلقون مباشرة الإلهام والفتوحات، عن الله ﷻ.

٤. إن الشطح في حد ذاته لم يكن نهاية المطاف، وإنما كان مرحلة أدّت بشكل تلقائي إلى مرحلة القول بالفناء والبقاء.

٥. يمزج الفناء بين صفات الخالق والمخلوق، ويسمح بحلول صفات الرب محل صفات العبد، وهو الأمر الذي مهد بقوة للقول بوحدة الوجود، التي ليس لها غاية سوى هدم القول بوجود الخالق بائن عن خلقه، وهذا ما سنناقشه لاحقا إن كان في العمر بقية، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

الفصل الخامس

الحلاج درويش صوفي
أم
باطني خبيث؟

١. الحلاج والباطنية.
٢. الإيمان والكفر عند الحلاج.
٣. دفاع الحلاج عن إبليس.
٤. الحلاج والنور المحمدي.
٥. اعتذار الصوفية عن الحلاج.
٦. خلاصة الرأي في الحلاج.

الفصل الخامس

الحلاج درويش صوفي أم باطني خبيث؟

وصلنا الآن إلى منعطف خطير وظاهرة جلية من ظواهر التصوف اختلف الناس حولها اختلافا كبيرا، ألا وهي الحلاج، وما يعنينا من أمره هو: اقتفاء أثره لبيان دوره في انحراف التصوف، ونتبين ذلك حين نقرأ ترجمة الحافظ ابن كثير للحلاج والتي بدأها بقوله:[1] "ونحن نعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يكن قاله، أو نتحمل عليه في أقواله وأفعاله، فنقول: هو الحسين بن منصور بن محمي الحلاج، أبو مغيث، ويقال: أبو عبد الله، كان جده مجوسيا اسمه محمي من أهل فارس من بلدة يقال لها: البيضاء، ونشأ بواسط، ويقال: بتستر، ودخل بغداد، وتردد على مكة، وجاور بها في وسط المسجد في البرد والحر، مكث على ذلك سنوات متفرقة، وكان يصابر نفسه ويجاهدها، ولا يأكل إلا بعض قرص، ويشرب قليلا من الماء معه وقت الفطور مدة سنة كاملة، وكان يجلس على صخرة في شدة الحر في جبل أبي قبيس. وقد صحب جماعة من سادات المشايخ الصوفية: كالجنيد بن محمد، وعمرو بن عثمان المكي، وأبي الحسين النوري، قال الخطيب البغدادي: والصوفية مختلفون فيه، فأكثرهم نفوا أن يكون الحلاج منهم، وأبى أن يعِدَّه فيهم، وقَبِلَهُ من متقدميهم: أبو العباس بن عطاء البغدادي، ومحمد بن خفيف الشيرازي، وإبراهيم بن محمد النصراباذي، وصححوا له حاله، ودونوا كلامه، حتى قال ابن الخفيف: الحسين بن منصور [الحلاج] عالم رباني، وقال إبراهيم النصراباذي: إن كان بعد النبيين والصديقين موحد، فهو الحلاج، وسُمع الشبلي يقول: كنت أنا والحلاج شيئا واحدا، إلا أنه أظهر وكتمت. كما صح أنه دخل الهند، وتعلم بها السحر، وقال: أدعو به إلى الله، وكان أهل الهند يكاتبونه بالمغيث، ويكاتبه أهل سركستان بالمقيت، ويكاتبه أهل خراسان بالمميز، وأهل فارس بأبي عبد الله الزاهد، وأهل خوزستان بأبي عبد الله الزاهد

---

١ البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير ١١: ١٤١، وطبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي، ترجمة رقم ١٣، صفحة ٣٠٧، المنتظم في تاريخ الأمم ١٣: ٢٠١، ترجمة رقم ٢١٧٩

حلاج الأسرار".

ويروي ابن الجوزي في المنتظم وابن كثير في البداية والنهاية كثير من حيل الحلاج، وسحره، وشعبذته، فقد كان داهية واسع الحيلة، ومبتدعا خطيرا أثرت مزاعمه في مجتمعه، وأحدثت فتنا هائلة، ويشرح الشعراني أحوال الحلاج بقوله: "إن عمرو بن عثمان المكي رأى الحسين الحلاج يوما، وهو يكتب شيئا، فقال: ما هذا؟ فقال الحلاج: أعارض القرآن [أي يكتب كالقرآن]، فدعا عليه وهجره، قال الشيوخ: فالذي أصاب الحلاج، وحل به من البلاء كان من ذلك الدعاء"[1]، وقُتل حسينٌ الحلاجُ بدعوة عمرو بن عثمان المكي، وذلك أنه كان عنده جزء فيه علوم الخاصة من القوم، فأخذه الحسين، فقال عمرو: من أخذ هذا الكتاب قطعت يداه ورجلاه، فكان كذلك، وإنما كان القول بتكفيره تسترا على دعوة عمرو"،[2] ويشرح الشعراني كيف قُتل الحلاج، فيقول: "فأُمِر بالحلاج وضرب ألف سوط، فلم يتأوه، وقطعت يداه ورجلاه، وصلب، ثم أحرق بالنار، ووقع الاختلاف فيه بين الناس أهو الذي صُلب أم رُفع؟ كما وقع في عيسى ابن مريم ﷺ"،[3] وهكذا جاءت نهايته [سنة ٣٠٠ هـ]، حيث قُبض عليه، ونودي عليه: هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه، ثم حُبس فضُرب ألف سوط، ثم قطُعت يده ثم رجله، وحُز رأسه، وأحُرقت جثته، فاستراح الناس من فساده، وتمنوا أن تدفن معه أفكاره، ولكن شاءت إرادة الله تعالى أن تبقى أفكاره فتنة للناس، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة، قال تعالى على لسان موسى الكليم عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف-١٥٥].

١ الطبقات الكبري لعبد الوهاب الشعراني ١:٧٦

٢ الطبقات الكبري لعبد الوهاب الشعراني ١:١٣

٣ الطبقات الكبري لعبد الوهاب الشعراني ١:١٥

أولا: الحلاج والباطنية.

إن من الأخبار المنقولة عن الحلاج، ما يؤكد العلاقة الوثيقة بينه وبين الباطنية، لذا تـراه يدعو إلى أنواع جديدة من العبادات، يهدم بها أركان الإسلام، ومن العبادات التي دعا إليهـا الحلاج: "إذا صام الإنسان ثلاثة أيـام بلياليهـا، ولم يفطـر، وأخـذ في اليـوم الرابـع ورقـات هندباء، وأفطر عليها، أغناه الله عن صوم رمضان، وإذا صلى في ليلة واحدة ركعتين مـن أول الليل إلى الغداء أغنته عن الصلاة بعد ذلك"[1] كما أعلن عن فكرة الحج بالهمة، حيث يكفـي المرء أن يعقد نيته، ويستجمع همته، فينال ثواب الحج دون أن يرهق نفسـه بالسـفر، وانتقـال الأجسام إلى البلد الحرام. ويقول الحلاج: "إذا بنى بيتا وصام أياما، ثم طاف حولـه عريانـا، أغناه عن الحج"[2]. وكان الحلاج من أوائل دعاة الباطنية في التدرج بالـدعوة مـن درجـة إلى أخرى، واستخدام الرمز في خطاب الأتباع، فتراه يحدد أسلوبه في دعوة النـاس عـن طريـق: "نقلهم من حال إلى حال أخرى، ومرتبة إلى مرتبة حتى يبلغوا الغاية القصوى، وأن يخـاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم، وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم"[3].

دفـاع الحـلاج عن إبليس:

يتحدث الحلاج عن شيخه إبليس بحب شديد، وإعجاب مفُرط، وامتنـان عظـيم فهـو يراه الموحد الحقيقي في هذا الكون، ويعترف بفضله قائلا:

١. "ما صحت الدعاوى لأحـد إلا إبلـيس، وأحمـد ﷺ كشـف لـه عـين العـين، قيـل لإبليس: اسجد ولأحمد: انظر، هذا ما سجد، وأحمد مـا نظـر مـا التفـت يمينـا ولا شمالا، ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾. [النجم-١٧].

يقول الحلاج: "التقى موسى بن عمران وإبليس على عقبـة الطـور، فقـال لـه: يـا إبليس ما منعك عن السجود؟ فقال: منعني الدعوى بمعبود واحد، ولو سـجدت

---

١ أورده ابن مسكويه في تجارب الأمم ١: ٨١، وابن الجوزي في المنتظم في تاريخ الأمم ٦:١٦٣

٢ ابن تيمية، والتصوف للدكتور مصطفي حلمي ٢٤٤

٣ ابن مسكويه في تجارب الأمم.

له لكنت مثلك، فأنت نوديت مرة واحدة انظر إلى الجبل، فنظرت، ونوديت أنا ألف مرة أن اسجد فما سجدت لدعواي بمعناي"[1].

٢. ومن شطحات الحلاج العجيبة، أنه قال: "وما كان في أهل السماء مُوَحِد مثل إبليس"[2].

٣. يعترف الحلاج بفضل إبليس عليه، فيقول: "فصاحبي، وأستاذي إبليس، وفرعون: إبليس هُدد بالنار، وما رجع عن دعواه، وفرعون أغرق في اليم، وما رجع عن دعواه، ولم يقر بالواسطة البتة، وإن قُتلت، أو صلبت، أو قطعت يداي ورجلاي ما رجعت عن دعواي"[3].

ثانيا: الإيمان والكفر عند الحلاج.

يعرفنا الحلاج حقيقة الإيمان، وماهية الكفر عنده، من خلال مجموعة من أقواله نختارها من كتبه:

١. يروى عن عبد الودود بن سعيد الزاهد، قال: "دخلت على الحلاج، فقلت له: دلني على التوحيد؟ فقال: التوحيد خارج عن الكلمة حتى يعبر عنه، قلت: فما معنى لا إله إلا الله؟ قال: كلمة شغل بها العامة: لئلا يختلطوا بأهل التوحيد، وهذا شرح التوحيد من وراء الشرح، ثم احمرت وجنتاه، وقال: أقول لك مجملا؟ قلت: بلى، قال: من زعم أنه يوحد الله فقد أشرك"[4].

٢. يقول ابن أخت الحلاج: "رأيت بخط خالي: من فرق بين الكفر والإيمان فقد كفر، ومن لم يفرق بين الكافر والمؤمن فقد كفر"[5].

---

١ طواسين الحلاج ٩٧

٢ طواسين الحلاج ٤٢

٣ طواسين الحلاج ٥١، ٥٢

٤ طواسين الحلاج ٥٦

٥ طواسين الحلاج ٥٦

٣. يقول في موضع آخر من طواسينه: "الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم، وأما من حيث الحقيقة فلا فرق بينهما"[١].

٤. قال الحلاج: "حجبهم بالاسم فعاشوا، ولو أبرز لهم علوم القدرة لطاشوا، ولو كشف لهم الحجاب عن الحقيقة لماتوا"[٢].

٥. يروي أبو نصر بن قاسم البيضاوي، أنه رأى رقعة بخط الحلاج عند بعض تلامذته مكتوب فيها: "اعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة، ما لم يصل إلى مواقف التوحيد، فإن وصل إليها سقطت من عينه الشريعة، واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق، فإذا ترادفت عليه اللوائح، وتتابعت عليه الطوالع، صار التوحيد عنده زندقة، والشريعة عنده هوسا، فبقي بلا عين ولا أثر، وإن استعمل الشريعة استعملها رسما، وإن نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهرا"[٣].

٦. كتب الحلاج لأحد تلامذته، فقال: "السلام عليك يا ولدي، ستر الله عنك ظاهر الشريعة، وكشف لك حقيقة الكفر، فإن ظاهر الشريعة كفر محض، وحقيقة الكفر معرفة جلية"[٤].

٧. يعتقد الحلاج في وحدة الأديان، فتراه يقول يوما لعبد الله بن طاهر الأزدي: "الأديان كلها لله ﷻ شغل بكل دين طائفة، لا اختيارا منهم، بل اختيارا عنهم، فمن لام أحدا ببطلان ما هو عليه، فقد حكم أنه اختار ذلك لنفسه، [هذا مذهب القدرية، والقدرية مجوس الأمة]، واعلم أن اليهودية والنصرانية، والإسلام، وغير

---

١ طواسين الحلاج ٤٦

٢ طبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي ٣٠٩

٣ طواسين الحلاج ٥٥

٤ طواسين الحلاج ٥٦

ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة، وأسام متغايرة، والمقصود منها لا يتغير، ولا يختلف"[١]

٨. يقول الحلاج: "إنني أُنْكِرُ دين الله فهذا فرضٌ عليّ، وأما إنكار العامة له فخطيئة".

ثالثا: الحلاج والحلول.

غالبا ما يبدأ الانحراف بالقول بالفناء والبقاء، فقد خطب الحلاج يوما في جامع المنصور، فقال: " أيها الناس إذا استولى الحق على عبد أخلاه من غيره، وإذا لازم أحدا أفناه عمن سواه، وإذا أحب عبدا حث عباده بالعدوان عليه"، حتى يتقرب العبد مقبلا عليه، وقال العطار: قلت: ها أنا ذا قد فنيت، قال: [أي الله ﷻ] كذلك منحتك البقاء، حين ترى نفسك عدما أهبك وجودا لا يتصور"[٢]، ثم يتطور الفناء إلى الشطط، فقد قال الحلاج: ليس يتركني [يعني الله] ونفسي فَأَنسى، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها، وهذا دلال لا أطيقه، وأنشد قائلا:

هويت بكلي كل كلك يا قدسي   تكاشفني حتى كأنك في نفسي

ثم يصرح الحلاج باعتقاده في حلول الإله فيه، فيقول:

١. "أرى ربي بعين قلبي، فأقول له: من أنت؟ فيقول لي: أنت!"

٢. ومن كلام الحلاج: "والحقيقة خليقة، دعِ الخليقة لتكون أنت هو، أو هو أنت من حيث الحقيقة"[٣].

٣. ويقول نظما:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

٤. ويوجز الحلاج عقيدته في بيت من الشعر، يقول فيه:

---

١ طواسين الحلاج ٥٤

٢ النصوص في مصطلحات الصوفية لمحمد غازي عرابي ٢٥٨

٣ طواسين الحلاج ٢٣

أنا الحق والحق حق لابس ذاته فما ثَمَّ فرق

٥. وقيل قُتل [الحلاج] لقوله: "من هذب في الطاعة جسمه، وملك نفسه، ارتقى به إلى مقام المقربين، فإذا لم يبقَ فيه من البشرية نصيب حل فيه روح الله الذي كان منه ابن مريم"[١].

٦. وينسب للحلاج قوله شعرا[٢]:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهرا في صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

رابعا: الحلاج والشيعة، والنور المحمدي.

ولا شك أن الرجل كان يؤمن برجعة أئمة الشيعة، لذا فلا غرابة أن يقال عنه: "كان الحلاج شيعيا متطرفا، ولذلك نراه يدعي لنفسه أنه المهدي المنتظر، فقد صرح عند مقتله قائلا: "سأعود إليكم بعد أربعين يوما"[٣]، يضيف الحلاج إلى شطحاته، وتجاوزاته الخطيرة بعدا جديدا حين ينقل إلى أهل السنة مفاهيم الشيعة حول قِدَمِ نور النبي ﷺ والأئمة، ولكنه لا يستطيع أن يصرح بقِدَمِ نور الأئمة فقط، وإلا عُرِفَ مذهبه الخبيث، لذا تراه يكتفي بزعم قِدَمِ نور النبي محمد ﷺ، فيقول: "إن نور محمد أشرق قبل أن يكون الخلق، ومنه استمد الأنبياء هديهم، والأولياء معارفهم، لتجليه على مر الأيام فيهم، وهذا النور القديم كما هو مصدر هداية هو مصدر خلق، فمنه كانت الأكوان، ولولاه لما كان وجود"، ويستطرد قائلا: "أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الأنوار نور أنور، وأظهر، وأقدم سوى نور صاحب الكرم، همته سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم، واسمه

١ الصوفية في نظر الإسلام ٣٢٣

٢ المنتظم في تاريخ الأمم، لابن الجوزي ١٣: ٢٠٤

٣ الآثار الباقية، للبيروني ٢١١

سبق القلم، لأنه كان قبل الأمم"[1].

إن الحلاج حين ينادي بين الصوفية من أهل السنة بهذه النظرية القديمة التي مزجت الفلسفات اليونانية والنظرة المسيحية للابن، والمزاعم الشيعية عن الإمام، **هو في الواقع يمثل جسرا عبرت عليه كل الأفكار الهدامة**، كالآفات تهاجم رياض إيمان أهل السنة، ولم يتأثر بالحلاج إلا الفكر الصوفي، فقد تطورت نظريته على يدي ابن عربي شيخ الصوفية الأكبر الذي صاغها في نظرية وحدة الوجود، ووضع لمساتها النهائية من بعده عبد الكريم الجيلي في الإنسان الكامل، وسنعرض في الحلقات التالية بتوفيق الله تعالى لدور كل منهما.

خامسا: اعتذار الصوفية عن الحلاج.

ترجم أبو عبد الرحمن السلمي للحلاج في طبقات الصوفية، فقال: "إن المشايخ في أمره مختلفون، رده أكثر المشايخ، ونفوه، وأبوا أن يكون له قدم في التصوف، وقبله بعضهم، وأثنوا عليه، وصححوا له حاله، وحكوا عنه كلامه، وجعلوه أحد المحققين، حتى قال محمد بن خفيف: "الحسين بن منصور الحلاج عالم رباني". إلا أن الرجل يُعَد من كبار الباطنية الذين قاموا بدور متميز في نشر أفكار الباطنية، ومن كبار دعاة الاستغراق في العشق الإلهي الذي كان شائعا في القرن الثالث الهجري، وترك وراءه عددا كبيرا من الناس يحسبونه صوفيا فانيا غارقا في مقامات السكر والغلبة، وقد بلغ الحلاج والبسطامي حدا لا يبارى في أقوال الشطح وأحوال السكر والفناء، فمقولة الحلاج: أنا الحق، أو: "ما في الجبة إلا الله"، وما يحكى عن أبي اليزيد، أنه قال: "سبحاني"، لا تجد عند الصوفية تفسيرا إلا أنها أحوال سكر، ووجد، وغيبة لا يؤاخذ قائلها.

سادسا: خلاصة الرأي في الحلاج.

يختلف الناس حول الحلاج اختلافا شديدا، فمن أقام عليه الحد من علماء زمانه حكموا عليه بميزان الشرع الحكيم، واقتصوا منه القصاص الذي يشفي قلوب عباد الله المخلصين، ولم يعتمد هؤلاء على أقوال مفتراة على الرجل، وقد بذلوا جهودهم في استتابته، وبحثوا سبل

---

١ طواسين الحلاج ٨٣

الاعتذار عن أقواله، فأبى الحلاج واستكبر، وظل على ضلاله القديم، فحذروا الناس من شره، وأقاموا عليه حد ربه، ومن أوجز ما يُروى عن الحلاج قول أبي بكر الصولي: "قد رأيت الحلاج وجالسته، فرأيت جاهلا يتعاقل، وغبيا يتبالغ، وفاجرا يتزهد، وكان ظاهره أنه ناسك صوفي، فإذا علم أن أهل البلدة يرون [أي يعتقدون] الاعتزال صار معتزلا، أو يرون الإمام صار إماميا، وأراهم أن عنده علما من إمامتهم، أو رأى أهل السنة صار سنيا، وكان خفيف الحركة مشعبذا، قد عالج الطب، وجرب الكيمياء. وكان مع جهله خبيثا"[1].

فالحلاج في حقيقة الأمر داعية للباطنية، أظهر العديد من الأفكار، وخلط مجموعة من المفاهيم، وأحسن الظن به جماعة من السذج والغافلين، وسار خلفه أتباع كثيرون. يقول الدكتور حسن عباس زكي في كتابه مذاقات في عالم التصوف: "رأى أحد الأولياء روح الحلاج في عليين في مقام عالٍ، فتوجه إلى الله تعالى، وقال: يا الله ما هذا الحال ؟ فرعون قال: "أنا ربكم الأعلى"، وقال الحلاج: أنا الحق، فكلاهما ادعى الألوهية، والآن روح الحلاج في عليين، وروح فرعون في سجيين، فما الحكم في ذلك، فناداني في سري: فرعون رأى نفسه ونسيني، والحلاج رآني ونسي نفسه، انظر الفرق بينهما". [2]

انظر كيف يسوق الدكتور حسن رؤيا يحاول يتجاهل بها ما فعله الحلاج وحكم علماء الأمة على أحواله.

---

١ المنتظم في تاريخ الأمم، لابن الجوزي ١٣: ٢٠٤

٢ مذاقات في عالم التصوف، الدكتور حسن عباس زكي ص ٩٣

الفصل السادس

محاولات الصوفية تصحيح مفهوم الفناء

عندما ابتدع الصوفية مصطلحات جديدة كالفناء، والبقاء، والشطح، وغير ذلك، كانوا في نفس الوقت يبتعدون عن الكتاب والسنة، ولذلك سموا أنفسهم بالخاصة، وباقي المسلمين بالعامة، ولم يسكت العلماء عامة، وبعض كبار التصوف خاصة، ونرصد محاولاتهم الأولى لتصحيح مسار التصوف منهم:

أولا: السراج الطوسي.

ظهر الطوسي في مطلع القرن الرابع الهجري تقريبا، وأخرج كتابه "اللمع"، وأفرد فيه بابا سماه: " أغاليط الصوفية"، واعترض فيه على القول بالفناء بقوله: "والذي أشار إلى الفناء، أراد به فناء رؤية الأعمال والطاعات، ببقاء رؤيا العبد لقيام الحق للعبد بذلك، وكذلك فناء الجهل بالعلم، وفناء الغفلة بالذكر، وفناء البشرية بالبشرية صفة من صفات البشرية، والذي يتوهم أنه ذهاب النفس، وزوال التلوين عن العبد وقتا دون وقت، وذهاب البشرية فقد غلط وجهل عن وصف البشرية".

ثم يناقش الأقوال التي انتشرت عن الفناء، فيقول: "وقد غلط جماعة من البغداديين في قولهم: إنهم عند فنائهم عن أوصافهم دخلوا في أوصاف الحق، وقد أضافوا أنفسهم بجهلهم إلى معنى يؤديهم ذلك إلى الحلول، أو إلى مقالة النصارى في المسيح عليه السلام، ولم يدرك القائلون بالفناء الذي هو فناء صفات البشرية، أن البشرية لا تزول عن البشر، وهم لا يفرّقون بين البشرية وأخلاق البشرية، فالأخلاق تتبدل وتتغير بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق، وصفات البشرية وأخلاقها إذا تغيرت فليست هي عين البشرية". ثم يوضح الطوسي موضع الخطأ في حديث أهل الشطح عن الفناء، فيقول: "وأما الذين غلطوا في معنى الفناء، إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم، حين ظنوا أن أوصاف الحق هي الحق، وهذا كله كفر، لأن الله تعالى لا يحل في القلوب، ولكن يحل في القلوب الإيمان به، والتوحيد له، والتعظيم لذكره، بمعاني التحقيق والتصديق". ويزيد الأمر بيانا حين يقول: "فمنهم من ترك الطعام والشراب، وتوهم أن البشرية هي القالب، والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها، فيجوز أن

يكون موصوفا بصفات الإلهية، ولم تحسن هذه الفرقة الجاهلة الضالة أن تفرق بين البشرية وأخلاق البشرية، لأن البشرية لا تزول عن البشر، كما أن لون السواد لا يزول عن الأسود، ولا لون البياض عن الأبيض، وأخلاق البشرية تُبدل وتُغير بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق، وصفات البشرية ليست هي عين البشرية، ويؤكد الطوسي العلاقة بين الفناء والحلول حين يقول: "والذي غلط في الحلول، غلط لأنه لم يحسن أن يميز بين أوصاف الحق، وبين أوصاف الخلق، لأن الله تعالى لا يحل في القلوب، وإنما يحل في القلوب الإيمان به، والتصديق له، والتوحيد والمعرفة، وهذه أوصاف مصنوعاته من جهة صنع الله بهم، لا هو بذاته أو صفاته يحل فيهم، تعالى الله ﷻ عن ذلك علوا كبيرا". ولا شك أن الطوسي بموقفه هذا قد وضع يده على قضية هامة، ولم يخطر بباله ما سيخترعه ابن عربي بعد ذلك، ثم تأخذ به الطرق الصوفية من بعده وتسير على نهجه، حين يرى أن وجود الخلق هو ذاته وجود الخالق.

ثانيا: الكلاباذي.

ينضم الكلاباذي إلى قائمة المعترضين على انحراف التصوف، محاولا توجيه التصوف إلى الكتاب والسنة، والابتعاد عن الشطح والأحوال التي أوصلت التصوف إلى اعتناق كثير من أفكار فرق الباطنية، وقد قَدَّم الكلاباذي كتابا أسماه "التعرف لمذهب أهل التصوف" يعد من أقدم، وأدق، وأنقى، وأصفى ما كُتب عن التصوف ورجاله، حتى قال قُدامى الصوفية: "لولا التعرف لما عُرف التصوف"، فنراه يصحح مفهوم الفناء بقوله: "فالفناء هو أن يفنى عن الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز، فناء عن الأشياء كلها شُغلا بما فني به، كما قال عامر بن عبد الله: "ما أبالي امرأة رأيت أم حائطا"، والبقاء الذي يعقبه هو أن يفنى عما له ويبقى بما لله"، ويعرف البقاء الصوفي بقوله: "هو أن تصير الأشياء كلها شيئا واحدا، فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته، فتكون فانيا عن المخالفات، باقيا في الموافقات، فيكون ما نُهي عنه كما أُمر به، ولكن لا معنى: أن لا يجري عليه إلا ما أمر به وما يرضاه الله تعالى، دون ما يكره، ويفعل ما يفعل لله لا حظ له فيه في عاجل أو آجل". فالفناء كما يراه الكلاباذي: فناء في طاعة الله تبارك وتعالى والابتعاد عن معصيته، والبقاء في مرضاته والالتزام بحدوده، وليس في هذا الفهم أدنى شبهة، بل نراه يحاول تصحيح مفاهيم الفناء التي ابتدعها الحلاج وغيره من زعماء الشطط والزيغ.

ملخص الباب الأول

- تتبعنا مراحل انحراف التصوف من الناحية التاريخية ثم من الناحية الفكرية، ورصدنا تطوره، ونود قبل أن نتناول دور ابن عربي، وابن سبعين، والجيلي .
- لم تظهر للتصوف أي إشارة في القرن الثاني الهجري فيما تركه لنا السلف الصالح من كتب ومصادر، وقد بدأ التصوف مع بداية القرن الثالث الهجري بإقبال بعض العباد على الزهادة، واعتزال الدنيا، والانقطاع للطاعات، وعبادة الله سبحانه.
- ظهر بعد ذلك القول بالوجد، وهو حال يفسره الصوفية بما يصادف القلب من أحوال الآخرة، أو رفع الحجاب كما يحلو للبعض أن يقول، أو حال من أحوال القلوب من خشية، أو وجل، أو رجاء، فيظهر ما يجده الصوفي في باطنه على ظاهره.
- إذا استمر الوجد، وغلب صاحبه، سماه الصوفية غلبة. وقد احتاط بعض المشايخ في قبول أحوال الوجد، وربط الواردات التي ترد مع حال الوجد، بما يتركه في نفس صاحبه، وقياس ذلك في ضوء الكتاب والسنة، فما وافقهما كان حالا من أحوال الصلاح، وإن كان عكس ذلك فلا بد للصوفي من رفض هذا الحال.
- وإذا استمر الحال، واشتدت وطأته ربما يغيب الصوفي عن نفسه، فيصل إلى حالة من السكر، حيث يغيب عنه تمييز الأشياء.
- ظهرت مجموعة من الأقوال لأناس يصفهم الصوفية بأنهم في حالة الوجد، أو الغلبة، أو السكر، وكل ما يصدر عنهم في هذه الأحوال يسميه الصوفية شطحا.
- أبرز الشطحات التي ظهرت في بداية انحراف الصوفية كانت على يدي أبي اليزيد البسطامي [المتوفى سنة ٢٦١].
- أول من تحدث في الفناء، وأفاض فيه هو: أبو سعيد الخراز [المتوفى سنة ٢٧٧ هـ].
- ثم ظهر الحلاج [المقتول سنة ٣٠٠ هـ] على مسرح الأحداث، وسرعان ما خطف الأضواء، وقد نجح الرجل وهو يعتنق مفاهيم الباطنية أن يلبس على الناس حاله، حتى عده بعض الصوفية من أكابر القوم، وقد أرسى الحلاج الكثير من المفاهيم التي أصبحت فيما بعد الأسس التي سار على دربها فلاسفة التصوف، من أخطر المفاهيم

التي خاض فيها الحلاج هو مفهوم قدم نور النبي ﷺ، ثم قوله بالحلول، والاتحاد، وباقي الشطحات الباطنية الخطيرة.

- تعد المراحل السابقة التمهيد الحقيقي لظهور أفكار ابن عربي، ثم ابن سبعين والجيلي، والتي انتهت إلى عقيدة جديدة، لا علاقة لها بالنبوة، ورسالة النبي الخاتم صلوات الله وسلامه عليه.
- لم تمنع محاولات تصحيح مسار التصوف من استمرار انحراف أفكاره وجنوحه إلى الغموض والأسرار.

ونستكمل بمشيئة الله تعالى دراسة تطور الفكر الصوفي مع الشيخ الأكبر ابن عربي ووحدة الوجود التي تدندن حولها اليوم أغلب أوراد الطرق الصوفية، والله وحدة المستعان.

الباب الثاني

ابن عربي شيخ العارفين
أم هادم للدين ؟

١. وجود الخالق والمخلوق

٢. غموض كلام ابن عربي

٣. ابن عربي وكتابه فصوص الحكم

٤. تفسير ابن عربي للقرآن

٥. ابن الفارض على درب ابن عربي

٦. نتائج نظرية وحدة الوجود

الفصل الأول

وجود الخالق والمخلوق

١. مقدمات وحدة الوجود

٢. الحلول والاتحاد

٣. مصادر نظرية وحدة الوجود

٤. الحقيقة المحمدية

الفصل الأول

وجود الخالق والمخلوق

تحدثنا في الباب السابق عن مراحل تطور الفكر الصوفي بدْءا من الشطح ومراحله، ومرورا بالفناء، والبقاء، ونصل اليوم إلى قضية من أخطر قضايا التصوف، وهي وحدة الوجود، ولن يمر الحديث عنها دون أن نقدم واضعها محيي الدين بن عربي. [والقارئ لمؤلفاته يعرف عنه الكثير وينكر آراءه] ، وهو في نظر الناس إما شيخ للعارفين أو هادم للدين، وقبل أن ندخل في لب الموضوع علينا أن نقدم له قائلين، وبالله تعالى التوفيق:

أولا: مقدمات وحدة الوجود.

يحاول الإنسان منذ فجر التاريخ التعرف على خالق الكون، والحكمة من وجود المخلوق، وكيف يتقرب المخلوق إلى خالقه؟ وقد انقسم الناس في قضية وجود الخالق والمخلوق إلى ثلاثة فرق، هي:

١. فريق أقر بوجود خالق للعالم أوجده من عدم، وفرَّق بين وجوده، ووجود مخلوقاته، وهم أتباع الرسل.
٢. وقائلون بوجود العالم، وينفون خالقه، وهم: الشيوعيون والملاحدة، أو يؤمنون بربوبيته، وينكرون ألوهيته، وهم الكافرون.
٣. وقائلون بوجود واحد للخالق، وينفون وجود العالم، ويرون الوجود الحقيقي للخالق فقط، وما العالم عندهم إلا مظاهر وتجليات للخالق، ويؤمن هؤلاء بوحدة الوجود.
٤. ولن نناقش في مقالنا هذا أفكار الشيوعيين، فيكفيهم انهيار دولتهم فوق رءوسهم، وإنما سيدور حديثنا حول معتقدات، ومفاهيم أصحاب وحدة الوجود، ولا بد من أن نسلم في البداية بعجز المصنوع عن التعرف على صانعه، ومن رحمة الخالق جل وعلا بخلقه أن هيأ لهم أسباب معرفته، وحصرها في مجالين أساسيين، هما النقل والعقل:

١. النقل: وهو ما أُرسل به المرسلون والأنبياء، مبشرين ومنذرين، آمرين بـأوامر الله ﷻ، وناهين عما يغضبه، معهم الدليل والبرهـان، وهـم لا يتكلمـون مـن عند أنفسهم، وإنما يتحدثون عمـن بعـثهم، والشرائـع تمثـل أسـلوب سـعادة البشر، وعلى قدر مخالفة المنهج الإلهي يشقى الفرد، ويفسد المجتمع.
٢. العقل: وبه نتدبر آيات الله التي تظهـر تباعـا في الآفـاق، وفي الأنفـس، حتـى يتبين الحق لنا، فالعقل يوصل إلى المعبود، ثم يقـف عنـد هـذا الحـد، وهـلاك العقل أن يتفكر في ذات الإله.

فأهل الإيمان يعتمدون عـلى النقـل، ولا مجـال للشـطح في وجـود الـنص الصـحيح، ثـم يتفكرون بعقولهم، وأفئدتهم في دوائر المعرفة التي أشار إليها الوحي الإلهي، ومنها التعرف على قدرة الله ﷻ، وحكمته، ودقيق صنعته، وذلك بالتدبر في الكون:

أما الفلاسفة: فيعتمدون على العقل فقط، ويطلقونه إلى آفاق أعلى من طاقته، فيعود إليهم بمفاهيم بعيدة عن الرسالات، ونهايات جميع محـاولات الفلاسـفة لم تصـل إلى بـدايات وحـي السماء. وقد كان لحركة الترجمة التي بدأت في العهد الأموي، واتسعت في زمن المأمون، دورهـا في مزج الدين بالفلسفة[1]، حتى وصلت إلى نظرية وحدة الوجود التي أرساها شـيخ الصـوفية الأكبر، والكبريت الأحمر ابن عربي الأنـدلسي، وكـل مـا فعلـه الرجـل أن أخـذ نظريـة وحـدة الوجود [التي يدين بها الهنود والبراهمة من قرون عديدة قبـل ظهـور الإسـلام]، ثـم اسـتعمل شطحات الصوفية عن الفناء والبقاء، واستعان بفكرة قدم نور النبي ﷺ [والأئمة التي ابتكرتهـا الشيعة، وروج لها الحلاج، وغيره - ثم سارت الإسماعيلية على دربهم]، ثم صاغ ابن عربي كـل هذه الأفكار في نظرية وحدة الوجود، وهذا ما يؤكده العلماء في قولهم: "ولم يكن لمذهب وحـدة الوجود وجود في الإسلام في صورته الكاملة قبل ابن عربي، فهو الواضـع الحقيقـي لدعائمـه، والمؤسس لمدرسته، والمفصل لمعانيه ومراميه، والمصور له بتلك الصورة النهائية، التي أخـذ بهـا

١ راجع كتابنا تسرب الفكر الباطني إلى الشرائع السماوية: لبيان دور الترجمة.

كل من تكلم في هذا المذهب من المسلمين من بعده"[١].

ثانيا: الحلول والاتحاد.

وقبل أن نتحدث عن مصادر نظرية وحدة الوجود ينبغي أن نشير إلى بضاعة الفلاسفة، وصور اتصال الخالق بالمخلوق كما يراها الباطنية، وأصحاب العقائد المنحرفة، وهي تتلخص في الحلول، والاتحاد، ووحدة الوجود، ونعرض تعريفا موجزا لكل صورة من هذه الصور:

١. **الحلول الخاص**: وأصحاب هذا المبدأ يرون أن الله جل جلاله يحل في أشخاص معينة فقط، ومنهم النسطورية من النصارى الذين يقولون بحلول اللاهوت في الناسوت، وأن الله ﷻ حلّ في عيسى ابن مريم ؑ، وهو أيضا قول الرافضة وغلاة الشيعة الذين يقولون أن الله حلّ في علي بن أبي طالب ﵁، وفي أئمة آل البيت، كما سبق أن زعم ذلك الحلاج أيضا، ومنطق هؤلاء، أن الله ﷻ يتنزل في الخلق، ويحلّ فيهم، فتفنى صفات البشرية: وتبقى فيهم صفات الربوبية، فالحلول هو التطبيق الكامل لفكرة الفناء والبقاء التي نادى بها أبو سعيد الخراز.

٢. **الاتحاد الخاص**: ويعتقد أصحاب هذه النظرية أن العبد إذا ارتقى بالطاعات، وصَفَتْ نفسه بالمجاهدات، فَنِيت صفاته الذميمة، وبَقِيت صفاته الحسنة، فإن العبد يسمو وتشف روحه، كما تصفو طبيعته حتى يتحد وجوده بوجود ربه، وهذا قول يعقوبية النصارى، حيث يقولون باختلاط اللاهوت والناسوت في عيسى ؑ، وقد زعم بعض الصوفية الوصول إلى مقام الاتحاد الخاص: منهم أبناء الطريقة الجيلانية فيما ينسبونه للشيخ الجيلاني[٢]. وتوسلهم بشيخهم بالوسيلة المسماة الغوثية، والتي يعتقدون أن الشيخ تلقاها بطريق الإلهام القلبي، والكشف المعنوي، وهذا ما سننقله

---

١ مقدمة فصوص الحكم، د. أبو العلا عفيفي ٣٥

٢ نعتقد أن الشيخ الجيلاني بريء من توسل أتباعه به خاصة، والرجل شهد له بالصلاح كبار علماء زمانه.

كاملا فيما بعد، ونذكر هنا نبذة عنه، وفيه حوار بين الشيخ وبين الله – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا – لا يبدأ خطاب الله ﷻ للجيلاني إلا بقوله تعالى: يا غوث الأعظم... يقول الجيلاني في نهايتها: "ثم قال الله لي: يا غوث الأعظم، الاتحاد حال لا يعبر بلسان المقال، فمن آمن به قبل وجود الحال فقد كفر، ومن أراد العبادة بعد الوصول فقد أشرك بالله العظيم"[١].

٣. **وحدة الوجود**: يعتبر أصحاب نظرية وحدة الوجود أنهم فقط الموحدون حقا، ومن سواهم مشركون، فمن لم يتحقق في مذهبهم يرى للعبد وجودا، ولله وجود آخر، فإذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قالوا له: إذا كنت تشهد لنفسك وجودا مع الله فأنت إذن تؤمن بوجود اثنين، وبالتالي تشرك نفسك مع الله، إنك ما زلت في مقام الحجاب والشريعة، أما هم الواصلون إلى فهم وحدة الوجود، فإنهم يقولون: طالما أن "الله معكم أينما كنتم"، وهو "أقرب إلينا من حبل الوريد"، فلم نقول أن هناك وجودين؟، بل هو موجود واحد لا ثاني له، وهو وجود الله على الحقيقة، وهذا الوجود في الواقع هو مجموع مخلوقاته التي انبثقت عنه كمظاهر له، ويقولون هذا الوجود إذا نظرت له في ظاهر الأمر وجدت خلقا، أو إن شئت، قلت: إن الله هو الظاهر بمخلوقاته، وإذا نظرت إلى المخلوقات لا تظن أنها خلقا، بل يجب أن تفنى هذه الظواهر من أمام عينيك، حتى ترى الله باسمه تعالى الباطن، فما ثم خلق، ولا ترى في الكون إلا الله، وهذا هو المراد من قولهم: "توحيد العامة: لا إله إلا الله، وتوحيد الخاصة: لا موجود إلا الله". موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة سيد المرسلين[٢].

---

١ الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، إسماعيل محمد سعيد ٦

٢ شيخ الإسلام مصطفى صبري ٣: ٩٥

لذا يرى أصحاب وحدة الوجود أن الحلول والاتحاد الخاص فَهْمٌ ناقص، فالأمر عندهم ليس فيه حلول ولا اتحاد، لأن الحلول والاتحاد مزج بين وجودين، ووحدة الوجود هي الإزالة لهذا المزج، كما يحدد ابن عربي في فتوحاته غاية نظريته، بقوله: "التخليص من المزج"، كما أوضح ذلك شعرا، حيث يقول:

نحن المظاهر والمعبود ظاهرنا ومظهر الكون عين الكون فاعتبروا

ولست أعبده إلا بصورته فهو الإله الذي في طيه البَشَرُ

ثالثا: مصادر نظرية وحدة الوجود.

إن وحدة الوجود عقيدة قديمة دان بها بعض الأمم قبل الإسلام، ولم تكن مُغَلَّفة بإطار من السرية، أو السمو عن فهم العامة، وإدراكهم لكونها من المذاقات العالية، فهي عقيدة العام والخاص في الديانة الهندوسية، فالبراهمة يقولون إن براهما هو القوة الكامنة العظمى في الوجود، بل هي الكون الحقيقي كله، والبراهما شيء واحد هو جوهر العالم الخفي الذي لا تحده قيود الزمن، كما أن شعوب الصين كانت تؤمن بالاتصال بالتاوي، والتاوي اسم يطلق مرة على الإنسان، ومرة يوصف الإله بالتاوي، وهذا الفهم قريب من الحقيقة الكلية عند ابن عربي. ويقول عدد من المستشرقين، أن ابن عربي تأثر بابن ميسرة، وابن برجان. بينما يرى الآخرون أنه لم يتأثر بأحد، وأنه هو الواضع الأول، والمؤسس لهذه النظرية.

ورغم اتفاقنا مع مجموع الآراء التي حاولت الوصول إلى الروافد التي غذت أفكار الرجل، إلا أننا نضيف إلى ما سبق أن ابن عربي تأثر، وبوضوح بمن سبقه من الصوفية أصحاب الشطح، المنادين بالفناء والبقاء، ونحن نرى أن أقوال أبي سعيد الخراز، وأبي اليزيد البسطامي، والحلاج، كانت هي اللبنات الأساسية التي صاغ منها ابن عربي أفكاره، بل إن أكثر العناصر التي بنى عليها نظريته سبقه إليها أحد هؤلاء الثلاثة: فالخراز وضع تعريفا للفناء والبقاء، استثمره القشيري وحرَّف الفناء إلى فناء صفات العبد ببقاء صفات الإله، والبسطامي فتح باب تعطيل الشريعة، وأن الحقيقة مخالفة للشريعة، وهو الذي مهد لأفكار الفناء، ثم جاء الحلاج فقنن الفناء، واعتبر توحيد المسلم لربه نوع من الإشراك، وأن أهل الحقائق يفنون عن ذواتهم، فيرون التوحيد بمعنى لا موجود إلا الله، كما نراه يقرر أن الأديان كلها واحد، ولا فرق بين الكفر والإيمان.

إن الباحث حين يجمع هذه العناصر جنبا إلى جنب، لا يجد صعوبة أن يُقلص دور ابن عربي: لأنه في الحقيقة قد أضاف شيئا يسيرا إلى جملة ما استقاه من أفكار أهل الشطح، **ويكون دور ابن عربي هو النتيجة المنطقية لكل ما سبقه من مقدمات،** وبالتالي يكون إسهامه فقط في بلورة هذه العناصر، وصياغتها في شكل رمزي إشاري إلى حد بعيد، ولعل هذا هو السبب في أن نرى ابن عربي كثيرا ما يذكر أسماء الحلاج، والبسطامي، والخراز بمناسبة وغير مناسبة، ومن أمثلة ذلك ما قاله في الفتوحات عن الإسراء والمعراج: "فكان من آياته التي أراه [أي أن الله سبحانه أطلع رسوله ﷺ] ليلة إسرائه كونه تدلى في حال عروجه، وهذا عين ما أشار إليه أبو سعيد الخراز في قوله عن نفسه: ما عرفت الله إلا بجمعه بين الضدين، فلولا أنت ما كان دنو ولا تدل، فكان بهويته في الجميع في حال واحدة، بل هو عين الضدين، فأنت من حيث هويتك لا نعت لك ولا صفة، وقيل لأبي اليزيد: كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تغير بالصفة، وأنا لا صفة لي، فإني بكيت زمانا، وضحكت زمانا، وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي، والصعود والهبوط نعت، فلا صعود للعبد، ولا هبوط من حيث عينه وهويته، فالصاعد عين الهابط، فما دنا إلا عين من تدلى، فإليه تدلى ومنه دنا"[1].

رابعا: الحقيقة المحمدية.

إن الشيعة حين انتابتها نوبات الغلو، وقالت بِقدم نور الأئمة لزمهم القول بِقِدَم نور جدهم سيدنا محمد ﷺ، والمقصود بالقِدَم أن نور النبي جزء، أو قبضة من نور الله ﷻ، إذ لا يوصف بالقِدَم إلا الله وحده، وكل ما في الكون مُحدث أوجده الله بقدرته، وحتى يفسح الغلاة لأنفسهم مجال الظن والكذب، راحوا يتهربون من ألفاظ الخلق، والعبد، والنبي، والرسول إلى مصطلحات أفلاطون، وغيره من الفلاسفة الذين لا يعترفون بالخلق من عدم، ولكنهم يؤمنون بالفيض والتعين.

وقد تلقى مشايخ الصوفية هذه المفاهيم الشيعية وصاغوا أورادهم، وقدموها للمريدين على أنها فتوحات وأسرار، وأنّى للمريد أن يفهم مرامي الوِرد ومقاصده، وبالتالي يتلقى عبادته

---

١ الفتوحات المكية، ابن عربي ٤: ٤٠

الجديدة على أنها من علوم الخاصة، والمشايخ يُحذرون المريدين من أسرار الطريق، ولا يجوز في سلوك القوم إفشاء الفتوحات، ومن ذلك قولهم: "ولا يجوز للمريد إفشاء سر من الأسرار إلا أن يأمره الشيخ، أو الشرع بإذاعته، وربما غلب عليه الحال فأفشى سر الربوبية، فوقع له كما وقع للحلاج، خاصة في هذا الزمان الذي استتر فيه الأولياء الصادقون والعلماء العاملون، وصار الفقير إذا وقع في وِرد له لا يهتدي غالب الناس إلى خروجه من تلك الورطة، وربما قُتل ذلك الفقير ظُلما، فالكتمان واجب على المريد حتما للسلامة"،[١] ويروي الشعراني، قائلا: سمعت عليا المرصفي، يقول: "لا يُطلب من الأشياخ الكلام على الأسرار"[٢]. وينسب إلى سهل بن عبد الله التستري قوله: "للربوبية سر لو أُظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو ظَهر لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام"[٣]. ولا يستطيع المريد أن يحل هذه الألغاز، ولا فهم مرامي عبارات تطفح بالأسرار إلا إذا أدرك المقصود بالحقيقة المحمدية، والإنصاف يقتضي أن نتعرف على هذا المصطلح الصوفي من كتبهم والتي جاء فيها:

- الحقيقة المحمدية: هي الذات مع التعين الأول، وهي الاسم الأعظم، وسر الحقيقة ما لا يفشى من حقيقة الحق في كل شيء"[٤].
- ويعَرَّفها القاشاني بقوله: "هي الذات مع التعين الأول، فله الأسماء الحسنى كلها، وهي الاسم الأعظم"[٥].
- ويعرفها محمد غازي بقوله: "الحقيقة المحمدية: ضامة لجميع الذوات، هادية بأمر الله، لا تحدث أمرا إلا بإذنه، وهي قديمة قِدَمَ الخالق، وهي خلق دون إيجاد، إذ هي الوجه المتعين للنور الأول"[٦].

١ الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، عبد الوهاب الشعراني ٩٠

٢ المصدر السابق ٩١

٣ قوت القلوب، لأبي طالب المكي

٤ معجم مصطلحات الصوفية، د. عبد المنعم الحفني ٧٩

٥ اصطلاحات الصوفية، للقاشاني.

٦ النصوص في مصطلاحات الصوفية محمد غازي عرابي.

- ويقول ابن عربي: "الحقيقة المحمدية، أو الإنسان الكامل فالإنسان على صورة الحق من التنزيه والتقديس عن الشوب في حقيقته، فهو المألوه المطلق، والحق سبحانه هو الإله المطلق، وأعني بهذا كله الإنسان الكامل"[١]، ولابن عربي أيضا تعريف آخر يقول فيه:
- "الحقيقة المحمدية: أو الروح المحمدي هو المظهر الكامل للذات الإلهية، والأسماء، والصفات"[٢].

رغم وجود بعض الاختلافات في تعريف القوم للحقيقة المحمدية، فمنهم من عرفها أنها الذات مع التعين الأول، ومنهم من قال: إنها الضامة لجميع الذوات، وإنها قديمة قِدمِ الخالق، ومنهم من جعلها مجموع الحق سبحانه، ومجموع الخلق، فهي الإنسان الكامل المألوه أي المعبود المطلق، ومن هنا نستشعر بالخطر العظيم، وأن القوم يهدمون عقيدة الإسلام بدعوى محبة النبي ﷺ، وذلك إطراء الصوفية إليه مثل النصارى، وهذا ما حذرنا النبي من فعله، ونهانا عن اتباعهم وتقليدهم، والحقيقة أن الصوفية زادوا من غلوهم في نبيهم أكثر من غلو النصارى في المسيح عليهما السلام.

---

١ الفتوحات المكية محي الدين بن عربي ٢:٦٠٣

٢ المصدر السابق ٢: ٩٧

الفصل الثاني

غموض كلام ابن عربي

ولد محمد بن علي المعروف بابن عربي[1] [سنة ٥٦٠ هـ] بمرسية من بلاد الأندلس، فشب في وسط جو ملبد بالغيوم حيث: "لقي كثير من الصوفية المتفلسفين بالأندلس مصيرا شنيعا، ومن هؤلاء ابن قسي رئيس فرقة المريدين، والذي قُتل [في سنة ٥٤٦ هـ]، ثم ما لبث أن رأى شيخه ابن برجان، وابن العريف يموتون مسمومين بأمر سلطان شمال أفريقيا علي بن يوسف بعد سجنهما مدة طويلة"[٢].

وبرغم أن وحدة الوجود فلسفة قديمة معروفة قبل الإسلام، اعتنقها أقوام كثيرون، ولا ينسب لابن عربي أدنى فضل في اختراعها، وإنما دوره البارز في تغليف النظرية بقشرة إسلامية دخل بها إلى قلب أهل السنة، إلا أن الشيعة والإسماعيلية وجدت في أفكار ابن عربي دليلا على صحة أقوالهم، ولهذا نراهم يثنون عليه في كتبهم ولا يذكرونه إلا بالألقاب التي يروجون لها، ومنها: محيي الدين، والشيخ الأكبر، وخاتم الأولياء، والكبريت الأحمر، وغير ذلك، والذي يقرأ كتب ابن عربي يجد مشقة كبيرة في تتبع أفكار الرجل، لا سيما إذا قرأت له: الفتوحات المكية، أو مواقع النجوم، أو عنقاء مغرب، أو شجرة الكون، وهي مؤلفات كتبها قبل أن تكتمل نظريته عن وحدة الوجود، أما من يطلع على آخر ما كتب مثل: فصوص الحكم. فإنه يرى الفكرة واضحة انقشع عنها الغموض، وعبَّر عنها كاتبها بعد أن تخلى عن خوفه القديم أن يرمى بالكفر والزندقة، وأيضا بعدما حقق شهرة، وأتباعا، وحماية كافية. وإليك ما ذكره د. زكي مبارك في كتابه الرائع التصوف الإسلامي، حيث يقول: "وقد تأملت طويلا في كتاب الفتوحات، فرأيت ابن عربي يدور حول فكرة وحدة الوجود دورانا لبقا، ولا يكاد يُفصح عنها

---

١ راجع ترجمة ابن عربي، للذهبي في ميزان الاعتدال ٣: ٦٥٩

٢ ابن سبعين وفلسفته الصوفية، د. أبو الوفا التفتازاني ٤٤

إلا عن طريق الإيماء"[1].

ولنترك ابن عربي يشرح لنا نظريته بنفسه، وسنبدأ من الفتوحات حيث يجنح الشيخ الأكبر إلى الرمز، والإشارة، وأسلوب السؤال والجواب، فيقول: "إيجاز البيان بضرب من الإجمال: بَدْءُ الخلق الهباء، وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية، ولا أين يحصرها لعدم التمييز. وممَّ وُجِدَ؟ وُجِدَ من الحقيقة المعلومة التي لا تتصف بالوجود ولا بالعدم. وفيم وُجِدَ؟ في الهباء. وعلى أي مثال وُجِدَ؟ الصورة المعلومة في نفس الحق. ولم وُجِدَ؟ لإظهار الحقائق الإلهية. وما غايته؟ التخليص من المزجة".

ثم يُفَصِّل هذا الإيجاز بقوله: "المعلومات أربعة، وهو:

١. الحق تعالى: وهو الموصوف بالوجود المطلق، وهو موجود بذاته، والعلم به عبارة عن العلم بوجوده، ووجوده ليس غير ذاته، مع أنه غير معلوم الذات، ولكن يُعلم ما تُنسب إليه من الصفات.
٢. ومعلوم ثانٍ: الحقيقة الكلية، التي هي للحق وللعالم لا تتصف بالوجود ولا بالعدم، ولا بالحدوث ولا بالقِدَم، هي في القديم إذا وُصف بها قديمة، وفي المُحدَث إذا وصف بها مُحدَثة، ولا تُعْلَمُ المعلومات قديمها وحديثها حتى تُعلم هذه الحقيقة، ولا توجد هذه الحقيقة حتى توجد الأشياء الموصوفة بها، فإن وجد شيء عن غير عدم متقدم [كوجود الحق وصفاته]، قيل فيها موجود قديم لاتصاف الحق بها. وإن وجد شيء عن عدم كوجود ما سوى الله، وهو المحدث الموجود بغيره، قيل إنها مُحدَثة، وهي في كل موجود بحقيقتها، فإنها لا تقبل التجزئة، فما فيها كل، ولا بعض، ولا يُتوصل إلى معرفتها مجردة عن الصورة بدليل ولا برهان، فمن هذه الحقيقة وُجِد العالم بواسطة الحق تعالى، وليست بموجودة، فيكون الحق قد أوجدنا من موجود قديم، فيثبت لنا القِدَم، وكذلك لتعلم أيضا أن هذه الحقيقة لا تتصف

[1] التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق، د. زكي مبارك ١٢٨

بالتقدم على العالم، ولا العالم بالتأخر عنها، ولكنها أصل الموجودات عموما، وهي أصل الجوهر، وفلك الحياة، والحق المخلوق به وغير ذلك، وهي الفلك المحيط المعقول، فإن قلت: إنها العالم صدقت، أو إنها ليست العالم صدقت، أو إنها الحق، أو ليست الحق صدقت، فهي تقبل هذا كله، وتتعدد بتعدد أشخاص العالم، وتتنزه بتنزه الحق.

٣. ومعلوم ثالث: وهو العالم كله: الأملاك، والأفلاك، وما تحويه من العوالم، والهواء، والأرض، وما فيهما من العالم، وهو الملك الأكبر.

٤. ومعلوم رابع: وهو الإنسان"[١].

ونلقي الضوء على بعض النقاط من كلام ابن عربي التي تساعدنا على فهم مراميه:

- أول موجود هي الحقيقة المحمدية التي يسميها ابن عربي بالحقيقة الكلية، والتي وُجدت من حقيقة معلومة لا تتصف بالوجود ولا بالعدم.
- لاحظ قوله: "المعلومات أربعة"، ولم يقل: "الموجودات أربعة".
- المعلوم الثالث هو الكون، والمعلوم الرابع هو الإنسان، ومجموعهما هو ما تسميه كل الشرائع بالخلق. فكأن ابن عربي يقول المعلومات ثلاثة هي: الحق تعالى، والحقيقة الكلية، والخلق.
- ما أضافه ابن عربي بين معلومة الحق ومعلومة الخلق هي معلومة الحقيقة الكلية.
- يؤكد ابن عربي نفي الوجود عن معلومة الحق بقوله: "والعلم به هو العلم بوجوده، أي بذاته، وهو غير معلوم الذات، ولكن يعلم ما تُنسب إليه من الصفات".
- أثبت الوجود فقط للحقيقة الكلية، وقرر أنها كُلٌّ لا يتجزأ، ولا تُعلم المعلومات قديمها وحديثها، وهذه الحقيقة هي أصل الموجودات، وأصل الجوهر، وفلك الحياة، والحق المخلوق به، وهذه الحقيقة التي تهب الحياة إذا نُسبت لمعلومة الخلق وهبته الوجود، وسميت الحقيقة الكلية في هذه الحالة بالخلق، وإذا نسبت لمعلومة

---

١ الفتوحات المكية محي الدين بن عربي ١: ١١٨

الحق وهبته الوجود، وسميت الحقيقة الكلية آنذاك بالقديم أو الحق. وبيان ما يلغزه ابن عربي هو: هناك معلوم بلا وجود هو الله، ومعلوم آخر بلا وجود أيضا هو الخلق، وحقيقة كلية واهبة الوجود، وهي لا تتجزأ، فإذا أضيفت هذه الحقيقة إلى المعلوم أنه قديم أصبح لله وجودٌ، حقيقته هي الحقيقة المحمدية، وإذا أضيفت إلى الشيء المعلوم أنه حادث[وهو الخلق] وهبته الوجود، وحقيقة هذا الوجود هي الحقيقة المحمدية!

وإذا رجعنا إلى الفتوحات المكية نرى ابن عربي يحدثنا قبل أن تكتمل نظريته، يقول:"كان الله ولا شيء معه، ثم أدرج فيه، وهو الآن على ما عليه كان، فلما أراد وجود العالم وبدأه، انفعل عن تلك الإرادة المقدسة بضرب تَجَلٍّ من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلية، انفعل عنها حقيقة تسمى الهباء، ويسميه أصحاب الأفكار [أي الفلاسفة] الهيولي الكلي، والعالم كله فيه بالقوة والصلاحية، فَقَبِلَ منه تعالى كل شيء في ذلك الهباء على حسب قوته واستعداده، فلم يكن أقرب إليه قبولا في ذلك الهباء إلا حقيقة محمد ﷺ المسماة بالعقل، فكان سيد العالم بأسره، وأول ظاهر في الوجود، فكان وجوده من ذلك النور الإلهي ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية، وفي الهباء وجد عينه، وعين العالم من تجليه، وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب، وأسرار الأنبياء أجمعين"[1]. وتكشف جملة ابن عربي الأخيرة ميوله الشيعية التي لا يستطيع إخفاءها، وهي سمو مكانة علي بن أبي طالب على جميع الخلق من الملائكة المقربين، والأنبياء، وبالتالي أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما.

ويعلق الدكتور أبو العلا عفيفي[2] بقوله: "وقد يُفهم من كلام ابن عربي، أنه يقول باثنينية الخالق والمخلوق، أو الحق والخلق، أو الوجود الظاهر والله، وليس في الحقيقة أثر للاثنينية في مذهبه، وكل ما يُشعر بالاثنينية يجب تفسيره على أنه اثنينية اعتبارية، فليس في الوجود في نظره إلا حقيقة واحدة، إذا نظرنا إليها سميناها حقا، وفاعلا، وخالقا، وإذا نظرنا إليها من جهة

١ المصدر السابق ١:١١٨

٢ في فصوص الحكم ٢: ٨

أخرى سميناها خلقا، وقابلا، ومخلوقا، وليس على وجه التحقيق في مذهبه خلق بمعنى إيجاد من العدم، إذ يستحيل في اعتقاده الوجود من العدم المحض، وإنما أصل كل وجود، وسبب كل فيض إلهي دائم [يعبر عنه أحيانا بالتجلي الإلهي] يمد كل موجود في كل لحظة بروح من الله فيراه الناظر في الصور المتعددة التي يظهر فيها، وذلك هو الخلق في اصطلاح ابن عربي: تجلٍ إلهي دائم، فيما لا يحصى عدده من صور الموجودات، وتغير دائم، وتحول في الصور، في كل آن، ذلك هو الذي يطلق عليه، ويقول: إنه هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق-١٥]، ويقرر ابن عربي حقيقة مذهبه[1]، حين يقول:

فإن قلت بالتنزيه كنت مُقَيدا وإن قلت بالتشبيه كنت مُحَدِّدا

وإن قلت بالأمرين كنت مسددا وكنت إماما في المعارف سيدا

فمن قال بالأشفاع كان مشركا ومن قال بالإفراد كان موحدا

فإياك والتشبيه إن كنت ثانيا وإياك والتنزيه إن كنت مُفردا

فما أنت هو بل أنت هو وتراه في عين الأمور مسرّحا ومقيدا

ويفصح ابن عربي عن نظريته شيئا فشيئا، فيروى حوارا بين الله ﷻ ومحمد ﷺ، فيقول: "إن محمدا ﷺ لما أبدعه الله تعالى حقيقة مثلية، وجعله نشأة كلية، حيث لا أين، ولا بين، قال له: أنا المَلِك، وأنت المُلك، وأنا المدير وأنت الفلك، وسأقيمك فيما يتكون عنك، سايسا ومدبرا، وناهيا وآمرا، تُعطيها مما قد أعطيتك، وتكون فيها كما أنا فيك، فلستُ سواك، كما لست سواي، فأنت صفاتي فيهم وأسمائي، فتفَصَّد النبي عَرَقًا، فكان ذلك العرق الطاهر ماء، وهو الماء الذي نبأ به الحق تعالى في صحيح الأنباء، فقال سبحانه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود-٧] وابن عربي بهذا النص يزعم قِدَم النبي ﷺ قبل العرش، وقبل الماء، بل إن الماء الذي عليه العرش هو من عرق النبي ﷺ.

---

١ فصوص الحكم في فَصِّ كلمة نوحية ٧٠

الفصل الثالث

ابن عربي وكتابه فصوص الحكم

يعتبر كتاب فصوص الحكم من أواخر ما كتب ابن عربي، وفيه تخلى عن حذره في الكتابة، فتكلم بشكل أوضح، وبقليل من الإلغاز المعتاد في أسلوبه. وقد تناول كثير من المهتمين بالتصوف هذا الكتاب بالشرح والتحليل، إلا أن تعليق الدكتور أبو العلا عفيفي يعد أفضل شرح وبيان لمراد ابن عربي، وهو التعليق الذي لا غنى عنه لمن أراد أن يفهم أسلوب الشيخ ومرامي كلامه. لذا سنختار عددا من الأمثلة التي تظهر وحدة الوجود عند ابن عربي في مراحل نضجها وبلورتها في ذهن الرجل وكتاباته، ونقرأ منها في فص حكمة مهيمية في كلمة إبراهيمية معنى "خليل الله"، أو مقام الخلة، فيقول: "إنما سمي الخليل خليلا لتخلله، وحصره جميع ما اتصفت به الذات الإلهية، قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلا

كما يتخلل اللون التلون، فيكون العَرَضُ بحيث جوهره ما هو كالمكان والمتمكن، أو لتخلل الحق وجود صورة إبراهيم عليه السلام، وكل حكم يصح من ذلك، فإن لكل حكم موطنا يظهر به لا يتعداه، ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات، وأخبر عن نفسه، وبصفات النقص وبصفات الذم؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى آخرها، وكلها حق له كما هي صفات المحدثات حق الحق. "الحمد لله": فرجعت إليه عواقب الثناء من كل حامد ومحمود، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود-١٢٣] فعمَّ ما ذُمَّ وحُمِدَ، وما ثم إلا محمود ومذموم، اعلم أنه ما تخلل شيء شيئا إلا كان محمولا فيه، فالمُتَخَلِّل - اسم فاعل - محجوب بالمتخلَّل - اسم مفعول، فاسم المفعول هو الظاهر، واسم الفاعل هو الباطن المستور، وهو غذاء له كالماء يتخلل الصوفة فتربو به وتتسع، فإن كان الحق هو الظاهر، فالخلق مستور فيه، فيكون الخلق جميع أسماء الحق: سمعَه، وبصرَه، وجميعَ نِسَبِهِ، وإدراكاته، فإن كان الخلق هو الظاهر، فالحق مستور باطن فيه، فالحق سمع الخلق، وبصره، ويده، ورجله، وجميع قواه كما جاء في الخبر الصحيح، ثم إن الذات لو تعَرَّت عن هذه النسب لم تكن إلها، وهذه النسب أحدثتها أعياننا، فنحن جعلناه

بمألوهيتنا إلها، فلا يُعرف حتى نُعرف، قال ﷺ: "من عرف نفسه عرف ربه"[١]، وهو أعلم الخلق بالله"[٢]، ويقول شعرا[٣]:

فلا تنظر إلى الحق	وتعريه عن الخلق
ولا تنظر إلى الخلق	وتكسوه سوى الحق
ونزهّه وشبهّه وقم	في مقعد الصدق
وكن في الجمع إن شئت	وإن شئت ففي الفرق
تحزْ بالكل - إن كل	تبدي قصب السبق
فلا تَفنى ولا تَبقى	ولا تُفني ولا تُبقي
ولا يلقى عليك الوحي	في غير ولا تلقي

ويقول ابن عربي في فص حكمة فردية في كلمة محمدية: "إذ لا يُشاهَد الحق مجردا عن المواد أبدا.. فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله، وأعظم الوصلة النكاح، وهو نظير التوجه الإلهي على من خلقه على صورته..[لذلك قال ﷺ: حُبب إلي من دنياكم ثلاث: النساء[٤]، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة]، ولكن غاب عنه [الناكح] روح المسألة، فلو علمها لعلم بمن التَذَّ ومن التذَّ"[٥]. ويقول في فصِّ هود: "إذا كان الحق وقاية للحق بوجه، والعبد وقاية للحق بوجه، فقل في الكون ما شئت: إن شئت قلت: هو الخلق، وإن شئت قلت: هو الحق، وإن شئت قلت: هو الحق الخلق، وإن شئت قلت: لا حق من كل وجه، ولا خلق من كل وجه، وإن شئت قلت بالحيرة في ذلك"[٦].

---

١ قال ابن تيمية: موضوع

٢ فصوص الحكم لابن عربي ٨٠

٣ فصوص الحكم لابن عربي ٩٣

٤ وقال ﷺ أيضا: ﴿الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة... ﴾

٥ فصوص الحكم، لابن عربي ٢١٩

٦ فصوص الحكم، لابن عربي ١١٢

الفصل الرابع

تفسير ابن عربي للقرآن

ينسب الباطنية إلى ابن عربي أحد كتبهم عن تفسير القرآن، وقد أنكر نسبة هذا التفسير إلى ابن عربي عدد كبير من الباحثين، لذا فلن نستشهد بما هو غير ثابت عن الشيخ، وإنما سندرس مجموعة من النصوص من أشهر كتبه التي سطرها بيديه مثل: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، وغيرها، حيث يظهر فيها كيف يلوي ابن عربي مراد الآيات القرآنية: ليؤكد مفاهيم وحدة الوجود، ومن ذلك قوله:

١. ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّـهَ رَمَى﴾ [الأنفال-١٧] فالعين التي أدركت بها أن الرمي لله، غير العين التي أدركت بها أن الرمي لمحمد ﷺ، فتعلم أن لك عينين، إن كنت صاحب علم، فتعلم قطعا أن الرامي هو الله في صورة محمدية جسدية، ثم يقول شعرا[1]:

فعين الخلق عين الحق فيه	فلا تنكر فإن الكون عينه
فإن فرقت فالفرقان بادٍ	وإن لم فاعتبر فالبين بينه

٢. وقد يعجب القارئ من جرأة ابن عربي على الله ﷻ، وكلامه، والأعجب من ذلك أنه يفسر جزءا من الآية بصورة، وينسى بقيتها، أو يتناساها، وفي كثير من الأحيان تهدم بقية الآية ما ذهب إليه شطحه في تفسير أول الآية، ومن ذلك تفسير ابن عربي عبادة بني إسرائيل للعجل حسب مفهومه لوحدة الوجود، فيقول: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء-٢٣]، قضى: أي قدر ألا يُعبد في الوجود إلا الله، ولهذا أخذ موسى برأس أخيه هارون عليهما السلام يجره إليه، فاللوم هنا على هارون، وموسى لم يرَ في سجود بني إسرائيل للعجل أي خطأ، إنما الخطأ كله مُنصب على هارون، حيث أنكر عبادة العجل، يؤكد ابن عربي أن هارون لم يدرك وحدة الوجود

١ الفتوحات المكية، ابن عربي.

بعد، وأنه ما زال يفهم أن وجود الله مخالف لوجود المخلوق، أي ما زال على توحيد العامة، لذا يقول ابن عربي: "فكان موسى أعلم بالأمر من هارون: لأن أصحاب العجل ما عبدوه إلا لعلمهم بأن الله قد قضى ألا تعبدوا إلا إياه، وما حكم الله بشيء إلا وقع، فكان عتب موسى [الذي يعبر عن وحدة الوجود] أخاه هارون [الذي ما زال يعبر عن مقام توحيد العامة] لما وقع الأمر من إنكاره، وعدم اتساعه، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين [أي ذات] كل شيء. فكان موسى يربي هارون تربية علم، وإن كان أصغر منه في السن"[1].

٣. لذلك أراد موسى عليه السلام – حسب زعم ابن عربي – بيان حقيقة الأمر لهارون وقومه، ويدلهم على الخطأ، وقصورهم في فهم وحدة الوجود على حقيقتها: فالخطأ الذي وقع فيه بنو إسرائيل هو: تخصيص صورة المعبود في العجل، ولو أنهم أدركوا الأمر على حقيقته لعبدوا أي شيء، وكل شيء: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّـهِ﴾ [البقرة-١١٥]، والخطأ على هارون أكبر لأنه أنكر على قومه مع أنهم أعلم منه بوحدة الوجود، بينما هو في مقام توحيد العوام: لذا ترى ابن عربي يفسر تصرف موسى عليه السلام: ليؤكد مذهبه، فموسى لم يصهر الذهب، ويعيده إلى قومه، أو إلى أصحابه من أهل مصر!، لم يفعل ذلك موسى، وإنما نسف العجل وذرى ذراته في اليم، ليعلمهم أن المعبود في كل الوجود، وليس في شكل معين، فيقول ابن عربي: "فحرقه ونسف رماد تلك الصورة في اليم نسفا، وقال له: انظر إلى إلهك فسماه إلها بطريق التنبيه للتعليم، لما علمه أنه بعض المجالي الإلهية"[2]. ويفسر ابن عربي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَى﴾ على أنه قدر وحكم، ولا نعرف كيف يفسر ابن عربي بقية الآية، حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، فأين موقع الجاحدين لآبائهم المنكرين لإحسانهم من حكم الله وتقديره حسب فهم ابن عربي!، قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه في درجات

١ فصوص الحكم لابن عربي ١٩٢

٢ فصوص الحكم ابن عربي ١٩٢

كثيرة مختلفة، أعطت كل درجة مجلى إلهيا عبد فيها، وأعظم مجلى عبد فيه وأعلاه الهوى، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية-٢٣]، وهو أعظم معبود، فإنه لا يُعبد شيء إلا به، ولا يعبد هو بذاته، ثم يقول[١]:

وحق الهوى إن الهوى سبب الهوى ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى

٤. ثم يشرح قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية-٢٣]، فالضلال عنده هو الحيرة، ثم يستكمل حديثه، فيقول: "والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يُعبد فيه: ولذلك سموه كلهم إلها مع اسمه الخاص: بحجر، أو شجر، أو حيوان، أو إنسان، أو كوكب، أو ملك، وهذا اسم الشخصية فيه"[٢]. ثم يذكر ابن عربي في فتوحاته، أنه شاهد الهوى في بعض مكاشفاته ظاهرا بالألوهية قاعدا على عرشه، وجميع عبدته حافون من حوله، ويقول: "وما شاهدت معبودا في الصور الكونية أعظم منه [أي الهوى]،[٣] وينظم عقيدته، فيقول[٤]:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالدين ديني وإيماني

٥. يفسر ابن عربي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فيقول: "والمظلوم المقام حيث نعته بالانقسام، وهو عين واحدة، فإنه لا يشرك معه إلا عينه وهذا غاية الجهل[٥].

١ فصوص الحكم، ابن عربي ١٩٤
٢ فصوص الحكم، ابن عربي الفص الهاروني ١٩٥
٣ تعليقات د. أبو العلا عفيفي على فصوص الحكم ٢٨٨:٢
٤ ترجمان الأشواق ٣٩ - ٤٠، نقلا عن د. أبي العلا عفيفي
٥ فصوص الحكم، ابن عربي

٦. ومن العجيب أن يفسر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر-١٥]، بإضافة وقفا لازما بعد قوله تعالى: ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾، ثم يقرأ بعد الوقف قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ﴾، ثم يجعل وقفا ثانيا، فيصبح المعنى: ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾ أيضا فقير إليكم -معاذ الله، ثم يعبر عن المعنى الذي توصل إليه بقوله: "فوجودنا وجوده، ونحن مفتقرون إليه من حيث وجودنا، وهو مفتقر إلينا من حيث ظهوره لنفسه، فأنت غذاؤه بالأحكام، وهو غذاؤك بالوجود، فتعين عليه ما تعين عليك، والأمر منه إليك، ومنك إليه، غير أنك تسمى مكلفا، ولا يسمى هو مكلفا" ثم يقول شعرا[1]:

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده
وفي حال أقر به وفي الأعيان أجحده
فيعرفني وأنكره وأعرفه فأشهده

٧. ويقول أيضا:

الرب حق والعبد حق يا ليت شعري من المُكلَّف
إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب أنَّى يكلف

٨. ويقول ابن عربي في فص الكلمة النوحية: "فإن للحق في كل خلق ظهورا، فهو الظاهر في كل مفهوم، وهو الباطن عن كل فهم، إلا عن فهم من قال أن العالَمَ صورته وهويته، وهو الاسم الظاهر، كما أنه بالمعنى روح ما ظهر فهو الباطن"[2]، ثم يستطرد قائلا: "الله تعالى لا يُعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه بها، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من يبطن عنه، فهو الظاهر لنفسه باطن عنه، وهو المسمى أبا سعيد الخراز، وغير ذلك من أسماء المحدثات، فيقول الباطن لا إذا

١ فصوص الحكم، ابن عربي ٨٣

٢ فصوص الحكم ابن عربي ٦٨

قال الظاهر أنا، ويقول الظاهر لا إذا قال الباطن أنا"[1]، ومن العجيب أن لا يختار ابن عربي اسما يضرب به المثال على أنه الله إلا أبا سعيد الخراز، وهو أول من بـدأ انحـراف التصوف بقوله عن الفناء والبقاء.

٩. أما قوله تعالى ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّـهِ اللَّـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام-١٢٤]، فيفسرها على هواه قائلا: ﴿رُسُلُ اللَّـهِ﴾ مبتدأ، و﴿اللَّـهُ﴾ خبر، والمعنى رسل الله هم الله"[2].

١٠. أما الآية المباركة ﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام-١٠٣]، فيعلق عليها ابن عربي بقوله: "للطفه وسريانه في أعيان الأشياء".

١١. أما قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر-٦٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة-١٨٦]، فيقول ابن عربي معقبا: "لأن عين الداعي عين المجيب الله"[3].

١٢. ويفسر ابن عربي قصة ذبح إسماعيل بقوله: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات-١٠٢]، يقول ابن عربي: "ومن عرف ما قررناه علم أن الحق المُنزه هو الخلق المشبه، وإن كان قد تميز الخلق من الخالق، فالأمر الخالق المخلوق، والأمر المخلوق الخالق، كل ذلك من عين واحدة، لا بل هو العين الواحدة، وهو العيون الكثيرة: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، والولد عين أبيه، فما رأى يذبح سوى نفسه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات-١٠٧]، فظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان، وظهر بصورة ولد، لا بل بحكم ولد من هو عين الوالد، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا

١ فصوص الحكم ابن عربي ٧٧

٢ مقدمة فصوص الحكم ١٤ تحقيق وتعليق د. أبو العلا عفيفي

٣ موقف العقل والعلم مصطفى صبري.

زَوْجَهَا﴾ [النساء-١]، فما نكح سوى نفسه، فمنه الصاحبة والولد، والأمر واحد في العدد، فيقول ابن عربي[1].

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا	وليس خلقا بذاك الوجه فادكروا
من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته	وليس يدريه إلا من له بصر
جمع وفرق فإن العين واحدة	وهي الكثيرة لا تبقى ولا تذر

١٣. ثم ينكر ابن عربي آيات علو الله على خلقه، ويشرح اسم الله تعالى العلي، فيقول: "ومِن أسمائه الحسنى العلي، على من؟ وما ثم إلا هو، فهو العلي لا علو إضافة، لأن الأعيان التي لها العدم الثابتة فيه ما شمَّت رائحة من الموجود، فهي على حالها مع تعداد الصور في الموجودات، والعين واحدة من المجموع في المجموع، فوجود الكثرة في الأسماء، وهي النسب، وهي أمور عدمية، وليس إلا العين الذي هو الذات، فهو العلي لنفسه لا بالإضافة، فما في العالم من هذه الحيثية علو إضافة، لكن الوجوه الوجودية متفاضلة، فعلو الإضافة موجود في العين الواحدة من حيث الوجوه الكثيرة، لذلك نقول فيه هو لا هو، أنت لا أنت"[2]، لعلك تنتظر منا أيها القارئ الكريم أن نجيب على تساؤلنا عن ابن عربي: هل هو شيخ العارفين أم هادم للدين؟ ولكننا نرجئ هذه الإجابة إلى مقالة تالية في هذا الكتاب؛ نتدارس فيها - بإذن الله تعالى- نتائج نظرية وحدة الوجود، وساعتها تنكشف الإجابة تلقائيا دون جدل أو سفسطة، ثم نستكمل أدوار ابن الفارض، وابن سبعين، والجيلي في تطور الفكر الصوفي. والله وحده من وراء القصد، وهو يهدي سواء السبيل.

---

١ فصوص الحكم، ابن عربي.

٢ فصوص الحكم ابن عربي ٧٦

الفصل الخامس

ابن الفارض على درب ابن عربي

ولد عمر بن الفارض في القاهرة [سنة ٥٧٦ هـ]، وعاصر ابن عربي، وتوفي بها [سنة ٦٣٢ هـ]، واشتغل بالشعر نحو أربعين سنة، وله ديوان كبير يفيض بمذهب وحدة الوجود، وأشهر قصائده تلك المعروفة بالتائية الكبرى، وقد بعث ابن عربي يستأذن ابن الفارض أن يشرح التائية، فرد عليه ابن الفارض، قائلا: كتابك الفتوحات المكية شرح لها، وإذا طالعنا التائية لوجدنا جميع مراحل التصوف، واردة واضحة، بلا غموض، فالوجد، والسكر، والجرأة، نراها في هذه الأبيات:

ففي حان سكري حان شكري لفتية ... بهم تم لي كتم الهوى مع شهوتي
فطوفان نوح عند نوحي كأدمعي ... وإيقاد نيران الخليل كلوعتي
ولولا زفيري أغرقتني دمعتي ... ولولا دموعي أحرقتني زفرتي
وحزني ما يعقوب بث أقله ... كل بلي أيوب بعض بليتي

ثم يعبر عن الفناء بقوله:

حليف غرام أنت لكن بنفسه ... وأبقاك وصفا منك بعض أدلتي
فلم تَهْوَني ما لم تكن فيّ فانيا ... تفن ما لا تجتلي فيك صورتي

ثم ينتقل إلى الاتحاد، فيقول:

وها أنا أبدي في اتحادي مبدئي ... وأنهي انتهائي في تواضع رفقتي
جلت في تجليها الوجود لناظري ... ففي كل مرئيٍ أراها برؤية
وأشهدت غيبي إذ بدت فوجدتني ... هنالك إياها بجلوة خلوتي
وطاح وجودي في شهودي وبنت عن ... وجود شهودي ماحيا غير مثبت
وعانقت ما شاهدت في محو شاهدي ... بمشهده للصحو من بعد سكرتي
ففي الصحو بعد المحو لم أكُ غيرها ... وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلت
فوصفي إذ لم تدع باثنين وصفها ... وهيئتها إذ واحد نحن هيئتي

ثم يستطرد قائلا:

فقد رُفِعَت تاء المخاطب بيننا وفي ... رفعها عن فُرْقِه الفرق رفعتي

وقد يكون هذا البيت هو سبب تسمية القصيدة بالتائية بالإضافة إلى نهاية كل بيت بحرف التاء، والمراد بالتاء هنا هو الحرف الذي يفرق بين أنا وأنت، أي الفرق بين مخاطبة الله ﷻ للإنسان في مقام الفرق، بينما من وصل إلى مقام وحدة الوجود، فقد حذف حرف التاء وأصبح العبد والرب – عنده – واحدا. ثم يعبر عن اعتقاد العوام وتوحيدهم المبني على التفرقة بين وجود المخلوق ووجود الخالق، فيقول:

وفارق ضلال الفرق فالجمع منتج ... هدى فرقه بالاتحاد تحدت

ثم يصوغ في نهاية المطاف عقيدة وحدة الوجود في قالب شعري، يقول فيه:

إلي رسولا كنت مني مرسل ... وذاتي بآياتي عليّ استدلت

سمت بي لجمعي عن خلود سمائها ... ولم أرض إخلادي لأرض خليفتي

ولا فلك إلا ومن نور باطني ... به مَلَك يهدي الهدى بمشيئتي

ولا قطر إلا حل من فيض ظاهري ... به قطرة عنها السحائب سحت

ومن مطلعي النور البسيط كلمعة ... ومشرعي البحر المحيط كقطرة

فكلي لكلي طالب متوجه ... وبعضي لبعضي جاذب بالأعنة

وكما ادعى ابن عربي أن فتوحاته إلهام من الله ﷻ، نرى ابن الفارض يتبجح بادعائه بأن سيدنا رسول الله ﷺ ظهر له أكثر من مرة يأمره بتغيير اسم القصيدة إلى نظم السلوك، فلبى ما أمره به الرسول ﷺ – حسب زعمه–، وكما حظي ابن عربي بلقب سلطان العارفين عند الصوفية، لُقب ابن الفارض بسلطان العاشقين، ويعلق الدكتور زكي مبارك على هذا الاسم بقوله: "وقد شهد [أي ابن الفارض] لنفسه بهذه السلطنة الوجدانية في مواضع كثيرة، فجعل نفسه إمام العاشقين، ومحبوبه إمام الملاح، فيقول:

يحشر العاشقون تحت لوائي ... وجميع الملاح تحت لواكا

الفصل لسادس

نتائج

نظرية وحدة الوجود

١. وحدة الأديان والاعتقادات

٢. تعطيل الثواب والعقاب

٣. تفضيل الولاية على النبوة

٤. الكشف عن سر الربوبية

الفصل السادس

نتائج نظرية وحدة الوجود

ما استطاع أحد من المعاصرين لنشأة هذه الأفكار أن يتنبأ بنتائج نظرية وحدة الوجود، ومحاولات ابن عربي لإلباسها ثوب الإسلام، ولن نحدد نحن نتائج هذه الأفكار الدخيلة على الإسلام، وإنما سنترك المجال لصاحب النظرية أن يقدم لنا النتائج التي توصل إليها.

١ . وحدة الأديان والاعتقادات:

توصل ابن عربي بخياله الفاسد إلى أن أي معبود هو الله على الحقيقة، وقد نصح الصوفية بأنهم أحرار يعبدون ما يشاءون، ويقول لهم: أفرد أو أشرك، فالله ذات كل شيء، وتراه يوجه الناس إلى عدم التقيد باعتقاد معين، فالبوذي، والساجد لصنم، والعابد للثالوث، والقائل بالعقل الأول.. كل أولئك، وغيرهم عند ابن عربي يعبدون الله، ولكن من توقف منهم عند معتقده فقط، فهذا هو نقص الفهم، والكامل عند الشيخ الأكبر هو: "والأكمل مِنَ الكامل من اعتقد فيه [أي في الله] كل اعتقاد، وعرفه في الإيمان، والدلائل وفي الإلحاد، فإن الإلحاد ميل إلى اعتقاد معين من الاعتقادات، فاشهدوه بكل عين إن أردتم إصابة العين، فإنه عام التجلي له في كل صورة وجه، وفي كل عام حال". وليس من الغريب أن يكتب ابن عربي أبوابا في فتوحاته يحث الناس فيها على ترك التوكل، وترك المراقبة، وما إلى ذلك، ونضرب أمثلة منها ما جاء في باب ترك التوكل:

أنت الخليفة فيما أنت مالكه ... والحق ليس به نفع ولا ضرر
ترك التوكل حال ليس يعلمه ... غير الوكيل فلا روح ولا بشر
كيف التوكل والأعيان ليس سوى ... عين الموكل لا عين ولا أثر

ويقول في باب ترك المراقبة:

لا تراقب فليس في الكون إلا ... واحد العين وهو عين الوجود
فتسمى في حالة بمليك ... وتكنى في حالة بالعبيد
ودليلي ما جاء في افتقار ... الفقير إلى الغني الحميد
وهكذا جاء في التلاوة نصا ... في قريب من سعده وبعيد

ثم جاءوا بـ "أقرضوا الله قرضا" فبدا النقص وهو عين المزيد

ويحذر ابن عربي من خطورة الإنكار على أصحاب الملل الفاسدة، فيقول: "فإياك أن تتعبد بعقد [أي بدين] مخصوص، وتَكْفُرَ بما سواه، فيفوتك خير كثير، بل يفوتك الأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولي [أي قابلا] لصور المعتقدات كلها، فإن الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد، فإنه يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة-١١٥]، فالكل مصيب، وكل مصيب مأجور، وكل مأجور سعيد، وكل سعيد مرضي عنه".

ويوجز ابن عربي عقيدته بقوله:

عقد الخلائق في الإله عقائد وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه

٢. تعطيل الثواب والعقاب:

يمثل الثواب والعقاب عقبة أساسية أمام نظرية وحدة الوجود، فلو أن الله هو الظاهر في كل الوجود، وهو حقيقة كل موجود، فالعبد رب والرب عبد، وقد تساءل ابن عربي كثيرا من المكلف؟ ومن الذي يثيب المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على خطيئته؟ وإذا كنا مظهرا إلهيا، والإنسان في عقيدته مجبور فللقارئ أن يتساءل: لِمَ صار قوم إلى جنة واستقر أقوام في النار؟ ولكن خيال ابن عربي لا يعجزه أن يجد مخرجا لهذه القضية، فتراه ينصح العوام أن يكتفوا بالشريعة، فيفهموا الثواب والعقاب على نحو ما يفهم جمهور المسلمين، بينما يحتفظ هو بذلك السمو الروحاني الخاص بالأقطاب الواصلين، فمن سمت به التجليات إلى مقام الفناء عرف أن لا موجود إلا الله، واستطاع أن يقول أنا الله".

ومن وصل إلى هذا المقام علم أن النار ليس فيها ذلك العذاب المشتق من التعذيب، وإنما عذابها مشتق من العذوبة، فمن دخل النار وجد حلاوة وعذوبة، لا عذابا وسعيرا، وحميما إلى آخر الأوصاف القرآنية عن جهنم، ودركاتها. ويقول:

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده وما لوعيد الحق عين تعاين

وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم على لذة فيها نعيم مباين

نعيم جنان الخلد فالأمر واحد وبينهما عند التجلي تباين

يسمى عذابا مِن عذوبة طعمه وذاك له كالقشر والقشر صائن

٣. تفضيل الولاية على النبوة:

يرى ابن عربي أن هناك نبوة ظاهرة، ونبوة باطنة مستترة، ويعتقد أن النبي يتلقى إلهامه من حجاب أمين الوحي، وليس من مشكاة الحق مباشرة، أما إلهام الولي فإنه أسمى لأنه يتلقى عن الله مباشرة، فالولي يتلقى من نفس المشكاة التي يتلقى منها أمين الوحي جبريل عليه السلام، فتراه يقول في الفصوص: إن الولي يستقي "من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول"، كما أن عند ابن عربي مظهرا آخر يتميز فيه الولي عن النبي، وهو: "أن الرسالة والنبوة - أعني نبوة التشريع ورسالته - تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبدا". ومن أقواله عن النبوة ما يلي: "لم يمت أبو يزيد حتى استظهر القرآن، وهو تنزله عليه ذوقا، ومن استظهر القرآن فقد اندرجت النبوة بين جنبيه، كذا قال رسول الله ﷺ، وهذا الفرق بين تنزله على النبي ﷺ، وبين تنزله علينا، وبين جنبينا من وراء حجابنا، فهو لنا في الظهر لا في الظهور، فنبوتنا مستورة عنا مع كوننا محلا لها، فمن خشع تصدع، ومن علم يخشى". ثم يفسر النبوة والولاية بموجب وحدة الوجود، فيقول:

آلله قال على لسان عبيده	فالصمت في الأكوان نعت لازم
ما ثم إلا من يكلم نفسه	فهو السميع كلامه والعالم
وهو الوجود فليس إلا عينه	هذا هو الحق الصريح المحكم

ويوجز عقيدته بقوله: فإذا علمت هذا فقل على الإطلاق: إن الولاية أفضل من النبوة مطلقا".

٤. الكشف عن سر الربوبية:

يبوح شيخ الطريقة البرهانية في كتابه "تبرئة الذمة في نصح الأمة" بسر الربوبية الذي لو عرف بطلت النبوة، فيقول: "يظن البعض أن سيدنا جبريل عليه السلام كان الواسطة بين الله تبارك وتعالى، وبين سيدنا رسول الله ﷺ، ومن ظن هكذا فقد دلل على عدم معرفته، إذ لو صح ذلك لتعين وجود خلل في كلمة التوحيد، فبدلا من لا إله إلا الله محمد رسول الله، تكون لا إله إلا الله محمد رسول رسول الله، ثم يفسر فريته هذه بحكاية طويلة نختصرها خشية الملل دون إخلال بمعناها، مؤداها أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عليه السلام عن كيفية تلقيه الوحي عن ربه، فقال جبريل إنه يُستدعى إلى البيت المعمور، ثم يُنصت إلى صوت ينبعث من داخله، فيتلقى

عنه الوحي، فأراد أن يكشف الرسول لجبريل ما خفي عنه، فأمره أن يصعد للبيت المعمور، ويقول: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ففتح له البيت، وكانت المفاجأة الكبرى أن يجد من يتلقى عنه الوحي جالسا داخل البيت هو نفسه رسول الله ﷺ، وهو في نفس اللحظة لم يغادر مكانه في المدينة، فقال له: يا رسول الله إذا كان الأمر منك وإليك، فلماذا تعبي؟ فرد عليه قائلا: للتشريع يا أخي يا جبريل". لا حول وقوة إلا بالله العلي العظيم.

لا تتعجب أخي الكريم من هذيان البرهاني، وما ذهب إليه، فقد سبقه الشعراني في كبريته الأحمر، حيث يقول في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه-١١٤]، فيقول: اعلم أن رسول الله ﷺ أعطي القرآن مجملا قبل جبريل من غير تفصيل الآيات والسور، فقيل له: ولا تعجل بالقرآن الذي عندك قبل جبريل فَتُلقيه على الأمة مجملا، فلا يفهمه أحد عنك لعدم تفصيله". ونحن نقترب الآن من فهم كلام الصوفية عن سر الحقيقة، حيث يقولون: "إن سر الحقيقة ما لا يُفْشَى من حقيقة الحق في كل شيء". إن سر الربوبية المخزون عند الصوفية هو أن محمدا هو التجسد الإلهي، وحقيقته هي الذات القديمة قدم الخالق مع التعين الأول، والاسم الأعظم، ولو عرف الناس أن الراسل هو محمد الجالس في البيت المعمور، والمرسل إليه هو محمد الجالس في المدينة، ففيم النبوة؟!، وهذا ما عبروا عنه في افترائهم على لسان جبريل: إذا كان الأمر منك وإليك ففيم تعبي؟ أي فِيمَ النبوة، وجاء الرد: "للتشريع يا أخي يا جبريل"، **فالشريعة - عندهم - أصبحت مجرد ستار تحجب الأسرار، وبالتالي يبطل العلم**، إذ لو أذاع العلماء أن النبي أصل الموجودات وحقيقتها، وأنه السر الساري في كل الوجود، وأن نور النبي وحقيقته هي بعينها حقيقة الذات الإلهية القديمة، تكون الموجودات هي في نفس الوقت جزء من ذات الله، ويكون الفاعل في كل حركة وسكنة هو الله في الحقيقة، ولذا تنتفي الشريعة والأحكام[وهذا هو غرضهم]، ويختلط الحلال والحرام، وانتفى معنى الثواب والعقاب، والجنة والنار، وهذا مقام الجمع عند الصوفية، ومن وصل فهمه من المشايخ إلي هذا المستوى، رفع عن نفسه التكليف، ويشير إلى ذلك الجيلاني في الغوثية، حيث يقول: "من أراد العبادة بعد الوصول، فقد أشرك بالله العظيم: لأنه بعد أن أدرك حقيقته وعرف سره يمكنه أن يقول لمن الملك اليوم؟ فإذا أراد العبادة بعد تحققه من هذا المقام فقد أراد أن يرجع إلى وجوده المنفصل في مقام الفرق، وبالتالي يكون قد أشرك وجوده مع وجود الله".

ملخص الباب الثاني

- مزج ابن عربي أفكار وحدة الوجود المعروفة قبل الإسلام، مع نظرية الفيض عند أفلاطون، وبدأ يحدث الناس عن أفكاره بأسلوب ملغز غامض: خشية اعتراض الناس على أقواله، وقد يحدث له ما حدث لشيخه وللحلاج من قبله.
- بنى ابن عربي نظريته عن وحدة الوجود من فناء أبي سعيد الخراز، وشطحات البسطامي، ونظرية قدم نور النبي ﷺ للحلاج، وطلع على الناس بوحدة الوجود، والتي حام حولها في الفتوحات المكية، وصرح بمراميها في كتبه الأخيرة، ولا سيما فصوص الحكم.
- أطلق ابن عربي على حقيقة الوجود اسم الحقيقة المحمدية، وجعلها أصل الموجودات، وهي في كل موجود بحقيقتها، ولا تقبل التجزؤ، وإذا نُسبت هذه الحقيقة إلى معلومة "القديم" [أي الله] سميت الحق الخالق..، وإذا نُسبت إلى معلومة "الحادث" أي الخلق سميت بالمخلوق.
- فسر ابن عربي القرآن الكريم، وراح يلوي حقائقه لإثبات مزاعمه، وفي كثير من الأحيان يستشهد بجزء من آية، ولا يستكملها، وفيها هدم كامل لمزاعمه.
- اختلط الخالق بالمخلوق في وحدة الوجود، وضاعت النبوة، وفقدت التكاليف الشرعية مرادها، وابن عربي يأمر بعكس ما يأمر به الإسلام، مثل ترك التوكل، وترك المراقبة...
- يؤمن ابن عربي بوحدة الأديان، وصحة جميع الاعتقادات، بل إنه يرى من يتمسك بعقيدة واحدة يخسر خيرا كبيرا، والعارف عنده من يعتقد جميع الاعتقادات.

- يستوي الثواب والعقاب عند ابن عربي، بل إن حقيقة الجنة هي نفسها عين النار، ويرى أنه ليس في النار عذاب وسلاسل وحميم كما يفهم الناس، بل هو عذاب من العذوبة واللذة.
- يفضل ابن عربي الولاية عن النبوة، ويرى أن القرآن يتنزل على العارفين كما تنزل على النبي ﷺ، ويذكر من استظهر القرآن من العارفين كأبي سعيد الخراز.
- أدى ظهور أفكار ابن عربي إلى تشجيع الآخرين على القول بنفس المزاعم، وعندما كتب ابن الفارض تائيته رأى فيها ابن عربي مادة تصلح أن يشرحها، فقال ابن الفارض: الفتوحات المكية هي شرح التائية.

الباب الثالث

ابن سبعين والوحدة المطلقة

١. من ابن سبعين؟

٢. دور ابن سبعين في الوحدة

٣. نشأة نظرية الوحدة المطلقة

٤. مشايخ الطريقة السبعينية

٥. تحذير من الأندلس

الفصل الأول

مَنْ ابن سبعين؟

ولد أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم الأندلسي المعروف بابن سبعين [في سنة ٦١٣ هـ]، وفي نفس المدينة التي ولد بها ابن عربي، وتوفي بمكة المكرمة [سنة ٦٦٩ هـ]، ثم انخرط في سلك الطريقة الشوذية، نسبة إلى شيخه الصوفي الأندلسي: عبد الله الشوذي، ثم أسس فيها بعد الطريقة السبعينية، "وقد حصل ابن سبعين على الكثير المتنوع من المعارف، فتعلم فنون الفكر الإسلامي واليوناني، كما تعلم المذاهب، والديانات غير الإسلامية، وحذق في علم الحروف [الجفر]، والطب، وغير ذلك من المعارف"(١)، ومن أهم مؤلفاته: بُد للعارف، المسائل الصقلية، ورسالة الإحاطة، وكتاب الألواح، والرسالة النورية في الذكر، وبعض الرسائل الأخرى، وقيل أنه مات منتحرا أو مسموما، وفي ذلك ورد: "وقد مات منتحرا بمكة بأن قطع شرايين يده حتى تصفى دمه"(٢).

ويعد كتابه " بُد العارف" من أهم كتبه، وقد أمعن الرجل في الرمز في كتاباته، مما جعل المتخصصين في التصوف يحاولون فك رموز ابن سبعين، ومنها مراده من كلمة "بد"، فيقول د. التفتازاني: البد هو المعبود، بينما ينفي يوسف زيدان هذا الرأي قائلا: ولكننا نرى أن لاستعمال ابن سبعين لكلمة [بُد] مغزى غير ذلك الذي ذهب إليه الدكتور التفتازاني ومحقق الكتاب! فقد شغف ابن سبعين بالإطلاع على الديانات، والمذاهب القديمة، ومن بينها المذاهب الهندية: ويحدثنا البيروني(٣)عن مذهب أصحاب البُد، وهم فرقة هندية، عليها مسحة صوفية عرفانية، وكلمة [البُد] عندهم تعني البرق الذي أخرجه "براهما" من باطن الأرض، كما يخبرنا

١ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي، ليوسف زيدان ١١٣

٢ تاريخ الإسلام، مجلد ٣٠، ورقة ٢٨، نقلا عن ابن سبعين وفلسفته الصوفية، للدكتور أبي الوفا التفتازاني ٦٣

٣ في تحقيق ما للهند من مقولة ص ٣١

الشهرستاني في الملل والنحل[1]، أن هناك جماعة من البراهمة يسمون أصحاب "البددة"، ومعنى البُد عندهم: شخص في هذا العالم اسمه "شاكمين"، وتفسيره: السيد الشريف، ودون مرتبة البُد، مرتبة البُوديسعية، ومعناها الإنسان الطالب سبيل الحق،.. وعلى ذلك فالأرجح أن يكون رمز البُد عند ابن سبعين مأخوذا بمعناه الحرفي من تلك المذاهب القديمة التي شغف ابن سبعين بها"[2].

١ ص ٥٩٦

٢ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي ليوسف زيدان ١١٤

الفصل الثاني

دور ابن سبعين في الوحدة

لم يترك ابن سبعين أصحاب الفرق والآراء والفلاسفة إلا انتقدهم، وخطَّأ موقفهم، فيقول: "الفقيه: صالح الأصل فاسد الفرع، صادق الجنس كاذب النوع، والأشعري: فاسد الأصل قبيح الفرع، والفيلسوف: كثير السلاح قليل النطاح، طويل العدة قصير المدة والنجدة، وأما الصوفي: فإن حسناته سيئات المقرب،.. ويستعيذ ابن سبعين من توقف أرسطو وتشتيت مسائله الإلهية، ومن شكوك المشائين، وحيرة أبي نصر الفارابي، وتمويه ابن سينا في بعض الأمور، واضطراب الغزالي وضعفه، وتردد لبن الصائغ، وتنوع لبن رشد، وتلويحات السهروردي، وتشويش ابن خطيب الري [الفخر الرازي]، وتخليط الأقدمين، ورموز جعفر [الصادق] المحتملة، ومن شطحات بعض رجال الرسالة القشيرية، ومن تصريف ابن مسرة في الحروف، ومن تهذيب بعض الأسماء على مذهب ابن قسي صاحب "خلع النعلين"، وهكذا انتقد ابن سبعين جميع السابقين عليه"[١].

وينسب لابن سبعين اعتقاده بأن النبوة مكتسبة، وقد كان سبب نفيه من المغرب، أنه قال: "لقد حجر ابن آمنة واسعا بقوله لا نبي بعدي"،[٢] "وكان [ابن سبعين] يُجاور في غار حراء يرتجي فيما ينقل عنه أن يأتيه فيه وحي، كما أتى النبي ﷺ بناء على ما يعتقده من العقيدة الفاسدة من أن النبوة مكتسبة، وأنها فيض يفيض على العقل إذا صفا، فما حصل له إلا الخزي في الدنيا والآخرة أن مات على ذلك، وقد كان إذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم: كأنهم الحمير حول المدار، وأنهم لو طافوا به [أي بابن سبعين] كان أفضل من طوافهم بالبيت".

---

١ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي، ليوسف زيدان ١١٥

٢ فوات الوفيات ١ : ٢٤٨، نقلا عن ابن سبعين وفلسفته الصوفية، للدكتور أبي الوفا التفتازاني ٦٣

ومن المعلوم أنه لم يدخل المسجد النبوي في حياته، ويُفَسر ذلك "أنه صده عن زيارة رسول الله ﷺ أنه كان إذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة – على ساكنها أفضل الصلاة والسلام – يهرق منه دم كدم الحيض، والله تعالى أعلم بحقيقة أمره"[١].

وكان ابن سبعين يتعمد اصطناع الألغاز والغموض الشديد في أسلوبه حتى أن كبار الصوفية، ومنهم الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد جلس مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب من الظهر، ثم قال: "إنه [أي ابن سبعين] يسرد كلاما، تعقل مفرداته، ولا تعقل مركباته"[٢].

وقد عاشت الطريقة السبعينية في مصر عشرات السنين [من سنة ٦٦٩ هـ] بعد انتحار شيخها، وحتى عصر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله والمتوفي [سنة ٧٢٨ هـ]، ويعود الفضل الأول في القضاء نهائيا على هذه الطريقة إلى شيخ الإسلام، وما بذله لبيان ضلال الطريقة وأتباعها.

---

١ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للتلمساني ٢: ١٩٦

٢ ابن سبعين وفلسفته الصوفية، للدكتور أبي الوفا التفتازاني ٩١

الفصل الثالث

نشأة نظرية الوحدة المطلقة

لم يكن ابن سبعين وحده القائل بالوحدة المطلقة، وإنما هو واحد من أبرز القائلين بها، ومنهم السهروردي المقتول، والشوذي، والنفري، وغيرهم، وتختلف الوحدة المطلقة عند هؤلاء عن وحدة الوجود أن الأخيرة تثبت حقيقة واحدة هي الحقيقة المحمدية، والتي لها مظهران: مظهر الإله من ناحية، ومن الناحية أخرى مظهر الخلق، أما الفكرة التي يدور حولها مذهب ابن سبعين في الوحدة المطلقة هي أن الوجود واحد وهو وجود الله فقط، أما سائر الموجودات الأخرى، فوجودها عين وجود الواحد.

ويفرق ابن سبعين في الوجود بين ما يسميه "الهوية"، وهي الكل، ويقصد بها الربوبية، وما يسميه "الماهية"، وهي الجزء، ويقصد بها العبودية، وتقوم نظريته على فكرة اتحاد الهوية، والماهية في وحدة مطلقة: لذا يقول ابن سبعين: "والوجود إما واجب الوجود، وهو: الكل والهوية، وإما ممكن الوجود، وهو: الجزء والماهية، فالربوبية هي الهوية التي هي الكل، والعبودية هي الماهية التي هي الجزء، فما من حقيقة منسوبة إلى الماهية بالأصالة إلا واسمها جزء، ولا وجود لكلٍ إلا في الجزء، ولا وجود لجزء إلا في الكل، فاتحد الكل بالجزء، فارتبطا بالأصل وهو الوجود، وافترقا وانفصلا بالفرع، فالعامة والجهال غلب عليهم العارض، وهو الكثرة والتعدد، والخاصة والعلماء غلب عليهم الأصل وهو وحدة الوجود"[1].

يقول د. التفتازاني في أطروحته للدكتوراه حول لبن سبعين، وفلسفته الصوفية: "استوعب ابن سبعين كثيرا من الفلسفات، والمذاهب الإسلامية، وغير الإسلامية، ثم صبغها بصبغة معينة، وتمثلها على نحو خاص به، واستطاع أن يخرج من جماع هذه الفلسفات، والمذاهب بمذهب صوفي متسق الأجزاء"، ثم يستطرد، قائلا: "كان ابن سبعين قائلا بالوحدة المطلقة، التي يسميها أحيانا بالإحاطة، يعني الإحاطة الوجودية، والتحقق عند ابن سبعين هو

---

١ الصوفية في نظر الإسلام، لسميح عاطف الزين ٦٧

علم الوحدة، والمحقق هو الكامل الذي أثبت الوجود المطلق الواحد، وعلم التحقيق عنده رتبة أعلى من علوم الفقهاء، والمتكلمين، والصوفية، والفلاسفة"[١].

ويحدثنا شيخ مشايخ الطرق الصوفية الأسبق عن علاقة ابن عربي بابن سبعين، فيقول: "وفي رأينا أن اعتداد ابن سبعين بنفسه اعتدادا كبيرا، وهو الذي جعله لا يعترف لابن عربي، ولا لغيره من معاصريه بأي فضل، بل جعله يحقره"، ثم يستطرد قائلا: "أما أوجه التشابه التي نجدها بين ابن عربي وابن سبعين في آرائهما، وإدراج خصومهما لهما في فئة واحدة، هي فئة القائلين بالوحدة، فهو لا يعني في رأينا انتماء ابن سبعين إلى ابن عربي، وإنما يعني أن **كليهما قد استمد من مصدر واحد، وتأثر بمؤثرات واحدة، فمزج التصوف بالفلسفة، والقول بالوحدة"**، ثم يقرر في نفس الموضع أنهما استمدا من مصدر واحد سابق هو مدرسة ابن مسرة التي أذاعت آراء الأفلاطونية الحديثة".

ومن أقوال ابن سبعين: "رَبٌّ مالك، وعبد هالك، ووهم حالك، وحق سالك، وأنتم ذلك، الله فقط، والكثرة وهم"،[٢] اختلط في الإحاطة الزوج مع الفرد، واتحد فيه النجم مع الورد، وبالجملة السبت هو الأحد، والمُوَحِّدُ هو عين الأحد، ويوم الفرض هو يوم العرض، والذاهب من الزمان هو الحاضر، والأزل في العيان هو الآخر، والباطن في الجنان هو الظاهر، والمؤمن في الجنان هو الكافر، والغبي هو الولي، والفقير هو الغني، وهذه حكمية لا أحداث وهمية"، ثم يؤيد مذهبه بشعر نصه[٣]:

من كان يبصر شأن الله في الصور ... فإنه شاخص في أنقص الصور
بل شأنه كوني بل كونه كنهه ... فإنه جملة من بعضها وطري
إيه فأبصرني إيه فأبصره فلا ... تقل لي إن النفع في الضرر

---

١ ابن سبعين وفلسفته الصوفية، للدكتور أبي الوفا التفتازاني ٦٧

٢ ابن سبعين وفلسفته الصوفية للدكتور أبي الوفا التفتازاني ٢٣٦

٣ الصوفية في نظر الإسلام لسميح عاطف الزين ٥٠٤

وكان ابن سبعين، يقول: "الله فقط، والكثرة وهم، فإنه على قوله: لا موجود إلا الله، ولهذا كان يقول هو وأصحابه في ذكرهم "ليس إلا الله، بدلا من قولنا: لا إله إلا الله، ولهذا كان يسميهم الشيخ قطب الدين بن القسطلاني: الليسية"[1].

١ مجموع الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية ١: ٩١

الفصل الرابع

مشايخ الطريقة السبعينية

إذا نظرنا إلى سلسلة مشايخ الطريقة السبعينية التي أسسها ابن سبعين لوجدنا عجبا، ولولا أننا ننقل عن شيخ مشايخ الطرق الصوفية الدكتور التفتازاني، لاتهمنا الصوفية، وأتباعهم بالافتراء على الأولياء والمتقين: لذا نكتفي بالنقل الحرفي من كتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية، كما ورد: "والطريقة السبعينية التي أسسها ابن سبعين ليست كسائر الطرق الصوفية الأخرى، في ترتيب الإسناد، ترتيبا زمنيا ينتهي إلى الرسول ﷺ، وإنما هي طريقة تجعل استمدادها من عديد من الصوفية، والفلاسفة، مسلمين، وغير مسلمين، ودون مراعاة للترتيب الزمني، فقد أورد الششتري تلميذ ابن سبعين إسناد هذه الطريقة السبعينية في أبيات من قصيدة له، ومن عجب أنه يذكر في عداد شيوخها: هرمس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، والإسكندر الأكبر، ويذكر أيضا الحلاج، والشبلي، والنفري، والحبشي، وقضيب البان، والشوذي، والسهروردي المقتول، وابن الفارض، وابن قسي، وابن مسرة، وابن سينا، والغزالي الطوسي، وابن طفيل، وابن رشد، وأبا مدين الغوث، وابن عربي، والحراني، وعدي، وابن سبعين، وبهذا تكون الطريقة السبعينية طريقة تلفيقية، بمعنى أنها تجمع بين ألفاق من المذاهب الإسلامية، وغير الإسلامية"[1].

والشيء الذي يستحق أن نعلق عليه هو محاولات الدكتور التفتازاني المستميتة في الدفاع عن ابن سبعين، فكل قول يُظهِرُ فساد عقيدة ابن سبعين يحاول أن يجد له تأويلا، أو مخرجا، وكل ثناء على ابن سبعين من أتباع وحدة الوجود، يسرده التفتازاني بحماس واضح، ويقيم أفكار ابن سبعين بقوله: "ولو فرض أننا سألنا ابن سبعين نفسه هل كان صوفيا، أو كان فيلسوفا؟، لكانت إجابته: إنه ليس صوفيا، ولا فيلسوفا، وإنما هو محقق جامع لكل الكمالات التي للفقيه، والمتكلم، والفيلسوف، والصوفي، ويزيد عليها بعلم ليس من جنس ما يُكتسب،

---

١ ابن سبعين وفلسفته الصوفية، للدكتور أبي الوفا التفتازاني ١٦٩

وهو علم الوحدة المطلقة، أو علم التحقيق، فيكـون بـذلك في رتبـة أعـلى مـن رتبـة الصـوفي، والفيلسوف"[١].

ثم يختم د. التفتازاني كتابه بقوله: "ونحن نرجو أن نكون بهذه الدراسة التي قدمناها عن حياة ابن سبعين ومذهبه، قد قمنا ببعض ما يجب علينا من العناية بتراثنـا الإسـلامي، ودراسـة أهم شخصياته التي كانت مجهولة، أو شبه مجهولة"[٢].

إن هذه الرسالة العلمية التي قدمها الدكتور التفتازاني تثير حمية المسلم المؤمن، حين يقـرأ كلاما بعيدا كل البعد عن كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، ثم يتكلف صاحبها في تبرير أقـوال ابن سبعين والدفاع عنه، ويناقش كون ابن سبعين صوفيا أو فيلسوفا ؟ ودون أن يتعـرض فيهـا النقاط التالية:

١. تقييم أفكار ابن سبعين، وتحديد موقعها مـن الإسـلام عـلى هـدي مـن الكتـاب والسنة.
٢. كيف يتلقى ابن سبعين عن مشايخ مسلمين، وغير مسلمين دون مراعاة للترتيـب الزمني؟
٣. كيف يمزج ابن سبعين أفكـارا إسـلامية، وغـير إسـلامية، ثـم نعتـبره مـن أهـم شخصيات التراث الإسلامي؟!
٤. كيف يجمع ابن سبعين الكمالات، وهو الواصل إلى علم الوحدة المطلقة، ويكـون في رتبة أعلى من الصوفي والفلسفي؟، هل الكمالات في هدم الإسلام وعقيدته؟
٥. هل إلقاء الضوء على شخصية مجهولة كابن سبعين، لا يُعرف عنهـا إلا دورهـا في انحراف أفكار الصوفية يعد عملا واجبا علينا للعناية بتراثنا؟!.
٦. فمتى ينتصر مشايخ الطرق لعقيدة أهل السنة والجماعة ؟ وقد كان حريا بالـدكتور التفتازاني رحمه الله أن ينضم لكثير من العلماء القدامى والمعاصرين الذين تصـدوا

١ ابن سبعين وفلسفته الصوفية، للدكتور أبي الوفا التفتازاني ٤٥٦
٢ ابن سبعين وفلسفته الصوفية، للدكتور أبي الوفا التفتازاني ٤٧٠

لهذه التيارات المنحرفة، وأن ينبه الناس، ويصدر الفتاوى التي تكشف خطورة هذه الشطحات، وتلك الفلسفات، ومن هؤلاء: أبو حيان الأندلسي الذي يُصدر تحذيرا من الأندلس - موطن ابن سبعين - يحذر الناس من الوقوع في هذه المتاهات الضالة.

الفصل الخامس

تحذير من الأندلس

ولد محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي [سنة ٦٥٤ هـ]، وهو صاحب تفسير القرآن الكريم المسمى البحر المحيط، وقد عاصر ابن عربي المولود أيضا في الأندلس، وقد أدرك ابن حيان خطورة أفكار ابن عربي وهذا واضح من كلام تاج الدين الحفني تلميذ أبي حيان الذي يكرر في كتابه الدر اللقيط من البحر المحيط تحذير الناس من شر ابن عربي، فيقول: "سمعنا بعض الضالين – وهو ابن عربي صاحب الفتوح المكية – وكان ينبغي أن يُسمى بالقبوح الهلكية، وأنه يزعم أن الولي خير من النبي: لأن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة، والنبي يأخذ بواسطة عن الله: ولأن الولي قاعد في الحضرة الإلهية، والنبي مُرسل إلى قوم، ومن كان في الحضرة أفضل ممن يرسله صاحب الحضرة،... إلى أشياء من الكفريات، والزندقة، وقد كَثُرَ مُعَظِّمو هذا الرجل في هذا الزمان من غلاة الزنادقة القائلة بالوحدة، نسأل الله السلامة في أدياننا وأبداننا"[1].

ويقول في موطن آخر: "ومن بعض اعتقادات النصارى استنبط من تستر بالإسلام ظاهرا، وانتمى إلى الصوفية حلول الله في الصور الجميلة، ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة، كالحلاج، والشوذي، وابن أحلى، وابن عربي المقيم في دمشق، وابن الفارض، وأتباع هؤلاء، كابن سبعين، والششتري تلميذه، وابن مُطرف المقيم بمرسية، والصفار المقتول بغرناطة، وابن لباج، وابن الحسن المقيم بلوزقة، وممن رأيناه يُرمى بهذا المذهب: "العفيف التلمساني"، وله في ذلك أشعار كثيرة، "وابن عياش المالقي" الأسود الأقطع المقيم بدمشق، "وعبد الواحد بن المؤخر" المقيم بصعيد مصر، "والأيكي العجمي" الذي كان تولى المشيخة بخانقاة سعيد السعداء بالقاهرة من ديار مصر، "وأبو يعقوب بن مبشر" تلميذ الششتري المقيم بحارة زويلة بالقاهرة، "والشريف عبد العزيز المنوفي"، وتلميذه:

---

١ الدر على هامش البحر المحيط، تاج الدين الحفني ٦: ١٥٦

"عبد الغفار القوصي"، وإنما سردت أسماء هؤلاء: نصحا لدين الله - يعلم الله ذلك - وشفقة على ضعفاء المسلمين، وليحْذَروهم، فهم شر من الفلاسفة الذين يكذبون الله ورسله، ويقولون بقدم العالم، وينكرون البعث، وقد أولع بجهلة من يلتمس التصوف بتعظيم هؤلاء، وادعائهم أنهم صفوة الله تعالى، وأولياؤه، والأمر فيهم كما ذكرت"[١].

١ الدر على هامش البحر المحيط تاج الدين الحنفي ٣: ٤٤٨ بتصرف.

ملخص الباب الثالث

- يرى ابن عربي عقيدة وحدة الوجود التي تقول بوجود واحد هو الحقيقة المحمدية، ولها مظهران هما الخالق والمخلوق، أما ابن سبعين فقد أوصل وحدة الوجود إلى الوحدة المطلقة، حيث يقول: إن الوجود وجود واحد فقط هو وجود الله، وليس لسائر الموجودات وجود مستقل، وإنما وجودها هو عين الوجود الواحد.
- يرى أصحاب الوحدة المطلقة أن شهادة التوحيد لا ينبغي أن تكون "لا إله إلا الله": لأنها تُوحي باثنينية الخالق والمخلوق، وهم يرون التحقيق في قول: "ليس إلا الله": ولذا سُموا بالليسية.
- يعتقد ابن سبعين أن النبوة مكتسبة، وكان يجاور في غار حراء ينتظر الوحي، ويقول: لقد حجر ابن آمنة واسعا، حيث قال: لا نبي بعدي.
- يعترف ابن سبعين أن مكونات نظريته، هي: أفكار تلفيقية جمعها الرجل من الفلسفة القديمة، حتى أنه يذكر في سلسلة مشايخ طريقته كل من: "هرمس، وأفلاطون، وأرسطو، والإسكندر الأكبر"، بالإضافة إلى أغلب الفلاسفة المسلمين أصحاب الشطحات، والأفكار الباطنية كالحلاج، وابن رشد، وابن سينا،.. وغيرهم.
- مشايخ الطريقة السبعينية ليس عندهم شرط التلقي، أو السماع، أو حتى المعاصرة بين الشيخ والمريد، كما يعرف الناس عن طرق تلقي العلم، ولكن مشايخهم لا يحجزهم حاجز الزمن، بل هو مطوي لهم، ولذلك ضمت سلسلة مشايخهم أشخاصا من هنا وهناك لا يجمعهم زمان، ولا مكان.
- يجد أمثال ابن سبعين حظهم من العناية، والاهتمام من الباحثين، وطلاب الدرجات العلمية كالماجستير، والدكتوراه، بينما يقل الاهتمام بمن قام على أكتافهم هذا الدين، ومن خدمه من علماء السلف والتابعين.
- غِيرة علماء المسلمين على ظهور هذه الأفكار، ومنهم على سبيل المثال الحفني، وأستاذه أبو حيان الأندلسي، الذي شغله الأمر، وهو يكتب تفسيره للقرآن، ظهر ابن عربي في الأندلس، وبدأت أفكاره تنتشر بين الناس، ويظهر لها الأتباع، فما كان من الرجل إلا

أن سجل اعتراضه على بروز هـذه الأفكـار، بـل إنـه راح يحصي أشـهر أتبـاع وحـدة الوجود في زمانه وأماكنهم، تحذيرا للناس من خطورة أفكارهم على دين الإسلام، ويا ليت علماءنا اليوم يتأسون بنهج علماء سلفنا الصالح.

الباب الرابع

عبد الكريم الجيلي والإنسان الكامل

١. الجيلي على طريق الوحدة

- حياة أفلاطون إلى اليوم
- الدنيا على ظهر حوت

٢. أصول نظرية الإنسان الكامل

- الحقيقة المحمدية نقطة وحدة الوجود
- الحقيقة المحمدية أصل الموجودات

الفصل الأول

الجيلي على طريق الوحدة

وضع ابن عربي أسس نظرية وحدة الوجود، واعتبر اللاهوت والناسوت مجرد وجهين لحقيقة واحدة، والناظر إلى ظاهرها يسميها: خَلْقًا، أو الحقيقة الكلية في الصورة الخَلْقية، والناظر إلى باطنها وحقيقتها يسميها: حقا، أو الحقيقة الكلية في صورة إلهية. وأن الحقيقة الكلية لا تتجزأ، فالإنسان هو المألوه المطلق، والحق هو الإله المطلق، ويعني بهذا كله الإنسان الكامل، الذي هو الحقيقة الكلية المسماة بالحقيقة المحمدية. وقلنا أن ابن عربي فرق مفردات نظريته بين صفحات كتبه، وألغزها عامدا متعمدا: حتى لا يلقى مصير من سبقه من الملاحدة، فصورة الحلاج على الصليب لا تفارق مخيلته، إلا أن أفكاره كانت المادة الخام التي أعاد عبد الكريم الجيلي سبكها في قوالب جديدة، وكان ذلك في القرن التاسع الهجري، حيث خيم على الأمة الإسلامية الضعف والوهن، وأصبحت الأمة كقصعة الطعام التي يتداعى عليها الأكلة من كل فج عميق: لذلك اختلف أسلوب الجيلي في كتاباته عن ابن عربي، واتسم بأنه أكثر وضوحا، وأقل إلغازا وتعقيدا.

وضع الجيلي عددا كبيرا من الكتب والمؤلفات منها: "المناظر الإلهية"، و"الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية"، و"الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم"، وكتاب "حقيقة الحقائق التي هي للحق من وجه ومن وجه للخلائق"، وكتاب "إنسان عين الجود ووجود عين الإنسان الموجود"، وكتاب "الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل"، وبالرغم من استغراقه في الأسلوب الرمزي شأنه شأن فلاسفة الصوفية، إلا أن أسماء كتبه توضح أنه لا ينوي أن يلف أو يدور، ولا يحتاج إلى كثير من المقدمات يؤسس عليها شيئا جديدا، فلبنات النظرية موضوع من قبل، والجيلي يسعى فقط في شرح، وبيان ما غمض منها: لذا يقرر في كتاباته أنه يؤمن بوحدة الوجود، فنراه يقول: "ألا ترى إليه ﷻ أنه واحد، تخيل المشرك الشركة فيه، فالشريك المُعْتَقَد شركته مخلوق، والشِّركة المعتقدة مخلوقة، والاعتقاد مخلوق، والحق ﷻ في كل شيء من ذلك بكماله وذاته، لا يتجزأ، ولا يتعدد، ولا يتكيف، واحد لا ثاني له، فحصل من

هذا أن الشريك هو الحق، والمشرك هو الحق، والشركة هي الحق، وإن شئت أَشْرِكْ، وإن شئت فَأَفْرِد، فما ثم إلا عينك"[١]. ويقصد الجيلي بالشريك هو من يعتقد بثنائية الوجود، وجود لله ووجود للمخلوق، ولإيمانه بالوجود الواحد الذي هو الحقيقة المحمدية، وأنها سر كل موجود، وبالتالي يستوي اعتقاد وحدة الوجود، وهو اعتقاد من أفرد الله بالوجود، ومن أشرك، أو تخيل الشركة في الله، ويقول كذلك: "واعلم أن قولنا الحق والخَلق، والرب والعبد، إنما هو ترتيب حكمي نسبي لذات واحدة، كل ذلك لا يستوفي معناها، ووقوفك مع شيء من تعدد ذلك، زور وتضييع وقت في عين الحقيقة"[٢].

وكما ترى أخي القارئ الكريم، أن الجيلي واضح صريح، يصل إلى هدفه بعبارة سهلة: فالشرك، والكفر، والإيمان - عنده - واحد، وكذلك الخلق والخالق واحد، والمخالف لذلك يُضيع وقته في عين الحقيقة التي بالطبع تخالف الشريعة. ثم يدلي الجيلي بدلوه كما فعل سلفه ابن عربي، فيقول مفسرا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّـهَ﴾ [الفتح-١٠]، فيقول: "إنما بمنزلة ما، وإلا، وتقديره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ [الفتح-١٠]، ما ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّـهَ﴾ [الفتح-١٠]، ومن المعلوم أن محمدا ﷺ بويع، فشهد الله لنفسه أنما بويع إلا الله، فكأنه يقول ما أنت عندما بويعت محمدا، إنما أنت الله بالغيب: لأنهم مبايعون الله على الحقيقة، وهذا معنى الخلافة"[٣].

تأثر الجيلي بأفكار كل من سبقوه من فلاسفة الصوفية أدعياء، الفناء، والشطح، والوحدة، والجيلي كغيره ممن يزعم وصول العارف إلى مقامات مشاهدة تجليات الذات والصفات، "وفناءه التام من ناحية خلقيته، وبقاءه من ناحية حقيته، فيفنى عن نفسه بظهور ربه، ثم يفنى

١ الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم للجيلي ص ٨

٢ الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم للجيلي ص ٢٨ - ٢٩

٣ الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم للجيلي، ص ٧، وهو نفس تفسير ابن عربي.

عن ربه بظهور سر الربوبية، ثم يفنى عن الصفات بمتعلقات الذات، فيبقى في الله باللطيفة الإلهية، ثم قبوله الاتصاف بالصفة الإلهية قبولا أصليا، ثم اتصافه بالصفة الإلهية"[1].

إن الصوفي – حين يتعلم عدم الاعتراض – ثم يتصفح كتب العارفين يعيش في حالة نفسية تجعله يشعر أنه من خاصة الناس، وأنه يطالع أسرار وفتوحات ذات مذاق يرقى فوق كل مذاق، وحين يقرأ تخاريف المشايخ لا يعرف كيف يفسر لنفسه صدور مثل هذه التخاريف عمن يزعم مشاهدته للذات الإلهية، وحتى نوضح مقصدنا من هذا نضرب مثالين من أقوال عبد الكريم الجيلي، هما:

١. حياة أفلاطون إلى اليوم:

العجيب أن يقول عبد الكريم الجيلي: "سافر الإسكندر: ليشرب من هذا الماء [عين الحياة][2] اعتمادا على كلام أفلاطون، أن من شرب من ماء الحياة، فإنه لا يموت، لأن أفلاطون كان قد بلغ هذا المحل، وشرب من هذا البحر، فهو باقٍ إلى يومنا هذا في جبل يسمى دراوند، وكان أرسطو تلميذ أفلاطون، وهو أستاذ الإسكندر، صحب الإسكندر في مسيره إلى مجمع البحرين، فلما وصل إلى أرض الظلمات، ساروا وتبعهم نفر من العسكر، وأقام بمدينة تسمى ثبت، وهو حد ما تطلع الشمس عليه، وكان من جملة من صحب الإسكندر من عسكره الخضر عليه السلام"[3].

---

١ الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي، ليوسف زيدان ص ٨٧ بتصرف.

٢ ارجع إلى كتابنا "موسى والخضر" علمي الظاهر والباطن، وقد أوردنا فيه روايات عين الحياة، وأثبتنا بطلانها نقلا وعقلا.

٣ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، للجيلي ٢: ٧٢

٢. الدنيا على ظهر حوت:

يحدد الجيلي مكان عين الحياة، فيقول: "إنها في جانب المغرب عند البلد المسمى بالأزيل المغرب، فمن خاصية هذا البحر المعين الذي خلقه الله في مجمع البحرين، أن من شرب منه لا يموت، ومن سبح فيه أكل من كبد البهموت، والبهموت حوت في البحر المالح،.. جعله الله الحامل للدنيا وما فيها، فإن الله تعالى لما بسط الأرض جعلها على قرني ثور يسمى البرهوت، وجعل الثور على ظهر حوت في هذا البحر يسمى البهموت، وهو الذي أشار إليه الحق تعالى بقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه-٦] "[1]

أين أفئدة الصوفية وعقولهم حين يطالعون هذا التخريف؟، هل يتجرأ أحد أن ينكر على الجيلي؟، إن لي تجربة [في سنة ١٩٨٥] حين ناقشت صلاح القوصي - أحد مشايخ الطريقة الخلوتية والمؤسس للطريقة القوصية - في تخاريف الشعراني في طبقاته، وكان رده آنذاك: "وأنا مالي ومال الشعراني، وهو أنا قده علشان أعترض عليه، يقول اللي هو عايزه". وكان فهمي آنذاك أن القوصي يخاف أن ينتصر لله ولرسوله ﷺ، أما اليوم ، وبعد أن طبع الرجل ديوانيه الأسير والعتيق ، فقد أصبح عندي تفسير آخر لموقفه ، وعدم اعتراضه على الشعراني،لأنه كان يخطط ليتفوق تخريفاً على الشعراني.

---

١ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، للجيلي ٢: ٧٢

الفصل الثاني

أصول نظرية الإنسان الكامل

١. الحقيقة المحمدية نقطة وحدة الوجود:

يكثر الجيلي من استخدام كلمة "النقطة"، ولها عنده دلالات صوفية خاصة، وقد سبقه الحلاج لاستخدام كلمة "النقطة"، وبنفس الدلالة التي يقصدها الجيلي، حيث يقول الحلاج: "النقطة أصل كل خط، والخط نقط مجتمعة، فلا غنى للخط عن النقطة، ولا للنقطة عن الخط، وكل خط مستقيم، أو منحرف، فهو متحرك عن النقطة بذاتها، وكل ما يقع عليه بصر أي أحد فهو نقطة بين نقطتين، وهذا دليل على تجلي الحق من كل ما يشاهد، وترائيه عن كل ما يعاين، ومن هذا قلت: ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه"[1].

يستدل الجيلي على أهمية النقطة بحديث موضوع مكذوب لا أصل له، ولا يصح عقلا، ولا نقلا، ونص كلامه يقول: "وكل ما في القرآن فهو في الفاتحة، وكل ما في الفاتحة فهو في بسم الله الرحمن الرحيم، وكل ما في بسم الله الرحمن الرحيم فهو في الباء، وكل ما في الباء فهو في النقطة التي تحت الباء"[2].

والجيلي كغيره من أقطاب الصوفية لا يروي الأحاديث بأسانيدها، ولا يخرجها من مصادرها المعروفة، ويكفي أن يقول ورد في الخبر: ليكون كلامه معتبرا عند أتباعه! ومما يدل على كذب هذا الحديث أن القرآن الكريم عندما كُتب في عهد الرسول الكريم وأصحابه لم يكن مُنَقَّطا، ولا مُشكلا، ولا محزبا، ولا مجزءا، ومن المعروف أن أول من وضع النقط على الحروف العربية هو أبو الأسود الدؤلي في نهاية القرن الأول الهجري، فكيف يقبل هؤلاء أن تكون أسرار القرآن كلها موجودة في نقطة سيضعها الدؤلي بعد أكثر من قرن من تنزل القرآن على النبي ﷺ، وينسج الجيلي على منوال الحلاج، فيقول: "إن النقطة هي أصل الحروف، وما الحروف إلا

١ طواسين الحلاج ٢٧

٢ الكهف والرقيم، للجيلي ٥

مجموعة من النقاط المتتابعة على شكل الحرف، وما المحيط إلا عين النقطة، والدائرة ليست إلا عين النقطة، لظهور النقطة في كل جزء منها، فما ثم في الدائرة إلا النقطة".

وقد وضع الجيلي كتاب "حقيقة الحقائق التي هي للحق من وجه ومن وجه للخلائق"، ويسميه أيضا كتاب النقطة، يقول فيه: "يجب أن تعلم أن النقطة هي الظاهرة في الحروف ظاهرا وباطنا، وخلاصة هذه المعرفة أن تشهد أن الله تعالى هو المتجلي في الوجود ظاهرا وباطنا، أولا وآخرا، فلا موجود سواه، تعالى الله عن مُزاحم له في الوجود"[١]. تعالى الله عما يقولون، فهو سبحانه المستوي على عرشه البائن من خلقه.

ويزعم الجيلي "أن وجود النقطة دليل على واحدية الله تعالى في الوجود، وأنه محض الوجود المطلق، إذ لا موجود سواه"[٢]، ويقول كذلك: "إن النقطة هي حقيقة حقائق الحروف، كما أن الذات حقيقة حقائق الوجود، فنسبتها إلى الحروف كنسبة الذات الإلهية إلى الصفات". ثم يشرح توحيده، فيقول: "الحق سبحانه هو المتجلي في مظاهر أسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته تجليات في الوجود [أي ظهوره في المخلوقات]، فرجع إليه الوجود المنسوب إلى المخلوق، وكذا وجوده المنسوب إليه، فله الوجود جميعه، وهذا حقيقة التوحيد؛ لأن وحدانيته لم تترك في الوجود غيره، فهو كل الوجود"[٣].

ثم يكشف عن حقيقة النقطة، فيقول: "ولقد درجت في بعض معارج الغيب فأشهدني الحق تعالى صورة النقطة في عالم القدس عنه، فإذا هي على صورة الحقيقة المحمدية"[٤].

٢. الحقيقة المحمدية أصل الموجودات:

يبني الجيلي عقيدته الفاسدة على حديث موضوع مكذوب على النبي ﷺ، فيقول: "وكذلك الحقيقة المحمدية خُلق العالم بأسره منها، كما ورد في حديث جابر، أن الله تعالى خلق روح محمد

---

١ حقيقة الحقائق المسمى كتاب النقطة، للجبلي ٥٠

٢ حقيقة الحقائق المسمى كتاب النقطة، للجيلي ٥١

٣ حقيقة الحقائق المسمى كتاب النقطة للجيلي ٣١ - ٣٢

٤ الكهف والرقيم ٦، وحقيقة الحقائق المسمى كتاب النقطة للجيلي.

ﷺ، ومحمد ﷺ هو الظاهر في الخلق باسمه بالمظاهر الإلهية، ألا ترى أنه ﷺ أسري بجسمه إلى فوق العرش، وهو مستوى الرحمن"[١]، ويقول الجيلي في الإنسان الكامل: "إن الله تعالى لما خلق محمدا ﷺ من كماله، وجعله مظهرا لجماله وجلاله، خلق كل حقيقة من محمد، من حقيقة من حقائق أسمائه وصفاته، ثم خلق نفس محمد ﷺ من نفسه، وليست النفس إلا ذات الشيء"[٢].

وننبه القارئ الكريم ألا يفسر كلمة "خَلْق" التي يستخدمها الجيلي على أنها إيجاد من العدم حسب مفهوم الكلمة عند عموم الناس، بل يقصد الجيلي معنى آخر تماما، وتوضح هذه الأبيات مراد الجيلي من كلمة الخلق، فيقول[٣]:

ذات لها في نفسها وجهان ... للسفل وجه والعلا الثاني
ولكل وجه في العبارة وإلا ... ذات وأوصاف وفعل بيان
إن قلت واحدة صدقت وإن ... تقل اثنان حق إنه اثنان
أو قلت لا بل إنه لمثلث ... فصدقت ذاك حقيقة الإنسان

وإذا تصفحت كتاب الإنسان الكامل ترى الجيلي يدور حول إثبات أن كل شيء في الوجود خُلِق من الحقيقة المحمدية فجبريل، وعزرائيل، وإسرافيل عليهم السلام خُلقوا من محمد، فجبريل خلق من العقل الأول الذي هو محمد ﷺ، فكان محمد ﷺ أبا جبريل، وأصلا لجميع العالم"،... "وخلق الله عزرائيل من نور محمد ﷺ"... "ولما خلق الله تعالى العالم جميعه من نور محمد ﷺ كان المحل المخلوق منه إسرافيل قلب محمد ﷺ، كما سيجيء بيان خلق جميع الملائكة، وغيرهم كل من محل منه"[٤].

يذكر الجيلي في أبواب كتابه محل خلق العرش، والكرسي، والسموات، والأرض، والجنة، وأبوابها، والنار ودركاتها، حتى أشراط الساعة، ولم يترك الجيلي في نفسه ذرة من الحياء تمنعه أن

---

١ الكهف والرقيم، للجيلي.
٢ الإنسان الكامل، للجيلي.
٣ الإنسان الكامل، للجيلي ١: ٨
٤ الإنسان الكامل، للجيلي ٢: ٢٩، ٢: ٣٠، ٢: ٢٦ بالترتيب.

يزعم أن إبليس أيضا مخلوق من محمد ﷺ، فيقول: "اعلم أن الله تعالى لما خلق النفس المحمدية من ذاته، وذات الحق جامعة للضدين، خلق الملائكة العالين، من حيث صفات الجمال، والنور، والهدى، من نفس محمد ﷺ كما سبق بيانه، وخَلَقَ إبليس، وأعوانه، من حيث صفات الجلال، والظلمة، والضلال، من نفس محمد ﷺ "[١].

ويفسر الجيلي قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص-١]، فيقول: "قل يا محمد هو أي الإنسان الله أحد، فهاء الإشارة في هو راجع إلى فاعل قل، وهو أنت، وإلا فلا يجوز إعادة الضمير إلى غير مذكور، أقيم المخاطب هنا مقام الغائب التفاتا بيانيا، إشارة إلى أن المخاطب بهذا ليس نفس الحاضر وحده بل الغائب والحاضر في هذا على السواء"[٢]، ويقرر الجيلي قرب عقيدته من عقيدة النصارى بقوله: "وأما النصارى فإنهم أقرب من جميع الأمم الماضية إلى الحق تعالى، فهم دون المحمديين، وسببه أنهم طلبوا الله تعالى، فعبدوه في مُحْدَثِ عيسى، ومريم، وروح القدس، ثم قالوا بعدم التجزئة، ثم قالوا بِقِدَمِه على وجوده في محدث عيسى، وكل هذا تنزيه في تشبيه لائق بالجناب الإلهي، لكنهم حصروا ذلك في هؤلاء الثلاثة، فنزلوا عن درجة الموحدين، غير أنهم أقرب من غيرهم إلى المحمديين"[٣] انتهى.

وحين نقول: إن الصوفية هي الفرقة التي أطرت سيدنا محمدا ﷺ، كما أطرت[٤] النصارى عيسى ابن مريم ﷺ، فإن قولنا هذا يطابق إقرار الجيلي نفسه عن قرب عقيدته من عقيدة النصارى، فالرجل لم يستخدم لفظ المسلمين، وإنما قال المحمديين، كما عرف عمن يعبدون عيسى بأنهم المسيحيون، وليس النصارى كما أخبرنا القرآن الكريم.

ويضيف عبد الكريم الجيلي إلى اسم الإنسان الكامل العديد من المرادفات منها: الحقيقة الكلية، والحقيقة المحمدية، والأصل الأول، وأصل الموجودات، والذات المطلقة، والعقل

١ الإنسان الكامل، للجيلي ٢: ٣٨

٢ الإنسان الكامل، للجيلي ١: ١٩

٣ الإنسان الكامل للجيلي ٢: ٨١

٤ الإطراء هو: المبالغة في المدح بما يجاوز الحقيقة.

الأول، ونقطة وحدة الوجود، ويقول أيضا: "واعلم أن الذات المطلقة لها الإحاطة على الله، ولكن الله من الذات له الأفضلية عليها: لأن كثيرا من وجوه الذات ما هي الله، وليس لها شيء من ألوهيته، وكل وجه من الله هو الذات بكماله"[١]، وينظم الجيلي القصائد الطوال التي يعرض فيها عقيدته الفاسدة، فيقول[٢]:

تجلى حبيبي في مرائي جماله	ففي كل مرأى للحبيب طلائع
فلما تبدى حسنه متنوعا	تسمى بأسماء فهن مطالع
فأوصافه والاسم والأثر الذي	هو الكون عين الذات والله جامع
فما ثم من شيء سوى الله في الورى	ولا ثم مسموع ولا ثم سامع
هو العرش والكرسي والمنظر العلا	هو السدرة التي إليها المراجع
هو الأصل حقا والهيولي مع الهبا	هو الفلك الدوار وهو الطبائع
هو النور والظلماء والماء والهوا	هو العنصر الناري وهو البلاقع
هو الشمس والبدر المنير هو السها	هو الأفق وهو النجم وهو المواقع
هو المركز الحكمي والأرض والسما	هو المظلم المعتام وهو اللوامع
هو الدار وهو الحي والأهل والفضا	هو الناس والسكان وهو المرابع
هو الحكم والتأثير والأمر والقضا	هو العز والسلطان والمتواضع
هو اللفظ والمعنى وصورة كل ما	يحال من المقبول أو هو واقع
هو الجنس وهو النوع والفصل إنه	هو الواجب الذاتي وهو الممانع
هو العرض الطارئ نعم وهو جوهر	هو المعدن الأصلي وهو الموانع
هو الحيوان الحي وهو حياته	و الوحش وهو الأنس وهو السواجع
هو العقل وهو النفس والقلب والحشا	هو الروح وهو الجسم وهو التدافع
بدت في نجوم الخلق أنوار شمسه	فلم يبقَ حكم النجم والشمس طالع

١ الكهف والرقيم، للجيلي ٣٠

٢ الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي ١: ٥٤

فيا أَحَديّ الذات في عين كثرة ... ويا واحد الأشياء ذاتك سايع

تجليت في الأشياء حين خلقتها ... فها هي ميطت عنك فيها البراقع

قطعت الورى من ذات حسنك قطعة ... ولم تك موصولا ولا فصل قاطع

ولكنها أحكام رتبتك اقتضت ... ألوهية للضد فيها التجامع

فأنت الورى حقا وأنت أمامنا ... وإنك ما يعلو وما هو واضح

وما الخلق في التمثيل إلا كثلجة ... وأنت بها الماء الذي هو نابع

وما الثلج في تحقيقنا غير مائه ... وغير أن في حكم دعته الشرائع

ولكن بذوب الثلج يرفع حكمه ... ويوضع حكم الماء والأمر واقع

تجمعت الأضداد في واحد إليها ... وفيه تلاشت فهو عنهن ساطع

فكل بهاء في ملاحة صورة ... على كلٍّ قد شابه الغصن يانع

وكل مليح بالملاحة قد زها ... وكل جميل بالمحاسن بارع

وكل لطيف جل أو دق حسنه ... وكل جليل وهو باللطف صادع

محاسن من أنشاه ذلك كله ... فوَحِد ولا تشرك به فهو واسع

وإياك أن تلفظ بغيرية البها ... إليه البها والقبح بالذات راجع

يكمل نقصان القبيح جماله ... فما ثم نفصان ولا ثم باشع

ويرفع مدار الوضيع جلاله ... إذا لاح فيه فهو للوضع رافع

وأطلق عنان الحق في كل ما ترى ... فتلك تجليات من هو صانع

ملخص الباب الرابع

- استكمل عبد الكريم الجيلي ما بدأه ابن عربي، وكان دوره هو التفصيل، والتصريح، وإيضاح الأفكار والمفاهيم.
- وضع الجيلي نظرية الإنسان الكامل قد تختلف كثيرا من حيث التفصيلات عن نظرية ابن عربي، إلا أنها تتفق معها تماما في خطوطها العريضة.
- تتلخص نظرية عبد الكريم الجيلي في أصلين، هما:

١. القول بأن الحقيقة المحمدية هي: أصل جميع الموجودات، وقد ألف كتابه الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر: ليشرح فيه كيف وجدت الأشياء جميعا من الحقيقة المحمدية، ومن ذلك: العرش، والكرسي، والسموات، والأرض، والملائكة المقربين، ومنهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، حتى الجنة والنار، أوجدتهم الحقيقة المحمدية.

٢. والأصل الثاني لنظرية الجيلي هو أن الحقيقة المحمدية هي نقطة وحدة الوجود، وأنها السر الساري في جميع الموجودات.

- إن صوفية اليوم يرددون في أورادهم صيغة للصلاة على النبي ﷺ، تقول: اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على سيدنا محمد النور الذاتي، والسر الساري في جميع الأسماء والصفات، وهم بذلك يجمعون عناصر وحدة الوجود في صيغة واحدة، **ولا يخطر على بال المريدين أن ما يرددونه كفر بالله العظيم**، حيث جعلوا النبي ﷺ هو النور الإلهي الذاتي أي هو الله ﷻ، وأنه هو السر الساري في جميع أسماء الحق جل جلاله، وصفاته أيضا، فبالله عليكم: هل هناك أدنى علاقة بين هذه المفاهيم المنحرفة، وعقيدة الإسلام التي جاهد من أجلها النبي ﷺ، وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين؟!.
- لا يجد الجيلي أي غضاضة في أن يثبت أن إبليس خلق أيضا من محمد ﷺ.

- يسمي الجيلي الحقيقة المحمدية بالإنسان الكامل، أو الأصل الأول، أو أصل الموجودات، أو الذات المطلقة، أو العقل الأول، أو نقطة وحدة الوجود.
- يرى الجيلي الكون كثلجة، والماء الذي فيها هو الحقيقة المحمدية في الموجودات، فإذا ذاب الثلج عن الكون، لا ترى فيه إلا الحقيقة المحمدية فقط.
- يعترف الجيلي بجرأة شديدة من قرب عقيدته من عقيدة النصارى، حيث يرى اتفاق المحمديين [كما يحلوا له أن يسمي أتباعه]، والمسيحيين في أن المسيحيين طلبوا الله، وعبدوه في ثلاث صور هي: الأقانيم الثلاثة، ووقفوا عند هذه المرتبة، أما عقيدته هو فهي أن كل الصور هي مظاهر للمعبود.

الباب الخامس

الصوفية المعاصرة
ووحدة الوجود

١ . أوراد الطرق المعاصرة.

٢ . الشيعة والصوفية.

الفصل الأول

أوراد الطرق المعاصرة

تقوم عقيدة الصوفية - في بساطة متناهية - على الإطراء والغلو في شأن النبي ﷺ إلى الحد الذي ذهبت إليه النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام، والدليل على ذلك نعرضه من أوراد القوم، ولنستدرك على كلام الشيخ/ محمد زكي إبراهيم رائد العشيرة المحمدية، وهو داعية من دعاة إصلاح التصوف، ونبذ الشطط عنه، وله صولات وجولات في هذا المجال، ورغم تقديري للشيخ على جهده في مجال إصلاح التصوف، فقد توقفت عند إجابته على سؤال وجه إليه عن تعارض عقائد الصوفية مع عقيدة التوحيد، وما رأي الشيخ في عقائد الحلول، والاتحاد، والوحدة؟ فأجاب الشيخ قائلا: "أما أن التصوف يدعو إلى عقائد الحلول، والاتحاد، والوحدة، فليس هذا هو تصوف المسلمين، وإنما هو تصوف أجنبي أعجمي مدسوس، والمتهمون به نفر معدود محدود، انتهى أمره، وليس لهم اليوم تابع ولا وارث، وأصبح ما نسب إليهم بحق، أو بباطل نوعا من الحفريات التاريخية، التي لا يتابعها إلا الهواة والمتخصصون، إن وجد اليوم هواة، ومتخصصون في البحث عن مقابر الأفكار المهملة، وإلا أصحاب الهوى الذي يعمي ويصم، ولا اعتبار لأولئك ولا هؤلاء، وقد أصبح الكلام في هذا الجانب نوعا من مجرد الإثارة والتشويه، والعبث وإضاعة الأوقات والتشويش على أفاضل الناس، وشراء العاجلة بالآجلة" [(١)].

ويمكن أن نختصر كلام الشيخ في النقاط التالية:

١. إقرار الشيخ أن عقيدة وحدة الوجود تخالف عقيدة المسلمين، بل هي مدسوسة عليهم.
٢. المتهمون به نفر محدود في التاريخ الغابر انتهى أمرهم.

١ مجلة المسلم، عدد المحرم، سنة ١٣٩٩ هـ، صفحة ١٨

٣. لا يوجد اليوم من الصوفية المعاصرين من يعتقد هذه الأباطيل.
٤. أن الحديث عن هذه الأفكار نوع من البحث عن الآثار في مقابر الأفكار.
٥. أن المنشغلين بهذه الأمور مغرضون لا اعتبار لهم، فهم أصحاب هوى أعماهم وأصمهم، وحديثهم نوع من الإثارة والتشويش. وأن هؤلاء المغرضين يضيعون الوقت، ويتعرضون لأفاضل الناس، ويشترون العاجلة بالآجلة.

ونستعين بالله تعالى وحده، ونثبت للشيخ أنه لا يعلم ما في أوراد الصوفية المعاصرين، وأن الأمر على حقيقته أخطر بمراحل مما يوهمنا الشيخ، ونعرض فيما يلي دراسة لأشهر أوراد الصوفية للطرق المعاصرة.

سنعرض بتوفيق الله تعالى نصوص أوراد الصوفية المعاصرة؛ وذلك لبيان حقيقة ما ذهب إليه رائد العشيرة المحمدية في إجابته، ولنرى حجم الكارثة التي لا يراها الشيخ، وهو عضو مجلس الصوفي الأعلى، ومن مسئولياته مراجعة هذه الأوراد وإجازتها، والجدول التالي يمثل الطرق الصوفية التي اتسع المقام لدراستها والنصوص الدالة على اعتناق زعمائها لعقيدة وحدة الوجود، وبيانه كالتالي:

	اسم الطريقة	اسم كتاب الأوراد
١	الحقيقة المحمدية	نفحات في الصلاة على الرسول الأعظم
٢	الخلوتية العونية	المحامد العونية في الصلاة على خير البرية
٣	الخلوتية البكرية	مجموع صلوات وأوراد مصطفى البكري
٤	الطريقة القادرية	الفيوضات الربانية في المآثر القادرية
٥	الطريقة الشاذلية	أوراد الطريقة الشاذلية للشيخ عبد الفتاح القاضي
٦	الفاسية الشاذلية	الأحزاب والوظيفة والياقوتة وصلوات الفاسي
٧	الحامدية الشاذلية	الأوراد الحامدية الشاذلية لسلامة الراضي
٨	الطريقة البرهانية	تبرئة الذمة في نصح الأمة
٩	الجعفرية الإدريسية	كنز السعادة والإرشاد للمعالي
١٠	الطريقة الإدريسية	أحزاب وأوراد قطب دائرة التقديس
١١	الطريقة الرفاعية	مجموع الأوراد الكبير
١٢	الختمية الميرغنية	مجموع راتب الميرغني
١٣	طريقة أبي العزايم	نيل الخيرات بمداومة الأدعية والاستغاثات
١٤	الطريقة الأحمدية	كتاب مجموع الأوراد الأحمدية
١٥	الطريقة الخلوتية	كتاب مجموعة الأوراد الكبير[١]
١٦	دلائل الخيرات	مجموعة صلوات يقرؤها كثير من أتباع الطرق
١٧	صلوات الشيخ الأكبر ابن عربي	وتقرؤها عدة طرق صوفية
١٨	الطريقة الدسوقية	تائية إبراهيم الدسوقي
١٩	الطريقة التجانية	أوراد التجاني والياقوتة الفريدة
٢٠	الطريقة القوصية	أوراد الطريقة وكتاب العتيق

١ صلوات أحمد الدردير

ونعرض فيما يلي نصوص كل طريقة على حدة:

أولا: طريقة الحقيقة المحمدية.

ولعل هذا أوضح مثال نضربه في هذا الباب، فقناعة شيخ الطريقة بفكرة قِدَم النور المحمدي جعلته يسمي طريقته بهذا الاسم، ويقول الرجل في أوراده التي كتبها مقلدا فيها الحلاج، ومن تبعه من أصحاب الوحدة: "اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على سيدنا محمد الذي خلقت نوره من نور ذاتك بلا واسطة، وخلقت من نوره جميع مكوناتك، فكل به قائم، الذي فتقت به رتق الوجود، وأحييت به الكائنات، وعين عنايتك الأزلية الأبدية، ومبدأ الأشياء ظاهرا وباطنا، ونهايتها سرا وعلانية، الذي لاح جماله في القِدَم وأشرق نوره في الوجود بلا عدم، نور الله الذي لا يطفأ"، ويستطرد قائلا عن النبي ﷺ، أنه "الروح الأعظم في صورة إنسان، والبرزخ الفاصل بين الحدوث والعدم، المختص بالمعراج الذاتي، والمشاهدة والمكالمة والنيابة العظمى،.. قبضة النور التي تفرع عنها من الكائنات كل موجود، الذي تم فيه مظهرك التام بكل زمان ومكان، وأعطيته سر "كن"، فدخلت تحت تصرفه الأكوان، السابق للخلق نوره، والرحمة للعالمين ظهوره، سبب وجود الوجود، وتكوين الأكوان، وترجمان الأزل والأبد، سر الوجود، وجود الوجود، النور الذاتي، والسر المنزه الساري في جزئيات العالم وكلياته، أسمى ما يصح أن يشمله اسم الوجود، إنسان عين الموجودات،.. نورك الأعظم، وكمالك الأقدم، وجمالك الأكرم،.. الذي خلقت جميع الأنوار من نوره،.. مفتاح إغلاق كنز الوجود،.. خاتم دورات الأنوار"[1].

أعتقد أن عبارات الشيخ واضحة الدلالة، ولا تحتاج إلى تتبع وتعليق.

ثانيا: الطريقة الخلوتية العونية العيونية.

والطريقة فرع من الطريقة الخلوتية، وسميت بالعونية نسبة إلى شيخها/ محمود أفندي عوني[2]، ثم بالعيونية نسبة إلى تلميذه الشيخ / إبراهيم أبو العيون[1]، جاء في أوراد الطريقة

---

١ نفحات في الصلاة على الرسول الأعظم، للشيخ محمد بن صالح الحسيني العدوي، صفحة ١

٢ وهو واضع كتاب المحامد العونية في الصلاة على خير البرية.

نصوص عديدة تدندن حول وحدة الوجود، والحقيقة المحمدية وقِدَم نور النبي ﷺ، نختار منها ما يلي:

"اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على سيدنا محمد صاحب القبضة الأصلية الطاهرة، الفاخرة السنية الباهرة، التي قلت لها: كوني حبيبي محمدا، فصارت عمودا من النور، وتشعشعت، وارتفعت بسر تكوينك وقدرتك، واخترقت جميع حجب عظمتك، وتساقطت منها قطرات عدد أنبيائك، فخلقتهم، وخلقت كل نبي منهم بقطرة، فهم منه وإليه"[٢].

وهذا النص أوضح من نصوص أوراد الطريقة السابقة، حيث لم يستخدم الشيخ لفظة "خلق" في إيجاد نور النبي ﷺ، وإنما جاء نور النبي ﷺ من القبضة الأصلية أي من نور الله تعالى، ولما قيل لهذه القبضة: كوني حبيبي محمدا، صارت عمودا من النور، وتشعشعت، وارتفعت بسر كونك فيها، حيث إن طبيعة القبضة هي ذاتها طبيعة المقبوض منه، وبالتالي تمكنت هذه القبضة من اختراق حجب عظمة الله تعالى، فهي متصفة نفس صفات الإله، وإلا ما استطاع نور المخلوق أن يخترق نور الخالق.

- وكذلك قول الشيخ محمود أفندي عوني: "اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على سيدنا محمد نقطة وحدة الوجود، وأصل الموجودات"[٣].
- والنص السابق يعد أدق تلخيص لنظرية الإنسان الكامل للجيلي، كما أشرنا في الباب الرابع.
- يقول الشيخ كذلك: "اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على سيدنا محمد سر الوجود، والإيجاد، والفناء، والبقاء" [٤].

---

١ عميد عائلة أبي العيون في أسيوط.

٢ المحامد العونية في الصلاة على خير البرية، لمحمود أفندي عوني ١٤

٣ المحامد العونية في الصلاة على خير البرية، لمحمود أفندي عوني ٢٦

٤ المحامد العونية في الصلاة على خير البرية، لمحمود أفندي عوني ٢٤

- وعبارة سر الوجود واضحة القصد، أما سر الإيجاد، فهذا يشير إلى أن الحقيقة المحمدية هي التي تهب للمعلومات الوجود، فتكون سببا في إيجادها.
- ونص آخر، يقول الشيخ فيه: "اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على سيدنا محمد إنسان عين عين الكل في حضرة الوحدانية"،... أي أن محمدا ﷺ حقيقة ذات الكل في حضرة، ليس فيها إلا حقيقة واحدة: لذا سماها الشيخ في حضرة الوحدانية".

هذا النص يثبت عقيدتهم أن الوجود الوحيد هو للحقيقة المحمدية.

ويقول أيضا: "وَرَاء رِدائي وراء حجب الجلال، والكبرياء القيومية"،... وحياض الجبروت بوافي صافي فيض أنهار جلال أنواره متدفقة"[١].

ومعناه أن حياض الجبروت تفيض من أنهار جلال أنوار النبي ﷺ، أهناك شطط وغلو أكثر من هذا؟!، ويؤكد نفس هذا المعنى النص التالي: "اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على سيدنا محمد بحر أنوار المهيمن العزيز"[٢].

والبحار في النهاية هي بحار الوحدة، ويقرر ذلك ما يلي: "اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على سيدنا محمد، واسقنا من عين بحر الوحدة الصافية أصفى السلاف"[٣].

وجاء أيضا في المحامد العونية في قصيدة[٤] التوسل بالسادة الخلوتية:

وبنور مشكاة الوجود وسره	إنسان عين الكل طه نبينا

ويبلغ غلو شيخ الطريقة منتهاه حين يمدح الرسول ﷺ نظما، فيقول:

سر سرى في الملك والملكوت	النور إنسان عين الكل خير نبي
الأول الآخر المحي المميت أب	أصل الأصول وعين العين ذو الرتب

ومن أوراد الطريقة ما يتلقاه المريد في الاسم الرابع دعاء آية الكرسي، جاء فيه: "من

---

١ المحامد العونية في الصلاة على خير البرية، لمحمود أفندي عوني ١٣

٢ المحامد العونية في الصلاة على خير البرية، لمحمود أفندي عوني ٣٩

٣ المحامد العونية في الصلاة على خير البرية، لمحمود أفندي عوني ٥٣

٤ المحامد العونية في الصلاة على خير البرية، لمحمود أفندي عوني ٩٧

أحب فرقتهم من أنا الأنانية، ووصلتهم بأسرار الهوية، حيث يفنى كل شيء بشهود الأحدية والوحدانية، وبما أبطنته من الأسرار المخفية في باطن غيب الأحدية، وبما أظهرته من الأنوار الجلية في ظاهر المحمدية".

ثالثا: الطريقة الخلوتية البكرية.

- الشيخ مصطفى البكري هو أحد مشايخ الطرق الخلوتية بتفرعاتها المتعددة، ومنها الطريقة السابقة، والنصوص التي سنعرضها الآن تبرز إيمان الشيخ بوحدة الوجود، وتدندن حول مفردات هذه العقيدة، ومنها: "وصلِّ، وسلم على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد الذي ظهر به الوجود والإيجاد"[١].
- "وصلِّ، وسلم على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد المتمكن المشاهد للذات"[٢].
- "وصلِّ، وسلم على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد سر الأزليات والأبديات" [٣].
- كيف يكون النبي ﷺ سر الأزليات والأبديات إلا من خلال مفاهيم وحدة الوجود؟!، وأنه ﷺ الحقيقة الواحدة.
- ويضيف الشيخ في الصفحة التالية إمكانات التصريف للنبي ﷺ، فهو في الحقيقة ليس بشرا رسولا كما نفهم، وإنما هو متصف بصفات الربوبية كما يزعم البكري، بقوله:
- "وصلِّ، وسلم على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، المتصرف في جميع الممالك والأملاك"[٤].

---

١ مجموع صلوات وأوراد مصطفى البكري ١٩

٢ مجموع صلوات وأوراد مصطفى البكري ١٣

٣ مجموع صلوات وأوراد مصطفى البكري ١٣

٤ مجموع صلوات وأوراد مصطفى البكري ٣٣

- "وصلِّ، وسلم على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد الذي تصرف في الوجود بالطول والعرض"[١].
- "وصلِّ، وسلم على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد الذي أعطي التصريف بالكاف والنون"[٢].
- "اللهم إني أسألك بحق باء اسمك المعنية الموصلة إلى إيجاد أعظم مقصود، وإيجاد كل مفقود، وبالنقطة الدالة على معنى الأسرار السرمدانية، والذات القديمة الفردانية"[٣]. والنص السابق يعود بنا مرة ثانية إلى النقطة.

رابعا: الطريقة القادرية.

ورد في كتاب الطريقة القادرية حديثا يدور بين شيخ الطريقة وبين الله ﷻ، ويسمونه بالغوثية، وينسب بعض الباحثين، ومنهم الأستاذ يوسف زيدان الذي نشر مخطوطة الغوثية في ديوان عبد القادر الجيلاني بعد إثبات صحة نسبتها للجيلاني عن طريق النقد الداخلي للنص، وقدم في مقدمة التحقيق أسانيد قوية لإثبات الغوثية له،[٤] دون غيره من الصوفية، وقد توارثها أبناء الطريقة جيلا بعد جيل، حتى صارت الغوثية أصلا في الطريق، ويعتقد المريدون أن هذا الحديث جرى بين شيخهم وبين الله بطريق الإلهام القلبي والكشف المعنوي، أي من العلم الباطن حسب المصطلح الصوفي للعلم الباطن، ويهدف الحوار إلى بث عقيدة الحب الإلهي، ووحدة الوجود، والطواف حولها عن طريق مجموعة من الأسئلة يطرحها الجيلاني بصفته الغوث الأعظم، ويجيب عنها الله جل جلاله، تبدأ بما يلي:

---

١ مجموع صلوات وأوراد مصطفى البكري ٢٦

٢ مجموع صلوات وأوراد مصطفى البكري ٣٧

٣ مجموع صلوات وأوراد مصطفى البكري ٣٣، وفي ورد الطريقة الخلوتية، والمعروف باسم دعاء البسملة.

٤ نقلا عن الغوثية حلقة مجهولة في تطور النثر الصوفي، للأستاذ يوسف زيدان، والمنشورة في مجلة فصول في خريف ١٩٩٣، مجلد ١٢، العدد ٣ مخطوطة الغوثية، لعبد القادر الجيلاني.

- قال الغوث الأعظم المستوحش من غير الله، المستأنس بالله، قال الله تعالى: يا غوث الأعظم، قلت: لبيك يا رب الغوث، قال: كل طور بين الناسوت والملكوت فهو شريعة، وكل طور بين الملكوت والجبروت فهو طريقة، وكل طور بين الجبروت واللاهوت فهو حقيقة، يا غوث الأعظم، ما ظهرت في شيء كظهوري في الإنسان.
- سألت [أي الجيلاني]: يا رب من أي شيء خلقت الملائكة؟ قال لي: يا غوث الأعظم، خلقت الملائكة من نور الإنسان، وخلقت الإنسان من نوري، ثم قال لي: يا غوث الأعظم، الإنسان سري وأنا سره، لو عرف الإنسان منزلته عندي لقال في كل نَفَس من الأنفاس: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، ثم قال لي: يا غوث الأعظم، الإتحاد حال لا يعبر عنه بلسان المقال، فمن آمن به قبل وجود الحال فقد كفر، ومن أراد العبادة بعد الوصول فقد أشرك بالله العظيم، يا غوث الأعظم: لا تنظر إلى الجنة وما فيها، تراني بلا واسطة، لا تنظر إلى النار وما فيها، تراني بلا واسطة، يا غوث الأعظم، أهل الجنة مشغولون بالجنة، وأهل النار مشغولون بي، وأهلي مشغولون بي، يا غوث الأعظم: إن لي عبادا من أهل الجنة يتعوذون من النعيم، كأهل النار يتعوذون من الجحيم، ثم قال لي: يا غوث الأعظم، أنا قريب من العاصي بعد ما يفرغ من العصيان، وأنا بعيد من المطيع إذا فرغ من الطاعات، ثم قال لي: يا غوث الأعظم، ليس لصاحب العلم عندي سبيل بعد إنكاره: لأنه لو ترك العلم عنده صار شيطانا"[1].

وجدير بالذكر أن توفيق الحكيم كتب في الأهرام حوارا مع الله، ولم يتبجح فيه قدر ما ورد في ورد القادرية، ومع هذا تصدى له العلماء حتى أسكتوه ونهوه عن شطحه، فمن يوقف هؤلاء العارفين بالله؟!.

لا تعكس هذه الغوثية الشيطانية أي مفهوم من مفاهيم الإسلام بل هي تنافي حقائق الدين وتهدم أصوله، فالقرآن يقرر أن خلق الإنسان من طين مر بمراحل معروفة تكرر بيانها في آيات القرآن المحكمات، والملائكة خلق من النور، والجيلاني الغوث يقول لأتباعه: إن الإنسان

---

١ الفيوضات الربانية في المآثر القادرية صفحات،٥، ٦، ٩، ١١

خلق من نور الله، والملائكة من نور الإنسان، والغوثية تقرر الاتحاد وترك التكاليف، ووحدة الوجود، وأن الإنسان لو أدرك حقيقته لعلم أنه الله، فلا حرج أن ينادي لمن الملك اليوم ؟ والغوثية بألفاظها هذه تُرسخ للمريدين مقالة الحلاج المشهورة "ما في الجبة إلا الله". كما ورد أيضا في ورد الجيلاني في الصلاة على رسول الله ﷺ، ما يلي:

"وأزكى تحياتك فضلا، وعددا على أشرف الخلائق الإنسانية، ومجمع الحقائق الإيمانية، وطور تجلياتك الإحسانية، ومهبط الأسرار الرحمانية، واسطة عقد النبيين، ومقدم جيش المرسلين، وقائد ركب الأنبياء المكرمين، وأفضل الخلق أجمعين، حامل لواء العز الأعلى، ومالك أزمة المجد الأسنى، شاهد أسرار الأزل، ومشاهد أنوار السوابق الأول، وترجمان لسان القدم، ومنبع العلم والحلم والحكم، مظهر سر الجود الجزئي والكلي، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي، روح جسد الكونين، وعين حياة الدارين"[١].

تحاول كل طريقة أن تورد هذه المفاهيم في العديد من النصوص حتى يترسخ في عقيدة أتباعهم أركان وحدة الوجود، ويشارك الجيلاني باقي الطرق في رغبته في الغرق في عين بحر الوحدة، فيقول الشيخ: "وصلِّ، وسلم، وبارك على سيدنا محمد، وأغرقنا في عين بحر الوحدة السارية في جميع الموجودات"[٢].

ويؤكد عقيدة وحدة الوجود بقوله: "اللهم صلِّ على سيدنا محمد بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ولسان حجتك، وعروس مملكتك، وخزائن رحمتك، وطريق شريعتك، المتلذذ بتوحيدك، إنسان عين الوجود، والسبب في كل موجود، عين أعيان خلقك، المُقَدَّمِ من نور ضيائك صلاة تدوم بدوامك[٣]، "وصلِّ وسلم وبارك على عين الأعيان، والسبب في وجود كل إنسان، وصلِّ، وسلم، وبارك على من شيد أركان الشريعة للعالمين، وأوضح أفعال الطريقة

---

١ مجموع الأوراد الكبير ٢٠

٢ مجموع الأوراد الكبير ٣٧

٣ مجموع الأوراد الكبير ٢٥

للسالكين، ورمز في علوم الحقيقة للعارفين"[١].

وللطريقة الجيلانية دعاء يسمونه دعاء الجلالة، وينسبونه للشيخ عبد القادر الجيلاني أيضا، يقولون فيه: "اللهم إني أسألك بسر الذات، وبذات السر، هو أنت وأنت هو، احْتَجَبْتُ بنور الله وبنور عرش الله، وبكل اسم لله من عدوي وعدو الله"[٢].

هل هناك تصريح صوفي أوضح من هذا التصريح؟!، فالجيلاني يخاطب الله، ويسأله بسر الذات، والمراد به محمدا ﷺ، كما تشير بذلك النصوص السابقة، "وبذات السر هو أنت، وأنت هو".

هذه الأوراد توزع اليوم على المريدين الجدد، ومشيخة الطرق الصوفية ترعى شئون هذه الطرق، وتنظم لها الموالد، وتعتمد الخلفاء والحضرات، ولعلنا نكون قد أثبتنا للشيخ محمد زكي إبراهيم أن الأمر ليس حفريات تاريخية في مقابر الأفكار، وإنما الأمر في حقيقته أخطر كثيرا مما يظن عضو مجلس الصوفي الأعلى، الذي لا يحاول الإصلاح الحقيقي للتصوف بتنقيته من الشرك بالله، وتمسكهم بعقيدة وحدة الوجود فيه، دون أن يعلم كثير من المريدين شيئا عنها، وأيضا الغلو والإطراء في مدح ووصف سيدنا رسول الله ﷺ إطراء يخرجه عن حد البشرية، ويجعل من حقيقته أصلا للوجود.

خامسا: الطريقة الشاذلية.

الطريقة الشاذلية من أكبر الطرق الصوفية في مصر، ولها فروع متعددة وشعبا متباينة، نختار في كتابنا هذا بعض طرقها، ونتتبع أورادها، ومنها: الطريقة التي شيخها الشيخ عبد الفتاح القاضي، والشيخ القاضي كثيرا ما يتحدث عن فضله ومقامه الشيخ عبد الحليم محمود، والدكتور حسن عباس زكي الذي ألف كتابا سماه: "المنار الهادي في خصائص شيخنا القاضي"، يقول فيه: "وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، أول التعينات، ومجلى نور الذات، ومظهر الصفات، من به قامت كل الكائنات، رسول حضرته القدسية، ومشرق شمس

١ مجموع الأوراد الكبير ١٠٥

٢ مجموع الأوراد الكبير ١٢

التجليات الإلهية، عرش استواء الرحمانية، ومهبط التنزلات العلوية، إنسان عين الوجود، والسر الساري في كل موجود، رسوله الدال عليه، والمقدم لديه، والداعي بلسان شريعته إليه"[١].

وهنا نرى الدكتور حسن ينسج على منوال وحدة الوجود بعبارات مباشرة، لا تحتاج إلى كثير شرح، أو بيان، وتوزع الطريقة الشاذلية كتاب أورادهم على مريديهم، وهو كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار.

وقبل أن نتعرض لنصوص الكتاب، نوضح المراد بـ "حضرة وحدانيتك" بأنها الحضرة التي فيها الواحد جل جلاله فقط، ولا يصح في هذه الحضرة وجود الرب والعبد، وإنما هو وجود واحد، وهذا ما سيفصح عنه الشيخ في عباراته التالية، والتي وردت في باب صلوات الشيخ الفاسي:

- "اللهم صلِّ على إنسان عين الكل في حضرة وحدانيتك، وجمع جمع أحديتك... فكان المُبَشِّرُ عين المُبَشَّر به.. حتى لا نرى في الوجود إلا أنت به"[٢].
- "اللهم صل على الواحد الثاني المخصوص بالسبع المثاني، والسر الساري في منازل الأفق الرحماني، والقلم الجاري بمداد مدد المداد الرباني على طور العقل الإنساني،.. بل صلِّ ربّ عليه على قدر عزته عليك، اللهم صلِّ على نورك موضع نظرك، ومظهر منظرك، ومظهر خزائن كرمك، عقدة عزك، ومفتاح قدرتك، محل رحمتك، ومجد عظمتك، خلاصتك من كنه كونك وصفوتك"[٣].
- "اللهم صلِّ على سر وجودك، ومظهر و جودك، وخزانة موجودك"[٤]. إن هذا النص يعد أخطر تصريح بالوحدة، فالنبي – عندهم – سر وجود الله ﷻ! ولا حول ولا قوة

---

١ مذاقات في عالم التصوف للدكتور حسن عباس زكي ١٤

٢ كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار، باب صلوات الفاسي

٣ كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار، باب صلوات الفاسي ١٤

٤ كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار، باب صلوات الفاسي ١٥

إلا بالله العلي العظيم.

- "اللهم صلِّ على المتخلق بصفاتك، المستغرق في مشاهدة ذاتك، الحق المتخلق بـالحق، حقيقة الحق، أحق هو قل إي وربي إنه لحق... وكيف نقدر عـلى ذلـك، وقـد جعلـت كلامك خُلُقه وأسماءك مظهره، ومنشأ كونك منه، وأنت مَلجأَه وسكنه وملوك الأعلى عصابته ونصرته،.. فهو أمينك خازن علمك، حامل لواء حمـدك معـدن سرك، مظهـر عزك، نقطة دائرة ملكك ومحيطك ومُرَكَّبِهِ وبسيطه.. بل صلِّ رب على الضمير البـارز المستور في الثاني الآخر المضروب به، المثال في عالم المثال، اللهم صلِّ عـلى مـن نـورت بنوره ملكوت سمواتك وأرضك".
- ثم يكشف الفاسي عـن عقيدتـه بـلا حجـاب، ولا حيـاء، فـالقرآن يقـول: ﴿اللَّهُ نُـورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور-٣٥]، والهاء عائدة على لفظ الجلالـة "الله" جل جلاله - والفاسي يشرح الآية، ويجعل الهاء عائدة عـلى النبـي ﷺ، فيقـول: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾، كونك فيها مصباح من نوره: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَـةٍ﴾، أجسـام أنبيائك، وملائكتك، ورسلك: ﴿الزُّجَاجَـةُ كَأَنَّهَـا كَوْكَـبٌ دُرِّيٌّ يُوقَـدُ مِـنْ شَـجَرَةٍ﴾، أصلها النور الذي هو المفيض عليه من فيض أسـمائك: ﴿نُـورٌ عَـلَى نُـورٍ﴾، يهـدي الله لنوره محمد ﷺ من يشاء من خلقه.. اللهم إنك عليم بهذا النور البـارز المسـتور البـاهر المشهور الذي بهرت به كلية الكونين، وطرزت به الثقلين، حقيقـة حقـك، وصـفوتك من خلقك بنوره حُملت حملة عرشك، وبسره رفعت سمواتك، وبسطت أرضك، فهو سماء سمائك، وعناية عيون إحسانك، ومظهر عزك وسلطانك، فأنت العلـيم بـه، مـن حيث الحق والحقيقة"[1].
- "اللهم صلِّ على سيدنا محمد السابق للخلق نوره، والرحمة للعـالمين ظهـوره،... بحـر أنوارك، ومعدن أسرارك،.. إنسان عين الوجود، والسبب في كل موجود، عين أعيـان خلقك، المتقدم من نور ضـيائك،.. طـور التجليـات الإحسـانية، ومظهـر سر أسرار

١ كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار، باب صلوات الفاسي ١٧ - ٢١

الوجود الجزئي والكلي، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي، روح جسد الكونين، وعين حياة الدارين"[١].

ويستطرد الشيخ في كشف أسراره، فيقول:

"اللهم صلِّ على سيد السادات.. الذي هو مفتاح أقفال الأعطيات الإلهيات، الأول في الإيجاد والجود،.. نور عين العنايات،.. يا طهور، يا مطهر، يا طاهر، يا أول، يا آخر، يا باطن، يا ظاهر، شريعتك مقدسة طاهرة، ومعجزاتك باهرة ظاهرة، أنت الأول في النظام، والآخر في الختام، والباطن بالأسرار، والظاهر بالأنوار"[٢].

- "الصلاة والسلام عليك يا عين الوجود، الصلاة والسلام عليك يا سر الوجود، الصلاة والسلام عليك يا سر نقطة دائرة الوجود"[٣].
- ويزيد الشيخ مريديه من فيض فتوحاته الباطنية، فيقول: صلاة تصفينا بها من شوب الطبيعة الآدمية بالسحق والمحق، وتطمس بها آثار وجود الغيرية منا في غيب غيب الهوية، فيبقى الكل للحق في الحق بالحق، وترقينا بها في معارج شهود وجود: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت-٥٣]، على مظهر لسان عين سرك.. وأن تكسونا حلل صفات كمال سيدنا، وحبيبنا محمد ﷺ، نور الجلالة، وأتحفنا بالحب الرباني، والوصل المعنوي، كمن اصطفيته حتى أحببته فكنته،.. نسألك بنور وجهك العظيم المبرة الجامعة من نور كمال سيدنا محمد ﷺ، مصطفى عنايتك، وأن تتحد ذاتنا بذاته المقدسة بجلالتك، وتتحقق صفاتنا بصفاته.. اللهم صلِّ وسلم على أكمل عبد لك في هذا العالم من بني آدم الذي أقمته لك ظلا، وجعلته لحوائج خلقك قِبْلة ومحلا، واصطفيته

---

١ كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار، باب صلوات الفاسي ٣٠ – ٣٨

٢ كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار، باب صلوات الفاسي ٤٦ –٥٠

٣ كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار، باب صلوات الفاسي ٥٢

لنفسك، العبد القائم بسر الغيب، والإحاطة بغاية الوصل، الناظر بعين الـذات إلى عين الذات، ولا كيف، ولا مثل"[1].

يلاحظ القارئ الكريم أننا لا نعلق كثيرا على هذه النصـوص لوضـوح دلالاتهـا، وجـلاء معانيها وبُعدها كل البعد عن روح الإسلام، ونصوصه، وعقيدته التي تلقاهـا المسـلمون، عـن رسول الله ﷺ، أما هذا الغلو، والإطراء الذي حذرنا منه سـيد المرسـلين، فهـذا مـا لا يقبلـه أي قلب هدم أصنام الشرك، وآمن بالله وحده لا شريك له.

سـادسا: مشيخة عموم الطريقة الفاسية الشاذلية.

ويمدح شيخ الطريقة القطب محمد بن محمد بن مسعود الفـاسي النبـي ﷺ في أول جملـة في أوراده، بقوله:

- "اللهم صلِّ، وسلم بجميع الشئون في الظهور والبطون، على مـن منـه انشـقت الأسرار الكامنة، في ذاته العلية ظهورا، وانفلقت الأنوار المنطوية في سماء صفاته السنية بدورا، وفيه ارتقت الحقائق منه إليه، وتنزلت علوم آدم به فيه عليه"[2].
- "اللهم إنه سرك الجامع لكل الأسرار، ونورك الواسع لجميع الأنـوار، ودليلـك الدال بك عليك، وقائد ركب عوالمك إليك، وحجابك الأعظم القائم لك بـين يديك، فلا يصل واصل إلا إلى حضرتـه المانعـة، ولا يهتـدي حـائر إلا بـأنوارك اللامعة"[3].

ثم يدندن الشيخ حول نغمات الوحدة بعبارات واضحة، لا لـبس فيهـا، ولا غمـوض، يقـول فيها:

- "وزج بي في بحار الأحدية المحيطة بكل مركبة وبسيطة، وانشـلني مـن أوحـال التوحيد إلى فضاء التفريد المنزه عن الإطلاق والتقييـد، وأغرقنـي في عـين بحـر

---

١ كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار، باب صلوات الفاسي ٦٥

٢ أحزاب الطريقة الفاسية الشاذلية ٢

٣ أحزاب الطريقة الفاسية الشاذلية ٤

الوحدة شهودا: حتى لا أرى، ولا أسمع، ولا أجد، ولا أحس إلا بها نزولا وصعودا،.. اللهم صلِّ على الذات المحمدية اللطيفة الأحدية شمس سماء الأسرار، ومظهر الأنوار، ومركز مدار الجلال، وقطب فلك الجمال"[١]، مع اختلاف في نهايته كالتالي: ولا أجد، ولا أحس إلا بها، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي، وروحه سر حقيقتي، وحقيقة جامع عوالمي، بتحقيق الحق الأول، يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن".

- "اللهم صلِّ، وسلم على من جعلته سببا لانشقاق أسرارك الجبروتية، وانفلاقا لأنوارك الرحمانية، فصار نائبا عن الحضرة الربانية، وخليفة أسرارك الذاتية، فهو ياقوتة أحدية ذاتك الصمدية، وعين مظهر صفاتك الأزلية، فبك منك صار حجابا عنك، وسرا من أسرار غيبك، حُجِبتَ به عن كثير من خلقك، فهو الكنز المطلسم، والبحر الزاخر المطمطم"[٢].
- "لأنه [أي النبي] ﷺ هو السر المصون والجوهر الفرد المكنون، فهو الياقوتة المنطوية عليها أصداف مكنوناتك، والغيبوبة المنتخب منها معلوماتك، فكان غيبا من غيبك، وبدلا من سر ربوبيتك، حتى صار بذلك مظهرا نستدل به عليك، فكيف لا يكون كذلك؟، وقد أخبرتنا بذلك في محكم كتابك بقولك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ [الفتح-١٠]، فقد زال عنا بذلك الريب، وحصل الانتباه"[٣].

سابعا: الطريقة الحامدية الشاذلية.

وشيخها سلامة الراضي، وجاء في أورادها الوظيفة الشاذلية، والتي تلقاها أبو الحسن الشاذلي، عن شيخه عبد السلام بن بشيش:

---

١ أحزاب الطريقة الفاسية الشاذلية، ومجموع الأوراد الكبير ص ٢٣

٢ الوظيفة صفحة ٦، وتسمى الياقوتة، وضمن مجموع الأوراد الكبير صفحة ٢٣

٣ الياقوتة صفحة ٢٧

- "اللهم صلِّ وسلم بجميع الشئون في الظهور والبطون على من منه انشقت الأسرار الكامنة في ذاته العلية ظهورا، وانفلقت الأنوار المنطوية في سماء صفاته السنية بُدُورا، وفيه ارتقت الحقائق منه إليه، وتنزلت علوم آدم به فيه عليه، فأعجز كلا من الخلائق، فهم ما أودع من السر فيه، فذلك السر المصون، لم يدركه منا سابق في وجوده، ولا يبلغه لاحق على سوابق شهوده، فأَعْظِم به من نبيٍّ رياض الملك والملكوت بزهر جماله الزاهر مونقة، وحياض معالم الجبروت بفيض أنوار سره الباهر متدفقة، ولا شيء إلا وهو به منوط، وبسره الساري محُوطٌ، إذ لولا الواسطة في كل صعود وهبوط لذهب كما قيل الموسوط"[1]
- "اللهم إنه سِرُّكَ الجامع لكل الأسرار، ونورك الواسع لجميع الأنوار، ودليلك الدال بك عليك، وقائد رَكْبِ عوالمك إليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك"[2].
- "فنسألك اللهم أن تصلي على سيدنا محمد جمال التجليات الاختصاصية، وجلال التدليات الاصطفائية، الباطن بك في غيابات العز الأكبر، الظاهر بنورك في مشارق المجد الأفخر، فاتح الدورة الكلية الربانية، الإلهية القدسية الكمالية بالخاتمة العنبرية الندية المكية، الخاصة العامة المحمدية الكاملة المكملة الأحمدية، أول التعينات المفاضة من حضرة العماء الربانية، المظهر التام لجميع التجليات والشئون، والفيض العام لعلم الله القديم المكنون، النور الأول الفائض من حضرة غيبك، وصاحب الخلوة في حضرة قدسك، بهجة قمر الحقائق الصمدانية، وحضرة عرش الحضرات الرحمانية، الجوهرة اليتيمة التي دارت عليها أصناف المكونات، والنور الذي ملأ إشراقه الأرضين والسموات،

---

١ رياض الجنة وأشعة الأنوار، لعبد الحليم محمد خليفة

٢ أوراد الحامدية الشاذلية ١٨ – ٢٠

مجمع الرقائق الإيمانية، وطور التجليات الإحسانية، مظهر سر الجود الجزئي والكلي، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي"[١].

ثامنا: الطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية.

وضع شيخ الطريقة محمد عثمان البرهاني كتابه: "تبرئة الذمة في نصح الأمة"، حرص فيه على جمع مخلفات الأخبار الفاسدة، وجملة من الأحاديث الموضوعة، وحزمة من عقائد الشيعة والباطنية وغلاة الصوفية، وانتصر في كتابه إلى ساداته ابن عربي، والجيلي، وغيرهما، فجاء الكتاب في جملته مزيجا من الهذيان والتخريف.

وإذا أردنا أن نتتبع النصوص من كتابه لنقلنا أغلب الكتاب: لذا نكتفي فقط بمثال: واحد يفسر فيه الرجل قول الله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، فيقول: "إن كبار المفسرين أهل البصائر يرون أن الفجر هو حالة قبضة نور النبي ﷺ، وأن الليالي العشر التي تنقل فيها نور النبي ﷺ، وهي حجب الجلال"، ثم يستطرد قائلا: "وعلى هذا المنوال، فقد قال ﷺ: أنا من نور الله، والمؤمنون من رشحات نوري"[٢].

وقد أوردنا هذا المعنى في عشرات الأخبار الشيعية[٣].

تاسعا: الطريقة الجعفرية الإدريسية.

وشيخ الطريقة هو الشيخ صالح الجعفري - الذي كان مجاورا في الجامع الأزهر - وجاء في أوراد الطريقة المسمى كنز السعادة والإرشاد للمعالي من إملاء محمد بن عبد العالي، وجمع أحمد بن إدريس، قال:

- "اللهم صلِّ على الذات الكنه، قِبْلة وجوه تجليات الكنه، عين الكنه في الكنه، الجامع لحقائق كمال كنه الكنه، القائم بالكنه في الكنه للكنه، صلاة لا غاية لكنهها دون الكنه، وعلى آله وسلم، كما ينبغي من الكنه للكنه".

---

١ أوراد الحامدية الشاذلية ٤ - ٦

٢ تبرئة الذمة في نصح الأمة، لمحمد عثمان البرهاني.

٣ انظر فصل قِدَم نور النبي والأئمة، في باب عقيدة الشيعة.

- "اللهم إني أسألك بنور الأنوار الذي هو عينك لا غيرك، أن تريني وجه نبيك سيدنا محمد ﷺ، كما هو عندك آمين"[1].

ويحاول الشيخ صالح الجعفري أن يستثني عبارة شيخه "نور الأنوار" التي يكررها في مواضع كثيرة من ورده، ويريد بها النبي ﷺ، إلا أن الشيخ صالح يخصص المراد من هذا الموضع فقط بأنه الله، وليس النبي ﷺ، فيقول: "نور الأنوار هو الله تعالى أي خالق الأنوار كلها، وليس النبي ﷺكما يدعيه بعض الجهلة معترضا على الأستاذ، وفي غير هذا المكان يطلق عليه ﷺ نور الأنوار، ويقول في موضع آخر: "اللهم صلِّ على مولانا محمد نورك اللامع، ومظهر سرك الهامع، الذي طرزت بجماله الأكوان، وزَيَّنْتَ ببهجة جلاله الأوان، الذي فَتَحْتَ ظهور العالم من نور حقيقته، وختمت كماله بأسرار نبوته، فَظَهَرَتْ صور الحسن من فيضه في أحسن تقويم، ولولا هو ما ظَهَرَتْ لصورة عين من العدم الرميم"[2].

عاشرا: الطريقة الإدريسية.

لم أرَ في أي ورد من أوراد الطرق الصوفية نصوصا بهذا الكم، وبهذه الجرأة والوضوح، حيث تفيض بعقيدة وحدة الوجود، فلا تكاد تخلو صفحة من كتاب أحزاب، وأوراد قطب دائرة التقديس، لأحمد بن إدريس الحسني إلا وهي تفيض بهذه المعتقدات. نختار منها:

- "اللهم.. وأن تنعمني يا ذا الجلال والإكرام في شهود تجليات ذاتك بالعين التي لا يحجب عنها شيء في الأرض، ولا في السموات، وأفض على جميع ذاتي لذة ذلك الشهود، حتى أكون كُلِّي لذة ذاتية إلهية سارية في نفسي من نفسي لنفسي، كما نعمت سيدنا ونبينا ومولانا محمدا ﷺ في ذلك، وحققني يا إلهي بإنسانيتي، حتى أكون إنسان العين الكلية الإلهية التي لا يحصرها شيء، ولا يقدر قدرها سواك كما حققت نبيك

---

١ كنز السعادة والإرشاد، للمعالي ١٤

٢ كنز السعادة والإرشاد، للمعالي ٢٠

سيدنا، ومولانا محمدا ﷺ "[١].

- "مظهر تجليات الحقائق الأبدية عبدك الذاتي، ترجمان حضرة ديوان الكبرياء الإلهي الأقدس، نبيك سيدنا ومولانا محمد ﷺ مجلى ذات العظمة الإلهية الأَنْزَه، ووفني يا إلهي بذلك وفاء كاملا، كما وفيته بذلك حتى تندمج كليتي بجمع أجزائها في بحر حقيقة حق الصدق،... حتى تكون ذاتي كلها صدقا خالصا إلهيا صرفا من جميع الوجوه".
- "ثم يشرح مشهد الكبرياء، بقوله: "مشهد الكبرياء في الحقيقة الإلهية المحمدية هو الروح الأعظم المنفوخ في آدم صلوات الله عليه، وهو كوثر التجليات الإلهية والملكية، وهو المفيض في كل شيء وإلى كل شيء من عين الأولية"[٢].
- "وتجلَّ لي يا إلهي بأسرار الكتاب المكنون الإلهي، كتاب الحقائق الإلهية الذاتي، وانشر يا إلهي في نفسي ذلك الكتاب حتى أجمع قرآن حقائق التجليات الإلهية كشفا ووجودا، إحصاء وشهودا، من كل جهاتي، وأكون منعوتا بجميع الكمال الإلهي المحمدي في جميع أحوالي وتطوراتي،.. فتزول غشاوة غش الأغيار عن بصري وبصيرتي، بل وعن ذاتي كلها، حتى تكون ذاتي كلها عينا ذاتية إلهية من جميع الوجوه، وأكون كلي وجها واحدا إلهيا، لا أَعلم من جميع جهاتي، ولا أشهد، ولا أرى فيَّ إياي، وفي كل شيء، وفي لا شيء إلا إياك"[٣]. والرجل بهذا النص يطلب أن يصير هو أيضا إلها!
- "وأسألك بمعناك الذي لا يعلمه سواك، الذي اقتضته الذات بالذات، في الذات من الذات للذات، كما أنت حيث أنت لذاتك كما تعلم ذاتك،.. حتى تاه الكل في الكل، وتحير الكل في الكل"[٤].

---

١ كتاب مجموعة أحزاب وأوراد قطب دائرة التقديس، أحمد بن إدريس الحسني ٤٤

٢ كتاب مجموعة أحزاب وأوراد قطب دائرة التقديس، أحمد بن إدريس الحسني ٤٧

٣ كتاب مجموعة أحزاب وأوراد قطب دائرة التقديس، أحمد بن إدريس الحسني ٦٠ – ٦١

٤ كتاب مجموعة أحزاب وأوراد قطب دائرة التقديس، أحمد بن إدريس الحسني ٧٢ –٧٣

- "كما بدأنا أول خلق نورا إلهيا نعيده"[١].
- "ينبوع عين مادة الوجود الإلهي الأزلي نبيك سيدنا ومولانا محمدا ﷺ، نقطة وجه جمال حُسْنِ الحق المشهود الإلهي الأبدي"[٢].
- "اللهم صلِّ على أم الكتاب، كمالات كنه الذات، عين الوجود المطلق، الجامع لسائر التقييدات، صورة ناسوت الخلق، معاني لاهوت الحق، الغيب الذات والشهادة الأسماء والصفات، الناظر بالكل في الكل من الكل للكليات والجزئيات،.. مبدأ الكل، ومرجع الكل، وهو الكل في الكل، بلا بعض، ولا كل،.. صلَّى الله عليك يا محمد، بكمال أحدية ذاته وصفاته، على كمال جمعية أحدية ذاتك وصفاتك،.. روح ذات الوجود، مجمع حقائق اللاهوت،..
- "اللهم صلِّ على عين بحر الحقائق الوجودية المطلقة اللاهوتية، ومنبع الرقائق اللطيفة المقيدة الناسوتية، صورة الجمال، ومطلع الجلال، مجلى الألوهية، وسر إطلاق الأحدية، عرش استواء الذات،.. المسمى كثرة صورها بالخلق، جانب طور الحقائق الروحية الأيمن المكلم منه موسى النفس، بأنا الله لا إله إلا أنا في حضرة القدس، يا كامل الذات، يا جميل الصفات، يا منتهى الغايات، يا نور الحق، يا سراج العوالم، يا محمد، يا أحمد، يا أبا القاسم،.. يا مجلى الكمالات الإلهية الأعظم".
- "اللهم صلِّ على مولانا محمد سراج أفق الألوهية، ومعدن كنوز الأسرار الربانية، سر استواء الرحمانية، منظر وجوه الخلق، مصدر الهو في الهو للهو من الهو، مَن نبعت فيه ومنه أسرار: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾"[٣].

ويصل الشطح بالرجل إلى منتهاه، فيصف النبي ﷺ بقوله: "اللهم صلِّ على الذات الحقية القدسية، والمعاني الكمالية الجلالية الجمالية، قرآن حقائق الذات، وفرقان تجليات الصفات، عين

---

١ كتاب مجموعة أحزاب وأوراد قطب دائرة التقديس، أحمد بن إدريس الحسني ٨٣

٢ كتاب مجموعة أحزاب وأوراد قطب دائرة التقديس، أحمد بن إدريس الحسني ٨٨

٣ كتاب مجموعة أحزاب وأوراد قطب دائرة التقديس، أحمد بن إدريس الحسني ١٠٥ – ١٠٨

الحياة الأزلية، معنى التفصيلات الأبدية، روح المعاني الإلهية، وسر صور المباني الخلقية، دهر الدهور، وكتاب الحق المنشور، معنى المكالمة الإلهية الطورية في حضرة الوادي القدسية الموساوية، نور سبحات الوجه في جبل قاف تجليات الكنه، صورة الحق، ومعنى سر حروف الخلق، مجمع بحور الحقائق، لسان ترجمان الدقائق، حقيقة الحقائق الكليات والجزئيات، عرش رحمانية الذات"[1].

والرجل لا يمل من الدوران حول عقيدته التي لا علاقة لها بالإسلام وتوحيده البسيط السهل الواضح، وإنما يكرر أفكاره، وأفكار أصحاب الوحدة، والمراد من تكرار هذه الألغاز هو تمرير الشركيات على القلوب، ولفها بالتيه، والحيرة حتى تخرج عن التوحيد بالكلية.

حادي عشر: الطريقة الرفاعية.

ولد أحمد الرفاعي بقرية حسن من أعمال واسط بالعراق المعروفة بأم عبيدة [سنة ٥١٢ هـ]، وتوفي ودفن بها [سنة ٥٧٨ هـ]، وقد عاش الرجل محاطا بأفكار وحدة الوجود، فكتب يحذر أتباعه منها بقوله: "تقولون: قال الحارث، قال أبو يزيد، قال الحلاج، ما هذا الحال؟، قبل هذه الكلمات قولوا: قال الشافعي، قال مالك، قال أحمد، قال نعمان، صححوا المعاملات البينية، وبعدها تفكهوا بالمقولات الزائدة، قال الحارث، وأبو يزيد، لا ينقص ولا يزيد، وقال الشافعي، ومالك، أنجح الطرق، وأقرب المسالك، شيدوا دعائم الشريعة بالعلم والعمل، وبعدها ارفعوا الهمة للغوامض"[2]، ثم يقول: "ينقلون عن الحلاج، أنه قال: أنا الحق، أخطأ بوهمه، إذ لو كان على الحق، ما قال: أنا الحق، ويذكرون له شعرا يوهم بالوحدة، كل ذلك ومثله باطل، ما أراه رجلا واصلا أبدا، ما أراه شرب، ما أراه حضر، ما أراه سمع إلا رنة، أو طنينا، فأخذه الوهم من حال إلى حال، من ازداد قربا، ولم يزدد خوفا، فهو ممكور، إياكم والقول بهذه الأقاويل، إن هي إلا أباطيل، درج السلف على الحدود بلا تجاوز، بالله عليكم: هل يتجاوز الحد إلا الجاهل؟، هل يدوس عنوة في الجب إلا الأعمى؟، ما هذا التطاول؟!، وذلك

---

١ كتاب مجموعة أحزاب وأوراد قطب دائرة التقديس، أحمد بن إدريس الحسني ١٣٦

٢ البرهان المؤيد، أحمد الرفاعي ٥٤

المتطاول ساقط"[١]. ويتبرأ الرفاعي في بعض كتبه من أقوال الفناء، والوحدة، ومزاعم الفلاسفة، فيقول: "صموا أسماعكم عن علم الوحدة، علم الفلسفة، وما شاكلها، فإن هذه العلوم مزالق الأقدام إلى النار، حمانا الله وإياكم"[٢].

ولا شك أن من يقرأ أقوال الرجل يعتقد أنه قد حدد موقفه بوضوح، ولكن الغريب حقا هو موقف أتباعه، ترى أيسيرون على نهج الشيخ ويعملون بنصيحته ؟ أم يجرفهم تيار الانحراف عن التوحيد والانخراط في وحدة الوجود ؟ وهذا ما نتبينه من قراءة أوراد الطريقة، والذي ينسبونه إلى الشيخ الرفاعي، والتي جاء فيها:

"اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على نورك الأسبق، وصراطك المحقق، من أبرزته رحمة شاملة لوجودك، وأكرمته بشهودك، واصطفيته لنبوتك ورسالتك، وأرسلته بشيرا، ونذيرا، وداعيا إليك بإذنك، وسراجا منيرا، نقطة مركز باء الدائرة الأولية، وسر أسرار الألف القطبية الذي فتقت به رتق الوجود،.. فهو سرك القديم الساري، وماهية جوهر الجوهرية الجاري، الذي أحييت به الموجودات من معدن، وحيوان، ونبات، فهو قلب القلوب، وروح الأرواح، وعلم الكلمات الطيبات، القلم الأعلى، والعرش المحيط، روح جسد الكونين، وبرزخ البحرين، وثاني اثنين"[٣].

ثاني عشر: الطريقة الختمية الميرغنية.

يردد أبناء الطريقة الميرغنية أوراد الطريقة التي جاء فيها:

- "اللهم صلِّ على سلطان المملكة، وإمام الحضرة المقدسة المفيض على الملإ الأعلى من وراء حجبك الجِلا، من قامت به عوالم الملك والملكوت، المطمطم بالأنوار العلية، والكنز الذي لا يعرفه على الحقيقة إلا مالك البرية، ترجمان الرحمن لعباده بالإحسان في حضرة الامتنان بلسان اللطف والحنان، بقوله: لو لم تذنبوا

١ البرهان المؤيد، أحمد الرفاعي ٢٨

٢ البرهان المؤيد، أحمد الرفاعي ٥٥

٣ مجموع الأوراد الكبير ٢٠

وتستغفروا لأتى الله بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم، أو كما قال، المكمل لعباد الله بالنفحات الفردية والمؤيد لهم بالظهورات الأُنسية والعرش، كما يليق بها ظَهَرَ الرب مِن أجله من العماء ذروة الدواوين الإلهية، ترجمان الحضرات الصمدانية، روح المعارف العلمية، ومادة الحقائق النورانية، المتجلي في سماء الربوبية،..

- فهو الباطن الذي منه يُرَى اللهُ، وهو الظاهر الذي به تجلى اللهُ، اللهم بالساجد عند العرش، ومن هو سر العرش أدخلنا فوق الفرش، واحملنا إلى الديوان الأعلى مع الديوان الأجلى على باطن منبع سر إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقين"[١].

ثالث عشر: طريقة أبي العزايم.

ينشر مختار أبو العزايم كتابا سطر فيه المأثور عن الإمام ماضي أبي العزايم الذي تواضع وسمى ورده: "نيل الخيرات"، وقسمه إلى مجموعة من الفتوحات، وطبعا يفهم المريدون أنها فتوحات ربانية، وأسرار علوية، ويقول في الفتح الأول من الصلوات:

- "اللهم أوصل صلة الصلاة على قبضة أنوارك الذاتية، ومجلى أسرارك الكنزية، وسر تجلي العوالم الصفاتية، ومصدر حقائق المظاهر الأسمائية، الجامع بين أولية الحقية في مقام الأحدية، وبين الآخرية في مقام الواحدية، وبينهما في مقام الوحدانية، اللهم أسبغ هاطل صلواتك على عين الحق الكامل في مظهر الخلق... اللهم صلِّ، وسلم على برزخ الهوية، ورمز الألوهية، الظاهر به عنه في مقام كان الله ولا شيء معه، والباطن في مقام تجلي الحقائق الأسمائية في مقام وهو على ما عليه كان"[٢].

---

١ مجموع رواتب الميرغني، لأفاضل السادة الميرغنية وغيرهم ٢٩

٢ نيل الخيرات بمدوامة الأدعية والاستغاثات المأثور عن محمد ماضي أبي العزايم، وينشره مختار أبو العزايم.

- ويشهد النص الوارد في الفتح الثالث من الصلوات على العلاقة الوثيقة بين الصوفية، والفلسفة الأفلاطونية، والأفكار الباطنية اليهودية، حين يقول: "اللهم صلِّ، وسلم على العقل الأول الذي أضاء بنور أوليته عوالم الأرواح النورانية، واللون الذاتي الذي تزينت بمحاسن صفاته جميع الآثار الكونية، والمظهر الحقي الذي أفاض على العوالم كلها أسرار التجليات الرحمانية، المتحقق في المظهرين الحقي والخلقي في الآخرية، اللهم صلِّ، وسلم على مصدر التجليات الواحدية، ومفيض غيث التفضلات الجمالية"[1].

رابع عشر: الطريقة الأحمدية.

شيخ الطريقة هو قطب الصوفية الأكبر أحمد البدوي، يرفعه أحبابه إلى أعلى المقامات، أقلها أنه مركز الدائرة الروحية لمصر، بينما يتهمه الباحثون بأنه: "كان داعيا شيعيا باطنيا، وجاسوسا للدولة الفاطمية تحت ستار التصوف"[2].

وأوراد الرجل مقسمة إلى عدد من الأحزاب والصلوات منها: الحزب الكبير، والصلاة الكبيرة، والصلاة الصغيرة، ومنها ننقل ما يلي:

- "اللهم صلِّ على نور الأنوار، وسر الأسرار، وترياق الأغيار سيدنا محمد المختار، وآله الأطهار، وأصحابه الأخيار عدد نعم الله وأفضاله"[3]. ولا يخفى أن عبارة نور الأنوار يندرج تحتها كل الأنوار، وهذا هو مقصود ابن عربي في وحدة الوجود، ثم يكرر البدوي عبارات شجرة الأصل القبضة الأصلية الرحمانية وغيرها.

---

١ نيل الخيرات بمدوامة الأدعية والاستغاثات المأثور عن محمد ماضي أبي العزايم، وينشره مختار أبو العزايم، الفتح الثالث من الصلوات.

٢ نقلا عن الطرق الصوفية في مصر، للدكتور عامر النجار ١٧٦، والسيد البدوي دراسة نقدية للدكتور عبد الله صابر ١٥، وكتاب السيد البدوي ودولة الدراويش، للأستاذ عبد اللطيف فهمي ٤٥

٣ مجموعة الأوراد الأحمدية، الصلاة الصغيرة ١٨

- "اللهم صلِّ على سيدنا محمد شجرة الأصل النورانية، ولمعة القبضة الرحمانية، وأفضل الخليقة الإنسانية، وأشرف الصورة الجسمانية، ومعدن الأسرار الربانية، وخزائن العلوم الاصطفائية، صاحب القبضة الأصلية، والبهجة السنية، والرتبة العلية، من اندرج النبيون تحت لوائه، فهم منه وإليه"[١].
- ونلمح في أوراد الطريق الحزب الكبير المشهور بتفريج الكروب نبرة شيعية واضحة حيث ورد النص التالي: "الله حسبي، ومحمد وعليّ رُكني، والله متولي أمري"[٢].
- ولأحمد البدوي قصيدة تفيض بوحدة الوجود تعرف باسم تائية أحمد البدوي، يقول فيها[٣]:

فقرأت في توراة موسى تسعة	تليت على موسى لها لم يثبت
وقرأت من إنجيل عيسى عشرة	تليت على عيسى فزادت رفعتي
وقرأت من نهج الغرام مسائلا	وأتيت فيها من شواهد فطنتي
أنا صاحب الناقوس سلطان الهوى	أنا فارس الأنجاد حامي مكة
أنا أحمد البدوي غوث لا خفا	أنا كل شبان البلاد رعيتي

خامس عشر: صلوات أحمد الدردير.

يستطيع القارئ بسهولة أن يحصي النصوص الدالة على وحدة الوجود في أوراد أحمد الدردير، منها ما جاء تلميحا، ومنها ما صرح به الشيخ، أو أتباعه، ونسبوه إليه، ومن ذلك:

- "وصلِّ، وسلم، وبارك على سيدنا محمد، وأغرقنا في عين بحر الوحدة السارية في جميع الموجودات".

---

١ مجموعة الأوراد الأحمدية، الصلاة الكبيرة ١٧

٢ مجموعة الأوراد الأحمدية، الحزب الكبير ١٤

٣ الطرق الصوفية في مصر، للدكتور عامر النجار ٣١٥

- وفي حرف الباء، يقول الشيخ: "واكشف لهم عن حظائر اللاهوت إلهي بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك أعلامه".

وينتشر بين أتباع الطرق أن ضريح الشيخ أحمد الدردير سره كبير، ومن الطريف أن نذكر كيف كان الشيخ صلاح القوصي يعلم أبناءه في الطريق أحد أساليب قضاء الحاجات، وتتلخص هذه الطريقة أن يزور المريد قبر الشيخ في حي الأزهر، ثم يعرض على الشيخ الدردير حاجته، ويختم طلبه قائلا: "اركب الحمارة واقض العبارة". ولا نعرف لم الإصرار على الحمارة في زمن اتسعت فيه الاتصالات ووسائل الانتقال، ثم هل هي حمارة من عالم الروح؟، أم هي حمارة حصاوي من حمير هذا الزمان؟، ولا شك أن من سيركب الحمارة سيطول انتظار الناس لمساعيه!

سادس عشر: دلائل الخيرات.

ويعد كتاب "دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة والسلام على النبي المختار"، والمشهور بدلائل الخيرات من أكثر الصلوات انتشارا بين الطرق الصوفية، وتجتمع حوله الحلقات في المقام الذي يظن الصوفية، وكثير من العوام أن فيه رأس الحسين ﵁، ثم يقرأ المريدون بلسان واحد هذا الكتاب الذي لا يخلو من الإشارة إلى عقيدة وحدة الوجود.

- "اللهم صلِّ على سيدنا محمد السابق للخلق نوره".
- "اللهم صلِّ على سيدنا محمد نور الأنوار وسر الأسرار".
- "اللهم صلِّ على سيدنا محمد الذي نوره من نور الأنوار، وأشرق بشعاع سره الأسرار، سابق للخلق نوره"
- "اللهم صلِّ على من فاضت من نوره جميع الأنوار"
- "اللهم صلِّ على سيدنا محمد بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ولسان حجتك، وعروس مملكتك، وإمام حضرتك، وطراز ملكك، وخزائن رحمتك، وطريقة

شريعتك، المتلذذ بتوحيدك، إنسان عين الوجود، والسبب في كل موجود، عين أعيان خلقك المتقدم من نور ضيائك"[١].

هذا وقد توجه أحد المسلمين بسؤال إلى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء يقول فيه: ما حكم كتاب دلائل الخيرات؟ وننقل نص الفتوى [رقم ٢٣٩٢]، والتي جاء فيها: "أما كتاب دلائل الخيرات، فننصحك بتركه، لما يشتمل عليه من الأمور المبتدعة، والشركية وفي الوارد في القرآن والسنة غنية عنه"[٢].

سابع عشر: صلوات الشيخ الأكبر.

ولا يخفى أن المقصود بالشيخ الأكبر هو ابن عربي الذي نال هذا المقام لاقتباسه نظرية وحدة الوجود، وإلباسها ثوب النصوص الإسلامية. وفي أوراد الشيخ نجد ما يلي:

- "اللهم أفض صلة صلواتك وسلامة تسليماتك على أول التعينات المفاضة من العماء الرباني، وآخر التنزلات المضافة إلى النوع الإنساني، المهاجر من مكة كان الله، ولم يكن معه شيء، ثان إلى مدينة وهو الآن على ما عليه كان،.. ونقطة البسملة الجامعة لما يكون ولما كان، ونقطة الأمر الجوالة بدائرة الأكوان، سر الهوية التي في كل شيء سارية، وعن كل شيء مجردة وعارية، أمين الله على خزائن الفواضل، ومستودعها، ومقسمها على حسب القوابل وموزعها. كلمة السر الأعظم،.. الفيض الأقدس الذي تكونت به الأكوان واستعداداتها، والفيض المقدس الصفاتي الذي تكونت به الأكوان واستمدادها، مطلع شمس الذات في سماء الأسماء والصفات، ومنبع نور الإفاضات في رياض النسب

---

١ نيل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة والسلام على النبي المختار تأليف، محمد الجزولي ص ٤٤، ٤٩، ٥٩، ٦٥، ٦٨، ٨٠

٢ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء جمع وترتيب الشيخ أحمد الدويش، والفتوى رقم ٢٣٩٢، جزء ٢: ٢٢٧، ومهورة بتوقيع السادة العلماء: عبد الله بن قعود، وعبد الله بن عديان، واعتماد سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز

والإضافات، خط الوحدة بين قوسي الأحدية والواحدية، وواسطة التنزل من سماء الأزلية إلى أرض الأبدية"[١].

- لا شك أن من يصف النبي ﷺ بأنه مطلع شمس الذات في سماء الأسماء والصفات، لا يتبرأ من وصفه بنور الأنوار في النص التالي: "اللهم إني أسألك بنور الأنوار الذي هو عينك لا غيرك أن تريني وجه نبيك محمد ﷺ".
- ويرفع هذا النص النبي ﷺ إلى مقام الألوهية، بل هم يزعمون أنه الله، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ونستكمل قراءة الأوراد، فنجد النص التالي:
- "اللهم صلِّ على الذات المطلسم، والغيث المطمطم، والكمال المكتم، لاهوت الجمال، وناسوت الوصال، وطلعة الحق، كنز عين إنسان الأزل في نشر من لم يزل من أقامت به نواسيت الفرق في قاب ناسوت الوصال الأقرب إلى طرق الحق، فصلِّ اللهم به منه فيه عليه وسلم"[٢].
- "اللهم يا من لا أرى سواه، وإن تعددت المظاهر، ولا أناجي إلا إياه وإن كثرت الظواهر، وتعدد تجلياتك في الشهود، وبحرمة ظهورك للبصائر، واحتجابك عن المشاعر"[٣].
- ننقل ما سطره الشيخ نظما[٤]:

ندعوك مضطرين بالصفات	بمظهر الأسماء بسر الذات
بسر سر الطمس بالعماء	بكنزك المخفي بالهباء
بأول البارز للوجود	من عالم الغيب إلى الشهود
بنقطة الدائرة المشيرة	لوحدة المظاهر الكثيرة

١ كنوز الأسرار – صلوات ابن عربي ٩٧ – ٩٩

٢ كنوز الأسرار – صلوات أحمد أبي الناصر والنووي.

٣ كنوز الأسرار – صلوات الفاسي ١٥٥

٤ كنوز الأسرار – ١٧٠ – ١٧١

لا يستطيع أحد بعد هذه الأمثلة من الأوراد أن ينفي اعتقاد أشهر الطرق الصوفية المعاصرة في وحدة الوجود، ونستكمل الدراسة بتوفيق الله تعالى لبيان اعتقاد المزيد من الطرق الصوفية.

ثامن عشر: تائية إبراهيم الدسوقي.

أشرنا في سلسلة كتبنا هذه إلى تائية الدسوقي، وشطحاته فيها، وسنكتفي هنا بالنقل عن الدكتور عامر النجار من كتابه الطرق الصوفية في مصر، والذي يقرر فيه نفس ما وصلنا إليه، ونثبته من خلال هذا الباب. تراه يقول: "والمتأمل في أشعار الدسوقي يجد أنه أحد الصوفية القائلين بالحقيقة المحمدية، ونلمس ذلك في هذه التائية الطويلة التي يتضح من خلالها نظرية الحقيقة المحمدية بكل أبعادها عند الدسوقي، وأكثر من ذلك يتضح لنا كيف وصل في شطحه إلى أن يقول:

أتدري من أنا قلت أنت يا ... مناي أنا إذ كنت أنت حقيقتي

فقال كذلك الأمر لكنما إذا ... تغيبت الأشياء كنت كنسختي

ونلمس وحدة الشهود، حين يقول:

وما شاهدت عيني سوى عين ذاتها ... لأن سواها لا يلم بفكرتي

بذاتي تقوم الذات في كل ذرة ... جدد فيها حلة بعد حلة

أنا موجد الأشياء من غير حاجة ... بكرة كون الكون من غير آلتي

ويقول أيضا:

أنا الواحد الفرد الكبير بذاته ... أنا الواصف الموصوف بذاته

ويستطرد الدكتور النجار حديثه بقوله: "لعلي كنت على حق حين اتفقت مع مارجليث [اسم أحد المستشرقين في التصوف الإسلامي] في أن الدسوقي ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه الحلاج في شطحه، وعلى الرغم من وجود شبهة القول بالحلول في قصيدة الدسوقي إلا أنه نفى الحلول بعد ذلك، حين قال:

فأوصلت ذاتي باتحادي بذاته ... بغير حلول بل بتحقيق نسبتي

ولعل تائية الدسوقي تصور لنا بوضوح الجانب النظري من تصوف الدسوقي، وهو يقوم أساسا على نظرية تنقل النور المحمدي، أو الحقيقة المحمدية، فالنبي محمد ﷺ هو في رأي

الدسوقي قبضة من نور الله، قال لها: كوني محمدا فصارت محمدا، ومعنى هـذا أن محمـدا لـيس بشرا، ولكنه جزء من ذات الجزء، أو قل من ذات الله تعالى، كان قبل خلـق آدم يحيـا كملـك في عالم الملكوت، فلما خلق الله ﷻ آدم من تراب حلت فيه تلك الحقيقة المحمدية، ثـم انتقلـت إلى ابنه شيث، ثم إلى إدريس، وهكذا ظلت تلك الحقيقة المحمديـة تنتقـل مـن نبـي إلى نبـي حتـى ظهرت في خاتم النبيين محمد العـربي، فلـما مـات ﷺ انتقلـت تلـك الحقيقـة، أو ذلـك النـور المحمدي إلى علي، ثم إلى ابنه الحسن، وهكذا ظلت تنتقل من قطب إلى قطب حتى ظهر إبراهيم الدسوقي، فحل فيه ذلك النور، أو تلك الحقيقة المحمدية، كما حلت في النبيين من قبل، ولكنها قد أخذت اسما جديدا في الذين حلت، وتحل فيهم بعد النبي محمد ﷺ، ويسمى الذي تحـل فيـه قطبا، ومن قبل كان يسمى نبيا ورسولا".

ومن هنا نلاحظ أن القطب عند الدسوقي قديم أزلي من حيث الحقيقة الروحية، وإن كان حادثا من حيث التشخيص الجسماني، وهذا هو عين ما ذهب إليه الفاطميون من القـول بالمثـل والممثول، فالمثل هو الدسوقي وأحزابه من الأقطاب، والممثول هـو الحقيقـة المحمديـة الأوليـة الأبدية القائمة في عالم الملكوت، ثـم أن هـذه النظريـة القطبانيـة لا تختلـف في شيء عـما قررتـه الفلسفة الأفلاطونية من أن لكل موجود في هذا العالم مثـل يطابقـه في عـالم المثـل، أو قـل عـالم الملكوت، فالدسوقي إذن لم يكُ أحد أولئك المتصوفين الذين بنوا تعاليمهم على الإلهام وحـده، وإنما أفاد في تصوفه إلى حد كبير على النظريات الفلسفية التي مصدرها العقل والتفكير"[1].

والذي يهدم فكرة هؤلاء عن الحقيقة المحمدية دليل نسوقه مـن جـنس أقـوالهم، فـتراهم يقولون: إن من حلت فيه الحقيقة المحمدية بعد النبي ﷺ يسمى قطبا، ومن حلت فيه قبل النبـي ﷺ يسمى نبيا ورسولا، فالحجة هنا أن الحقيقة المحمدية كانت في ظهر عبد الله والـد النبـي ﷺ، ومن قبله في ظهر عبد المطلب جد النبي ﷺ، فهل زعم أحد أنهم كانوا أنبياء ومرسلين؟

---

١ الطرق الصوفية في مصر للدكتور عامر النجار ٢٥٤ - ٢٥٦

تـاسع عشر: الطريقة التجانية.

شيخ الطريقة هو: أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمـد التجـاني، [ولـد عام ١١٥٠ من الهجرة]، حفظ القرآن ورحل في طلب العلم إلى بلاد عديدة، وتلقى عن العديد من مشايخ الصوفية، وانتهت رحلاته إلى أبي صيفون، وهناك زعم أنه جاءه الفـتح، وأنـه لقـي النبي ﷺ يقظة لا مناما، وأخذ عنه الطريق مشافهة، وزعم التجاني بعد شهرته أنه شريف ينتهـي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، ولم يعول في إثبات ذلك على وثـائق مكتوبـة، ولا أخبـار الأعيان والآحاد، بل زعم أنه رأى النبي ﷺ يقظة، وسأله عن نسبه، فأجابه بقوله: أنـت ولـدي حقا، وكررها ثلاثا، ثم قال: نسبك إلى الحسن صحيح"[١].

وكتب مريده علي حرازم بن العربي براد من فيض شـيخه التجـاني كتـاب جـواهر المعـاني وبلوغ الأماني، يقرر فيها إيمانه بوحدة الوجود في نصوص، نختار منها:

"الأصل في كل ذرة في الكون هي مرتبة للحق ﷻ يتجلى فيها بما شـاء مـن أفعالـه وأحكامه، والخلق كلهم مظاهر أحكامـه وكـمالات ألوهيتـه، فـلا تـرى ذرة في الكـون خارجة عن هذا الأمر، فما ثم إلا كمالات ألوهيته،.. وهو أن جميـع المخلوقـات مراتـب للحق يجب التسليم له في حكمه، وفي كل ما أقام فيه خلقه لا يعارض في شيء، ثم حكم الشرع من وراء هذا يتصرف فيه ظاهرا لا باطنا، ولا يكون هـذا إلا لمـن عـرف وحـدة الوجود، فيشاهد فيها الفصل والوصل، إن الوجود عين واحدة لا تجزئ فيها على كثـرة أجناسها وأنواعها، ووحدتها لا تخرجها عن افتراق أشخاصـها بالأحكـام والخـواص، وهي المعبر عنها عند العارفين بأن الكثرة عين الوحدة، والوحدة عين الكثرة، فمن نظـر إلى كثرة الوجود وافتراق أجزائه نظره عينا واحدة على كثرته، ومن نظر إلى عين الوحدة نظرة متكثرا بما لا غاية له من الكثرة، وهذا النظر للعارف فقط لا غـيره مـن أصـحاب

---

١ نقلا عن بحث اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ٢: ٢٣٠، تلخيصا من الباب الأول من جواهر المعاني وبلوغ الأماني، لعلي حرازم، والفصل الثاني والعشرين من كتاب الرماح لعمر بن سعيد الفوتي

الحجاب، وهذا لمن عاين الوحدة ذوقا لا رسما"[١].

ويكرر التجاني كلام ابن عربي مطمئنا الكفار والمشركين على سلامة موقفهم، فيقول: "فكل عابد أو ساجد لغير الله في الظاهر فما عبد ولا سجد إلا لله تعالى: لأنه المتجلي في تلك الألباس، وتلك المعبودات كلها تسجد لله تعالى، وتعبده، وتسبحه، وخائفة من سطوة جلاله ﷻ، ولو أنها برزت لعبادة الخلق، وبرزت لها بدون تجليه فيها لتحطمت في أسرع من طرفة العين لغيرته تعالى لنسبة الألوهية إلى غيره، قال ﷻ لكليمه موسى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه-١٤]، والإله في اللغة هو المعبود بحق، وقوله لا إله إلا أنا يعني لا معبود غيري، وإن عبد الأوثان من عبدها فما عبد غيري، ولا توجه بالخضوع والتذلل لغيري"[٢].

وقد جاء في أحزاب وأوراد الطريقة التجانية الصلاة الغيبية في الحقيقة الأحمدية، ونصها: "اللهم صلِّ وسلم على عين ذاتك العلية بأنواع كمالاتك البهية، في حضرة ذاتك الأبدية، على عبدك القائم بك منك لك إليك"[٣].

كما تتضمن أوراد الطريق صلاة تسمى جوهرة الكمال، تقول: "اللهم صلِّ وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحائطة [أي المحيطة] بمركز الفهوم والمعاني، ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني، البرق الأسطع بمزون الأرياح المائلة لكل متعرض من البحور والأواني، ونورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكاني، اللهم صلِّ، وسلم على عين الحق التي تتجلى منها عروش الحقائق، عين المعارف الأقوم صراطك التام الأسقم، اللهم صلِّ، وسلم على طلعة الحق بالحق، الكنز الأعظم، إفاضتك منك إليك إحاطة النور المطلسم، صلى الله عليه وعلى آله، صلاة تعرفنا بها إياه"[٤]، وتنص ياقوتة الحقائق بالتعريف بحقيقة سيد الخلائق على ما يلي: "اللهم.. العالي في عظمة انفراد

---

١ جواهر المعاني وبلوغ الأماني، لعلي حرازم عن شيخه التجاني ٢: ٨٣

٢ جواهر المعاني وبلوغ الأماني، لعلي حرازم عن شيخه التجاني ١: ١٨٤، ١٨٥

٣ أحزاب وأوراد القطب الرباني والعارف الصمداني التجاني ٣٠

٤ أحزاب وأوراد القطب الرباني والعارف الصمداني التجاني ١٤

حضرة أحديتك، التي شئت فيها بوجود شئونك، وأنشأت من نورك الكامل نشأة الحق، وأنطتها وجعلتها صورة كاملة تامة تجد منها بسبب وجودها، وجعلت منها فيها بسببها انبساط العلم،.. وتشعشعت الصور البارزة بإقبال الوجود، وقدرت لها وفيها ومنها ما يماثلها، مما يطابق أرقام صورها، وحكمت عليها بالبروز لتأدية ما قدرته عليها، وجعلتها منقوشة في لوحها المحفوظ،.. وجعلت كل الكل في كلك، وجعلت الكل قبضة من نور عظمتك، روحا لما أنت أهل له، ولما هو أهل لك،.. أن تصلي وتسلم على ترجمان لسان القِدَم، اللوح المحفوظ، النور الساري الممدود، الذي لا يدركه داركٌ، ولا يلحقه لاحق، الصراط المستقيم، ناصر الحق بالحق"[1].

فتاوى شرعية عن أوراد التجانية:

وجه بعض المسلمين العديد من الاستفسارات عن أوراد التجانية إلى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء، بالمملكة العربية السعودية، والله تبارك وتعالى يجزيهم خير الجزاء، حيث شكلوا لجنة من العلماء الأفاضل، لدراسة أوراد الطريقة، وبحث أفكارها وقياسها بميزان الكتاب والسنة، ثم أصدرت اللجنة العديد من الفتاوى بناء على هذه الدراسة المتأنية، وإليكم نصوص هذه الفتاوى:

* الفتوى رقم ٢١٣٩:

السؤال: هل يجوز قراءة ورد التجانية والتعبد به أم لا؟

الجواب: بعد حمد الله والصلاة على نبيه ﷺ. الطريقة التجانية طريقة منكره لا تتفق مع هدي رسول الله ﷺ، وسنته، بل فيها بدع شركية تُخْرِج من يعتقدها، أو يعمل بها من ملة الإسلام والعياذ بالله، وأورادها فيها بدع، فلا يجوز التعبد بها: لأن الأذكار من العبادات، والعبادات توقيفية يُرجع فيها إلى كتاب الله، وإلى ما ثبت عن رسول الله ﷺ، كتلاوة القرآن الكريم، وما حث عليه رسول الله ﷺ من الذكر والدعاء في دواوين السنة، والكتب التي

---

١ أحزاب وأوراد القطب الرباني والعارف الصمداني التجاني ٢٣ – ٢٥

استخلصت منها، مثل: رياض الصالحين للنووي، والكلم الطيب لابن تيمية، والوابل الصيب لابن القيم، والأذكار للنووي، وغيرها من كتب الحديث المعتمدة"[١].

* الفتوى رقم ٥٢٩٢:

السؤال: عن قصيدة يتوسل فيها مريدو التجاني بشيخهم، وفي القصيدة أبيات منها:

يا أحمد التجاني يا غيث القلوب   أما ترى ما نحن فيه من كروب

الجواب: أحمد التجاني وأتباعه الملتزمون لطريقته من أشد الخلق غلوا، وكفرا، وضلالا، وابتداعا في الدين، لما لم يشرعه الله سبحانه، ولا رسوله ﷺ[٢].

* الفتوى رقم ٥٥٥٣:

السؤال: ما عقيدتكم في طريقة التجانية، ورؤية المصطفى ﷺ يقظة؟

الجواب: الفرقة التجانية من أشد الفرق كفرا، وضلالا، وابتداعا في الدين لما لم يشرعه الله ﷻ. وقد تصدى مجموعة من العلماء لأوراد هذه الطريقة بالدراسة والتحليل، وخلصت اللجنة إلى النتائج التالية، ننقلها عنهم حرفيا:

١. غلو أحمد بن محمد التجاني مؤسس الطريقة، وغلو أتباعه فيه غلوا جاوز الحد، حتى أضفى على نفسه خصائص الرسالة، بل صفات الربوبية والإلهية، وتبعه في ذلك مريدوه.

٢. إيمانه بالفناء ووحدة الوجود، وزعمه ذلك لنفسه، بل زعم أنه في الذروة العليا من ذلك، وصَدَّقَه فيه مريدوه، فآمنوا به، واعتقدوه.

٣. زعمه رؤية النبي ﷺ يقظة، وتلقين النبي ﷺ إياه الطريقة التجانية، وتلقيه وردها، والإذن له يقظة في تربية الخلق، وتلقينهم هذا الورد، واعتقاد مريديه، وأتباعه ذلك.

---

١ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء جمع الشيخ أحمد الدويش ٢: ٢٢٦

٢ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع الشيخ أحمد الدويش ٢: ٢٢٨

٤. تصريحه بأن المدد يفيض من الله على النبي ﷺ أولا، ثم يفيض منه على الأنبياء، ثم يفيض من الأنبياء عليه [أي التجاني]، ثم منه يتفرق على جميع الخلق من آدم إلى النفخ في الصور، ويزعم أنه يفيض أحيانا من النبي ﷺ عليه مباشرة، ثم يفيض منه على سائر الخليقة، ويؤمن مريدوه بذلك، ويعتقدونه.

٥. تهجمه على الله ﷻ، وعلى كل ولي لله، وسوء أدبه معهم، إذ يقول: قدماي على رقبة كل ولي، فلما قيل له: إن عبد القادر الجيلاني، قال فيما زعموا: قدمي على رقبة كل ولي، قال: صدق ولكن في عصره، أما أنا فقدماي على رقبة كل ولي من آدم إلى النفخ في الصور، فلما قيل له: أليس الله قادرا على أن يُوجد بعدك وليا فوق ذلك؟ قال: بلى، ولكن لا يفعل! كما أنه قادر على أن يوجد نبيا بعد محمد ﷺ، ولكنه لا يفعل، ومريدوه يؤمنون بذلك، ويدافعون عنه.

٦. دعواه كذبا أنه يعلم الغيب، وما تخفي الصدور، وأنه يُصرف القلوب، وتصديق مريديه ذلك وعدّه من محامده وكراماته.

٧. إلحاده في آيات الله، وتحريفها عن مواضعها، بما يزعمه تفسيرا إشاريا، كما سبق في الأعداد من تفسيره قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن١٩-٢٠]، ويعتقد مريدوه أن ذلك من الفيض الإلهي.

٨. تفضيله الصلاة على النبي ﷺ على تلاوة القرآن بالنسبة لمن يزعم أنهم أهل المرتبة الرابعة، وهي المرتبة الدنيا في نظره.

٩. زعمه هو وأتباعه أن مناديا ينادي يوم القيامة والناس في الموقف بأعلى صوته: يا أهل الموقف هذا إمامكم الذي كان منه مددكم في الدنيا.

١٠. زعمه أن كل من كان تجانيا يدخل الجنة دون حساب، ولا عذاب مهما فعل من الذنوب.

١١. زعمه أن من كان على طريقته، وتركها إلى غيرها من الطرق الصوفية تسوء حاله، ويخشى عليه سوء العاقبة والموت على الكفر.

١٢. زعمه أنه يجب على المريد أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل، لا اختيار له، بل يستسلم لشيخه، فلا يقول: لِمَ؟، ولا كيف؟، ولا علام؟، ولا لأي شيء؟.. إلخ.

١٣. زعمه أنه أوتي اسم الله الأعظم، عَلَّمَه إياه النبي ﷺ، ثم هول أمره، وقدر ثوابه بالآلاف المؤلفة من الحسنات، خرصا، وتخمينا، ورجما بالغيب، واقتحاما لأمر لا يُعلم إلا بالتوقيف.

١٤. زعمه أن الأنبياء والمرسلين والأولياء لا يمكثون في قبورهم بأجسادهم، إلا زمنا محدودا يتفاوت بتفاوت مراتبهم ودرجاتهم، ثم يخرجون من قبورهم بأجسادهم، كما كانوا من قبل إلا أن الناس لا يرونهم، كما لا يرون الملائكة مع أنهم أحياء.

١٥. زعمه أن النبي ﷺ يحضر بجسده مجالس أذكارهم وأورادهم، وكذا الخلفاء الراشدون.. إلخ، إلى غير ذلك مما لو عرض على أصول الإسلام اعتبر شركا، وإلحادا في الدين، وتطاولا على الله، ورسوله، وتشريعه، وتضليلا للناس، وتبجحا منهم بعلمه الغيب.. إلخ. هذا ما تيسر، والله الموفق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

توقيع الشيخ/ عبد الله بن عبد الرحمن بن غذيان، والشيخ/ عبد الرزاق عفيفي، وسماحة الشيخ/ عبد العزيز بن باز الرئيس العام للجنة. انتهى

كما لا يفوتنا الإشارة إلى المجهود الطيب الذي بذله الأستاذ علي بن محمد الدخيل في دراسته العميقة للطريقة التجانية، والتي ضمنها تأليفه الجيد لكتاب التجانية دراسة لأهم عقائد التجانية على ضوء الكتاب والسنة، والذي ننصح الصوفية على اختلاف طرقهم بقراءته، وجزاه الله خير الجزاء[1].

---

١ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء جمع الشيخ أحمد الدويش ٢: ٢٢٦ – ٢٤٠

إن السؤال المنطقي الذي يطرح نفسه الآن هو: هل انحرفت الطريقة التجانية بقدر أكبر من غيرها من الطرق؟ أم أن هناك اشتراكا بينها والصوفية عموما بحيث يمكن تطبيق فتوى علماء الإفتاء على كل الطرق؟ وهذا سؤال خطير، وإجابته تحتاج إلى لجان تتسلم أوراد الطرق الصوفية كاملة، ثم تزنها بميزان الشرع، وتحدد قدر الخلل فيها، وهل هو خلل في أمور فرعية؟، أم أن الأمر أشمل من ذلك وقدر الضرر الذي يلحق بعقيدة هؤلاء الأتباع ومقدار بعدهم عن حظيرة الإسلام؟. إذا كانت وحدة الوجود هي أخطر انحرافات التجانية، وقد أفتى علماء الرئاسة العامة للإفتاء بانحراف هذه المعتقدات، وأنها أفكار كفرية بدعية، ومعتقدوها على خطر عظيم. وأن معظم ما تيسر لنا تحليله ودراسته من أوراد الطرق الصوفية المنتشرة في مصر، قد أشربت عقيدة وحدة الوجود، بل إن هناك أوراد تتحدث دون أي غموض، وبشكل مباشر عن هذه الأفكار، بل إن من الطرق الصوفية من أطلق على طريقته طريقة الحقيقة المحمدية.

وإذا كنا قد سعدنا بدور الأزهر الشريف في التصدي للطريقة البرهانية الدسوقية الشاذلية، ولشيخها محمد عبده البرهاني، وتوفيق الله تعالى لصاحب الفضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله، حتى منع هذه الطريقة من جمهورية مصر العربية، قلعة الإسلام وحصنه الآمن. إلا أننا ونحن نعلم أن الطريقة البرهانية فرع من الطرق الدسوقية التي ينادي شيخها بنفس أفكار التجاني، وبالاتحاد، والوحدة، وأفكار الفاطميين، وغيرهم، فلِمَ نغلق الفرع، ولا نواجه الأصل؟!، لذا فإنا نسأل الله تبارك وتعالى أن يعين شيخ الجامع الأزهر الحالي على التصدي للأصل، وفي نفس الوقت يأمر بدراسة أوراد الطرق الصوفية، ووقف أي طريقة تشيع بين الناس المفاهيم الفلسفية، وتحجب الناس عن العقيدة الإسلامية السمحة، والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

العشرون: الطريقة القوصية.

شيخ الطريقة هو صلاح الدين القوصي المنشق عن الطريقة الخلوتية العونية العيونية التي خضت تجربتي الصوفية فيها، تلك التجربة التي أثمرت كتب السلسلة التي بين يدي القارئ الآن، وقد التقيت صلاح القوصي [سنة ١٩٧٠]، وما علمناه آنذاك أنه تلقى الاسم الأول فقط من أسماء الطريقة على يد الشيخ أبي العيون قبل وفاته [سنة ١٩٧٠]، ولما تولى المستشار محمد محمود عبد الله مشيخة الطريق، استكمل صلاح القوصي سلوكه على يدي شيخه الجديد، الذي

لقنه خلال السنوات التالية باقي الأسماء السبعة، وأذن له في استفتاح الحضرات، وبعد سنوات معدودة من التدبير والتخطيط ليصبح وحده الكل في الكل، وجدناه يطعن في شيخه المستشار/ محمد محمود عبد الله، ثم يختلف مع أولاد الشيخ، وكان دائما يتحدث عن أبي العيون، وينسب له كل الفضل، وقد بلغ من خلافه مع المستشار أن الأخير اتهمه بالنفاق، وانتهى به الأمر إلى استقطاب المريدين إليه، ثم كان أن أعلنت اعتراضي على التصوف وأظهرت ما شابه من انحرافات، وقد كان صلاح القوصي أحرص الناس على أن يسمع مني، وكلما أطلعته على المخالفات الشرعية، وسقت له الأدلة، كان يلجمه الصمت، ويفتح فاه، ويظهر إنكاره إن صح قولي، وفي أحيان أخرى يدافع عن الصوفية، ويوم عرضت له ملاحظاتي على كتابي الإبريز للدباغ والطبقات الكبرى للشعراني، بادرني بقوله: ومن أذن لك أن تقرأ في هذه الكتب؟ فقلت له: أنت، وذكرته يوم كلفني بالقراءة، حيث قال لي: "اقرأ هذه الكتب، ولا يطالعها أحد سواك، ولا تقع في يد أحد غيرك،،،،" ولما سقت له أمثلة من هذه الكتب، كان سؤاله المباشر: من سمعني وأنا أكلفك بقراءة هذه الكتب؟ فالرجل لم يحركه إلا الخوف من اهتزاز صورته بين المريدين، فقلت له:" لقد كلفتني بعد حضرة السيدة نفيسة في حضور كل الإخوان"، وعندما طلبت رأيه فيما تلوته عليه من كلام أكابر الصوفية، فقال لي بالحرف الواحد: "هو أنا قد الشعراني علشان أعترض عليه، يقول إللي هوه عايزه".

ولقد أدركت فيما بعد سبب حرصه على أن يعرف مآخذي على الصوفية، فقد أشاع بين الإخوان: أن السيد/ محمود المراكبي كان على وشك الوصول إلى مقام كن فيكون، إلا أن كثرة قراءته واطلاعه حالت دون هذا المقام، وبعث إلى مريديه أن يبتعدوا عني، وقال لهم: "ارفعوا راية الجهل إذا حدثتهم، وقولوا له هذا الأمر بينك وبين شيخنا فناقشه وما تنتهوا إليه فنحن نتبعكم".

وكان القوصي حريصا في نفس الوقت على معرفة ما عندي من مآخذ، وعرفت السبب فيما بعد، فقد كان يكتب أورادا جديدة للطريق، ويريد أن ينقيها من اعتراضاتي قبل أن يكلف بها مريديه، ثم أشاع بينهم أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه في المنام وأعطاه أورادا جديدة، حتى أن بعض مريديه ممن يعرفونني جيدا جاءني مستبشرا أنني سأعود إلى الطريق، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كلفهم بأوراد لا شك أنها خالية من أي شوائب، وعبثا حاولت أن أحصل

على نسخة من هذه الأوراد، حتى ساقها إلي أحد مريديه، فعاودت قراءتها، ووجدت فيها كثيرا من المآخذ السابقة.

ثم طبع صلاح القوصي ديوانيه الأسير ثم ديوان العتيق، وكان يوزعها على الخاصة من مريديه بنفسه، حتى لا تصل إليَ، وكان أسلوبه في شعره أن يرقم أبيات الديوان، ثم يضع إشارة مرجعية على بعض الأبيات، ويعلق عليها بنفسه، وسننقل أبياته وتعليقه عليها، وليتذكر القارئ الكريم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع رجلا يمدح آخر، فقال له: "ويحك قطعت عنق صاحبك"، وفي رواية: "المدح الذبح"، وليستعد القارئ الكريم نفسيا لقراءة أغرب أنواع الشطط، وأكثرها نرجسية وتمجيدا للنفس، وأكذبها على الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك قوله في البيت [١١٣]:

حباه "أبو العيون" بعين فضل فأبدله يقينا بعد ظن

ثم يعلق على شعره، فيقول: يشير المؤلف [أي صلاح القوصي] إلى فضيلة الشيخ العارف بالله تعالى السيد/ محمد إبراهيم أبي العيون وكيل أصول الدين بالأزهر الشريف، وشيخ الطريقة الخلوتية، وقد كان قطب غوث عصره بلا خلاف، وقد تولى تربية المؤلف منذ عام [١٩٥٣م]، وحتى بداية عام [١٩٧٠م] ، حيث انتقل إلى جوار ربه، وظهرت خصوص رعايته الروحية للمؤلف بعد انتقاله إلى رضوان الله تعالى حتى سلمه يدا بيد إلى سيدنا رسول الله ﷺ في ليلة الاثنين [٢٦ ربيع الأول ١٤١١هـ]، الموافق [١٥ أكتوبر ١٩٩٠م].

- **انقلاب القوصي على مشايخه**

وكان المستشار يدرك تطلعات القوصي وحبه للظهور، وجمعه للإخوان في الطريق، بل ومنعهم من زيارة المستشار، فاستفحل بين الرجلين الخلاف والخصام، حتى سمعنا المستشار يحذر المريدين من القوصي، وكم عَجِبْنا آنذاك حين نعته بالنفاق؟ وكان هذا أمرا خطيرا وغير مألوف، فالاتهام معلوم خطورته في الدين، وسارت الأيام حتى ظهرت على الرجل ما كان خافيا من أمره، فبدأ في الانفصال عن الطريق، ومنع المريدين من زيارة أبناء الشيخ، ثم زعم أنه خليفة الشيخ، وأن جميع خلفاء الشيخ ينبغي عليهم أن يبايعوه وحده شيخا للطريق..، يقول في كتابه العتيق: "يشير المؤلف [أي صلاح القوصي] إلى رؤية له يقظة تشرف فيها بشيخه السيد

أبي العيون يسوق إليه أرواح جميع أولاد الشيخ، ويخلي عهدته من الشيخ إلى المؤلف، وذلك في [ذي القعدة ١٤١٥ إبريل ١٩٩٥]، ويؤكد ذلك حيث يقول في البيت [٢٢٤]:

ونصبناك عندهم إماما   برغم الحاسدين بسوء ظن

ويعلق على البيت فيقول: يشير المؤلف [أي صلاح القوصي] إلى رؤية له [٢ ذي الحجة ١٤١٢]، الموافق [٣ يونيو ١٩٩٢]، حيث أقيم فيها احتفال كبير له، وقدمه الشيخ أبو العيون إماما في الصلاة للجميع مع بعض المعارضين، والشيخ يقسم أن هذا الاختيار ليس منه، بل بالأمر له وللجميع، ثم أوصاه كثيرا في كيفية معاملة من يعترض على المؤلف، وكذلك معاملة أهل الشيخ نفسه". ويزعم شيخ الطريقة القوصية، في البيت [١٢١] أن أبا العيون:

أتاني راجيا من بعد أمر   من السلطان مولانا الحسين

- القوصي يتعرف على الأغواث

"ويشير الشاعر إلى رؤيا له أمره فيها الإمام الحسين ﷺ بسلوك الطريق الخلوتي [عام ١٩٦٧] على يد شيخه، وفي [فبراير ١٩٧٢ المحرم ١٣٩٢] أجازه شيخه السيد أبو العيون مناما بعد انتقاله إلى رضوان الله تعالى بالتربية لمن سأله سلوك الطريق، ثم أجازه بثلاث إجازات أخرى، وكانت شاملة عامة". بل إن شيخه قد عرَّفه على الأغواث، كما ورد في البيت[١١٨]من ديوانه، حيث يقول:

وعَّرفه بغوث بعد غوث   وأيده بسر مستكين

ويعلق القوصي، قائلا: "تعرف الشاعر [يقصد نفسه] على أربعة أقطاب غوث في زمانهم [منذ عام ١٩٦٣، وحتى ١٩٩٢]، وهذا بخلاف السابقين مثل: السيد/ أبي الحسن الشاذلي، السيد/ أحمد البدوي، السيد/ إبراهيم أبي العيون، السيد/ عبد العزيز الدباغ، وخلافهم ممن لم يتعرف على أسمائهم، وذلك في أعوام [٦٣، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤]".

- **القوصي يتكفل بأولاد شيخه**

ويقول في الأبيات [٢٣٠ – ٢٣٤] من ديوان العتيق:

فأصدرنا إليك قرار تعيين   وصكا فيه أمر بالتبني

لأولاد الإمام وهم كرام   حماة الدين في حرب وأمن

كرام خلص لله يقضي   بهم أمرا عظيما ملئ كون

بهم ختم الأمور ومن تراهم كأولاد "الإمام علو شأن

وواحدهم كألف فيه سـر وأنت كفيلهم بالإذن مني

ويعلق صلاح القوصي بقوله: يشير المؤلف [أي صلاح القوصي] إلى رؤية له بالريـاض في عصر الأحد [٢٧ نوفمبر ١٩٩٤]، الموافق [٢٣ جمادي الثانيـة ١٤١٥]، حيـث أُبلـغ بصـدور قرار تعيين خاص بتكليفه بأمر مهم رفض المؤلف أن يفصح عنه، وكذلك يشير إلى رؤية صباح الخميس [١٥ شوال ١٤١٥]، الموافق [١٦ مارس ١٩٩٥]، حيث زاره الشيخ محمد أبو العيون حاشدا له جمهورا كبيرا من أولاده مشيرا له إلى تأكيد الرؤيا السابقة في التاريخ المذكور.

وبعد تلك المرحلة مهد شيخ الطريقة الجديد للخطوة التالية، حيث سـيخلع كـل المشـايخ إلا شيخا واحدا هو نفسه الأمارة بالسوء، فيقول في البيت [١٢٣]:

وقد أوصى به "جدي" ودادا وآل البيت إكراما بصون

ويعلق الشيخ على البيت، قائلا: "يشير المؤلف [القـوصي] إلى رؤيـة لـه في عصر الثلاثـاء الثالث [ذي القعدة ١٤٠١]، الموافق [أول سبتمبر ١٩٨١]، أبلغه فيهـا شـيخه بـاهتمام وصـية سيدنا رسول الله ﷺ به وبأسرته. ونلاحظ هنا أنه يزعم أنه من أهل البيت، وأن جده النبي ﷺ".

- النبي ﷺ لا يفارق القوصي

ثم بدأ الرجل في مرحلة انسحب فيها أبو العيون بعد أن وصله يدا بيـد إلى النبـي ﷺ، كـما بينا آنفا، وبالتالي بدأ يتلقى مباشرة عنه ﷺ، ومـن الطبيعـي أن يتلقـى أولا الأمـر بتبـديل أوراد شيخه أبي العيون، فحذف منها كل ما يخص الأسماء السريانية، وعقيدة وحدة الوجود، ويـزعم الرجل في البيت [٣٦٠]، أن رسول الله ﷺ لا يفارقه، بل إنه يصف حالة من حـالات التلـبس، أو الحلول حيث تتداخل ذاته مع ذات النبي ﷺ، فيقول:

وأقسم أنني لو غاب جدي رسول الله عن قلبي وعيني

ويعلق على البيت بقوله: "يشير المؤلف [يعني نفسه] إلى حال له يقظة، يـتشرف فيهـا بـأن يكون في معية رسول الله ﷺ بالكلية، ولا يشعر المؤلف بذاته ونفسه إلا من خلال ذاته الشريفـة ﷺ، وكان ذلك في بداية شهر ربيع الثاني [١٤١٥ هـ]، الموافق أغسطس [١٩٩٤م]".

وفات الرجل وهو مندفع في أكاذيبه وحديث نفسـه أن ينسـب للنبـي ﷺ الشـتم والسـب والاستماع إليهما، ولكن ما باليد حيلة فرغبـة الرجـل في إظهـار مزاعمـه أوقعتـه في المحظـور،

وصدق رسول الله ﷺ، حين يقول: ﴿إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إن لم تستحِ فافعل ما شئت﴾، وعودة إلى تهيئات قطب الوقت حيث يقول في البيت ٢٦٤:

ويوما سرت في عز وفخر ... بيمن جواره ويمين يُمن

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف [يعني نفسه] إلى رؤيته للرسول ﷺ ليلة الجمعة [٥ رمضان ١٤١٣]، الموافق [٢٦ فبراير ١٩٩٣]، حيث سار بجوار الرسول ﷺ، ويده اليمنى الشريفة بين يدي المؤلف، قال بعض الحاسدين في الرؤيا: انظروا كيف يمشي بجوار الرسول مثل الكلب بجوار صاحبه، فهب فيهم صارخا بقوة: خسئتم إنني الشبل الصغير "بل الأسد" ولكن أنتم الكلاب.. كلاب الدنيا، هذا والرسول ﷺ يبتسم برضا له مؤيدا لرده وانفعاله على المعترض عليه، وتحير المؤلف [يعني نفسه] كيف يكتب هذه الرؤيا، وهذه الألفاظ وفي عصر نفس اليوم الجمعة تشرف المؤلف برؤية سيدنا رسول الله ﷺ مرة أخرى، فسأله المؤلف: ماذا أكتب عن الرؤيا السابقة، فقال له ﷺ: اكتب ما رأيته". أرأيت إلى أدب الشيخ في حضرة النبي ﷺ، وكيف تجرأ إلى سباب الحاسدين بزعمه؟

- النبي ﷺ يصحح أشعار القوصي بنفسه

ثم تتكرر الرؤيات التي يدعيها القوصي للنبي ﷺ، وأغلبها ما بين اليقظة والمنام، بل إن منها ما يراه في اليقظة، ولا شك أن كل رؤيا تتضمن مناقب جديدة للشيخ، حتى أنه يزعم أن النبي ﷺ الذي شرَّفه ربه بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾، إلا أن القوصي جعل من النبي ﷺ مصححا لغويا لأشعاره، فيقول في البيت ٢٥٥:

وصحح بعض أبيات وألقى ... إليك بشطر أبيات لتبني

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف [يعني نفسه] إلى رؤيته في يوم الجمعة [٦ شوال ١٤١٤ هـ]، الموافق [١٨ مارس ١٩٩٤ م]، حيث سمع صوت الرسول ﷺ يقرأ في ديوان شعره، ويصحح له بعض الأبيات خلال كتابته لهذه القصيدة." بل إنه يزعم أن النبي ﷺ أهدى إليه كنوز الأسرار، فيقول في البيت ٢٥٧ :

"وكنز السر" من "شمس المعالي" ... هديته إليك لكل شأن

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف إلى رؤيته [عام ١٩٧٣]، حيث قيل له: إن شمس المعارف قد أهدى إليك كنوز الأسرار، ولا نرى غير أن شمس المعارف هو رسول الله ﷺ"، ثم تتوالى بالطبع المناقب والحكايات التي يرويها القوصي، فيقول في البيت ٢٦١:

ويوم لثمت ثغرا صيغ نورا وفزت بقبلة بالوجنتين

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف إلى رؤيته لرسول الله ﷺ، وتقبيل فمه الشريف من كلتي الوجنتين، وذلك في ليلة الخميس [٢٧ ربيع الأول ١٤١٣ هـ]، الموافق [٢٤ سبتمبر ١٩٩٢ م]. " ثم ها هو ينال نعلي النبي ﷺ، يقول في البيت ٢٦٣:

فأنعم باسما برضى وأهدى لك النعلين..طرت من التهني

ويعلق القوصي، بقوله: "يشير المؤلف [يقصد نفسه] إلى رؤيته لرسول الله ﷺ ليلة مولد الإمام الحسين في [٢٧ ربيع الثاني ١٤١٢ هـ- ١٢ أكتوبر ١٩٩٣ م]، حيث قبل قدميه الشريفتين ظاهرا، ثم باطن القدمين.. فأهدى له رسول الله ﷺ نعليه الشريفين، فطار المؤلف بهما فرحا"، ثم هاهو يشهد بدرا وينال سيف النبي ﷺ، فهو يقول في البيت [٢٧٤]:

أتذكر يوم كنت بعين "بدر" فخصك بالمهند يوم شن

ويعلق القوصي بقوله: "رأى المؤلف[القوصي] في عصر السبت [٩ ذي القعدة ١٤٠٢ هـ]، الموافق [٢٨ أغسطس ١٩٨٢ م] أنه أحد جنود غزوة بدر[1]، ورجع من الميدان إلى رسول الله ﷺ في خيمته، وحوله كبار الصحابة، وقال: لقد انتصر المسلمون يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: نعم، ولكن لا بد أن يستمر القتال، ثم ناول الرائي سيف الحمزة ﷺ، فهزه سعيدا به، وخرج مستأنفا للقتال، ثم دخل الرائي في حالة شبه غيبوبة شاهد فيها بعض أرواح الصحابة، وأمورا أخرى لا ترى بالعين البشرية، ولا يعبر عنها بلسان"، ثم ها هو يشكل حائط صد لعدوان الكفار على النبي ﷺ في ميدان القتال، فينال سيف حمزة، ثم سيف النبي ذا الفقار، فيقول:

حباك بسيف حمزة ثم أهدى إليك بذي الفقار لكل طعن

ويعلق القوصي بقوله: "تشرف الرائي [القوصي] فجر الأربعاء [٦ رمضان ١٤١٤]، الموافق [١٦ فبراير ١٩٩٤] برؤية رسول الله ﷺ في ميدان قتال، فاستأذنه الرائي أن يكون هو ومن معه في الميدان مواجها للأعداء، وبينهم وبين رسول الله ﷺ حتى لا يتعرض حضرته

---

١ وهو في ذلك متبابعًا وسارقًا لأفكار ابن الفارض الذي سبقه وادعى أكثر من هذا.

للعدو مباشرة، فأذن له ﷺ راضيا، وأهداه سيفه ذا الفقار بيده الشريفة، فاستله المؤلف من غمده، وخرج للقتال به". ثم يرى نفسه مشلولا، فيأتيه النبي ﷺ طبيبا مداويا، فيقول في البيت ٢٧٨:

فيوم "الشوكتين" ومن بربي   شفاك.. وسلهم من عظم متن

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف إلى رؤية [مايو ١٩٩٠]، حيث كان في الرؤية مشلول الحركة من شوكتين كبيرتين في ظهره، فاستلمها الرسول ﷺ بيده الشريفة، فشفي لفوره". ثم يفتح الباب لمريديه للدخول على النبي ﷺ، فيقول الرجل في البيت [٢٨٣]:

وأما "خيمة الطيب" فحدث   بما بشرتم عنكم وعني

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف إلى رؤى كثير من أولاده الذين تشرفوا مناما بالدخول على رسول الله ﷺ، ودخولهم "خيمة الطيب" لإعدادهم قبل رؤية رسول الله ﷺ، وكيف أنهم صاروا نورا لا يراهم إلا من هو مثلهم".

ثم يزعم أن النبي ﷺ يحضر بنفسه لمريديه ليبشرهم بمقامه شخصيا، فيقول:

وقال بنيتي والقول حق   هو "الشيخ المبارك" فاطمئني

وبشر أختكم يوما عليكم   ألا نعم المعلم فاستكني

ويعلق القوصي بقوله: يشير المؤلف إلى رؤية لإحدى بنات أخ له في الطريق بالرياض، حيث تشرفت برؤية الرسول ﷺ، وذلك عام ٩٤ ، ولما سألها: من شيخكم؟، فأجابت باسم المؤلف، فقال ﷺ: "إنه شيخ مبارك فاتبعيه"، وكذلك يشير المؤلف إلى رؤية إحدى بناته لرسول الله ﷺ يقظة [عام ٩٣]، حيث سألها: من شيخكم؟ فقالت: فلان [اسم المؤلف]، فقال ﷺ: "إنه نعم المعلم، إنه نعم المعلم". ثم يروي القصة التالية في هذا البيت في البيت ٢٨٨:

وفي "الروض الشريف" رأيت أختا   لكم بالنور نحييها ونفني

ويعلق القوصي بقوله: يشير المؤلف إلى زيارته لرسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، صباح يوم الأحد [١٤ ذي الحجة ١٤١٥ هـ]، الموافق [١٤ مايو ١٩٩٥ م] مع مجموعة من أولاده وبناته في الطريق، وخلال وقوف إحدى بناته أمام المقصورة النبوية الشريفة انتاب المؤلف حال شديدة، ورأى الأنوار المحمدية تنبعث من المقصورة النبوية، وتتوالى مكثفة لتخترق جسد ابنته من جميع الجهات حتى حولتها في لحظات إلى كتلة من الأنوار، وقد أحست الزائرة، ورأت ما

قد رآه المؤلف، ولكن بصورة مبسطة." ثم يدخل القوصي في مرحلة ثالثة، وهي تكليفه بالطرق الصوفية كلها، فيقول في البيت ٣٠٠:

وجاءك بعدها "المختار" يسعى حثيث في اهتمام فاق ظني

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف [القوصي] إلى رؤى له في صباح الثلاثاء [٢٤ ربيع الأول ١٤١٥ هـ]، الموافق [٣٠ أغسطس ١٩٩٤ م] تشرف فيها بسيدنا رسول الله ﷺ، يصطحبه معه بهمة عالية بين النوم واليقظة، ويمر على حلقات للطرق الصوفية، ويعيد تنظيم الطرق والإشراف عليها".

- **القوصي يتخطى المذاهب الفقهية، ويربي مريديه من قرون عديدة**

وأيضا - ووفقا لزعمه - إبراز مكانته الروحية ورقيه فوق مستوى المذاهب الفقهية، وتخطيه الزمن، وتوليته لتربية بعض من أكثر من ثلاثمائة سنة!، فيقول في البيت ٣٩٠ خيبه الله:

فمن بالله جهزكم لهذا وقال لك استعن بي واستشرني

ويعلق القوصي: "يشير المؤلف [القوصي] إلى توثيق صلته ظاهرا وباطنا بسيدنا رسول الله ﷺ، حتى كان يستشيره في بعض أموره، كما يشير إلى رؤية لأحد أحبابه في القاهرة [عام ٩٣]، حيث تشرف برؤية رسول الله ﷺ، والمؤلف يستشيره في أمر فقهي لأسرة ذكر المؤلف للرسول ﷺ، أنه يتولاها منذ ثلاثمائة عام، وسمع رسول الله ﷺ يشير على المؤلف أن يبحث في المذاهب الأخرى، وعلى الخصوص المذهب المالكي لعله يجد الحل، وفيها إشارة إلى عدم التقيد بمذهب معين". ولا شك أن ما يفعله القوصي - حسب زعمه - ليس عن أمره فهو عبد المأمور!، فيقول في البيت ٣٢٢:

أُرمم سقف بيت رسول ربي بأمر الله لا بالأمر مني

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف [يقصد نفسه] إلى رؤية لأحد أولاده بمدينة الرياض [في ذي الحجة ١٤١٥ هـ]، الموافق [٦ مايو ١٩٩٥]، حيث أبلغ وهو في المقصورة النبوية أن المؤلف مكلف بهذا الأمر المشار إليه بمنهجه وتربيته وأوراده".

ويعلق القوصي أيضا على [البيت ٢٦٠]، حتى لا يكون الرفاعي أفضل منه، فيقول: "يشير المؤلف إلى رؤيته لرسول الله ﷺ، وتقبيله لليد الشريفة في الجمعة [٦ صفر ١٤٠١هـ]، الموافق [١٣ ديسمبر ١٩٨٠م] فأمره ﷺ - ألا يحرم من له الحق في تقبيلها -، وقد فهم

الرائي[القوصي] أنه مأذون بإدخال من يراه مستحقا لشرف تقبيل اليد الشريفة إلى حضرة رسول الله ﷺ".

ولا يمل القوصي من الافتراء على النبي ﷺ، والكذب عليه، فيزعم أنه تلقى الطريق الجديد في اليقظة من النبي ﷺ، فيقول في الأبيات [٣١٥:٣١٠]:

واكرمني بأعلى تاج عز	ويمناه الشريفة عاهدتني
وشرفني "بتلقين وعهد"	وقبضته الكريمة شرفتني
فيقظانا تعطف ثم ألقى	بأنوار بدت فاستغرقتني
بتوحيد وتعظيم وتقديس	بهم نور ونار أحرقتني
بتسبيحاته ألقى ثلاثا	فغبت عن الوجود وأسكرتني
ورددهم فعدت إلى وجودي	وقبضته الشريف ثبتتني

ويعلق القوصي بقوله: "أُلحقت هذه الأبيات بالقصيدة بعد الانتهاء منها، حيث تشرف المؤلف بالتلقين يقظة من سيدنا رسول الله ﷺ بالأسماء الثلاثة المذكورة في أوراده وهي [لا إله إلا الله – الله– قدوس] ، وكان ذلك بالقاهرة في سحر ليلة الجمعة [١٩ ذي الحجة ١٤١٥]، الموافق [١٩ مايو ١٩٩٥]، عقب رجوعه من الحج مباشرة".

- القوصي يخطب فاطمة الزهراء زوج علي بن أبي طالب

ومن أغرب التخاريف التي لم يأتِ بها الأوائل زعم القوصي، أنه خطب السيدة فاطمة الزهراء من النبي ﷺ عدة مرات حتى وافق أخيرا، وفضله على كل من تقدم لخطبتها، فيقول في البيت ٧٦:

ويوم خطبت "فاطمة" بمهر	وعهد مبرم فيه التهني

ويعلق القوصي بقوله: "تكررت الرؤى التي فيها خطبة المؤلف[يقصد نفسه] لسيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها من أبيها ﷺ، وذلك في [٢٩ صفر ١٤٠٤]، الموافق [٤ ديسمبر ١٩٨٣]، وكذلك في الثاني من جمادى الثانية، الموافق [١٩ نوفمبر ١٩٩٠]، وموافقته ﷺ على الخطبة، وتفضيل الرائي [يعني نفسه] على غيره من المتقدمين".

ولا يدرك القوصي الورطة التي أوقعته فيها هذه الكذبة اللعينة، فيا ترى كيف سيكون حاله مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ أيسكت علي على خطبة زوجته البتول على الشيخ الذلول؟!.

- وفي نهاية مراحله يدعي تلقي الوحي، فيقول في البيت [٣٨٧]:

ومن أدراك بالحكم العوالي وشرح في كتاب الله يغني

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف [يقصد نفسه] إلى بعض معاني الآيات القرآنية، والأحاديث الشريفة التي كانت تلقى إليه، وهو في حالة ذهول وحمى تصيبه، فتأتيه لكل آية عدة معانٍ، وقد تكثفت هذه الأحوال اعتبارا من أوائل عام [١٩٩٠م- ١٤١٠ هـ] ".

ويفصِّل القوصي موضوع الوحي، وكيف تنتقل المعاني في عالم الروح إلا أن الرجل آثر أن يبقي هذا الأمر فقط سرا، ولا ندري لماذا أبقى هذا السر وحده، وأذاع كل هذه الأسرار، وإن أنصفت قلت: هذه التخاريف، فيقول:

وأرواح لكم تبدو جهارا فتسمع قولهم من غير أُذن

ويعلق القوصي بقوله: "رأى المؤلف [القوصي] كيف تتحدث الأرواح بدون أًصوات، وكيف ينتقل المعنى من روح لروح، وكان ذلك في شعبان [١٤١٢ هـ]، الموافق [١٩٩٢]".

- القوصي والأنبياء

ولا شك أن المريد حين يصدق هذه الترهات والأباطيل يظن أن شيخه من أهل القرب والفتح، ولا شك أن من يزعم أنه يعيش اليوم في صحبة النبي ﷺ لن يعجزه أن يزعم لقاءات مع الأنبياء، ومنهم الخليل إبراهيم ؑ، وذلك حيث يقول في البيت ٢٥٠:

وما شأن "الخليل" صلاة ربي عليه وكيف خصك بالتبني

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف إلى رؤيته بين النوم واليقظة في السبت [٢٦ شعبان ١٤١٢ هـ]، الموافق [٢٩ فبراير ١٩٩٢]، وقد حُمل ميراث الخليل إبراهيم ؑ، وكلف بتعليم الناس لِملته، والحفاظ على الإسلام في القلوب بعد رفع العلم من الكتب والصدور، وقيل له: إننا في إحدى علامات الساعة الكبرى".

ثم يزعم أنه رأى عيسى، وداود، والأسباط في بيتين ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، يقول فيهما:

وكيف رأيت "عيسى" في بهاء و"داود" بتسبيح يغني

و"بالأسباط" شرفكم برؤيا وكيف حماك من كسر وصحن

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف إلى رؤيته في [٢١ محرم ١٤٠١ هـ] لسيدنا ؑ، وكذلك الأسباط في المسجد الأقصى بالقدس، وكانت في الرؤيا إشارة إلى بعض الأنبياء من

فراعين مصر القديمة، وكان تعبير الرؤيا يشير إلى حادثة السيارة التي وقعت للمؤلف في رمضان من نفس العام [هامش بيت ١٩٢]، وكذلك يشير المؤلف إلى رؤيته للسيد المسيح ﵇ في أول رمضان [١٤٠١ هـ]".

- القوصي والصحابة

وبعد أن أذاع القوصي لقاءاته مع الأنبياء تفرغ لبيان دور الصحابة والعلماء في سلوكه المشئوم، فيقول:

ويوم أتاك يشرح في حديث ويلقى نصه حفظا لمتن

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف إلى رؤيته لرسول الله ﷺ مناما عصر الاثنين [١٣ شعبان ١٤٠١]، الموافق [١٥ يونيو ١٩٨١]، وتصحيحه قاله في ضرورة وجود الشاهدين في الاتفاقات المادية في الزواج، كضرورة وجودهما في البيع والشراء، وتكررت هذه الرؤى كثيرا اعتبارا من [١٩٨٢] ، وكان لكثير من الصحابة رضوان الله عليهم توجيهات للرائي [يقصد نفسه] حتى في أمور معيشته الدنيوية، وكيفية الادخار والصرف على العيال، وأكثر من رآهم من الصحابة سادتنا: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والحمزة، والعباس رضي الله عنهم جميعا".

- القوصي على درب الإمام البخاري

ومن أكثر مزاعم الرجل فرية أن يزعم أن من دربه على الإسراء الإمام البخاري وتلك الفرية ، في قوله في البيت ٢٤٦:

ويوم لقائك الشيخ "البخاري" وكيف سمعت ما يوحى بأذن

ويعلق القوصي تعليقا طويلا على البيت يقول فيه: "هذه الرؤيا كانت بين النوم واليقظة ليلة الجمعة [١٤ ذي القعدة ١٤١٢]، الموافق [١٦ مايو ١٩٩٢]، حيث حدث نقاش طويل مع الإمام أبي عبد الله البخاري في كثير من الأمور الروحية العالية العامة والخاصة بالمؤلف ذاته، وكان لها السبب الأكبر في تغيير حياة الرائي، حيث حدث فيها:

- الأمر بترك الاختيار النهائي حتى في بسائط الأمور والتلويح له بأسرار الحروف والأعداد.

- بداية التدريب على الإسراء، وانعدام المكان، والمسافة للرائي في بعض حالاته، وكذلك السماع بغير إذن.
- الصلة التي نشأت بين الرائي والإمام البخاري، ومنها عدم التقيد بأوراد طريقة ما، والتنويه بأسرار الحروف والأسماء من الشيخ البخاري ﷺ، وذلك فيما يخص المؤلف نفسه".

ويخصص القوصي دورا للأولياء في توجيهه، ويختار منهم الدباغ صاحب الإبريز المملوء حكايات وقصص عن الديوان والتصريف وغير ذلك، فيقول في البيت ١٢٥:

من "الصدّيق" خير الصحب طرا إلى "الفاروق" سيد كل قرن

ويعلق القوصي بقوله: "جميع من ذُكروا من الأولياء فيما بعد كانت لهم مع المؤلف لقاءات منامية أو يقظة، وكانت لهم معه توجيهات ووصايا كثيرة فيما عدا الإمام أبا القاسم الخاني صاحب مخطوط السير والسلوك إلى ملك الملوك الذي التزم المؤلف بمنهجه لمدة عامين، ونال فيهما خيرا كثيرا. والدباغ: هو سيدي عبد العزيز الدباغ المغربي صاحب كتاب "الإبريز"، وكان قطب غوث عصره. والعلمي: هو سيدي علم الدين الرباطي المغربي بمسجده المعروف بمدينة منفلوط في صعيد مصر والذي نشأ فيه المؤلف، وهو صاحب كرامات كثيرة هو ووالده سيدي جلال الدين الرباطي المغربي. والبواب: هو سيدي علم الدين البواب شيخ الطريقة الشاذلية بمدينة منفلوط، وله مقام يُزار، وبينه والمؤلف أسرار كثيرة، والترمذي: هو جامع الأحاديث المعروف، وكان له شأن كبير مع المؤلف في شرح السلوك الروحي، وختم الولاية وطبقاتها وأسرارها، وقد أُمر المؤلف[يقصد نفسه] بالتوجه إليه، وسلوك نهجه [في رمضان ١٤١٠]، ويوسف أبو الحجاج الأقصري: نزيل محافظة قنا، وله مسجد مشهور ومقام يُزار، وهو جد المؤلف في نسبه إلى الرسول ﷺ".

والقوصي هنا يسقط سقطة هائلة، فرغم كل هذه المزاعم والأكاذيب التي ينسبها لأناس في عالم وهمه وخياله المريض، إلا أن ضحالة علمه كشفته، فالترمذي اسم اشتهر به علمان من أعلام الأمة، أولهما: أبو عيسى الترمذي صاحب كتاب الجامع الصحيح، والثاني: الحكيم الترمذي الصوفي صاحب كتاب ختم الأولياء، ويحسبهما شخصا واحدا، وسبب سعادته بفهمه

المغلوط هذا، أن الترمذي بذلك يعتبر جامع بين الحديث الشريف، والكرامات والأحوال، وهو ما يحاول أن يوهم أتباعه به، ويصر على هذا الخطأ في البيت ١٣٧ حيث يقول:

وأما "الترمذي" فقد أمرنا ... له منه بتربية وشأن

فيعلق القوصي بقوله: "وجد المؤلف في أحوال الإمام الترمذي التي حكاها عن نفسه في مؤلفاته صورا وإشارات تربط بين الإمام والمؤلف مباشرة، وليس لها مثيل تقريبا في كلام وإشارات وأحوال السابقين، وكان المؤلف يعيش فيها تماما كأن الخطاب صادر من الإمام الترمذي للمؤلف رأسا، ولم يجد المؤلف تفسيرا لحالاته هذه إلا في أحوال الحكيم الترمذي، وإشاراته، ورموزه: لذلك نهج المؤلف[أي القوصي] نهجه وفسرت كثيرا من أدق وأغرب الحالات الروحية التي كانت تمر بالمؤلف، وأعانته في سلوكه وفي الإشارة ما يكفي"، ولكون القوصي يحتال على أتباعه، فقد ترك أثرا يدل على فساد عقيدته، وتمسكه بعقيدة ابن عربي، ففي الورد يقول: "اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على سيدنا محمد النور الذاتي، والسر الساري في جميع الأسماء والصفات"، ولا يعلم المريدون أن مثل هذه الصيغة من الصلوات على سيدنا محمد هي الملخص الوافي لعقيدة وحدة الوجود، فحقيقة النبي ﷺ - عنده - هي: الذاتي أي النور الأول الأصلي الذي تجلى لمعلومة الله فوهبته الوجود، وبذلك يصبح نور النبي ﷺ - عنده - هو السر الذي يسري في جميع أسماء الله وصفاته. ويؤكد عقيدته بقوله في البيت ٢٥٨

أتنسى يوم شرفكم برؤيا ... من الأرواح تملأ كل كون

ثم يشير بنفسه إلى رؤيا يزعم أنه رآها لرسول الله ﷺ بالصورة الروحية، وليست الجسدية، وكانت تملأ الكون كله، وقد تركت تغييرا روحيا كبيرا في المؤلف، كما أنها تكررت عدة مرات - كما يدعي - ما بين عامي [١٩٧١، ١٩٧٥ م] بنفس الكيفية.

- **معراج القوصي للسماء السابعة.**

يقول في البيتين [٣٧٦ ، ٣٧٧]:

وحين عرجت في الملكوت ترقى ... وتحضر حفل تكريم بإذني

وفي الأفلاك درت، وكنت ضيفا ... على القمر لتفحصه وتبني

ويشرح القوصي سبب عروجه إلى السماء السابعة، فيقول: "يشير المؤلف إلى رؤيتين بين النوم واليقظة كانت الأولى عام [١٩٧١] ، حيث حضر حفلا في السماء السابعة لتكريم الشيخ

محمد أبي العيون، وسمع فيه خطيبا يقول: "إن الله قد منح الشيخ من كل شيء تسعا"، والرؤية الثانية: كانت في السماء الرابعة عام [١٩٧٢]، وكانت لتكريم المؤلف ذاته [أي القوصي]، كما تكررت سبحات المؤلف الفضائية بين الكواكب نوما ويقظة، وكان في البداية يرافقه الشيخان: محمد أبو العيون، وعبد العزيز الدباغ، ثم أصبح يسري بمفرده وذلك بين عامي [١٩٩١، ١٩٩٤م].

- **إسراء القوصي إلى الأناضول.**

يقول في البيتين [٣٦٩ ، ٣٧٠]:

كيف سريت شرقا ثم غربا ... كطير هائم من فوق غصن

فطرت إلى المدينة في ثوان ... وعدت مع الرياح بدون وزن

وفي تعليقه يقول: "يشير [القوصي] إلى حالات الانتقال بالروح من مكان إلى مكان، إسراء في اليقظة، وذلك ابتداء من عام [١٩٩٤م]، ومنها الإسراء إلى جبال الأناضول جنوب تركيا، وبعض جبال جنوب غرب آسيا، والمدينة المنورة، وبعض مناطق تايلاند".

ولا نعرف لماذا لا يذهب إلى الكونجرس، أو البيت الأبيض، أو الكنيست الإسرائيلي، ويعمل كرامة تدمر أعداء الإسلام، بدلا من التنزه في تايلاند، والتصييف في جبال الأناضول، خاصة وهو يزعم حسب ما ذكره [في صفحة ١٧٩]، عن مساعديه من جنود الله في التصريف، وأن له جنودا كثيرة من مخلوقات شتى غير الإنس والجن، يأتمرون بأمر المؤلف في تصريف الأمور، كما أن ما يدعونا لإتهامه بالتقصير والتقاعس عن مواجهة شارون وبوش وبلير أنه ينسب لنفسه دورا بارزا في حرب الخليج!!

- **القوصي يحمي السعودية من صواريخ صدام.**

يقول في البيتين [١٩٣، ١٩٤]:

وعند الحرب يوما بعد يوم ... أتيناكي نحيطكم بأمن

وكم أمر خطير قد حملنا ... وعافيناك من طحن وعجن

ويشرح مراده بنفسه فيقول: "يشير المؤلف إلى حرب الخليج بين العراق والكويت والسعودية عام [١٩٩١]، حيث كان يقيم حينئذ في الرياض التي كانت تقصف بالصواريخ الموجهة من العراق، وظهرت للشيخ كرامات كثيرة".

ترى لماذا حجب عنا دوره وكراماته الكثيرة مع أنه يقص حكاياته بتفصيلاتها ، أتراه يستحيي أن يشرح لنا كيف كان يشوش على صواريخ العراق؟! أم أن المسألة خرجت عن نطاق التخريف إلى نطاق الهلوسة، فسكت عن الكلام المباح، أم أن حمايته للرياض كانت بسبب وجوده فيها، فتكون حمايته وكراماته لحماية نفسه، فالعيب فينا وليس فيه، فعلى الأمة أن تبعث به إلى فلسطين ثم العراق لتفيض كراماته حماية لنفسه، فينتفع به مواطني تلك الدول! ومن الغريب أنه لا يعرف أطراف حرب الخليج، فينسبها إلى حرب العراق، والكويت، والسعودية، ولم يأتِه نبأ القوات الأمريكية، والبريطانية، وقوات التحالف!

- **الأرض معلقة في خصر القوصي.**

يقول في البيتين [٣٧٢، ٣٧٣]، أنه وصل إلى مقام التصريف في الأرض كلها:

تدير شئونها والحكم فيها	وأمر الله حاكم كل شأن
ويوم أراك من سبع طباقا	وكيف تسبح المولى وتثني

ويعلق .على شعره هذا قائلا: "ويشير المؤلف إلى حال لازمته فترة في جمادى الأول [١٤١٥ هـ] الموافق أكتوبر [١٩٩٤م]، حيث كان يرى الكرة الأرضية تحيط بخصره، وكأنها معلقة بوسطه".

والقوصي يذكرنا بلعبة كان الأطفال يعلقون فيها طوقا في وسطهم ويديرونه بوسطهم، وكانوا يسمونها الهولاهوب، فالشيخ هنا يلعب الهولاهوب بالكرة الأرضية.

- **القوصي يتشكل في سبع صور.**

لا ينسى القوصي ما أورده الشعراني من كرامات أولياء الصوفية وقدرتهم على التشكل، وكيف يبدل الولي صورته إلى فيل، فيراه الناس فيلا بزلومة، أو غزالا، أو ما يريده من صور، ويزيد القوصي الأمر فكاهة، فيقول في البيت [٢٠٨]:

وزدنا سبعة منكم إليهم	ليعرف أنكم بدلا بعين

ويعلق القوصي على البيت بقوله: "يقيم المؤلف حضرة ذكر بعد عشاء كل يوم جمعة وسبت وأحد اعتبارا من [١٩٩٤/ ١٤١٤ هـ] بالقاهرة، وكثيرا ما يراه بعض المريدين في أكثر من صورة إلى سبع صور، أو شخصيات في نفس الوقت".

- **القوصي ولي أمر الجن.**

يقول في الأبيات [٢١٧ – ٢١٩]:

فمن ثنتين ضاع الرشد شوقا وحدثتا بكم أرجاء كون
وبعد الإنس جاءك كل وفد من الجن يبايع أو يهني
وأرسلنا إليك سباع وحش تقبلكم لكي تحظى بحضن

ويعلق القوصي على تلك الأبيات بتعليق غاية في الأهمية، حيث يقول: "يشير المؤلف إلى علاقته بعالم الجن، والتي بدأت في حياة شيخه السيد/ محمد أبي العيون سنة [١٩٦٥م]، وتوطدت بعد ذلك حتى كانوا [أي الجن] يأتونه فرادى وجماعات متقربين إليه، وكذلك تولي الكثير من شئونهم الاجتماعية كولي أمرهم، وله معهم مواقف كثيرة تدور كلها حول هذه المعاني.

لقد وفر علينا القوصي جهدا كنا نشد العزم له لبيان حقيقة ما يقوله هذا المدعي، أهو صادق فيما يقول؟ أم تراه كاذب مختلق لكل تلك الأحوال والمنامات؟

والجواب على ذلك أن القرآن الكريم نهانا عن السعي إلى بناء علاقة بين الإنس والجن، يقول سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، والجن خلق من خلق الله تعالى ثابت في الكتاب والسنة، وفيهم المؤمن والمسلم والمنافق والكافر، وهم يصفون أنفسهم بقولهم: "كنا طرائق قددا"، والمرء لا يستطيع أن يميز المؤمن من المنافق من الكافر من بني جنسه، رغم تعامله معهم، ورؤيته وسماعه وحسه، وتأثيره النفسي والعقلي، والإنسان قد يعاشر الناس سنوات طوال، وهو يفهم عنهم فهما معينا، ولهم منزلة ومكانة معينة، ولما تظهر مواقف جديدة يصطدم بها لم يكن في حسبانه منهم، ولذلك لا يستطيع المرء أن يتيقن من معرفة غيره إلا بعد أن يعامله ويسافر معه، ويتعامل معه ماديا، ومن جملة تلك التجارب يعرف عدوه من صديقه، وفي الحديث الشريف: ﴿أحبب حبيبك هونا ما، فقد يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما فقد يكون حبيبك يوما ما﴾.

فما بالك بمن يقيم علاقة مع الجن، وهو لا يراهم ولا يعرفهم ولا يدرك غايتهم، فكيف له أن يميز الصالح من الطالح، ومفتاح تعامل مشائخ الصوفية مع الجن، هو تلك الأدعية بالأسماء السريانية، يظن المريد أنه يذكر الله بها، وفي حقيقة الأمر يستغيث بها بالجن والشياطين،

وتكون النتيجة فتح باب الاتصال بالجن، وتحقق للمشايخ سيطرتهم على عقول المريدين، وإذا وجد الشيخ في المريد استسلام لمعتقدات الطريق، فقد يفاتحه أن يتلقن منه طرق الاتصال بالجن، وأن مقامه في الطريق قد وصل إلى درجة عظيمة أهلته لتلك المنزلة الرفيعة، فيتعلم المريد كيف يستدعي الجن، وكيف يقسم عليه، وكيف يصرفه؟ وكثير من المشايخ يعلمون مريديهم كيف يقتلون الجني إذا عصا أمرهم؟ وبالتالي يبدأ المريد في الدخول إلى عالم الجن، وربما قتل هذا وعادى هذا، وهو لا يعرف كيف سيتربص به أهل القتيل؟ ومتى سينتقمون من القاتل؟ كما أن أولياء الجن يمدون أتباعهم من الإنس بالأخبار، ويجرون على يديهم الكرامات، وغير ذلك من أمور معروفة، والقوصي يعترف بأنه يعرف الجن منذ سنة [١٩٦٥م] أي أربعين سنة تقريبا، وأوليائه من الجن يعرفون شغفه الشديد بخرافات الشعراني والدباغ، وغرامه القديم بالديوان والتصريف، وكل ما ذكره في كتابه العتيق مذكور في الإبريز والطبقات الكبرى، وما أسهل على الجن أن يصوروا له كل تلك المشاهد والخيالات، إن من يتعاطى المخدرات يمكن أن يمر بحالات مشابهة، فما بالك بمن ينتظر حدوث تلك الأشياء معه لترسم له نرجسيته أنه وصل إلى مقامات الأبدال والأقطاب والأغواث، وكل ذلك من تزيين الشياطين ومردة الجن بمن يتخذهم من دون الله وكيلا.

ولا شك أن مرائي الشيخ تؤكد له ولأعوانه عقيدة وحدة الوجود، فالحقيقة المحمدية -عندهم- في حالتها الروحية تملأ الكون كله.

لقد ختمت دراستي عن الأوراد بطريقة القوصي لعدة أسباب منها:

- معرفتي الشخصية به، ومعايشته قرابة عشرين عاما، التي أتاحت لي فرصة الاطلاع على مراحل سلوكه، وتخطيطه لينفرد بالمشيخة.
- أن القوصي قد علم بباطل ما هم فيه من عقيدة أثناء مناقشاتنا الطويلة، ورغم هذا فعندما كتب أوراد طريقته الجديدة لم يقدر على إخفاء عقيدته في وحدة الوجود، وإيمانه بالتصريف، والغوثية، وغير ذلك.
- التأكيد على أن مشايخ الصوفية يبيعون بضاعتهم المزجاة لمريديهم بالكذب على رسول الله ﷺ، فها هو ذا الشيخ يدعي تلقي أوراد الطريقة القوصية من النبي ﷺ مناما.

- أنني كنت قبل أن أقرأ ديوان "العتيق" هذا أظن أن أكثر كتب المكتبة الإسلامية ضحالة، وضلالة، وتخريفا هو الطبقات الكبرى للشعراني، والإبريز للدباغ، والآن تيقنت أن لهما منافسا على قدر كبير من الخطورة، فقد شطح ونطح كل المخرفين قبله، وزاد عليهم شططا حين زعم القوصي، أنه خطب السيدة فاطمة الزهراء من النبي ﷺ عدة مرات حتى وافق أخيرا، وفضله على كل من تقدم لخطبتها.

وليعذرني القارئ الكريم في عدم تعليقي على كثير من الأمور، لأنني أعتقد أن جرعة الباطل فيها واضحة جلية، وحرصا مني على عدم الإطالة، فالحديث ذو شجون متعددة، ويكفي أن القارئ الكريم قد لمس بنفسه قدر التعدي السافر والتجرؤ الذي لا حد له؟ ولا شك أنك تأسيت على انحراف القوم، وغضبت أيضا لله ولرسوله عندما قرأت افتراءات القوم وادعاءاتهم التي جاوزت في جرأتها كل حد يتخيله إنسان؟ والتي لا نجد للرد عليها إلا قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الثاني

الشيعة والصوفية

إن المتتبع للفكر الصوفي يرى بوضوح كيف تأثرت الصوفية بالشيعة، ومن هذه الأفكار:

١. قطب الصوفية وإمام الباطنية:

قبل أن ننتقل إلى الحديث عن مملكة الباطن ينبغي أن نحدد العلاقة بين أقطاب الصوفية وأئمة الشيعة والباطنية، فأول شروط الإمام عند الباطنية أن يكون من آل البيت رضوان الله عليهم أجمعين، والمتتبع لسلسلة مشايخ أغلب الطرق الصوفية يجدها تنتهي عند الشيخ الأول بعد النبي ﷺ هو علي بن أبي طالب، ويتفق الشيعة والباطنية أن الإمام الأول بعد النبي ﷺ هو: علي بن أبي طالب، ثم الأئمة من آل البيت، ولا تكون الإمامة في الزمان الواحد إلا لإمام واحد، وهي نفس عقيدة الصوفية عن القطب الواحد الذي هو محل نظر الإله الواحد، ومن المتفق عليه بين الدراويش أن القطب لا بد أن يكون منسبا لآل البيت رضوان الله عليهم. وإذا سألت أي مريد عن قطب الوقت لأجابك بلا تردد أنه شيخه، وربما قال لك شيخ شيخه، أو أحد مشايخ طريقه، وفي نفس الوقت يحرص المريدون على إثبات نسب شيخهم إلى آل البيت، والمتداول بين الناس أن نسب الشاذلي، والرفاعي، والقنائي، والبدوي، والدسوقي، والجيلاني، وغيرهم إلى آل البيت، حتى الشعراني صاحب أسوأ كتب التصوف على الإطلاق ينسب نفسه إلى محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، وبهذا الحرص نلاحظ أن القطب الصوفي، والإمام الشيعي، والأساس الباطني متفقون على زعم النسب إلى آل البيت. ونحن بهذا البيان نشارك ابن خلدون الرأي الذي يحدد فيه العلاقة بين فرق الباطنية المختلفة، فنراه يربط [في مقدمة تاريخه] بين فلاسفة الصوفية والإسماعيلية، فيقول: "فذهب الكثير منهم [أي الصوفية] إلى الحلول والوحدة، كما أشرنا إليه، وملئوا الصحف منه: مثل الهروي في كتاب المقامات له ولغيره، وتبعهم ابن عربي، وابن سبعين، وتلميذهما ابن العفيف، وابن الفارض، والنجم الإسرائيلي في قصائدهم، وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول والإلهية مذهبا لم يعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم"، ثم يستطرد قائلا: "وظهر في كلام المتصوفة القول

بالقطب، ومعناه رأس العارفين، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه حتى يقبضه الله، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان، وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات في فصول التصوف منها، فقال: "جل جناب الحق أن يكون شرعه لكل وارد، أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد"، وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي، وإنما هو من أنواع الخطابة، وهو بعينه ما تقوله الرافضة، في توارث الأئمة عندهم، فانظر كيف سرقت طباع هؤلاء القوم هذا الرأي من الرافضة، ودانوا به، ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب، كمقالة الشيعة في النقباء"[١].

ثم يشرح ابن خلدون الصلة بين التصوف والإسماعيلية بقوله: "والذي يظهر أن المتصوفة بالعراق، لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة وظهر كلامهم في الإمامة، وما يرجع إليها مما هو معروف اقتبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن، وجعلوا الإمامة لسياسة الخلق في الانقياد إلى الشرع، وأفردوه بذلك، ثم جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله لأنه رأس العارفين، وأفردوه بذلك تشبيها بالإمام في الظاهر، وأن يكون على موازنة في الباطن، وسموه قطبا لمدار المعرفة عليه، وجعلوا الأبدال كالنقباء مبالغة في التشبيه فتأمل ذلك".

ويرى كثير من العلماء العلاقة الوثيقة بين التصوف والتشيع، ومنهم: الدكتور عبد الفتاح بركة الذي يذكر في كتابه عن الحكيم الترمذي بعد حديثه عن الأقطاب والأبدال والنقباء، يقول: "ويغلب علي الظن أن ذلك إنما كان بتأثير بعض الأفكار الشيعية التي تجعل من الأئمة مركز الدنيا والدين، وأمان أهل الأرض، فلما جاء دور الصوفية وجدوا المادة مهيأة، وصادفت عندهم قبولا، لأنها تتفق مع اتجاههم العام في أن لله عبادا اختصهم واصطفاهم، وجعلهم في المحل الأعلى من عنايته ورعايته، فنمت عندهم هذه الفكرة حتى اتخذت صورة كتلك التي رواها اليافعي في كفاية المعتقد"[٢].

---

١ مقدمة ابن خلدون ١١٠٨

٢ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، لعبد الفتاح بركة ٢: ٥٢

٢. مكانة الأضرحة:

غَيَّرَ الصوفية اسم القبر إلى الضريح أو المقام، وسبقتهم الشيعة إلى تسميتها بالأعتاب، والزائر لأضرحة الصوفية يجد صورة مصغرة لما يحدث عند مقامات الأئمة في النجف الأشرف، وكربلاء، والكاظمية في العراق، فالشيعي إذا دخل إلى أعتاب أي إمام يبادر بالسجود على الأعتاب، وإذا سألته عن فعلته هذه يقول لك: نحن أولى بالسجود من بني إسرائيل حيث أمرهم الله تعالى قائلا: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة- ٥٨]، هل القرية أشرف من مقام الأئمة.؟ والمراد من قوله ﷻ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ المراد التواضع عند الدخول: لأنه يمتنع السجود مع الدخول عمليا، والصوفي إذا قبَّل الأعتاب يقول لك: نحن أحق من مجنون ليلى الذي قبَّل الجدار، ولما سئل عن ذلك أجاب بقوله:

أمر على الديار ديار ليلى أُقبِّل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

إذن تعددت أسماء الفرق، ولم يتفقوا إلا على الاختلاف، والانحراف، وإن تعددت صوره ومظاهره، فالضريح، والأعتاب لهما مكانة كبرى في الاعتقاد الباطني.

٣. الاحتفال بيوم عاشوراء:

كان يوم عاشوراء يوم يصومه العرب في الجاهلية، واليهود في المدينة، ولما دخل النبي ﷺ المدينة، وقبل أن يفرض صوم رمضان تطوع النبي ﷺ بصومه، وأمر به، ووعد لئن أحياه الله تعالى إلى العام القادم ليصومن التاسع والعاشر من المحرم مخالفة لليهود، ولما فرض الله تعالى صوم رمضان استمر من الصحابة من يصوم هذا اليوم، وتوقف من توقف، حيث تحول الاهتمام من عاشوراء إلى شهر رمضان المبارك، ولهذا لم يرد أن النبي ﷺ صام يومي التاسع والعاشر، رغم أنه عاش في المدينة بضع سنوات بعد ذلك.

إلا أن هذا اليوم اكتسب أهمية خاصة لما قتل فيه ريحانة النبي ﷺ سيدنا الحسين ﵁، ولا يخفى ما تفعله الشيعة من مسيرات، وكيف يعاقبون أنفسهم ويضربون أجسادهم بالجنازير حتى تسيل دماؤهم، ومن الغريب أن نجد الطريقة الرفاعية تأمر المريدين بخلوة خاصة يسمونها خلوة السبعة المحرم: "على كل الإخوان في الطريق الرفاعي، وكل من أخذ العهد أن

يقوم بخلوة سبعة أيام، ابتداء من اليوم التالي من عاشوراء، وهي حتما لازما، باتفاق جميع المراجع مع كل من أخذ الطريقة الرفاعية، والتمس [أي انتسب] لأهلها من المريدين والإخوان، وشروطها صيام السبعة أيام المذكورة، وأن يكون الصائم على وضوء دائم، ولا ينام في تلك الأيام السبعة مع عياله بفراش قطعا [أي يعتزل النساء]، ولا يأكل من ذي روح، وأن يحفظ لسانه من التكلم بكلام الدنيا، وأن يربط قلبه في الله بسائر أوقاته وخلواته مع استحضار همة المرشد. وقد قال الإمام الرفاعي: إن خلوة السبعة سبب الفيض للسالك والمريد الصادق في كل سنة من جهة السلسلة الرفاعية.. ومن لم يستطع أن يقوم بالخلوة على وجه الكمال، فلا أقل من أن يقوم بسائر شروطها، ويستعيض عن البعد عن الناس بحفظ لسانه وقلبه. ولعل هناك اشتراكا في خلوة السبعة أيام [المحرم] عند الرفاعية، وعند الشيعة.. فإذا كانت الخلوة المُحرمية تعني أن على الرفاعي أن يعتكف سبعة أيام أولها الحادي عشر من شهر المحرم، فإن الحادي عشر من محرم الحرام هو اليوم التالي لقتل الشهيد الإمام الحسين رضي الله عنه[1].

ويعلق الدكتور الشيبي بقوله: "فهذه الأيام السبعة التي يقضيها المريد الرفاعي تعني إظهار الحزن الشديد على الحسين، كما يفعل الشيعة على صورة فيها مبالغة في الحزن، ولكن تقادم العهد أنسى أصحاب الطريقة وغيرهم دلالات مراسمها، فلم يلتفتوا إلى الممرات السرية التي تصلهم بالتشيع"[2]

والغريب حقيقة أنك إذا سمعت الرفاعي يحذر أتباعه من الزيغ والغلو، ويدعوهم إلى التمسك بالكتاب والسنة، تظن أن الرجل يسير على جادة الطريق، ثم تراه من جانب آخر يأمر أتباعه بالخلوات، واعتزال النساء فيها، وأكل الطعام القليل، ويشترط عليهم ألا يكون ذا روح، ثم تفاجأ بخلوة السبعة المحرم، وبالتالي ينقل الرجل إلى أوساط أهل السنة خلوات الشيعة وأحزان يوم عاشوراء، وسواء صحت نسبة هذه الأمور إلى الرفاعي نفسه، أو أن أحدا من أتباعه ابتكرها من بعده ونسبها لشيخه، ففي النهاية يتلقى أتباع الطريقة هذه المفاهيم التي

---

١ الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظنها١٦٠، وروادها للدكتور عامر النجار ١١١ – ١١٢

٢ الصلة بين التصوف والتشيع، للدكتور الشيبي ٤٤٨

ينقلها إليهم مشايخهم، ويلصقونها بالرفاعي، وصدق النبي الكريم ﷺ حيث يصف أئمة الفتن أن المرء يعرف منهم وينكر! وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران-٧١].

ملخص الباب الخامس

- يعتقد بعض الناس أن عقيدة وحدة الوجود قد دفنت في مقابر الأفكار، وأن الباحثين عنها هم المغرمون بالآثار، أو الباحثون عن الفتنة، أو الشهرة والحظوة بين الناس، وللأسف الشديد كان هذا رأي عضو المجلس الصوفي الأعلى وأحد الموصوفين بإصلاح التصوف، وهو الشيخ محمد زكي إبراهيم رائد العشيرة المحمدية.
- تُوَصِلُنَا دراسة حوالي عشرين طريقة من طرق التصوف المعاصرة إلى نتيجة ثابتة لا لبس فيها، وهي أن أفكار وحدة الوجود وفلسفة الوحدة هي: محور جميع أوراد هذه الطرق، ومن العجيب أن يكون الشيخ محمد زكي إبراهيم عضو المجلس الصوفي، ولا يطبق لائحة المجلس والتي لا تسمح بإنشاء طريقة صوفية تؤمن بعقيدة وحدة الوجود، وفي نفس الوقت ينفي عن التصوف المعاصر الوقوع في الحفريات الفكرية التي اندثرت، وماتت بموت قائليها.
- تتفاوت درجة الوضوح في أسلوب صياغة الأوراد بين الوضوح الشديد في طرق مثل طريقة الحقيقة المحمدية، أو الطريقة الفاسية ، والقادرية، والشاذلية بأفرعها المختلفة، بينما تتسم الطريقة التجانية بالتبجح الشديد، والأفكار الشاذة والمنحرفة، مثل مدد التجاني الذي يمد جميع الأولياء من الأزل إلى الأبد.
- وضوح العلاقة بين التصوف والشيعة من حيث نظرية قدم نور النبي ﷺ، وتطابق مفهوم الإمام عند الشيعة، والباب عند الباطنية، مع القطب عند الصوفية، فمهمة كل واحد من هؤلاء واحدة، وإن اختلفت المسميات، كما اتفقت الفرق الباطنية جميعا على أن الإمام لا يكون إلا من نسل علي رضي الله عنه، وكذا قالت الصوفية فالأقطاب لا بد أن يكونوا من آل البيت، ومن نسل علي رضي الله عنه بالتحديد.
- تطابق عقيدة الباطنية مع عقيدة النصارى، إلا أن النصارى خصصوا مع الله إلها واحدا أو اثنين [عيسى والروح القدس]، ثم قالوا الثلاثة إلها واحدا، بينما

الباطنيون جعلوا مرتبة المسيح يتوارثها الأئمة، بل غالوا في أئمتهم عن مكانة المسيح عند النصارى.

- قيام العلماء في الرئاسة العامة للإفتاء بالمملكة العربية السعودية بدورهم المشكور في بيان حقيقة أوراد التجانية، وإصدار الفتاوى الشرعية التي تحذر الناس من خطورة هذه الأوراد.

الباب السادس

الحقيقة المحمدية عند السلف الصالح

١. مهمة الرسول البلاغ

٢. الرد على فكرة قِدَمِ نور النبي ﷺ

٣. حقوق الأنبياء في الكتاب والسُّنَّة

٤. حرص النبي على التوحيد

٥. الوسطية في الإسلام

الفصل الأول

مهمة الرسول البلاغ

عذرا أخي القارئ إذ أستعمل التعبير الصوفي: "الحقيقة المحمدية" - إن جاز لنا أن نستخدمه، ثم نشرح فهم السلف عنه- فالصحابة رضوان الله عليهم لم ينشغلوا طرفة عين بحقيقة محمد ﷺ بمفهومها الفلسفي الباطني، وقد كفتهم الآيات القرآنية المحكمة مئونة البحث الفلسفي، فالله تبارك وتعالى يوحي لرسوله ﷺ، أن يبلغ قومه بحقيقته البشرية، فيقول له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف-١١٠]، فالحقيقة المحمدية إذن ذات شقين: فهو بشر مثل كل البشر، والشق الثاني هو مجال الاختصاص والتميز في قوله تعالى: ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾، ولا ينبغي أن نغفل عن هذه الحقيقة الواحدة ذات الشقين، فالتقصير والتفريط يظهران لمن ينظر فقط إلى قوله: ﴿بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، وبدافع التمسك بالبشرية فقط أغفل بعضهم ما يلزم من أدب النظر إلى شق الاختصاص بالوحي، بينما الغلو والإطراء يظهران لمن ينظر إلى شق: ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾، وبدافع الحب يضيف الباطنيون مفاهيمهم المنحرفة، ومن يستعرض القرآن الكريم يجد مجموعة من الآيات تلقي الضوء على كل جانب وتعطيه حقه.

يخصص القرآن مهمة الرسول في البلاغ عن ربه، يقول سبحانه: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ﴾ [المائدة-٩٩]، ويقول جل من قائل: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور-٥٤، العنكبوت-١٨]: لذلك كان الجانب الثاني: ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾، برغم أن الآية القرآنية ذكرت ﴿بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، أولا ثم: ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾، إلا أننا سنبدأ ببيان حقائق قوله تعالى: ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾: لسبب واحد: لأنه هدفنا من البحث، وهو الذي إذا أوضحناه نفينا الغلو عن النبي ﷺ، كما أننا حين نحدد مهمة النبي ﷺ، وحدودها ستظهر وسطية الفهم عن خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ﷺ، فنقول وبالله تعالى التوفيق: يحدد القرآن الكريم مهمة الرسول في إبلاغ رسالة ربه إلى قومه، دون أي تدخل، أو تصرف من عنده، والبلاغ عن الله ﷻ أشرف تكليف لخلق من خلق الله تعالى: لذا حث الله سبحانه كافة الناس على طاعة رسله صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين: ولذلك أنبأ كل نبي قومه بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

[الشعراء١٠٧ – ١٠٨،و١٢٥ – ١٢٦،و١٤٣ – ١٤٤،و ١٦٢ –١٦٣،و١٧٨ – ١٧٩]، فحقيقة طاعتهم طاعة لله الذي أرسلهم، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء–٨٠].

وقد قرر القرآن الكريم حقائق غاية في الأهمية، فليس للرسول أن يتحمل نتائج إقبال قومه، أو إدبارهم، فليس هذا من شأنه، هو مبلغ فقط: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء–١٣]، كما تنفي الآية مسئولية النبي ﷺ عن حفظ قومه، أو حفظ إيمانهم، أو مراعاة قلوب أتباعه، وخواطرهم حسب المفهوم الصوفي، فذلك هو الغلو الذي، يأباه الإسلام وقد فصلت الآيات الكريمات هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور–٥٤]، فطاعة الرسول هي السبيل إلى الهداية إلى ما يرضي الله ﷻ، فإنه من المستحيل أن يعرف العبد ربه ومراده ومنهجه من نفسه، فالإله هو الذي يُعرِّف الناس كيف يسلكون إليه، ويهتدون إلى صراطه المستقيم.

كما جاء التحذير من مخالفة أمر الله ورسوله، قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة–٩٢]، ويتكرر الإنباء بمهمة الرسول في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن–١٢]، ثم ينفي القرآن الكريم أي صفة من صفات الألوهية عن رسله، ويؤكد على بشريتهم، وأنهم ليسوا بجبارين، وليس لهم سيطرة على أتباعهم، وفي نفس الوقت ليسوا بوكلاء على المؤمنين، فيقول سبحانه: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية–٢٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام–١٠٧]، وكذا قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [سورة ق–٤٥]، حتى إذا أذن النبي ﷺ لبعض المنافقين، جاء عتاب الله رقيقا لطيفا، قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة–٤٣]، ولما اجتهد في إبلاغ سادة قريش، وتأخر لحظة عن ابن أم مكتوم جاء الوحي معاتبا، قال جل شأنه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۞ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ [عبس١ :٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا

﴿إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف-١٨٨]، وكذا قوله جل وعلا: ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام-٥٠]، وتؤكد الآيات بشرية النبي ﷺ بقوله عز من قائل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر-٣٠].

إن هذه الآيات تقيم الحجة على أصحاب الغلو، كما يحذر الله تبارك وتعالى أصحاب التفريط بالآيات الدالة على خصوصية الرسول ﷺ وتميزه بالوحي الذي يستلزم آدابا خاصة تفوق التعاملات العادية بين البشر، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء-١٠٧]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى-٥٢]، ويعرفنا الله جل جلاله كيفية الأدب مع حبيبه ومصطفاه محمد بن عبد الله، فيقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات٢:٤]، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم-٣]، وينبغي أن نفهم قوله سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال-١٧] بنفس أسلوب الخليل إبراهيم ﷺ حين أمره ربه أن يؤذن للحج، قال ما معناه: ومن يسمعني؟، قال الحق تبارك وتعالى: عليك الأذان وعلينا البلاغ، ولم يقل أحد، أن الخليل ﷺ قد تحول حين الأذان إلى صورة إلهية، وإنما هي معجزة وخصوصية يختص الله بها من يشاء من عباده، وهذا نفس ما وقع للنبي محمد ﷺ فهو رمى الحصى، والقادر على إيصال كل حصاة إلى رجل من الكفار ليلقى حتفه في المعركة هو الله وحده لا شريك له. ويقرر الحق سبحانه أن من يبايع المُبلغ عن الله هو في الحقيقة مؤمن صادق مبايع لله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح-١٠]، ولا تقصد هذه الآيات من قريب أو بعيد كما يزعم الصوفية أصحاب وحدة الوجود أن محمدا ﷺ حين بايع، وحين رمى لم يكن محمدا في الباطن كما بدا للناس، بل كان في الحقيقة الله – نستغفر الله ونستعيذه من قولهم هذا.

فالحقيقة الإيمانية الصحيحة أن يؤمن المسلم أن رسول الله ﷺ بشر يجري عليه ما يجري على البشر من الخليقة، والتكوين في الرحم، ثم الولادة، والطفولة، والصبا، والشباب، والرجولة

إلى الوفاة، والغسل، والكفن، والدفن، ولكن هـذه الطبيعـة البشريـة تميـزت في رسـول الله ﷺ بمطالب الوحي، والاستعداد لتلقيه، فالنبي يمثـل أشرف النـوع الـبشري، فهـو صـلوات ربي وسلامه عليه من أطيب الأنساب، انتقل من أطهر الأصلاب إلى أنقى الأرحـام: لـذلك أخـبر عن نفسه ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول مـن ينشـق عنـه القـبر، وأول شـافع، وأول مشفع»[1]، وقال صلوات ربي وسلامه عليه: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسـقيني»، ثـم إنـه ﷺ تلقى عن ربه أكمل الرسالات، وختام النبوات، فهو الرحمة العامة للعالمين، والرأفة الكاملـة بالمؤمنين، وهو صاحب الحوض المورود، والشـفاعة الكاملـة، وصـاحب الوسـيلة، والدرجـة العالية الرفيعة.

وكمال الفهم هو النظر بالعينين إلى اجتماع الصفتين معا في قوله تعـالى: ﴿قُـلْ إِنَّـمَا أَنَـا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف-١١٠]، أما الغلو، أو التقصير، فهو نظر بعـين واحدة إلى شق واحد فقط.

١ حديث أبي هريرة رواه مسلم.

الفصل الثاني

الرد على فكرة قِدَم نور النبي ﷺ

إن الشيعة ومن ورائها فرق الباطنية المختلفة، ثم الصوفية بطرقها المتعددة قالوا مقولة النصارى في إطراء النبي ﷺ، فهم افتقروا إلى الدليل على صحة زعمهم، فلم يرد في الكتاب، ولا في السنة ما يؤيد رأيهم، بل على العكس هناك أدلة ثابتة لا تحتمل أي تأويل تنفي أوهامهم، وتنسفها من أساسها، نسوق منها ما يلي:

١. أول خلق الله :

وردت أحاديث كثيرة تحدد مخلوقات لها سبق في الخلق، ولكن من أول الخلق؟ هل هو حقيقة محمد ﷺ كما يزعم الصوفية؟ والإجابة يرويها عبادة بن الصامت، حيث يقول سمعت رسول الله ﷺ، يقول: ﴿أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم، ثم قال: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة﴾.

كما وردت أحاديث صحيحة تنص على أول خلق الله ﷻ، منها ما رواه البخاري، وغيره، عن عمران بن حصين ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ إجابة على سؤال وفد بني تميم عن أول هذا الأمر كيف كان، قال ﷺ: ﴿كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء﴾، وفي رواية أخرى: ﴿كان الله ولم يكن قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض﴾[1]، فالعرش والماء خُلقوا قبل خلق السموات والأرض، وفي رواية أحمد بن حنبل: ﴿وكتب في اللوح ذكر كل شيء﴾، كما روى مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: ﴿كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء﴾[2]. فترتيب الخلق إذن هو:

---

١ حديث عمران بن حصين أخرجه البخاري ٢٩٥٢، ٢٩٥٣، ٤٠١٧، ٤٠٣٥، ٦٨٦٨، والترمذي في سننه ٣٨٨٦، وأحمد في مسنده ٤: ٤٢٦، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٦

٢ حديث عبد الله بن عمر بن العاص أخرجه مسلم والترمذي في سننه وأحمد في مسنده.

خلق الماء والعرش، ثم القلم، ثم اللوح، وكل هؤلاء خلقوا قبل السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وإذا كانت نظرية قِدَم نور النبي ﷺ تفترض خلق كل شيء من نور محمد ﷺ الذي هو من نور الله، فحديث رسول الله ﷺ الذي يرويه أبو هريرة، يقول فيه: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، فقال: ﴿كل شيء خلق من ماء﴾[1]، ولو كان كلام الصوفية ومزاعمهم صحيحة لقال رسول الله ﷺ: كل شيء خُلق من نوري، فكيف يقبل هؤلاء أن يفتروا على الله ورسوله الكذب، وهم يعلمون، إذ لا يعقل أن مشايخ الصوفية لم يطلعوا على هذه الأحاديث.

٢. خلق آدم عليه السلام :

ليس من المعقول أن تخبرنا آيات القرآن الكريم في أكثر من عشرين موضعا عن مراحل خلق آدم عليه السلام: من تراب، ثم من طين لازب الذي تحول إلى صلصال كالفخار، ثم حمإ مسنون، ثم التسوية والخلقة، ثم نفخ الروح، ولا تأتي آية واحدة تشرح حقيقة النور الذي قبضه الله من ذاته وسماه محمدا – حسب زعمهم –، ثم انتشر هذا النور، واخترق جميع حجب عظمة الله حتى خلق منه كل شيء. لو أن الكون خلق من نور النبي ﷺ، كما يزعمون أما كان الأولى أن يقرر القرآن الكريم ذلك صراحة، ولو في آية قرآنية واحدة، لو كانت دعواهم هذه حقيقة هل كانت ستختفي من القرآن تماما! وتؤكد بدلا منها مراحل خلق آدم عليه السلام من تراب، أليس القائل بهذه الفرية، يقول على الله بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير؟!. لو أن الكون مخلوق من نور النبي ﷺ، ويعرف ذلك كل المخلوقات، فكيف لا يسجد إبليس لمن استودعه الله نور النبي ﷺ؟ ثم لِمَ اعتذر إبليس عن عدم سجوده لآدم بأن طبيعته من نار وطبيعة آدم من تراب؟، وقد كان يكفيه أن يقول: أولى بي أن اسجد لنور النبي وليس لطينة آدم. وقد فات الصوفية أن هناك نهي واضح في القرآن الكريم عن الخوض في مراحل خلق السموات والأرض، وذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْـمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف–٥١]، والمعنى المفهوم من نص الآية أن الله تبارك وتعالى لم

---

١ حديث أبي هريرة أخرجه مسلم في مسنده.

يُطلع أحدا على مراحل الخلق، ولم يطلب من أحد من خلقه أن يشرح للناس هذه المراحل، فمن يحاول ذلك يقول على الله بغير علم، وبالتالي فهو ضال مضل، وما كان الله ليتخذ المضلين عضدا [أي عونا] له لشرح ذلك الأمر: لذلك تضاربت أقوالهم مع النصوص الصحيحة، فهم يقولون الخلق من نور محمد ﷺ، ورسولنا ﷺ يقول الخلق من ماء، فمن أولى بالتصديق إن كنتم صادقين.

٣. لا وجود للحقيقة المحمدية قبل بعثته:

عن خالد بن معدان أن نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، وقد روي نحوه عن أبي ذر، وشداد بن أوس، وأنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم [إشارة إلى قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]]، وبشر بي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام»[2].

إن إجابة رسول الله ﷺ إذن تنفي أن بدء أمره قبل خلق العرش كما يزعمون، وقد وردت مجموعة من الآيات المحكمات تنفي سيطرة الرسول على الناس، أو معرفته بالقرآن الكريم قبل بعثته، يقول سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى-٥٢].

إن هذه الآيات المباركات تقطع دابر قول القائلين بقدم النور المحمدي، كما أن معانيها لا تنقص من قدر رسولنا الكريم ﷺ، وإنما هي تشتمل على زيادة في شرفه العظيم ﷺ، واختصاصه بالوحي الذي علمه ما لم يكن يعلم، كما أثبت ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء-١١٣].

---

١ من سورة البقرة-١٢٩

٢ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى ١: ٣٣٦

الفصل الثالث

حقوق الأنبياء في الكتاب والسنة

نناقش في هذا الفصل من الكتاب حقوق الأنبياء على أتباعهم من هدي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وما ينبغي أن يكون عليه اعتقاد المؤمنين المقتدين بالرسل والأنبياء، وما حد التوسط في اعتقاد الناس عن الرسل المبلغين عن الله بين طرفي الإفراط والتفريط. وأول هذه الحقوق هو:

أولا: التعزير والتوقير.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح٨-٩]، فالتعزير: النصر، والتوقير: التأييد، وهذا في حق الرسول ﷺ، أما التسبيح بكرة وأصيلا فهذا حق الله جل جلاله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف-١٥٧]، فالرسول ﷺ هو المبلغ لشرع ربه، وبالتالي فإن طاعته طاعة لمن يبلغ عنه، ويجب على من يؤمن به أن يعزره، وينصره، ويتبع النور الذي أنزل معه.

ثانيا: حق الطاعة التامة.

أرسل الله تبارك وتعالى رسله: ليدل الناس إلى التوحيد، وقد مكث رسول الله ﷺ ثلاث سنوات في مكة يدعو قومه إلى "لا إله إلا الله"، حتى إذا تمكن التوحيد من قلوبهم تتابع الوحي، وفصَّلت الرسالة أحكام الدين، وحثت الناس على طاعة ربهم، ومن هنا جاءت الآيات التي تحدد سبل الفوز والنجاة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب-٧١]، ففي طاعة الله ورسوله تفتح أبواب الرحمات، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران-١٣٢]، والله تبارك وتعالى يبشر الطائعين بالجنة والرضوان في محكم التنزيل، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح-١٧].

أما الإعراض عن طاعة الله ورسوله، ففيه إبطال للأعمال وتوقف عن السلوك إلى الواحد الديان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد-٣٣]، وقد يصل الإعراض عن أمر الله تعالى إلى حد الكفر إذا كان الأمر خاصا بالعقيدة، أو الشرك، قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران-٣٢]، فالمسلم عليه طاعة الله ورسوله حال سماعه لأحكام الكتاب والسنة، ولا ينبغي له أن يروغ، أو يتهرب، أو يحرف الكلم عن مواضعه ليحيد عن أمر الله وأمر رسوله، ويحذرنا الحق تبارك وتعالى من هذا التصرف بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال-٢٠]، وكما أن لله طاعة فإن للرسول طاعة أيضا، قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء-٥٩]، وقد نص القرآن الكريم على طاعة الرسول طاعة منفردة: لأنه مبلغ عن مولاه، وذلك في مواضع عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء-٦٤]، كما أشار القرآن إلى معصية الفاسقين لله ولرسوله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء-١٤].

ثالثا: اتباع النبي ﷺ.

ليس هناك طريق أسرع، ولا أسلم، ولا أضمن في الوصول إلى الله تعالى من اتباع النبي ﷺ، والاقتداء به في صغائر الأمور قبل عظائمها، وذلك لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران-٣١]، وكما عرفتنا السنة النبوية المطهرة أن كمال إيمان العبد رهن بأن يكون هواه تبعا لما جاء به النبي ﷺ، فهذا هو الحب الحقيقي حيث يتخذ المحب من محبوبه الأسوة والقدوة، واتباعه هو شغله الشاغل، والسير على دربه هو قمة الطاعة لله تعالى، وهو الغاية العظمى من اتباع الأنبياء والمرسلين صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، وهناك فرق كبير بين التقليد والاتباع، فالتقليد هو اتباع غير النبي، والسير على أي طريقة من الطرق بلا بينة في دين الله تعالى، أما الاتباع فهو التلقي عن الوحي، والاقتداء بما كان عليه النبي صلوات ربي وسلامه عليه، وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ

كَثِيرًا﴾ [الأحزاب-٢١]

رابعا: التحاكم إلى الرسول والرضا بحكمه والتسليم له.

أقسم الله تبارك وتعالى بنفسه ونفى الإيمان عمن لا يرضى بتحكيم الرسول فيما شجر بين الناس، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء-٦٥]، ولا شك أن التحاكم إلى رسول الله ﷺ بصفته مبلغا عن الله ﷻ يمثل قمة إيمانية عالية، لا يعلوها إلا الرضا بحكمه، والتسليم لأمره سواء كان حكمه في صالح المرء أو عليه. وكذا قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور٥١-٥٢]، فجعل سبحانه الطاعة له ولرسوله، بينما الخشية والتقوى له وحده. فالتحاكم إلى الله ﷻ، ورسوله ﷺ حق من حقوق الأنبياء على أقوامهم.

خامسا: الأدب مع النبي ﷺ.

إن من الآداب القرآنية التي علمنا إياها رب العالمين: توقير النبي ﷺ، وعدم ندائه باسمه، كما ينادي الناس بعضهم بعضا، فلا يقولوا يا محمد هكذا فقط، بل يقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾[النور-٦٣]، ومن الأدب في حضرته ﷺ عدم رفع الصوت بين يديه ﷺ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات-٢]

سادسا: الصلاة والسلام عليه.

الصلاة والسلام على الرسول ﷺ أمر عظيم من أمور الدين، فقد ابتدأه[1] الله ﷻ تنبيها لقدر هذا التكليف، وتعليما لنا، وتشريفا لقدر نبيه، ثم ثنّى بالملائكة الكرام البررة، ثم أمرنا

١ صلاة الله ﷻ على رسوله ﷺ: الرحمة للعباد، وصلاة الملائكة: الدعاء للمؤمنين.

بفعله، حيث قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّـهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب-٥٦]، وقد وردت عشرات الأحاديث النبوية الشريفة التي تدعو المسلمين إلى كثرة الصلاة والتسليم على سيد الأولين والآخرين.

سابعا: اقتران حبه ﷺ بحب الله تعالى.

على المسلم أن يدرك رفعة قدر النبي ﷺ، وأنه رحمة للعالمين مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء-١٠٧]، وعلى المؤمن أن يسعى إلى الاقتداء به في أقواله وأفعاله وأن يجعله قدوته في كل شيء، وأن يحب رسول الله ﷺ حبا عظيما لا يزيد عليه إلا حبه لله الواحد الأحد الذي خلقه، وسواه، وعدله، وجعله في أحسن تقويم، وكثيرا ما يجمع القرآن الكريم بين حب الله ﷻ، وحب رسوله ﷺ، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّـهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّـهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة-٢٤]

إن قمة الأدب مع النبي ﷺ تتمثل في تقديم محبة الله ﷻ، ومحبته ﷺ على المال، والأهل، والولد، وأيضا على النفس، فذلك تمام الإيمان به ﷺ، كما ورد في الحديث الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[1].

ثامنا: إرضاء الله ورسوله ﷺ.

وجه القرآن العبد المسلم إلى الحرص على رضا الله ﷻ، ورسوله ﷺ، وتقديم رضاهما على رضا الناس، ولو كانوا أولي قربى، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّـهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة-٦٢]، فعلى المؤمن أن يبحث مع كل موقف يقابله في حياته عن التصرف الصحيح الذي يرضي الله تبارك وتعالى، ويتبع الرسول ﷺ في هذا التصرف، ومن رزقه الله

---

١ حديث أنس أخرجه البخاري في الإيمان حديث ١٤، ومسلم في الإيمان حديث ٦٤، والنسائي حديث ٤٩٢٧، وابن ماجه في المقدمة حديث ٦٦، وأحمد في مسنده ١٢٣٤٩، والدارمي ٢٦٢٤، حديث أبي هريرة أخرجه البخاري ١٣، والنسائي ٤٩٢٩

تبارك وتعالى هذه الخصلة، فهو من أهل السعادة، فالسعيد من يضع رضا الله ورسوله نصب عينيه، وليعلم أن أكثر الناس عن ربهم معرضون، قال تعالى ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف-١٠٣] ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف-١٠٦]، وأن غضب الناس عليه لن يحول دون تمسكه بهدفه، فرضا الناس لا يُنال بمعصية الله. وكما قالت السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها: "إن رضا الناس غاية لا تدرك".

تاسعا: عدم تفضيل النبي ﷺ على غيره من الأنبياء.

لله تبارك وتعالى وحده أن يفضل بعض النبيين على بعض، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء-٥٥]، وقال عز من قائل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة-٢٥٣]، وليس للناس أن يفاضلوا بين الأنبياء من عند أنفسهم: لذلك علَّم رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يفضلوه على أي نبي من الأنبياء، فقد ورد في الحديث المتواتر أن النبي ﷺ، قال: «لا تفضلوني على يونس بن متى»، وفي رواية أخرى: «لا يقولن أحدكم أني خير من يونس بن متى»، ولما خاطبه أحد الصحابة، قائلا: يا خير البرية، قال ﷺ: «بل ذاك إبراهيم عليه السلام»[1].

مما سبق نخلص إلى أن حق النبي ﷺ على قومه وأتباعه أن: يعزروه، ويوقروه، وينصروه، وينصروا دينه، وأن يطيعوه، ويقدموا طاعته ومحبته على كل شيء من مال، وولد، وأهل، ونفس، والناس أجمعين، وأن يردوا كل ما يتنازعون فيه إلى رسول الله ﷺ. وأن يحكموه في كل الأمور، فعليهم السمع، والطاعة، والرضا بقضائه، وأن يسلموا تسليما.

١ حديث أنس بن مالك، أخرجه مسلم في الفضائل حديث ٤٣٦٧، والترمذي ٣٢٧٥، وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح، وأبو داود حديث ٤٠٥٢، وأحمد في مسنده ١٢٣٦١، ١٢٤٤٠

الفصل الرابع

حرص النبي على التوحيد

كان رسول الله ﷺ يحقق عبوديته لله تعالى، ويعلم أمته كيف تحقق ذلك، وفي نفس الوقت يحذرها من الوقوع في الغلو الذي وقعت فيه النصارى، حتى عبدوا عيسى عليه السلام، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن طفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها، أنه: ﴿رأى فيما يرى النائم كأنه مر برهط من اليهود، فقال: من أنتم ؟ قالوا: نحن اليهود، قال: إنكم أنتم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيرا ابن الله، فقالت اليهود: وأنتم تقولون: ما شاء الله، وشاء محمد، ثم مر برهط من النصارى، فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى، قال: إنكم أنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله، وشاء محمد. فلما أصبح أخبر بها من أخبر، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: أخبرت أحدا؟ قال: نعم، فلما صلوا خطبهم [أي النبي ﷺ]، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: إن طفيلا رأى رؤيا فأخبر بها من أخبر منكم، وإنكم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم – زاد البيهقي – فلا تقولوها، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده لا شريك له﴾[1]، وقد روى حذيفة رضي الله عنه نفس القصة مختصرة، فقال: ﴿إن رجلا من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلا من أهل الكتاب، فقال: نِعْمَ القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، وذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: أما والله إن كنت لأعرفها لكم، قولوا: ما شاء الله، ثم شاء محمد﴾[2].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ يكلمه في بعض الأمر، فقال الرجل لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال رسول الله ﷺ: ﴿أجعلتني لله عدْلا ؟ بل ما شاء الله وحده﴾[3]، وخطب رجل عند

---

١ حديث الطفيل بن سخبرة، أخرجه أحمد في مسنده حديث ٥: ٣٩٨، والدارمي في سننه حديث ٢٧٠٢، وابن ماجة ٢١١٨

٢ حديث حذيفة بن اليمان، أخرجه ابن ماجه في سننه حديث ٢١٠٩

٣ حديث ابن عباس، رواه البيهقي في السنن الكبرى ٣: ٢١٦ باب ما يكره من الكلام في الخطبة، وحديث قتيلة بنت صيفي الجهينية، رواه أحمد في مسنده ٢٥٨٤٥، والنسائي ٣٧١٣، ورجاله ثقات. وحديث حذيفة بن اليمان، أخرجه أحمد في مسنده

رسول الله ﷺ، قال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعصِ الله ورسوله فقد غوى﴾[1]، وأتى رجل إلى النبي ﷺ قد أذنب ذنبا، فلما وقف بين يديه، قال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد، فقال ﷺ: ﴿عرف الحق لأهله﴾[2]، وقال ﷺ: ﴿لا تتخذوا قبري عيدا وصلوا عليَّ حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني﴾، وقال ﷺ: ﴿اللهم لا تجعل قبري وَثَنًا يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد﴾، وقال ﷺ: ﴿إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك﴾.

حديث ٥: ٣٨٤، ٣٩٣، ٣٩٤، وأبو داود في سننه ٤٩٨٠، والنسائي في عمل اليوم والليلة ٩٨٥، البيهقي في السنن الكبرى ٣:٢١٦ باب ما يكره من الكلام في الخطبة، وابن ماجة في سننه

١ حديث عدي بن حاتم، أخرجه مسلم في صحيحه حديث ٣: ١٢، وأبو داود حديث ١٠٩٩، ٤٩٨١، والنسائي ٦:٩٠، أحمد في مسنده ٤: ٢٥٦، ٣٧٩، والبيهقي في السنن الكبرى ٣: ٢١٦ باب ما يكره من الكلام في الخطبة.

٢ حديث الأسود بن سريع: رواه أحمد في مسنده ١٥٠٣٥، ورواه البيهقي في شعب الإيمان.

الفصل الخامس

الوسطية في الإسلام

أنزل الله تبارك وتعالى آيات مباركات نتلوها في كل ركعة سائلين إياه قائلين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾، فالصراط الحق يتوسط نهج القوم المغضوب عليهم ونهج القوم الضالين، ولقد مثَّل رسول الله ﷺ الصراط المستقيم بالخط المستقيم، ثم رسم عن يمينه خطوطا، وعن يساره خطوطا، وهو يتلو قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام-١٥٣]، ومن المعلوم أن **كل خُلق محمود هو في حقيقته توسط بين وصفين مذمومين: أحدهما يتسم بالغلو والإفراط، والآخر بالتفريط والتقصير**، فالشجاعة مثلا: خلق حسن محمود مبعثه قوة تنبعث لنصرة الحق، وهي خلق إذا شابه الغلو والإفراط نتج عنه صفة التهور والحماقة، وذلك وصف لمن بذل قوة بدون ضابط يحكمها لنصرة الباطل مثلا، أو التمادي في القوة بما يقارب البطش والجبروت. والشجاعة إذا نسبناها للتفريط والتقصير كانت المحصلة صفة الجبن الذي نعرفه بأنه التأخر، أو التوقف عن بذل القوة لنصرة الحق. ولقد كان دأب اليهود التقصير والتفريط في جنب الله ﷻ، فما من تكليف على لسان نبي الله موسى عليه السلام إلا وقابلوه بالجدال والمراء، حتى إيمانهم وفهمهم – عن الله تبارك وتعالى – قاصر، وقد ذكر الله ﷻ ذلك في كتابه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة-٦٤]، وذكر أيضا: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران-١٨١]، وهاهو رسول الله ﷺ يأتيه حبر من أحبار اليهود، فيقول: " يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر-٦٧]"[1]، كما أنهم لم يوفوا لله بعهد من أجل ذلك غضب الله عليهم ولعنهم. أما النصارى فقد دفعهم الإفراط في الحب والغلو في الإطراء إلى الضلال المبين، حين زعموا أن عيسى علية السلام إنما هو المظهر الأول والأقنوم[2] الثاني، وقبضة النور الأصلية التي خلق منها كل شيء، ويرون أن يوم الدينونة هو المثول بين يدي الابن للحساب والجزاء.

لقد وصف الله تبارك وتعالى أمة الإسلام بأنها أمة وسطا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة-١٤٣]، فالوسطية في الاعتقاد هي الاعتدال بين الغلو والتقصير مع نفي كل من الغلو والتقصير، ورسول الله ﷺ يحذر أصحابه قائلا: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»، كما حذرنا ﷺ من مغبة الغلو الذي يتمثل اليوم واضحا في إطراء الصوفية للنبي ﷺ كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، وذلك بقوله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله»[3]، فهذه الألفاظ خرجت من فم من أوتي جوامع الكلم ﷺ، فالرسول ﷺ يحذرنا من أن نرفعه فوق مقام العبودية والرسالة إلى مقام الألوهية كما فعلت النصارى، ونستنتج من هذا التحذير أن فريقا من المسلمين سيفعل ذلك، ولا نعرف سوى الصوفية التي وقعت في ذلك، ولا ينبغي أن نعد معهم الشيعة والباطنية، حيث أن حقيقة مذهب هؤلاء هو الغلو في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكراهية

---

١ حديث عبد الله بن مسعود متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التفسير حديث ٤٤٣٧، ٦٨٦٤، ٦٨٦٥، ٦٨٩٧، ٦٩٥٩، ومسلم في صحيحه حديث ٤٩٩٢، ٤٩٩٣، والترمذي ٣١٦٢، وأحمد في مسنده ١: ٣٧٨، ٤٢٩، ٤٥٧

٢ الأقنوم: الأصل.

٣ حديث عمر بن الخطاب متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٣١٨٩، ٢٢٨٢، ٣٦٣٥، ٣٧١٧، ٦٣٢٧، ٦٣٢٨، ومسلم في صحيحه حديث ٣٢٠١، وأبو داود ٣٨٣٥، والترمذي ١٣٥٢، وابن ماجة ٢٥٤٣، وأحمد في مسنده ١: ٢٣، ٢٩، ٣٦، ٤٣، ٥٠، ٥٥، وموطأ مالك ١٢٩٥، والدارمي في سننه ٢٢١٩

باقي الأصحاب، حتى ألبسوه ثوب الألوهية، وما إلى ذلك من الأفكار التي انحرفت بالشـيعة والباطنية عن جادة الإسلام وطريقته المثلى.

ملخص الباب السادس

- هدم نظرية قِدَم نور النبي ﷺ، والتي يؤمن بها الشيعة، واتبعهم فيها الصوفية وساروا على دربهم ، وأوضحنا تطابق مفهوم الإمام عند الشيعة، والباب عند الباطنية، مع القطب عند الصوفية، فمهمة كل واحد من هؤلاء واحدة وإن اختلفت المسميات، كما اتفقت الفرق الباطنية جميعا على أن الإمام لا يكون إلا من نسل علي رضي الله عنه، وكذا قالت الصوفية فالأقطاب لا بد أن يكونوا من آل البيت ومن نسل علي بالتحديد.
- ناقشنا في هذا الباب فكرة الحقيقة المحمدية على ضوء فهم السلف الصالح للكتاب والسنة، وأشرنا إلى أن الصوفية بالغوا في قدرات النبي ﷺ، ومدحوه كما مدحت النصارى عيسى عليه السلام، وأشرنا إلى مهمة رسل الله تعالى ودورهم في البلاغ عن الله عز وجل.
- قدمنا الرد على فكرة قدم نور النبي ﷺ ومن هو أول الخلق، وأن لا وجود لحقيقة النبي قبل مولده.
- شرحنا حقوق الأنبياء في الكتاب والسنة سواء: التعزير والتوقير، وحق الطاعة التامة، واتباع النبي ﷺ والتحاكم إليه والرضا بحكمه والتسليم له، والأدب معه، والصلاة عليه، واقتران حب النبي بحب الله، والسعي لإرضاء الله ورسوله، وعدم تفضيل النبي على غيره من الأنبياء.
- أشرنا إلى حرص النبي ﷺ على التوحيد، وأوضحنا وسطية الإسلام عن حقيقة النبي ﷺ.
- أن الصوفية هي الفرقة التي أطرت النبي ﷺ كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم.

الباب السابع

مراحل السلوك
عند الصوفية والسلف الصالح

١. مراحل السلوك الصوفي

٢. الوحي يعلمنا مراحل الدين

- الإسلام
- الإيمان
- الإحسان

٣. حقيقة مراحل الدين

الفصل الأول

مراحل السلوك الصوفي

زعمت الصوفية أن السلوك، والدين، والعلم لهم تقاسيم بمسميات وضعوها من عند أنفسهم، تخالف ما حدده الوحي لأمر هذا الدين، هذه التقسيمات أوجدت للصوفية مصطلحات وعبارات خاصة بهم، ويحاولون في كل ابتكار جديد أن يضعوا له أحاديث مكذوبة على النبي ﷺ، ولبيان حقيقة الموضوع نعرض ما يلي:

قسم الصوفية مراحل السلوك إلى الله ﷻ فجعلوها ثلاث مراحل هي: شريعة، وطريقة، وحقيقة، ويروون حديثا موضوعا أن رسول الله ﷺ، قال: "الشريعة أقوالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة أحوالي". ولأهمية هذا التقسيم، فقد أصبح شعارا للتصوف ترفعه مجلة التصوف الإسلامي التي يصدرها المجلس الصوفي الأعلى بمصر: ولبيان المقصود من هذا التقسيم ومراحله المختلفة نرجع إلى كتب القوم والتي جاء فيها:

أولا: الشريعة.

يقول الصوفية: إن الشريعة هي ما جاء بها سيدنا محمد ﷺ، عن جبريل ؑ، عن رب العزة جل شأنه، وهي ما أشار إليها الحديث: "أتيتكم بها بيضاء نقية"، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، يتمسك بها أولوا الألباب، وهي لعامة المسلمين تبين الحلال من الحرام، وبها تقام حدود الله ﷻ، فالشريعة قيام بما أمر به وبَصَّر، ولها حدود من تعداها أقيمت عليه الحدود. وقالوا: الشريعة لإصلاح الظواهر بثلاثة أمور: بالتوبة، والتقوى، والاستقامة. وإصلاح الظواهر باجتناب النواهي، وامتثال الأوامر، فالشريعة عمل العباد، وهي لأهل البداية، ويسمى علماؤها بعلماء الرسوم، والشريعة: الأمر بالعبودية بشرط التزامها، ويقول بعض الصوفية: إن الشريعة هي معرفة السلوك إلى الله تعالى. والمريد في هذه المرحلة يفهم من معاني لا إله إلا الله، أنها: لا معبود إلا الله. وخلاصة قولهم في الشريعة: أن تعبده.

ثـانيا: الطريقة.

الطريقة هي: قصده تعالى بالعلم والعمل، وقيل: هي الأخذ بالتقوى، ومـا يقربـك مـن المولى من قطع المنازل والمقامات، والتي قُسمت إلى سبع مراتب هي: التوبة، والورع، والزهـد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا. فالطريقة لإصلاح الضمائر والقلـوب بثلاثـة أمـور هـي: الإخلاص، والصدق، والطمأنينة. وإصلاح الضمائر بـالتخلي عـن الرذائـل، والـتحلي بـأنواع الفضائل. والطريقة: لها صدق وجهـد معهـود، فمـن تعـداها حـرم الـورود، فالطريقـة عمـل العبودية وهي لأهل الوسط. ويقول بعض الصـوفية: إن الطريـق سـلوك الشريعـة، وهـي لهـا حدود: كون الصلاة ركعتين، أو ثلاثة، أو أربعة، وكونها فرضا، أو نفلا. والطريقة: هي السـير بالسيرة المختصة بالسالكين إلى الله ﷻ من قطع المنازل والترقي في المقامات. والطريقـة: طريـق موصل إلى الله ﷻ، كما أن الشريعة طريق موصل إلى الجنة، وهي أخص من الشريعـة لاشـتمالها على أحكام الشريعة من الأعمال الصالحة البدنية، والانتهاء عن المحارم والمكاره العامـة، وعـلى أحكام خاصة من الأعمال القلبية، والرياضـات، والعقائـد المختصـة بالسـالكين إلى الله تعـالى. ويجب على السالك أن يجتاز مقامات الطريقة بالتدرج والترتيـب حتـى ينـال غايتـه التـي هـي الوصول إلى الحقيقة، أي الفناء في الحق، والمريد - عندهم - في هذه المرحلة يفهم مـن معـاني لا إله إلا الله أنها تعني: لا مقصود إلا الله. وخلاصة قولهم في الطريقة: أن تقصده.

ثـالثا: الحقيـقة.

الحقيقة: هي الوصـول إلى المقصـود بـالسر والـروح، وتلقـي أنـوار الـتجلي ومشـاهدة الربوبية، والحقيقة: جاءت بتعريـف الحـق، وهـي شـهود لمـا قضى، وقَـدَّر، وأخفـى، وأظهـر، والحقيقة: لها شهود باطن في ظاهر هذا الوجود، وخارج عن طور التفـرق المعـدود، والحقيقـة: أن يشهد العبد ربه بنور يودعه الله في سويداء قلبه، والحقيقـة لإصـلاح السرائـر بثلاثـة أمـور: بالمراقبة، والمشاهدة، والمعرفة، وقالوا الحقيقة: مشاهدة الربوبية بالقلب، ويقال: هو سر معنوي لا حد له، ولا وجه له، ومن اتخاذهما صدقا لا مفهوما. والمريد في هذه المرحلة يفهم مـن معـاني لا إله إلا الله أنها تعني: لا موجود إلا الله. وخلاصة قولهم في الحقيقة: أن تشهده.

رابعا: السلوك الصوفي.

يشرح القشيري في رسالته كيف يرتقى السالك من مقامات الشريعة إلى فتوحات الحقيقة، فيقول: "فالسلوك إلى الله بهذا التقسيم يبدأ في المقام الأول بالشريعة التي هي لإصلاح الظواهر، ثم بالطريقة لإصلاح الضمائر، ثم بالحقيقة لإصلاح السرائر، ولا يصح الانتقال إلى مقام حتى يحقق الصوفي ما قبله، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فلا ينتقل إلى عمل الطريقة حتى يحقق عمل الشريعة، وترتاض جوارحه معها بأن يحقق التوبة بشروطها، ويحقق التقوى بأركانها، ويحقق الاستقامة بأقسامها، وهي متابعة الرسول ﷺ في أقواله، وأفعاله، وأحواله. فإذا تزكى وتنور بالشريعة انتقل من عمل الشريعة الظاهرة إلى عمل الطريقة الباطنة، وهي التصفية من أوصاف البشرية، فإذا تطهر الصوفي من أوصاف البشرية تحلى بأوصاف الروحانية، وهي الأدب مع الله ﷻ في تجلياته التي هي مظاهره، فحين ترتاح الجوارح من التعب فما بقي إلا حسن الأدب".

يقول المدكتور حسن عباس زكي في كتابه مذاقات في عالم التصوف: "الشريعة كالسفينة، والطريقة كالبحر، والحقيقة كالدر، فمن أراد الدر: يركب السفينة، ويقطع مسافة في البحر، ليصل إلى الله، ومن ترك هذا الترتيب، فلن يصل إلى الله أبدا، وإن شئت قلت: إن الشريعة هي القشر، والطريقة هي اللب، والحقيقة هي لب اللب"[1].

ويروي صلاح القوصي أحد خلفاء الطريقة الخلوتية العيونية في كتابه الإسلام الطبعة الأولى حديثا موضوعا عن النبي ﷺ نصه: "الشريعة أقوالى والطريقة أفعالي والحقيقة أحوالي"، ثم يشرح هذا التقسيم للدين بقوله: "والدين – عنده – ينقسم إلى ثلاث مراحل:

١. معرفة الحدود، والأوامر، والنواهي، والحلال، والحرام، وهي ما تسمى بالشريعة.
٢. الطريقة أي الأسلوب العملي لتطبيق الشريعة، وما يستلزمه هذا التطبيق من آداب، وأحكام قلبية، وروحية، ومعالجة للنفس الأمارة بالسوء: حتى تتخلص من أمراضها المعنوية، فترق، وتشف بنور الله.

---

١ مذاقات في عالم التصوف للدكتور حسن عباس زكي ص ٣٣

٣. الحقيقة: أو الثمرة المرجوة من الالتزام بالشريعة، والسير بالطريقة، والإخلاص لله سبحانه، فهي معرفة الله ﷻ، كل على قدر ما هيأ الله له قلبه وروحه، فالقلوب أوعية والعطاء مواهب".

الفصل الثاني

الوحي يعلمنا مراحل الدين

تلقى أصحاب رسول الله ﷺ الرسالة الخاتمة تامة كاملة، بيضاء نقية لا لبس فيها، ولا غموض، وقد خاطبت العرب رعاة الغنم فجعلتهم رعاة الأمم، وشيد الإسلام دعائم التوحيد في قلوبهم، وهانت عليهم أنفسهم وأموالهم في سبيل نشر هذا النور، فطبقوا تعاليمه على أنفسهم، فسمت عقولهم، واستنارت قلوبهم فنطقوا بالحكمة، وأقاموا دولة الإسلام على أقوى دعائم من العدالة، والمساواة، والحرية فدان لهم ملك الدنيا، وخضعت لهم الإمبراطوريات، واتسعت رقعة التوحيد حتى أضاءت ما بين المشرق والمغرب.

وقد تميزت عقيدة الإسلام بالوضوح والبساطة، فالإله واحد لا شريك له، وهو رب كل شيء وخالقه ومليكه، اصطفى من بني البشر أنبياء ومرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، اجتباهم من أطيب الناس معدنا، وأزكاهم نسبا وعنصرا، ونزههم عن الفواحش واللمم، وجعلهم للبشرية قدوة ومثلا، فكانوا أعرف الناس بربهم وأقربهم إليه، أطلق الله تبارك وتعالى ألسنتهم ببيان رسالات ربهم، ومخاطبة أقوامهم بلسانهم، فلا تجد نبيا ادعى لنفسه فهما خاصا أرقى من رسالته المكلف بإبلاغها لقومه، فما كتموا عنهم من الوحي شيئا سواء أكان نصا في رسالة ربهم، وما قصروا عن بيان المراد من كل لفظة أُوحيت إليهم: ولذلك يخاطبنا الحق تبارك وتعالى قائلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم-٤]، وقد منَّ الله ﷻ على البشرية بأن بعث فيها نبيا خاتما، ورسولا كريما هو محمد عبد الله ورسوله ﷺ بعثه للعالمين رحمة، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء-١٠٧]، وقد حدد القرآن الكريم مهمة الرسالة في أمرين هما: البلاغ والبيان، يقول تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل-٣٥]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل-٤٤].

فالبلاغ عن الله ﷻ هو أصل النبوة، ومنبع ضيائها، كما يمتد نورها إلى بيان هذا البلاغ وشرح المراد منه: لذلك خص الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بجوامع الكلم حتى يكون بيانه

أشفى بيان، يقول تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْـمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُـدًّا﴾ [مـريم-٩٧]

فالمؤمن الحقيقي هو من شهد أن رسول الله ﷺ بلغ الرسالة، وأدى الأمانة على أكمل صور الأداء، وبهذا شهد أصحابه الأطهار سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يوم الحج في عرفات حين طفق الحبيب المصطفى ﷺ يودع أصحابه في خطبته المشهورة بخطبة الوداع، وقد استشهدهم على تبليغه لرسالة ربه، فقالوا: نعم، بلغت يا رسول الله، فقال ﷺ: "اللهم اشهد".

وما قَسَّم رسول الله ﷺ الدين إلى ظاهر وباطن، ولا ابتدع الصحابة والتابعون، أو تابعو التابعين تقسيما للدين إلى ظاهر وباطن، كما يفهم كثير من الناس اليوم، بل هم يفهمون هذا الدين على أنه أعمال للجوارح من طاعات للأوامر واجتناب للنواهي، وأيضا أعمال للقلوب من نية خالصة، وصدق، وتوكل، وإخلاص، وإخبات، وخوف، وخشية، ووجل، وصبر، وشكر، وحسن للظن، وطمع، ورجاء في وجه الله. **فأعمال الجوارح والقلب لا ينفصلان، فطاعة بالجوارح مع غفلة القلب نقص وقصور، وطاعة الجوارح مع إنكار القلب نفاق ورياء،** أما طاعة الجوارح مع إخبات القلب فهذا كمال الطاعة، وإخبات القلب الذي هو ملك الجسد ينعكس على رعيته فتلين الجوارح في القيام لله بما أمر، أما من يزعم أنه يترك الصلاة لأن قلبه ساجد في كل لحظة، أو أن روحه تصلي في الكعبة، فهذا من تلاعب الشياطين، وإن زعم فاعلها أنه من المكرمين.

وحتى نتبين هدي الإسلام في ارتباط أعمال الجوارح والقلوب في كل مراحل السلوك، تعالوا بنا نبحث في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عن الفهم الصحيح لحقيقة هذا الدين.

يشير القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى مقامات: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وحتى لا نمر على هذه الآيات دون أن نتنبه إلى مراحل الدين، فقد جاء أمين الوحي سيدنا جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ على مرأى ومسمع من جمع من أصحابه رضوان الله عليهم، وجذب أنظارهم بكونه: عابر سبيل، شديد بياض الوجه، ناصع بياض الثوب ليس عليه أثر للسفر، ولعلها من المرات القليلة جدا التي ظهر فيها جبريل عليه السلام بهذا الأسلوب، وقد تكون المرة الوحيدة، ولكنا لا نجزم بذلك والله أعلم، وما ذاك إلا لعظم الأمر وأهمية الرسالة التي أراد أن يعلمها لأصحاب رسول الله ﷺ، ألا وهي حقيقة هذا الدين.

فقد صح عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، أنه قال: ﴿بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه.

وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟

فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: أخبرني عن الإيمان؟

قال ﷺ: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟

قال ﷺ: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: فأخبرني عن الساعة؟

قال: ما المسئول عنها بأعلم بها من السائل.

قال: فأخبرني عن أماراتها؟

قال ﷺ: أن تَلِدَ الأمةُ رَبَّتَهَا، وأن ترى الحفاة العراة العالة، رِعاء الشاء يتطاولون في البنيان، قال: ثم انطلق، فلبثت مليًّا، ثم قال لي رسول الله ﷺ: يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم﴾.

إن أمر هذا الدين واضح جلي، فأمين الوحي جبريل عليه السلام ينزل، ويشاهده الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ثم يسأل، ويصدق على الإجابة النبوية، حتى لا يدع مجالا للناس أن يقولوا على الله بغير علم.

تعليق مهم:

إن من اللطائف التي لا تخفى في هذا الحديث سؤال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ، قائلا: أتدري من السائل؟ وكان رد عمر مؤكدا حقيقة هامة للغاية: الله ورسوله أعلم، برغم

كون عمر قد وافقه الوحي في مواطن عديدة، إلا أنه لا يعرف جبريل ﷺ، ولو أن الوحي الذي يأتي عمر –حسب زعمهم– هو نفس ما يوحى به إلى النبي ﷺ لعرف عمر جبريل ﷺ.

أقوال العلماء عن الإسلام والإيمان:

١. يرى الإمام البغوي الشافعي رحمه الله في هذا الحديث أن الإسلام اسم لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسم لما بطن من الاعتقاد.

٢. يقول الزهري: الإسلام الكلمة، والإيمان العمل، واحتج بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات–١٤].

٣. ذهب غيره إلى أن الإسلام والإيمان شيء واحد، واحتج بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذريات٣٥–٣٦].

٤. قال الخطابي: كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنا.

٥. من هذه الأمثلة من الأقوال نرى أن مفهوم الإسلام والإيمان يعبر عنه بصور مختلفة، وحتى نستطيع أن نفهم المراد من الإسلام، والإيمان، والإحسان يجب أن ننظر بعمق أكثر في الكتاب والسنة لنتبين حكمة التقسيم الإلهي لهذا الدين.

أولًا: الإسلام.

الإسلام: هو دين الله، أرسل به جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو المنهاج الذي ارتضاه جل وعلا لهداية البشرية منذ خلق آدم ﷺ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما أنه ﷻ لن يقبل دينا أو عبادة من أحد إلا الإسلام قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران–٨٥].

١. الإسلام لغة:

كلمة عامة جامعة لمعانٍ كثيرة في اللغة العربية منها:

- الإسلام والسلامة يراد بها البراءة والعافية، ولهذا كانت كلمة سلام عليكم دليل على علاقة المسالمة، وأنه لا حرب هنالك.

- السلم هو: الصلح، والتسالم [أى التصالح]، والمسالمة: المصالحة.
- الاستسلام هو: الإذعان والانقياد والأخذ قهرا، وإسلام النفس عجزا، والتسليم هو بذل الرضا بالحكم.

٢. الإسـلام شـرعا:

أما المراد من الإسلام في الشريعة، فهو:

- إظهار الخضوع والانقياد والالتزام بما أتى به النبي ﷺ، ويقال: فلان مسلم فيه قولان:
  - **أحدهما**: المستسلم لأمر الله.
  - **والثاني**: هو المخلص لله العبادة، من قولهم سلم الشيء لفلان [أي خلص وسلم له الشيء].
- الإسلام بمعنى الخضوع والانقياد، هو المراد من قوله تعالى: واصفا حال الذبيح إسماعيل بين يدي أبيه الخليل إبراهيم عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات-١٠٣].
- الإسلام بمعنى السلامة، هو المقصود من إجابة رسول الله ﷺ لسؤال الرجل حيث يقول ما يرويه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟، قال: ﴿من سلم المسلمون من لسانه ويده﴾، قال الأزهري في بيان المراد من الإسلام في هذا الحديث، هو: السلامة حتى يسلم المؤمنون بوائقه.

٣. حقيـقة الإسـلام:

إن حقيقة الإسلام أن يحسن إسلام العبد، فيمتلئ قلبه بأنوار الطاعات، وبالتالي ينتقل إلى مرحلة أداء الأركان، وقلبه مصدق مقر بصحة الإسلام، فيتذوق العبد حلاوة الإيمان. وهذا المعنى يقرره حديث رسول الله ﷺ، حيث يقول:"﴿الإسلام علانية، والإيمان في القلب﴾، ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: ﴿التقوى ها هنا﴾"، وليس معنى هذا الحديث أن الإسلام ظاهر والإيمان باطن: فالمسلم الذي يظهر الخضوع والقبول لما أتى به رسول الله ﷺ، وذلك بالقيام بأركان الإسلام الخمس، والتي بها يحقن دمه، إما أن يصاحب هذا الإظهار اعتقاد، وتصديق بالقلب، فذلك المسلم الحق الذي عَبَّرَت جوارحه عن إسلامه، وامتلأ قلبه بالتصديق وهو الإيمان، أما من أظهر الانقياد والخضوع لما أتى به سيدنا محمد ﷺ، وقلبه

مكذب، وفؤاده خال من التقوى، فذلك المنافق الـذي يظهـر غـير مـا بطـن، ولهـذا لما ادَّعـت الأعراب التصديق والإيمان كشفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات-١٤]، ثم جاء في أواخـر مـا نزل من القرآن في سورة براءة قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبـة-٩٧]، وكـذا قوله ﷻ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة-١٠١]، ومعنى قولـه تعـالى: ﴿لا تَعْلَمُهُمْ﴾: لأنهـم يُظهـرون الإسلام، ويحضرون الجمع والجماعات، ولكن الله تبارك وتعالى وحـده هـو الـذي يعلـم أنهـم ينقادون للإسلام ظاهرا، ويبطنون العداء له وعدم التصديق بـه: ولـذلك نفـى عـنهم الإيـمان الذي هو التصديق.

ولذلك فالإسلام الحقيقي اسم جامع لانقياد العبد بجوارحـه وقلبـه، فعـن عمـرو بـن عبسة ﷺ، قال: «قال رجل: يا رسول الله، ما الإسـلام؟ قـال ﷺ: أن يسـلم قلبـك لله ﷻ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك، قال: فـأي الإسـلام أفضـل؟ قـال ﷺ: الإيـمان، قـال: ومـا الإيمان؟ قال: تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت [وفي رواية، قـال: ومـا الإيمان؟ قال ﷺ: الصبر والسماحة]، قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال: الهجرة، قـال: فـما الهجـرة؟ قال: تهجر السوء، قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: الجهـاد، قـال: ومـا الجهـاد؟ قـال: أن تقاتـل الكفار إذا لقيتهم، قال: فأي الجهاد أفضل؟ قال: من عقر جواده، وأريق دمـه، قـال رسـول الله ﷺ: ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما: حجة مبرورة، أو عمرة».

فمن دخل الإسلام وهو مصدق به من أول يوم، فإسلامه هو الإسلام الحق الـذي يبـدأ بإسلام القلب، وانقياده وإقراره لله ﷻ بما تقتضيه كمالات الربوبية، ثم القيام بأركـان الإسـلام والمسارعة في تنفيذ أوامره واجتنـاب نواهيـه، حتـى يـنعكس ذلـك عـلى تصرفـات المسـلم في مجتمعه، فيسلم الناس من لسانه ويده، فإذا وصل إلى هذه المرتبة يكون قد قطع مرحلـة الإيـمان الذي هو بمعنى التصديق، ووصل إلى الإيمان بمعنى أداء الأمانة: لذلك فقد روى عبـد الله بـن مسعود ﷺ، قال: إن النبي ﷺ، قال: «والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبـه ولسـانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: غَشْمه، وظلمه».

والإسلام الحقيقي ينتفي عمن لم يطابق قلبه لسانه بعد، ولا شك أن هذا التوافق بين إيمان القلب وانقياد الجوارح يستغرق من العبد مراحل متعددة، ولا يتم في لحظة واحدة إلا لمن أراد الله له الكرامة والاختصاص، ولهذا أوجز رسول الله ﷺ الإسلام عندما سأله سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه، قال:" قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك [وفي رواية: بعدك]، قال: ﴿قل آمنت بالله ثم استقم﴾ "، فالإسلام كما نفهمه من هذه الأحاديث والآيات القرآنية هو انقياد وخضوع لما أمر به الله ﷻ في كتابه وسنة رسوله ﷺ انقيادا ظاهرا على الجوارح، وتصديقا، وإقرارا بالقلب: ولذلك خاطب الله ﷻ الخليل إبراهيم ﷺ بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة-١٣١]، ويقول ﷻ عن الحواريين: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة-١١١] وفي سورة آل عمران يقول سبحانه: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران-٥٢]، وهذا الوحي للحواريين كان بعد إسلامهم لله، وإقرارهم بنبوة عيسى عليه السلام، لذلك فالوحي هنا يطالبهم بالوصول إلى مقام الإيمان، وذلك قوله سبحانه: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة-١١١]، وخاطبنا سبحانه بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران-١٠٢]، فالأمر للخليل عليه السلام بالإسلام هو توجيه إلهي بتمام الإسلام وكماله، كما أن الحواريين الذين هم أصحاب نبي الله عيسى عليه السلام قالوا: آمنا وأشهدوا الله على إسلامهم، وخطاب الحق تبارك وتعالى للمؤمنين أن يتقوا الله حق تقاته [أي تمام التقوى]، وأن يستمروا على تمام الانقياد بالجوارح والقلب حتى لقائه سبحانه. وستظهر مراحل الدين جلية وبصورة أوضح عندما نتحدث عن الإيمان، ثم الإحسان.

٤. أمة الإسلام:

يشرح البغدادي في كتابه: "الفَرْقُ بين الفِرَق" المراد من مصطلح "أمة الإسلام" ومن يدخل فيها، واختلاف الناس حول ذلك، فيقول: اختلف المنتسبون إلى الإسلام في الذين يدخلون بالاسم العام في ملة الإسلام، فزعم أبو القاسم الكعبي في مقالاته أن قول القائل: "أمة الإسلام" تقع على كل مقر بنبوة محمد ﷺ، وأن كل ما جاء به حق، كائنا قوله بعد ذلك ما كان. وزعم قوم أن "أمة الإسلام" يدخل فيها: كل من يرى وجوب الصلاة إلى جهة الكعبة.

وزعمت الكرامية مجسمة خراسان أن "أمة الإسلام": تجمع كل من أقر بشهادتي الإسلام لفظا، وقالوا: كل من قال "لا إله إلا الله محمد رسول الله" فهو مؤمن حقا، وهو من أهل ملة الإسلام، سواء كان مخلصا فيه أو منافقا، مضمرا للكفر والزندقة فيه، ولهذا زعموا أن المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا مؤمنين حقا، وكان إيمانهم كإيمان جبريل، وميكائيل، والأنبياء، والملائكة مع اعتقادهم النفاق، وإظهار الشهادتين. وهذا القول مع قول أبي القاسم الكعبي في تفسير "أمة الإسلام" يتفق مع قول العيسوية من يهود أصبهان، فإنهم يُقرون بنبوة نبينا محمد ﷺ، وبأن كل ما جاء به حق، ولكنهم زعموا أنه بُعث إلى العرب لا إلى بني إسرائيل، وقالوا أيضا: محمد رسول الله. ولا يُعَدُّون من فرق الإسلام.

وحكي عن جماعة موشكانيه اليهودية أن زعيمهم موشكان، قال: إن محمدا رسول الله إلى العرب، وإلى سائر الناس ما خلا اليهود، وأنه قال: إن القرآن حق، وكل ما جاء به من الأذان، والإقامة، والصلوات الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج الكعبة، وكل ذلك حق، غير أنه مشروع للمسلمين دون اليهود. وربما فعل ذلك بعض الموشكانيه، وقد أقروا بشهادتي "أن لا إله إلا الله"، و"أن محمدا رسول الله"، وأقروا بأن دينه حق، ومع ذلك ليسوا من أمة الإسلام، لقولهم بأن شريعة الإسلام لا تُلزمهم.

والصحيح عندنا أن "أمة الإسلام" تجمع: المقرين بحدوث العالَم، وتوحيد صانعه، وقِدَمِهِ، وصفاته، وعدله، وحكمته، ونفي التشبيه عنه، وبنبوة محمد ﷺ، ورسالته إلى الناس كافة، وتأييد شريعته، وأن كل ما جاء به حق [من كتاب وسنة]، وبأن القرآن منبع أحكام الشريعة، وأن الكعبة هي القبلة التي تجب الصلاة إليها، فكل من أقر بذلك كله، ولم يَشُبْهُ ببدعة تؤدي إلى الكفر فهو السني الموحد.

ولبيان هذا المعنى نقول: إن حد الإسلام الذي يدخل المرء به زمرة المسلمين هو القيام بأوامر الدين وبناء أركانه، فقد جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: ﴿أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله﴾، وقال رسول الله ﷺ: ﴿أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم بحقها، وحسابهم على الله﴾، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾، ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة-٥].

يدخل المسلم روضة الإسلام بقوله: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، وبالتالي تحميه شهادة التوحيد، وتعصم ماله ودمه، ويصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وربما يكون إقراره بالشهادتين لغرض في نفسه أو لعلَّة في هواه، أو حتى فرارا من القتل في المعركة، وإقرار العبد بشهادة التوحيد تقتضي الإيمان بالخالق الأزلي الذي أوجد الكون، وأحدثه من العدم، وأن يقر بتوحيد الألوهية والربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وأن الله يصطفي رسلا من خلقه آخرهم محمد ﷺ أرسله ربه بالهدى ودين الحق، فأخرج به الناس من الظلمات إلى النور، فكانت شريعته أكمل الشرائع، وسبيله أتم السبل الموصلة إلى الله ﷻ، وسعادة الدنيا والآخرة، فإذا أقام المرء أركان الدين والتزم تعاليمه من: صلاة، وزكاة، وصيام، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، فقد دخل في زمرة هذا الدين، وعصم نفسه وماله، وأصبح له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، وهذه الأركان علامات يراها الناس يعرفون بها انتماء العبد لدين الله ﷻ.

ونخلص من هذا أن الإسلام ليس فقط نطق بالشهادتين، ثم نكوص الناس عن الدين وتعطيل أحكامه، وإلحاد في أسماء الله تعالى، وابتداع لشركاء مع الله من أولياء، واستعانة بالجن والاستغاثة بغير الله، فهذا وإن عصم دمه وماله من الحاكم، إلا أنه عند ربه لم يدخل روضة الإسلام، ولم يذق حلاوة الإيمان.

ثانيًا: الإيمان.

١. الإيمان لغة:

الإيمان ضد الكفر وهو بمعنى التصديق وضده التكذيب، ويقال: آمن به قوم وكذب به آخرون، ويقول اللحياني: الإيمان هو الثقة، ورجل أمنة تقال للذي يصدق بكل ما يسمع ولا يكذب بشيء ويطمئن إلى كل أحد، والأمن ضد الخوف والآمن هو المستجير ليأمن على نفسه، والأمانة ضد الخيانة.

٢. الإيمان شرعا:

يعرف الإيمان في الاصطلاح أنه التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان، والأصل في الإيمان التصديق، وحمل الأمانة التي كلف الله بها الإنس والجن، فمن صدَّق بقلبه كما صدق بلسانه، وانقاد بجوارحه لأوامر ربه فقد أدى الأمانة فهو مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤدٍ للأمانة التي ائتمنه الله عليها وهو منافق، والأمانة اسم جامع للطاعات، والعبادات، والودائع، والثقة، والأمان، وإلى هذه المعاني أشار الحديث الشريف الذي يرويه ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: «الإيمان أمانة، ولا دين لمن لا أمانة له»، وفي رواية أخرى: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

٣. حقيقة الإيمان:

قد يفهم بعض الناس أسئلة جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان أن الإيمان تصديق نظري واعتقاد قلبي فقط، وهذا فهم ناقص يحتاج أن تستكمل جوانبه بالرجوع إلى باقي الآيات والأحاديث، فلا يعقل أن يقال: إن العاصي يصدق بعذاب القبر ولا يخافه، فحقيقة التصديق أن يصدق الإنسان بعذاب القبر ويخافه، فينعكس ذلك على سلوكه فلا يعمل ما يوجب العذاب، فيسعى لنيل أسباب الرحمة، وإلا فلو صدق الإنسان بأنه يعذب في قبره، ولم يكن في قلبه خوف من ذلك أصلا لم يسموه مؤمنا، لذلك كان الإيمان هو قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان. كما ورد بذلك الخبر الصحيح. وتقرر الآيات المباركات حقيقة الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات-١٥]، فالإيمان إذن إقرار، وتصديق، وثقة لا يشوبها ارتياب ولا شك، ثم جهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله ﷻ، أما من يعتقد أن الإيمان قول فقط فها هي الآية القرآنية تنقض هذا الفهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة-٨]، كما أن رسول الله ﷺ نفى الإيمان عن مرتكب الكبائر حال معصيته، فقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ، قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد». إذن فليس الإيمان تصديق قلبي فقط، ولكنه مرتبط بالطاعات، ويزداد بكثرتها، ويقل بنقصانها، وفي حديث لأنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال النبي

ﷺ: ﴿المؤمن من أمنه الناس، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر السوء﴾، وفي حديث شريف يرويه فضالة بن عبيد ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: ﴿ألا أخبركم بالمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب﴾.

ويؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ: ﴿يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته﴾، وعن أنس ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل رجل الجنة لا يأمن جاره بوائقه﴾.

فالإسلام أن يكون المسلم مصدقا بقلبه ومانعا ضرره عن المسلمين، أما المؤمن هو من يمتد خيره لغيره حتى يسع مجتمعه كله، وهذا المعنى تراه واضحا في الكتاب والسنة، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْـمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّـهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُـمْ إِيمَانًـا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْـمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال ٢-٤].

وفي الحديث الشريف: ﴿من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان﴾، والتصديق هو أول منازل الإيمان، ولكنه لا يوجب للعبد استكمال جميع مقامات الإيمان، فالإيمان اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء له أدنى وأعلى، ففي الحديث الشريف، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿الإيمان بضع وسبعون [أو بضع وستون] شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان﴾، ويطلق لفظ المؤمن على من حاز أي شعبة من هذه الشعب بشرط أن يكون معها قول لا إله إلا الله، ولهذا وردت مئات الأحاديث النبوية التي تقرر هذه الشعب وتحددها، كما جاءت الأحاديث الشريفة بأوصاف المؤمنين، ومتى يشعر العبد بدخول حب الإيمان في قلبه، ومتى يعلم أنه مؤمن، ومنها ما يرويه أبو رزين العقيلي، واسمه لقيط بن عامر ﷺ، قال: ﴿أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: أما مررت بأرض من أرضك مجدبة، ثم مررت بها مخصبة؟ قال: نعم، قال: كذلك النشور، قال: يا رسول الله، ما الإيمان؟

قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، وأن تحرق بالنار أحب إليك من أن تشرك بالله، وأن تحب غير ذي نسب لا تحبه إلا لله ﷻ، فإذا كنت كذلك فقد دخل حب الإيمان في قلبك، كما دخل حب الماء للظمآن في اليوم القائظ، قلت: يا رسول الله، وكيف لي بأن أعلم أني مؤمن؟ قال: ما من أمتي [أو هذه الأمة] عبد يعمل حسنة، فيعلم أنها حسنة، وأن الله ﷻ جازيه بها خيرا، ولا يعمل سيئة، فيعلم أنها سيئة، واستغفر الله ﷻ منها، ويعلم أنه لا يغفر إلا هو، إلا وهو مؤمن﴾.

يوضح هذا الحديث الفرق بين قول: "لا إله إلا الله" التي تعصم قائلها من القتل، وتدخله روضة الإسلام، وبين شهادة "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله"، "وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما"، والفرق هنا هو حال القلب الذي أحب الله ورسوله، حتى تكون النار أحب إليه من أن يعود إلى الشرك، ثم يرى إخوانه المؤمنين جماعة واحدة، يحبهم جميعا، دون نسب أو دنيا، فهذه علامات تميز الإيمان عن الإسلام. وعن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ، أنه قال: ﴿ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار﴾، ومن علامات الإيمان المؤكدة ما أخبرنا به ﷺ: ﴿آية الإيمان حب الأنصار﴾، وكذا قوله ﷺ: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده، وولده، والناس أجمعين﴾، ويقول النبي ﷺ: ﴿لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه،[أو لجاره] ما يحب لنفسه﴾.

وليس معنى "لا يؤمن أحدكم" في هذه الأحاديث نفي الإيمان جملة، أو نفي الإيمان الذي هو بمعنى التصديق بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وإنما المراد من هذه الأحاديث هو نفي الإيمان الكامل عمن هذه صفته، وبالتالي هي دعوة للمؤمنين: ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، حتى يستكملوا شعب الإيمان المتعددة. وهذا التصديق يعبر عنه الصحابي الجليل الحارث بن مالك الأنصاري حين سأله النبي ﷺ، فقال: ﴿يا حارث، كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا، قال: انظر ما تقول، إن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت عن الدنيا نفسي، وأظمأت نهاري، وأسهرت ليلي، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر

إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتصايحون فيها، قال: يا حارث، عرفت فالزم».

ونلاحظ أن حقيقة إيمان الحارث التي وافقه عليها رسول الله ﷺ ليس فيها علما باطنيا، أو سرا لو كشفه الحارث لبطلت النبوة والشريعة، وإنما تتضمن تصديقا حقيقيا بحقائق الإيمان بالغيب، فكأنه يرى الجنة وكأنه يرى النار، ونؤكد على لفظة "وكأني" التي كررها الحارث ووافقه عليها سيد البشر من الأولين والآخرين.

ومن هذا السرد السريع نرى الإيمان ليس إقرارا قلبيا باطنيا فقط، وإنما هو التصديق القلبي الموافق للانقياد لأوامر الله ﷻ، فالإيمان إذن هو اسم جامع لأعمال الجوارح الظاهرة وأعمال القلب الباطنة، كما هو الحال في الإسلام كما سبق بيانه، وإنما يمتاز الإيمان عن الإسلام بزيادة أعمال البر، والقيام بالنوافل، والإخبات لله وحده، وكأن الدين تتدرج مراتبه، وتتسامى منازله بدءا من الدخول في الإسلام، وحتى يصل العبد إلى مقامات الإحسان التي هي رأس الأمر، وذروة سنامه.

ثالثًا: الإحسان.

١. الإحسان لغة:

الإحسان ضد الإساءة ولا يلتقيان، وأصل الإحسان: الإتيان بكل حسن، والحُسن ضد القُبح ونقيضه، وحسنت الشيء تحسينا أي زينته، ورجل محسن أي كثير الخيرات، وسابق بأعمال البر، وجامع للحسنات، وهو يحسن الشيء أي يتقنه، فيؤديه على أحسن وجه، ويقال فلان يستحسن الشيء أي يعده حسنا، وامرأة حسناء أي جميلة كثيرة المحاسن.

٢. الإحسان شرعا:

الإحسان في الاصطلاح: هو اسم جامع لأحسن الأعمال قولا وفعلا. قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة-٨٣]، وكذا قوله: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف-٣٦] لأن يوسف عليه السلام كان ينصر الضعيف، ويعين المظلوم، ويطعم الجائع، ويعود المريض، وأهل الإحسان لا يقابلون السيئة بمثلها، وإنما يعملون بقوله سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون-٩٦]، كما أنهم يسارعون في الخيرات، ويتنافسون فيها، كما أنهم دائمو

الإنابة إلى الله، وكذا قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد-٢٢] لذلك أحب الله جل جلاله أهل هذا المقام، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة-١٩٥]، كما أن الصفح خُلق أهل الإحسان لذا أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ قائلا: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة-١٣]، والله تبارك وتعالى يأمرنا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل-٩٠]، والعدل هو مقام إعطاء كل ذي حق حقه، أما الإحسان فهو مقام الفضل، والبذل، والإيثار، والعطاء.

٣. حقيقة الإحسان:

أصل الإحسان وحقيقته الصدق والإخلاص، وهما شرطان للإيمان والإسلام معا، وذلك أن من انقاد ظاهره بالطاعات وقلبه بالإخبات لا بد أن تصدر عبادته عن نور الإخلاص، ولما أجاب من أوتي جوامع الكلم صلوات الله وسلامه عليه عن الإحسان، فقال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، علمنا أن الإحسان أن تعبد الله، وهنا نرى الإشارة واضحة في صياغة رسول الله ﷺ للعبادة بصيغة المضارع المستمر أن تعبد، فالعبد إذن لا يتوقف عن العبادة، والانقياد، والخضوع لله وحده، فالعبادة مُلازِمة له مُلازَمة الأنفاس لصدره، والدقات لقلبه، واستمرارها لازم للعبد، ولا تسقط العبادة عن العبد مهما ارتقى مقامه، والإحسان يضيف إلى صاحبه اليقين بأن العليم الحكيم مطلع على خائنة الأعين وما تخفى الصدور، فطاعته معروضة على من لا تخفى عليه خافية، فترى العبد يحسن طاعته، ويخلص فيها، ويستكمل جوانب النقص فيها، ويتحرى اتباع سيد المرسلين ﷺ، ويطهر نفسه من الرياء، وحب الجاه، والسمعة، والمنزلة عند الناس، ومع هذا يخشى رد طاعته عليه لذنب اقترفه، أو غفلة اعترته، أو ذلة نابته، ثم يتذلل لمولاه راجيا قبول طاعته على تقصيره فيها: لأنها لا تكافئ نعم الله، ولا تعادل مزيد إحسانه، فالعبد يتقلب بين الخوف والرجاء، وهما جناحا السلامة اللذان تطير بهما الطاعات إلى الله، والمؤمن إلى الجنة ورضوان الله ﷻ، فمن وصل إلى مقام مراقبة الله في حركاته وسكناته أحسن عمله حتى يرتقي إلى مقام كأنه يرى الله ﷻ، وبعض الناس يسمون هذا المقام بمقام المشاهدة مع أن نص الحديث ينفي المشاهدة، فحرف الكاف في كلمة كأنك تنفي الرؤية، وتفتح باب القرب للقاصدين لأقصى درجات الوصول حتى كأنهم يرونه سبحانه، فالله جل جلاله لا تدركه الأبصار، ولا تنتهي إليه الأفهام، ولا يحيط الخلق

جميعا بشيء من علمه إلا بما شاء، فرؤية الله لا تكون لأحد في الدنيا، وإنما نسأل الله ﷻ أن نكون ممن ينظرون إلى وجهه الكريم مع الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين بجوده وكرمه، وذلك قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس-٢٦]، فالحسنى الجنة والزيادة الرؤية، ورب قائل يقول: نحن نقصد بالمشاهدة شهود القلب لأنوار الحق، وهذا المعنى أيضا يخالف المراد من الحديث، فالقلب لا يسكن فيه إلا نور الإيمان بالله، ونور طاعته لا نور ذاته سبحانه وتعالى.

ولما كان الإحسان هو تحسين الانقياد على الجوارح وفي القلوب، وقد علم بالضرورة أن غاية الحسن هو هدي سيدنا رسول الله ﷺ: لذلك كان الإحسان والاتباع مختلفين عن التقليد الذي هو السير وراء الرجال سواء أكان شيخا لطريقة، أو أميرا لجماعة، أو أي قدوة يقلده الناس في كل ما يفعل، فربما قلد السالك من يراه قدوته في أمر يظن أنه من هدي رسول الله ﷺ، ولكن الأمر لا يعدو مجرد تقليد توارثه قدوته عن مشايخه وأسلافه، وليس لهذا الفعل أصل في دين الله ﷻ، ولهذا حذر العلماء من التقليد، وأمروا بالاتباع في دين الله ﷻ.

وأما مقام الإحسان فهو لمن اتبع، والاتباع ليس سيرا وراء الرجال، ولكنه سير وراء الدليل، وصحة الإسناد، ونسبته الحديث لرسول الله ﷺ، فهذا الاتباع من أعظم صور الجهاد، وهو أيضا غاية الحسن وقمة التحسين، يقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة-١٠٠]، وهذه الآية قررت حقيقة واضحة أن الاتباع مرتبط فقط بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فهم أكثر العالمين علما، وفهما عن رسول الله ﷺ، فمن استقام وسلك السبيل الذي درج عليه الصحابة رضوان الله عليهم، فقد دخل في قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة-١٠٠]، وقد عَلَّمَنَا رسول الله ﷺ أن مقام الإحسان يشمل جميع الطاعات وسائر الأعمال، فقد ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ، أنه قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»، فمن ارتقى إلى هذا المقام فقد نال من الله غاية الكرامة والإحسان، يقول تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن-٦٠].

الفصل الثالث

حقيقة مراحل الدين

تلقى أصحاب رسول الله ﷺ هذا الدين كاملا واضحا جليا، وفهموه الفهم الصحيح، وأدركوا أنه أعمال بالجوارح على نهج رسول الله ﷺ، وانقياد للقلوب، وإخلاص لله وحده، فكانت دائرة اهتمامهم الأولى تلقي القرآن الكريم بلاغا عن رب العالمين، وفهم البيان الموضح لهذا البلاغ، والتطبيق العملي المتمثل في سنة سيد المرسلين ﷺ، فأقام الصحابة أركان الإسلام من طاعات وعبادات، وذاقوا حلاوة الإيمان بعد أن تخلقوا بأخلاق الإسلام، فخشعت جوارحهم بعد أن أخبتت قلوبهم، فلم ينفصل الإسلام لحظة واحدة عندهم إلى ظاهر وباطن، فمن اعتاد المساجد شهدوا له بالإيمان، ووكلوا سريرته لمولاه، ثم قام فيهم سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه معلما لهم مراتب الإيمان، فتسابقت هممهم، وسارعت أفئدتهم قبل جوارحهم إلى التحلي بشعب الإيمان المختلفة، ومنها أعمال يُرى أثرها على النفس، والأسرة، والجار، والحي، ثم المجتمع الإسلامي كله، فلما ذاقوا حلاوة هذه المقامات، وحلقت أفئدتهم في هذه الآفاق الإيمانية السامية، استعذبوا البذل بالأموال والأنفس في سبيل الله، وصاروا يترقبون الفرصة ليُري كل منهم ربه ﷻ ما يرضيه، حتى أصبح الوالد يقترع على الجهاد في سبيل الله مع ولده، فإذا جاءت القرعة من نصيب الولد راح الوالد يرجو ولده، ويستعطفه أن يتنازل له حتى يجاهد بدلا عنه مع رسول الله ﷺ، فيقول الولد لأبيه فداك نفسي ومالي، أما الجهاد فلا أتنازل عنه. ثم سمت أخلاقيات الصحابة وسلوكياتهم، ورقت قلوبهم، وعلت هممهم حتى وصلوا إلى مقام الإحسان، فكانوا فرسانا بالنهار رهبانا بالليل، لم تشغلهم الدنيا عن العبادة والطاعة، ولم يتركوا الدنيا، ويعتزلوها في الصوامع، أو على قمم الجبال، بل تيقنوا أن هذا الدين يفتح جميع طاقات الإبداع الإنساني، ويسمو بصاحبه إلى أعلى القمم، فترى أحاديثهم وأقوالهم تتضاءل إلى جوارها حكمة الحكماء، وسفسطة الفلاسفة، وإذا رأيت عبادتهم وقيامهم لله بما أوجب تتصاغر في عينيك عبادة الرهبان والكهان في خلواتهم، وإذا اطلعت على سعيهم في الدنيا تدرك أنهم ملكوا نواصيها، واستحوذوا على أسرارها، فأذعنت الدنيا لهم صاغرة، وفتحت لهم كنوزها وخيراتها، ولما جاءتهم الدنيا راغمة أنفقوها في سبيل الله

ترى جيوشهم مع قلة عددهم وعدتهم تواجه أقوى الإمبراطوريات، وأعتى الممالك، يحسبهم الجاهل لقمة سهلة لأعداء الله، فإذا أطلعك الله على إخلاصهم ورغبتهم في الشهادة، علمتَ لِمَ قهروا الجيوش الجرارة، حتى ذهبت ريحها واندثر خبرها، فأصبحت كأن لم تكن. لما رأى الكافر عدلهم وفقههم، ثاب إلى فطرته ورجع إلى الإسلام طائعا مختارا.

وما تحقق لهم ذلك إلا بفهمهم الصحيح لحقائق هذا الدين، وما شغلهم لحظة واحدة تقسيم الدين أو العلم إلى ظاهر وباطن، وما تصوروا أن يكون خلفهم بهذه العقلية المريضة، التي تجعل للقرآن باطنا محجوب عنهم، أما حقيقة الدين عندهم فهي ببساطة شديدة: إخلاص العمل لله تعالى، وصدق متابعة رسول الله ﷺ، وأن أعمال الناس في ظاهرها، يقابلها نور، أو ظلمات في قلوبهم، فالطاعات لها نور، ينشرح له القلب، فيزداد إقباله على ربه، والمعاصي لها ظلمات، تقذف في قلب مقترفها، فيزداد قلبه ظلمة على ظلمة، وبالتالي يزداد بعدا من ربه، وهذا الفهم تلقوه واضحا صريحا عن رسول الله ﷺ، حيث يقول: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِل قلبه، وإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ذاك الرين الذي ذكر اللـه عز وجل في القرآن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين-١٤] »، كما أخرج البيهقي في سننه أن رسول الله ﷺ، قال: «إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس، وجلاؤها الاستغفار»، فالاستغفار يجلو القلب ويزيل عنه الصدأ والرين، وبالتالي يصقله ويعيد إليه ضياء الفطرة، وكلما أطاع العبد ربه ازداد ضياء قلبه، وصدق القائل

إذا سكن الغدير على صفاء	وجُنب أن يحركه النسيم
ترى فيه السماء بلا امتراء	كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذا قلوب أرباب التجلي	يرى عند صفوها الله العظيم

لذلك كان ظاهر طاعات المسلم له باطن يحققه، ويصدقه، ويوافقه، وهو نور يلقى في قلب المخلص المتبع لله ورسوله ﷺ فمن قام بظاهر الدين من غير تصديق بالباطن سواء قصد بعمله غير ربه، سواء رياء، أو سمعة، أو وجَّه عمله لغير الله، فقد حبط عمله وهو لا يشعر، وربما يحسبه الناس صالحا، وهو عند الله من الخاسرين. أما من ادعى علما باطنا يخالف العلم الظاهر فهو كافر منافق: لأنه يهدم دينه من حيث لا يدري ولا يحتسب، بل يجب أن يكون باطن دين المسلم محققا لظاهره ويصدقه ويوافقه، وظاهر أحوال المسلم يوافق باطنه ويصدقه ويحققه،

فكما أن الإنسان لا بد له من روح وبدن وهما متفقان، فلا بد لدين الإنسان من ظاهر وباطن يتفقان، فباطن العلم الباطن من الإنسان، وهو من أعمال القلوب، وظاهر العلم للظاهر من الإنسان وهي أعمال الجوارح.

وكما أن أفهام الناس تتفاوت ومداركهم تتباين، كذلك إدراك الناس في دينهم، فالأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، يفهم دينه ببساطة شديدة وفطرة نقية. والعالم المتبحر في أمر دينه، أطلعه الله تعالى على علوم ومدارك سامية، إلا أن الدين عند هذين الرجلين دين واحد، لا يناقض فهم الثاني بساطة فهم الأول، ولم يفهم السلف الصالح أن علوم الخاصة منهم تناقض علوم العامة منهم، حتى أنهم يخافون أن يخرجوه إلى الناس حتى لا يقتلوهم.

ملخص الباب السابع

- أمر هذا الدين واضح، ومراحله حددها الوحي أمام الصحابة بجلاء تام، وهي: الإسلام، والإيمان، والإحسان.
- الإسلام مراحل أوله النطق بالشهادتين، وآخره تسليم الوجه لله تعالى.
- الإسلام له ظاهر وباطن ليس بالمعنى كما الذي يزعم الباطنيون، وإنما له أعمال ظاهرة وأخرى باطنة، ويجتاز المسلم مراحله إذا أتى بإخبات الجوارح، وإخلاص القلب، ومتابعة النبي ﷺ.
- الإيمان له ظاهر وباطن، وأعمال ظاهرة تجرى على الجوارح، وأخرى باطنة هي من أعمال القلب من خوف، ورجاء، وحسن ظن بالله، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وكذلك الإحسان، وعلى قدر التقرب بالنوافل يكون القرب من الله تعالى.
- كل طاعة لله جل شأنه لها ما يقابلها من نور يُلقى في قلب العبد، فيزداد له انشراحا وإقبالا على الله، وكل معصية في الظاهر لها في قلب العبد أثر، وإلقاء للظلمة فيه، وإذا زادت معصية العبد، ازداد الرين وكثر الصدأ حتى يختم الله على قلبه.
- أن أعمال القلوب لا تبدأ في مرحلة الإيمان، أو الإحسان فقط، وإنما هي ملازمة للمسلم في كل أمر من الأمور، فالصلاة لها ظاهر لا بد من الحفاظ عليه، ولها ثمرة مرجوة في القلب لا يمكن أن ينالها إلا من كان يؤمن بالله، واليوم الآخر، وباقي مفردات الإيمان.
- باب التوبة مفتوح أمام العبد ما لم يغرغر، ومن تاب وأصلح يبدل الله سيئاته حسنات، ويعود قلبه إلى الصفاء ويعود إليه النور والضياء، ولا يحجبه عن الوصول إلى الجنة ورضوان الله شيء.

الباب الثامن

تقسيم العلم
عند الصوفية والسلف الصالح

١. الصوفية وعلم الباطن.

٢. أقوال كبار الصوفية عن العلم الباطن.

أولا: الحكيم الترمذي.

ثانيا: الطوسي طاووس الفقراء.

ثالثا: حجة الإسلام الغزالي.

رابعا: الفيروزابادي.

خامسا: الشعراني وتخاريفه الباطنية.

الفصل الأول

الصوفية وعلم الباطن

أولا: التعريف الصوفي لعلم الباطن.

يُعَرِّف الصوفية هذا العلم الباطن بقولهم: "ما يُلقيه الله على عبده من خاطر يكون به جواب المسائل"[١].

ويضع محمد غازي عرابي تعريفا صوفيا آخر عن علم الباطن، أنه: "علم يعتمد على ما يلقي الله على عبده من خاطر يكون به جواب المسائل، وهو علم خاص بمن رضي الله عنهم من أهل الصفة[٢]، وسمى هؤلاء مُحَدّثين، ومنهم عمر ﷺ، الذي أفتى بقتل الأسرى، وخالفه النبي ﷺ، فنزل الوحي مؤيدا لعمر، ثم أفتى بحجاب أزواج الرسول، فنزل مؤيدا إياه، والحق أن الوحي الذي هبط على الرسول ﷺ هو الوحي الذي أوحى إلى عمر[٣] مثلما أوحي إلى أم موسى أن تقذف برضيعها في التابوت، ثم تقذفه في اليم، فأنت ترى أن في القضية جدة خارجة عن نطاق المألوف، حتى أن الرسول نفسه لم يرضَ بفتوى عمر حتى أيده الله .. كما أنه يستحيل تصور أن تقذف أم برضيع لها في التابوت، ثم تقذفه في اليم علما بأن هذا مخالف لمشاعر

---

١ النصوص في مصطلحات التصوف محمد غازي عرابي ١١٩

٢ أهل الصفة: جماعة من فقراء المهاجرين، ولم يكن لهم بيوت في المدينة، فأقامهم النبي ﷺ في المسجد، وكانوا يكثرون من قراءة القرآن والنوافل، وكلما اتيحت فرصة عمل لأحدهم ترك الصفة، وهكذا تناقص عددهم حتى استوعبهم المجتمع المدني، وكان منهم: عبد الله بن عمر، وأبو هريرة، وغيرهم، ولا يعرف في الإسلام اختصاص أهل الصفة بعلم خاص بهم، ولا نعرف من أين جاء محمد غازي عرابي بتسميتهم بالمحدثين، كما أن عمر بن الخطاب لم يكن من أهل الصفة، فهذه دعوى بغير دليل ولا بينة.

٣ هذه دعوى أخرى لم يقل بها أحد من علماء المسلمين، وما نعرف أن الوحي الذي هبط على النبي ﷺ هو الذي هبط على عمر.

الأمومة، فالعلم الباطن علم خاص به سبحانه يختص به من يشاء من عباده"[١].

ويعرف إمام الصوفية الأكبر ابن عربي أنواع العلم بقوله: "العلم علمان موهوب ومكتسب، فالعلم الموهوب لا ميزان له، والعلم المكتسب هو ما حصل عن التقوى والعمل الصالح، وتدخله الموازنة والتعيين"[٢]، كما يُعَرِّفُ الصوفية العلم الظاهر بقولهم: "هو علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة وهي الأعضاء، والعلم ظاهر وباطن، والقرآن ظاهر وباطن، وحديث الرسول ظاهر وباطن، والإسلام ظاهر وباطن، ولا يستغني الظاهر عن الباطن، ولا الباطن عن الظاهر. وعلم الشريعة علم واحد يجمع المعنين: الرواية والدراية، فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، لأن العلم متى كان في القلب فهو باطن فيه إلى أن يجري ويظهر على اللسان، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر".

كما يقسم ابن عجيبة مراحل السلوك الصوفي ويربطها بتقسيم العلم إلى ظاهر وباطن فيقول في كتابه الفتوحات الإلهية: "والعلم الظاهر هو علم الشريعة، والعلم الباطن هو علم الطريقة والحقيقة"[٣].

ثانيا: كيف يُنال علم الباطن؟

قرر رسول الله ﷺ أسلوب التعلم وتلقي العلوم بقوله: ﴿يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين﴾ [٤]، وفي رواية البخاري: ﴿وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله﴾ [٥]. وفي رواية أخرى: ﴿وإنما العلم بالتعلم﴾[١]، ويقول سفيان الثوري ﷺ: "إنما العلم بالآثار"

---

١ النصوص في مصطلحات التصوف محمد غازي عرابي ١١٩

٢ الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي ١:٥٧٦

٣ الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية لابن عجيبة ٩٥

٤ حديث معاوية بن أبي سفيان أخرجه ابن أبي عاصم، والطبراني، وإسناده حسن، وروى البزار نحوه موقوفا من حديث عبد الله بن مسعود، وفي الباب عن أبي الدرداء (انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١: ١٣١)

٥ متفق عليه أخرجه البخاري من حديث معاوية بن أبي سفيان رقم ٦٩، ومسلم حديث ١٠٣٣٧، وابن ماجة في المقدمة حديث ٢٢١، وأحمد في مسنده ٤: ٩٢- ٩٣- ٩٦- ٩٧، وسنن الدارمي حديث

[٢]. فالمرء ينال العلم بالمذاكرة والتلقي وتحصيل أسبابه، فالأسباب في سنن الله توصل إلى نتائجها، وبذلك أخبر النبي ﷺ إلا أن لبعض الصوفية رأيا آخر يسوقه أبو طالب المكي فيما يرويه حكاية عن مجاهيل يقول فيها: "قال بعضهم: العلم بالتعلم، والحكمة بالتجويع، والعلم من اللسان إلى الآذان، والحكمة من الغيوب إلى القلوب"[٣].

ويحدد القرآن الكريم أن المراد من الحكمة هو سنة رسول الله ﷺ، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب-٣٤]، فآيات الله نعرفها وينزل بها أمين الوحي جبريل ﷺ، والحكمة هي ما ينطق به النبي مبينا وموضحا بأقواله وأفعاله وتقريره، ويؤكد هذا المعنى قول الحق سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء-١١٣]، وسنة رسول الله ﷺ لا تنال إلا بالتعلم، وإذا قلنا أن الحكمة لا تنال إلا بالتجويع أي بترك شهوات الدنيا، مع تحصيل أسباب العلم بالتلقي عن العلماء أهل الاختصاص، أو بالقراءة والاطلاع، فإن المعنى صحيح؛ لأن هذه السبل هي الموصلة لكل علم أو غاية سامية.

أما أن يقرر الصوفية أنها من الغيوب إلى القلوب، فذلك أمر آخر يشرحه الشبلي حين سُئل: "ما بال الحكمة عليها حلاوة؟ فأجاب قائلا: لأن الحديث هو ميت عن ميت، حدثني فلان وقد مات، عن فلان وقد مات، والحكمة حي عن حي، حدثني قلبي عن ربي"[٤]؛ فالمقصود بالحكمة عند الصوفية هي العلم الباطن الذي لا يناله إلا الخاصة من المشايخ والعارفون، لذلك ترى يحيى بن معاذ يقول: "الناس كثير، والعلماء في الناس قليل، والعلماء كثير، والفقهاء في العلماء قليل، والفقهاء كثير، والحكماء في الفقهاء قليل، وكلام العلماء يبكي

١ أخرجه البخاري تعليقا في باب العلم قبل القول والعمل

٢ أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧:٥٧

٣ علم القلوب لأبي طالب المكي ٥٢

٤ علم القلوب لأبي طالب المكي ٤٦

العيون، وكلام الحكماء يبكي القلوب"[١].

ويقول أبو طالب المكي في موضع آخر: "قال بعضهم: العالم محتاج إلى الحكيم، والحكيم غير محتاج إلى العالم، ولهذا احتاج موسى إلى الخضر، ولم يحتج الخضر إلى موسى ففارقه"، ثم يستطرد قائلا: "والناس يتأدبون بالعالم، والعالم يتأدب بالحكيم، والحكيم يتأدب بالفقير، والفقراء متأدبون بالله".

وقد سُئل عبد الله بن المبارك: مَن الناس؟ فقال: العلماء، قيل فمن الكبراء من الناس؟ فقال: الحكماء، قيل فمن الملوك؟ قال: الزهاد". ويستشهد المكي بقول الحلاج: "الحكمة سهام رب العالمين، وقلوب المريدين أهدافها، وألسنة الحكماء قسيها، والرامي الحي القيوم، والخطأ معدوم"[٢]،"والعلم الظاهر من عالم الملك، وهو من أعمال اللسان، واللسان خزانة الملك، وعلم الباطن من عالم الملكوت، وهو من أعمال القلوب، والقلب من خزانة الملكوت". فالصوفية إذن تحدثهم قلوبهم عن ربهم، الذي يرمي الحكمة من خزائن ملكوته في أفئدتهم، وهو سبحانه الذي يتولى تأديب الفقراء والصوفية!

ثالثا: أسرار الصوفية.

يرمز الصوفية بعلم الباطن إلى العلم الذي يضم سر الأسرار، الذي لا ينبغي الحديث عنه لعامة الناس، وهم في الواقع يشيرون إلى عقيدة وحدة الوجود التي أرسى قواعدها، ورسخ مفاهيمها في وجدان الفكر الصوفي ابن عربي. ولا يتسع المقام هنا لتتبع هذه الأفكار الدخيلة على الإسلام، حيث سنفرد لها كتابنا الرابع من هذه السلسلة، وسنتعرض هنا فقط للأسرار الصوفية الكامنة التي يخفونها عن خاصة المريدين، وننقل من أسرار القوم ما سطروه في كتبهم، وأقرتها كتب مصطلحات الصوفية مثل اصطلاحات الصوفية للقاشاني ومعجم مصطلحات الصوفية للحفني، وهم يعرفونها كما يلي:

---

١ علم القلوب لأبي طالب المكي ٣٥

٢ علم القلوب لأبي طالب المكي ٣٤

السر: هو ما يخص كل شيء من الحق عند التوجه الإيجادي إليه، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس-٨٢]، ولهذا قيل: لا يعرف الحق إلا الحق، ولا يحب الحق إلا الحق، ولا يطلب الحق إلا الحق: لأن ذلك السر هو الطالب للحق، والمحب له، والعارف به.

وسر العلم: هو حقيقة العلم لأن العلم هو عين الحق في الحقيقة، وغيره بالاعتبار. وسر الحقيقة: ما لا يُفْشى من حقيقة الحق في كل شيء. وسر الربوبية: هو توقفها على المربوب، لكونها نسبة لها من المنتسبين، وإحدى المنتسبين هو المربوب، وليس إلا الأعيان الثابتة في العدم، والموقوف على المعدوم معدوم، ولهذا قال سهل بن عبد الله التستري: "للربوبية سر لو كُشِف بطلت النبوة، وللنبوة سر لو ظهر لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهره الله لبطلت الأحكام" [١]، ويستند ابن عربي على عبارة سهل بن عبد الله هذه ليفسر عقيدته في وحدة الوجود فيقول: "إن للربوبية سرا [وهو أنت: يخاطب كل عين] لو ظهر بطلت الربوبية" [٢].

وسر سر الربوبية: هو ظهور الرب بصور الأعيان فهي من حيث مظهريتها للرب القائم بذاته الظاهر بتعيناته، قائمة به موجودة بوجوده [٣].

رابعا: اختصاص علي ﷺ بالعلم الباطن.

إن القارئ لكتب الصوفية يلمس غلوا- يصعب إخفاؤه أو إنكاره- في علي بن أبي طالب ﷺ، كما لو كنت تقرأ في كتب الشيعة، حتى المصلحين من رجال التصوف تلمس عندهم غلوا واضحا في شخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ويظهر هذا الغلو في استدلال الطوسي بحديث موضوع يرويه عن علي بن أبي طالب ﷺ، يقول فيه: علمني رسول الله ﷺ سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك أحدا غيري". لا شك أن سبعين بابا من العلم أقل كثيرا من

١ اصطلاحات الصوفية للشيخ عبد الرازق القاشاني ١٠٣

٢ فصوص الحكم لابن عربي ٧:٩٠

٣ اصطلاحات الصوفية للشيخ عبد الرزاق القاشاني ١٠٣

زعم الشيعة في أنبائها أن رسول الله علم عليا ألف باب من العلم ففتح عليه من كل باب بألف باب فأصبح العدد مليون باب.

وتجد هذا الغلو واضحا فيما حكاه الشعراني في طبقاته الكبرى، ويكرره عبده عثمان البرهاني في كتابه "تبرئة الذمة في نصح الأمة"، وكلاهما ينسبان إلى علي بن أبي طالب خطبة، يتحدث فيها عن صفاته ومناقبه ومآثره في ثلاث صفحات من القطع الكبير،وتتكون الخطبة من عدد من الجمل القصيرة تبدأ كل منها بكلمة أنا، منها: "أنا الأول والآخر، أنا حقيقة الأسرار، أنا سخي الأنوار، أنا دليل السموات، أنا أنيس المسبحات، أنا سائق الرعد، أنا سبب الأسباب، أنا مدد الخلائق، أنا جوهر القِدَم، أنا الظاهر والباطن، أنا الفرقان، أنا الرحمن، أنا أم الكتاب، أنا شديد القوى، أنا والله وجه الله"[١].

ولا يعلم أغلب الصوفية أن هذه الخطبة بنصها موجودة في كتب الشيعة، وبالتالي لا غرابة إذن أن يزعم الصوفية ومن ورائهم الباطنية أن النبي ﷺ اختص عليا دون سائر أصحابة رضوان الله عليهم أجمعين بعلم باطني. وهذه دعوى شيعية الأصل، تصدى لها علماء السنة وقرروا بطلانها، وأثبتوا أن أبا بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كانا أعلم الصحابة وأفقههم جميعا، وأكثرهم فهما في دين الله [٢].

يغالي بعض الصوفية في شأن علي ﷺ، ومنهم من جعل علمه أعظم من علم جبريل ﷺ، وكيف لا؟! وأغلب طرقهم تنتهي إليه، وهذا ما يرويه الشعراني في طبقاته عن الشيخ أبي الفضل الأحمدي، حيث يقول: "كما وقع لعلي بن أبي طالب ﷺ، حتى كان يقول: عندي من العلم الذي أسره إلي النبي ﷺ ما ليس عند جبريل ولا ميكائيل، فيقول له ابن عباس: كيف؟ فيقول: إن جبريل ﷺ تخلف عن رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، وقال: وما منا إلا له مقام معلوم، فلا يدري ما وقع لرسول الله ﷺ بعد ذلك". ثم يعلق بقوله: هذا هو التلقين الحقيقي، ولا

---

١ تبرئة الذمة في نصح الأمة لعبد ه عثمان البرهامي ٢٩٤- ٢٩٩

٢ راجع كتاب منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

يكون إلا لمن اتحد بشيخه حتى صار كأنه هو"[1].

لما أرسى القشيري تقسيمه الصوفي للإسلام وعرف مراحله الثلاث، وسماها: "شريعة، وطريقة، وحقيقة". لم يخطر على باله النتائج التي سيصل إليها أتباع هذا التقسيم الصوفي.

يعد ابن عجيبة من مشايخ الشاذلية، وأشهر مؤلفاته شرحه لكتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري، وقد أسماه إيقاظ الهمم في شرح الحكم، وكثير من الصوفية يرون هذا الكتاب من أروع ما كتب في التصوف، ويمتاز ابن عطاء الله برشاقة العبارة وغزارة معانيها، وعلى القارئ لهذه الكتب أن ينتبه إلى مواضع الزلل التي تشير إلى عقيدة وحدة الوجود. الذي يؤمن بعقيدة وحدة الوجود في شرحه "لحكم" ابن عطاء الله السكندري زعما عجبا حين يقول: "أما واضع علم التصوف فهو النبي ﷺ علمه الله له بالوحي والإلهام، فنزل جبريل عليه السلام أولا بالشريعة فلما تقررت نزل ثانيا بالحقيقة، فخص بها [أي النبي ﷺ] بعضا دون بعض، فأول من تكلم فيه وأظهره سيدنا علي رضي الله عنه، وأخذه عنه الحسن البصري"[2]. وهذا القول الفاسد لا ينقصه فقط الدليل، بل إنه يهدم كثيرا من القواعد الأصلية للدين، فالدين ليس مستويين أحدهما ظاهر للعامة ينزل به أمين الوحي جبريل عليه السلام مرة ثم ينزل ثانية بعلم الخاصة، ثم كيف يجرؤ ابن عجيبه على الإشارة بأن رسول الله ﷺ خص بعض أصحابه بعلم دون غيرهم؟!، ثم لِمَ الجنوح والتشيع لعلي رضي الله عنه؟، وأين الحقائق التي تكلم فيها علي ولا يعرفها أصحاب النبي ﷺ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين؟، ثم أخذه الحسن البصري عن علي، وسنفند هذه الفرية في فصل مستقل.

ولا يستند الصوفية في مزاعمهم هذه إلا على قصة موسى والخضر عليهما السلام، وقد استقر في وجدانهم القول باختلاف علم الظاهر ومصادره عن علم الباطن ومشاربه، وأن هذا التعارض شيء لازم، وقول الخضر هذا فراق بيني وبينك دليل عندهم على عدم اجتماع

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني ٢:١٦٠

٢ إيقاظ الهمم في شرح حكم لابن عطاء الله صفحة ٦

العلمين بعد ذلك. ويقول ابن عجيبة: إن استمداد التصوف هو: "التصوف مستمد من الكتاب والسنة وإلهامات الصالحين وفتوحات العارفين"[1].

وابن عجيبة بقوله هذا يلخص مشكلة التصوف ورجاله، فهم لا يكتفون بمصادر الدين الثابتة عند جمهور المسلمين من: كتاب وسنة وإجماع، بل يزيدون عليها بابا يفتح على الصوفية أبواب الشطح والإلهام والخواطر والخيالات والأوهام وأقوال المجاذيب وأحوال الدراويش، ومن وصل إلى مقامات السكر والفناء، ولابد لكل هؤلاء من إسهامات في الدين وأقوال وشطحات تفرق بين المسلمين، وتبث الفرقة بينهم فهذا مؤيد لهؤلاء، وهذا متحفظ وهذا منكر، وما جنت الأمة من وراء هذا تقدما في علوم الدين أو الدنيا، وإنما أصبحت الأمة شراذم متفرقة، وحلقات متنافرة، وتراهم يجتمعون في مسجد واحد وتقام حضرتين أو ثلاث، ولا يقدرون حتى على الجلوس سويا لذكر إله واحد.

خامسًا: بين التصوف والتشيع.

كثير من العلماء والباحثين يثبتون تأثر الصوفية بالشيعة، بل ومنهم من يؤكد أُبوة الشيعة للصوفية، وأن الصوفية تمثل الطابور الخامس للفكر الشيعي بين أهل السنة، بل إن سلسلة مشايخ بعض الطرق الصوفية هي نفسها سلسلة أئمة الشيعة حتى علي الرضا ثم تنتقل إلى معروف الكرخي، فالسري السقطي ثم الجنيد، ومن هذه الطرق الطريقة النقشبندية[2].

وهذه السلسلة يسمونها سلسلة الذهب لاتصالها بآل البيت الأطهار

ونعرض هنا مقارنة سريعة يعقدها ابن خلدون في مقدمة التاريخ المعروف بتاريخ ابن خلدون، في فصل في علم التصوف، حيث يقول: [إن الصوفية]".. ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء، حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم ونحلتهم رفعوه إلى علي ﷺ، وهو من هذا المعنى أيضا، وإلا فعلي ﷺ لم يُختص من بين الصحابة بتخلية، ولا طريقة في لباس ولا حال. بل كان أبو بكر، وعمر رضي

---

١ إيقاظ الهمم في شرح حكم ابن عطاء الله صفحة ٨

٢ الأنوار القدسية في مناقب السادة النقشبندية لمحمد الرخاوي ص.٥

الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله ﷺ، وأكثرهم عبادة، ولم يُخْتَصَّ أحد منهم في الـدين بشيء يُؤْثَرُ عنه في الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة، تشهد بذلك سيرهم وأخبارهم، نعم إن الشيعة يُخَيِّلُونَ بما يَنْعلُونَ[1]، من ذلك اختصاص علي ﷺ بالفضائل دون سواه من الصحابة ذهابا مع عقائد التشيع المعروفة لهم، والـذي يظهر أن المتصوفة بالعراق، لما ظهرت الإسماعيلية من الشيعة، وظهر كلامهم في الإمامة وما يرجع إليها ما هو معروف، فاقتبسوا من ذلك الموازنة بين الظاهر والباطن، وجعلوا الإمامة لسياسة الخلق في الانقياد إلى الشرع، وأفردوه بذلك أن لا يقع اختلاف كما تقرر في الشرع، ثم جعلوا القطب لتعليم المعرفة بالله: لأنه رأس العارفين. وأفردوه بذلك تشبيها بالإمام في الظاهر، وأن يكون على وَزَانِهِ وزانة من الموازنة بين الشيئين، وهذا يوازن هذا إذا كان على زنته، أو كان محازيه في الباطن، وسموه قطبا، لمدار المعرفة عليه، وجعلوا الأبدال كالنقباء مبالغة في التشبيه، فتأمل ذلك"[2].

١ ينعلون أي يحتذون، والمراد يقتدون.

٢ مقدمة ابن خلدون ١:٦٢٠- ٦٢١

الفصل الثاني

أقوال كبار الصوفية عن علم الباطن

١. الحكيم الترمذي.

٢. الطوسي طاوس الفقراء.

٣. حجة الإسلام الغزالي.

٤. الفيروزابادي.

٥. عبد الوهاب الشعراني وتخاريفه الباطنية.

الفصل الثاني

أقوال كبار الصوفية عن العلم الباطن

لا يتسع المقام لتتبع أقوال الصوفية عن العلم اللدني، وكيف يقسمون علوم الدين، وسنكتفي بأقوال أبرز رجالهم وتقسيمهم للعلم، والقوم بين شاطح ومعتدل، فمنهم من يقرر اختلاف: الظاهر عن الباطن، ويفتح الباب على مصراعيه للتخريف باسم العلم الباطن كالشعراني واليافعي والدباغ في كتبهم، ومنهم من يقول: بسمو الباطن على الظاهر، ومنهم من ينكر اختلاف الظاهر عن الباطن، فالصوفية في أوائل عهدهم كانوا يأمرون أتباعهم باتباع الكتاب والسنة وعدم الحيود عنهما، ويحذرون المريدين من مخالفة الشريعة والوقوع في أحوال أهل البدع والأهواء، لذا فلن نتعرض لأقوال سلف الصوفية أمثال المحاسبي والجنيد وغيرهما، من أهل الاعتدال، ولن نشير إلى أقوال أهل الشطح والانحراف مثل: الحلاج والبسطامي، أو أقوال جهلة الصوفية كالدباغ والشعراني واليافعي والخواص والمجذوب.

ولن نختار أعلام الصوفية القائلين بوحدة الوجود أتباع الفلسفات والأفكار الدخيلة على الإسلام، مثل: ابن عربي، وابن الفارض، وابن سينا، وابن رشد، وابن سبعين، والجيلي، وغيرهم، فهؤلاء حكم عليهم كبار علماء الأمة أنهم على شريعة أخرى غير الشريعة التي نزلت على النبي الخاتم، فهؤلاء لم يسيروا على سنن أسلافهم من الصوفية، وهم في الحقيقة أتباع الباطنية. وإنما نختار من القوم: من يمثل ظهور الأفكار الباطنية مثل: الحكيم الترمذي ثم أبو النصر السراج الطوسي الذي يمثل جانب التصحيح في الفكر الصوفي، ثم ننقل عن أشهر رجالات التصوف في كل العصور كأبي حامد الغزالي، صاحب الإحياء وهو أشهر المصنفات الصوفية وأوسعها انتشارا، ثم الفيروزابادي الذي يمثل أكثر أقوال القوم اعتدالا، ثم نتعرض لما يقوله القوم في كتبهم، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

أولا: الحكيم الترمذي.

١. تعريف بالترمذي:

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشير ويلقب بالحكيم الترمذي مع تقديم أو تأخير بين اللقبين، المتوفى سنة ٣٢٠ هـ، وكثير من الناس والمشايخ يظن أنه هو الإمام المحدث

أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي صاحب سنن الترمذي، وهذا خطأ شائع، والحقيقة أنهما رجلان مختلفان اسما ومضمونا، ويُنسب للحكيم الترمذي أمورا كثيرة ابتدعها من خياله وأوهامه، ثم صارت بعده قلب علوم الصوفية وأصل معارفهم، ومن ذلك نرى في الحكيم الترمذي أنه:

- واضع نظرية ختم الولاية، وألَّف فيها كتابه المسمى: "ختم الأولياء"، فهو يزعم أن الأولياء لهم خاتم، كما خُتمت النبوة برسول الله ﷺ ويقول أبو عبد الرحمن السلمي: "أخرجوا الحكيم من ترمذ، وشهدوا عليه بالكفر، وذلك بسبب تصنيفه كتاب ختم الأولياء، وكتاب علل الشريعة، وقالوا: إنه يقول: إن للأولياء خاتما كالأنبياء لهم خاتم، وأنه يفضل الولاية على النبوة، واحتج بحديث: "يغبطهم النبيون والشهداء"، وقدم بلخ، فَقَبِلوه لموافقته لهم في المذهب"[1].
- حدد مواصفات خاتم الأولياء، وألَّف مائة وخمسين سؤالا- ذكرها ابن عربي في فتوحاته المكية- وزعم أنه لا يجيب عنها إلا الخاتم. اهتم كثير من الصوفية بأسئلة الحكيم الترمذي وذلك لإثبات مكانتهم في الولاية، ومنهم ابن عربي، ومن المعاصرين الشيخ أبو العزايم، ومحمد علي سلامة مدير أوقاف بورسعيد مؤلف كتاب الجواب الشافي على أسئلة الحكيم الترمذي في كتابه ختم الأولياء
- يقال: إنه أول من افترى القول بحياة الخضر عليه السلام، حيث يقول عن نفسه أنه بينما كان صبيا يبكي بكاء شديدا لخشيته أن يبقى جاهلا مهملا، إذ جاءه شيخ وسأله عن سر بكائه فأفضى إليه بحاله، فقال له الشيخ: ألا أعلمك في كل يوم شيئا من العلم، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك؟ فأجابه الفتى إلى ذلك، واستمر الشيخ على تعليمه كل يوم، ومضت على ذلك أعوام، ثم عرف [الترمذي] بعد ذلك أن الشيخ هو الخضر عليه السلام"[2]، وأما القول بأن الحكيم الترمذي هو أول من افترى لقاء الصوفية

---

١ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ١٣: ٤٤١

٢ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية للدكتور عبد الفتاح بركة ٣٢

بالخضر فقد نقلناها عن كتاب الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة لعبد الرحمن عبد الخالق، ويعتبر كتاب ختم الأولياء أخطر كتاب صوفي على الإطلاق، ويقول المؤلف [ص ٢١٨]: ويبدو أن أول من افترى القصة الصوفية للخضر هو: محمد بن علي بن الحسن المسمى بالحكيم.

٢. تقسيم الترمذي للعلم:

يقسم الترمذي الحكيم العلوم تقسيما أوليا إلى ثلاثة أنواع، وقد وضع رسالة خاصة يشرح فيها هذا التقسيم أسماها: "أنواع العلوم"، يقول فيها:

- "فالعلم عندنا ثلاثة أنواع:
  - **نوع منه: الحلال والحرام.**
  - **ونوع ثان: الحكمة.**
  - **ونوع ثالث: المعرفة. ما وراء ذلك محجوب عن الخلق"**.

كما يقول في موضع آخر من نفس الكتاب:

- وذلك أن العلم ثلاثة أنواع:
  - نوع منه علم الله، وعلم أسمائه.
  - والنوع الثاني: علم التدبير.
  - والنوع الثالث: علم أمره ونهيه.

ويقول في كتابه: "الأكياس والمغترون":

- فالمعرفة عندنا ثلاثة أنواع:
  - نوع منها الحلال والحرام.
  - ونوع ثان: الحكمة.
  - ونوع ثالث: علم المعرفة.

وهي الحكمة العليا، وما وراء ذلك محجوب عن الخلق". وإذا كان علم الحلال والحرام، أو علم الأمر والنهي مما هو عام بين المسلمين، فإن العلمين الآخرين، وهما: الحكمة والحكمة العليا، مما اُختص به الأولياء، كل على حسب مقامه وطبقته. عندما يُقسم الحكيم الترمذي العلوم، فإنه يقسمها إلى هذه الأقسام الثلاثة: ليُدخل فيها علم الظاهر: علم الحلال والحرام،

لكنه حين يُقَسِّم الحكمة فإنه يقسمها إلى قسمين، وذلك بإزاء قسمين من أقسام العلم، فيقول: والحكمة حكمتان، كما أن العلم علمان: علم بالله وعلم بأمر الله، ولكل علم حكمة، والعلم ما ظهر منه، والحكمة ما بطن منه، وكما أن العلم علمان، فكذلك الحكمة حكمتان: حكمة في العلم به، وهي الحكمة العليا، وحكمة في العلم بأموره وتدبيره وصنعته، فالحكيم حين يقسم العلم، يجعل الحكمة قسما من أقسامه، فالظاهر منه قسم، والباطن منه قسم، ثم ينقسم كل منهما حسب موضوعاته"[1].

ويفرق الحكيم الترمذي بين العلم والحكمة بعدة أمور منها:

١. العلم يُدرك بالتعلم، بينما الحكمة لا تدرك بالتعلم.
٢. العلم يُكتسب، والحكمة لا تُنال بالجهد والاكتساب، بل هي مِنَّة إلهية موهوبة.
٣. العلم الظاهر مبذول للجميع، وهو ما يقع تحت الحواس والجوارح، بينما الحكمة تتجاوز ذلك إلى المغيبات التي لا تقع تحت حس ظاهر.
٤. لا يُنال العلم الباطن إلا بالمرور على العلم الظاهر، ويظل العلم الظاهر فرع من فروع الحكمة، ومكانته ومنزلته دائما منزلة الفرع من الأصل، أو منزلة الخادم من المخدوم، أو منزلة المفتاح من خزانة الكنوز، وهو [أي العلم الظاهر] أمر عظيم بمكانه، ولكنه يصغر في جنب الحكمة لأنها منطقة خاصة لا يقربها إلا الأولياء"[2].

ثانيا: الطوسي طاوس الفقراء.

١. تعريف بالسراج الطوسي:

هو أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي الملقب بطاووس الفقراء توفي سنة ٣٧٨ هـ، وهو من كبار دعاة الإصلاح في التصوف، حتى أنه أفرد في مصنفه "اللُّمَع" كتابا خاصا تحدث فيه عن أغلاط الصوفية، وما وقعوا فيه من الخطأ، لذلك اخترناه لنعرض آراءه حول العلم وتقسيماته، لأنه يمثل تيار الإصلاح في التصوف، فهو ينكر على القائلين بالفناء والبقاء،

---

١ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية للدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة ٢: ٢٧٩- ٢٨٠

٢ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية للدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة ٢: ٢٨٢

والحلول والاتحاد، وغير ذلك مما انتشر بين صوفية اليوم حتى أصبح هو الفكر الصوفي المعاصر.

٢. تقسيم الطوسي للعلم:

وقبل أن نتعرف على تقسيم الطوسي للعلم نود أن نقدم للقارئ الكريم مكانة الطوسي، وكتابه "اللمع" عند الصوفية: لذا ننقل هذا التقديم الذي أعده شيخ الأزهر الأسبق فضيلة الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله حيث يقول: يُعد "اللمع" من أعظم المؤلفات الصوفية، وأقدم مرجع صوفي، ويعتبر أوثقها، وأغزرها مادة، وأنقاها جوهرا ولفظا" [١]، ثم يستطرد قائلا: يقول أبو النصر السراج الطوسي في كتابه "اللمع": "إن أصول الدين ثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان، أي: الظاهر، والباطن، والحقيقة، فالإسلام ظاهر،، والإيمان ظاهر وباطن، والإحسان حقيقة الظاهر والباطن"[٢].

ثم يقسم العلم إلى: حديث وفقه وتصوف، وبالتالي يكون العلماء: إما أصحاب الحديث، أو الفقهاء، أو الصوفية. فأما أصحاب الحديث: فإنهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله ﷺ، وطلبوا رواة الحديث، وصححوا رواياتهم، وضبطوا سِيَر الرواة، وجرحهم وتعديلهم، وأحاط علمهم بعلل اختلاف الرواة. أما الفقهاء: فإنهم فُضلوا على أصحاب الحديث بقبول علومهم والاتفاق معهم، ثم خُصوا بالفهم والاستنباط في فقه الحديث، والتعمق والتدقيق في ترتيب الأحكام وحدود الدين وأصول الشرع، وميزوا الناسخ من المنسوخ، والخصوص من العموم بالكتاب والسنة والإجماع والقياس. أما الصوفية: فإنهم اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث في معتقداتهم، وقبلوا علومهم، ثم خُصوا بعلم الفتوح: يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه في فهم كلامه ومستنبطات خطابه، ما شاء كيف شاء. ويفرد الطوسي بابا في كتابه "اللمع" يثبت فيه علم الباطن ويسوق الأدلة على وجوده فيقول: "إن العلم ظاهر وباطن، وهو علم الشريعة، الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة:

---

١ مقدمة كتاب "اللمع" تقديم د. عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور.

٢ اللمع لأبي النصر السراج الطوسي ٢٢

- **والأعمال الظاهرة**: كأعمال الجوارح الظاهرة، وهي العبادات والأحكام، مثل: الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك، فهذه العبادات، وأما الأحكام: فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها،
- **وأما الأعمال الباطنة**: فأعمال القلوب وهي: المقامات والأحوال، مثل: التصديق، والإيمان، والصدق، والإخلاص، والمعرفة، والتوكل، والمحبة، والذكر، والشكر، والإنابة، والخشية، والتقوى، والمراقبة، والفكرة، والاعتبار، والخوف، والرجاء، والصبر، والقناعة، والتسليم، والتفويض، والقرب، والشوق، والوجد، والوجل، والحزن والندم، والحياء، والتعظيم، والإجلال والهيبة، ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه، وبيان، وفهم، وحقيقة، ووجد، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار الرسول ﷺ عَلِمَهُ من عَلِمَهُ وجهله من جهله، فإذا قلنا: علم الباطن، أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي على الجارحة الباطنة، وهي القلب، كما أنا إذا قلنا: علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة، وهي الأعضاء، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان-٢٠].
    - فالنعمة الظاهرة: ما أنعم الله تعالى بها على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات،
    - والنعمة الباطنة: ما أنعم الله تعالى بها على القلب من هذه الحالات، ولا يستغني الظاهر عن الباطن، ولا الباطن عن الظاهر، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء-٨٣].

فالعلم المستنبط هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوف، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك، ونحن نذكر إن شاء الله طرفا من ذلك، فالعلم: ظاهر وباطن،

والقرآن ظاهر وباطن[1]، وحديث رسول الله ﷺ ظاهر وباطن، والإسلام ظاهر وباطن. فالطوسي إذن يمثل جانب الاعتدال في الفكر الصوفي، وبرغم أنه يميل إلى تقسيمات الصوفية التي تقسم أصول الدين إلى ظاهر وباطن، إلا أنه لا يجعل الشريعة ظاهرا فقط، بل يراها ظاهرا وباطنا، ويخصص معنى علم الباطن أنه أعمال القلوب، فكأن الرجل يجعل علم الباطن معبرا عن عبادة القلوب، وعلم الظاهر معبرا عن طاعة الجوارح، وهو بذلك يوصد أبواب علوم الفناء والبقاء والحلول ومفاهيم الوحدة.

ثالثا: حجة الإسلام الغزالي.

١. تعريف بالغزالي[2]:

يمثل الغزالي قمة الفكر الصوفي، وصفه الصوفية بأنه حجة الإسلام، ونظرا لمكانته وسعة علمه وكثرة مصنفاته، في الفقه، والتصوف، والفلسفة، وغيرها من العلوم، فإننا نحتاج لعرض ترجمة مختصرة عنه، ومن أراد المزيد فعليه بكتب الرجال، والغزالي هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي، ولد في طوس [سنة ٤٥٠ هـ]، وتلقى العلوم الشرعية ورحل في طلب العلم، وصنف في كثير من العلوم الشرعية، وتعمق في الفلسفة للرد على الفلاسفة، وكتب العديد من الكتب، منها: مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة، والمستظهرين فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية، وكتب في المنطق كتبا، منها: معيار العلم في فن المنطق، ومحل النظر في المنطق، إلى آخر مصنفاته في الفلسفة، مما جعل له شهرة واسعة، فسماه الناس: هادم الفلاسفة، وهذه الشهرة هي التي حدت بالخليفة المستظهر بالله أن يطلب منه بأن يتناول آراء الباطنية ويرد عليهم، فألف كتابه الرد على الباطنية. ولكن شكوك الغزالي قد بلغت ذروتها، فعزم على اعتزال التدريس، وترك الأهل والولد والمال، وخرج من بغداد [سنة ٤٨٨ هـ]، سالكا طريق الصوفية، وداوم على ذلك التطواف عشر سنوات تقلب فيها بين المجاورة في بيت المقدس والحج إلى بيت الله الحرام، ثم الاعتكاف في إحدى زوايا الجامع الأموي في

---

١ اللمع لأبي النصر السراج الطوسي ٤٣- ٤٤

٢ سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، حيث قدم ترجمة وافية عن أبي حامد الغزالي أوجزناها أعلاه.

دمشق، وهي الزاوية التي ما زالت تعرف حتى اليوم بالغزالية، وأثناء اعتزاله في الجامع الأموي ألف أشهر كتبه وهو "إحياء علوم الدين"، الذي يعد بمثابة موسوعة عند الصوفية، ولولا أن بضاعته في علم الحديث مزجاة لكان لهذا الكتاب نفع كبير، فقد تعقب العلماء الأحاديث التي أوردها الغزالي في الإحياء فلم يجدوا سندا لحوالي ٩٤٣ حديث، وكثير منها موضوع مكذوب على النبي ﷺ، ونظرا لأن الكتاب لا يخلو من خير فقد اجتهد العلماء في تهذيب الكتاب واختصاره، وحذف الأحاديث الموضوعة، ونجد على النقيض، وبرغم أن الكتاب لا يخلو من خير إلا أن بعض العلماء غالوا في ذم الكتاب حتى أطلقوا عليه "إماتة علوم الدين" لا "إحياء علوم الدين".. وقد تأثر الغزالي بالفلاسفة: لذا ينصح العلماء بعدم أخذ أصول العقيدة من كتابه الإحياء أو غيره، ومن أعجب مآخذ العلماء على أبي حامد الغزالي وغيره من أقطاب الصوفية كعمر بن الفارض وابن عربي، أنهم لم ينشغلوا بأحوال الأمة الإسلامية التي كانت تصد هجمات الصليبيين الواحدة تلو الأخرى حتى سقط بيت المقدس بين يدي ريموند دي تولوز [سنة ٤٩٢ هـ]، والغزالي في عزلته يؤلف إحياء علوم الدين، تاركا دولة الدين تدافع عن ديارها، والأعجب أن لا يكتب الغزالي سطرا واحدا عن الجهاد وأجره وفضل المجاهدين ومنزلته في الدين، فالرجل يكتب في صومعته عن دقائق النفس البشرية، ولا ينادي للجهاد ونصرة الدين، لذلك كتب العلماء يقولون: "هذا بيت المقدس سقط في يد الصليبيين [عام ٤٩٢ هـ]، والغزالي الزعيم الصوفي الكبير على قيد الحياة، فلم يحرك فيه هذا الحادث الجلل شعرة واحدة، ولقد عاش بعد ذلك ١٣ عاما إذ مات سنة ٥٠٥ هـ، فما ذرفت عيناه دمعة واحدة ولا استنهض همم المسلمين، ليذودوا عن القبلة الأولى"[١]. "ألا يعجب القارئ إذا علم أن حجة الإسلام أبا حامد الغزالي شهد القدس تسقط في أيدي الفرنج الصليبيين، وعاش اثنتي عشرة سنة بعد ذلك، ولم يشر إلى هذا الحدث العظيم"[٢]، ومع ذلك أطلق الصوفية عليه حجة الإسلام وغير ذلك من الألقاب.

---

١ "هذه هي الصوفية" لعبد الرحمن الوكيل.

٢ التصوف في الإسلام د. عمر فروخ

٢. تقسيم الغزالي للعلم:

يناقش أبو حامد الغزالي مسألة تقسيم العلم إلى ظاهر وباطن، وهل يجوز اختلاف الظاهر عن الباطن؟ فيقول: "فإن قلت: بَيِّن لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن، فإن الباطن إن كان مناقضا للظاهر ففيه إبطال الشرع، وهو قول من قال: إن الحقيقة خلاف الشريعة، وهو كفر، لأن الشريعة عبارة عن الظاهر، والحقيقة عبارة عن الباطن، وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو، فيزول به الانقسام، ولا يكون للشرع سر لا يفشى، بل يكون الخفي والجلي واحد؟.

يرى الغزالي أن الباطن لا يناقض الظاهر، ويقدم حلا لتوهم بعض الناس مناقضة الباطن للظاهر، فيقول: فمن قال إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يناقض الظاهر، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان، ثم يشرح الغزالي الداعي إلى وجود العلم الباطن والحاجة إليه فيقول: "بل الأسرار التي يختص بها المقربون لا يدركها ولا يشاركهم الأكثرون في علمها، ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام:

- **القسم الأول**: أن يكون الشيء في نفسه دقيقا تكل أكثر الأفهام عن دركه، فيختص بدركه الخواص، وعليهم ألا يُفشوه إلى غير أهله، فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك"، ثم يضرب الغزالي مثلا فيقول: "كإخفاء سر الروح وكف رسول الله ﷺ عن بيانه: لأن حقيقته مما تَكِلّ الأفهام عن دركه، وتقصر الأوهام عن تصور كنهه". ثم يستطرد قائلا: "بل في صفات الله ﷻ من الخفايا التي يعلمها الأنبياء ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه".
- **القسم الثاني**: من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا يَكَلُّ الفهم عنه، ولكن ذِكره يضر بأكثر المستمعين، وسر القدر الذي مُنِع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم. وهكذا يَدَّعِي الغزالي أن رسول الله ﷺ كان يعلم سر الروح ولكنه تأدب بآداب الشرع، كما يعلم الأنبياء صفات الله ولا يبلغونها لأممهم، لقصور أفهام الناس عن إدراكها.

- **القسم الثالث:** أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفُهم ولم يكن فيه ضرر، ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز، ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب وله مصلحة في أن يعظم وقع ذلك الأمر في قلبه، كما لو قال القائل: رأيت فلانا يقلد الدر في أعناق الخنازير، فكُني به عن إفشاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها.
- **القسم الرابع:** أن يدرك الإنسان الشيء جملة، ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق، فيتفاوت العلماء ويكون الأول كالقشر، والثاني كاللباب، والأول كالظاهر والثاني كالباطن، وذلك كما يتمثل للإنسان في عينيه شخص في الظلمة أو على البعد، فيحصل له نوع علم، فإذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك التفرقة بينهما، ولا يكون الأخير ضد الأول، بل هو استكمال له.
- **القسم الخامس:** أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه، وهذا كقول القائل: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ قال: سل من يدقني... ومن هذا قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء-٤٤]، ويقول الغزالي ما معناه: أن الأشياء لا نراها في الظاهر تسبح بينما هي في الباطن تسبح"[1].

١ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي من ١: ١٧٣-١٧٨ مختصرا

٣. رأي الغزالي في التأويل:

ويقرر الغزالي أن التأويل ليس من منهج سلف الأمة فيقول: "وتشهد سيرة السلف أنهم كانوا يقولون أَمِرُّوها كما جاءت، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ثم ذهبت طائفة إلى فتح باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه، وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها، ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية، وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا الغيبيات، ثم زاد الفلاسفة عن هذا الحد بأن أولوا كل ما ورد عن الآخرة".

٤. خلاصة قول الغزالي:

لا تتضمن تقسيمات الغزالي الثالث والرابع والخامس، أي نوع من أنواع العلم الباطن، ويمكن تلخيص ما يقوله الغزالي فيما يلي:

إن العلم الباطن لا يخالف الظاهر، والقائل بالمخالفة قريب من الكفر. إن ما يخفيه العلماء من البواطن راجع إلى دقته أولا، وحرصا على أفهام العامة ثانيا، كسر الروح والقدر، واستخدام الرمز والاستعارة ولسان الحال للتعبير عن دقائق الأمور. ونحن نوافق الغزالي فيما ذهب إليه أولا وثانيا، فهذا حق، ولا ينبغي للباطن أن يخالف الظاهر، وقد يخفى على البسطاء بعض دقائق الفهم في كثير من أمور الدنيا والدين، ولا خلاف في ذلك، أما أن يزعم أن الأنبياء يكتمون عن أممهم شيئا من علومهم، أو يختصون بها قوما دون قوم، فهذه دعوى بلا دليل ولا برهان، والله جل جلاله يشهد لأنبيائه بآداء الرسالة وتبليغ الأمانة، وكذلك نشهد كما شهد سلفنا الصالح لنبينا ﷺ يوم عرفة وغيره. وسنناقش دعوى تخصيص النبي بعض أصحابه بفهم في دين الله دون غيرهم، فهذه دعوى خطيرة بني عليها الكثير من الانحراف والشطط.

رابعا: الفيروزابادي.

١. تعريف بالفيروزابادي:

هو مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي المتوفى سنة ٨١٧هـ، وهو شافعي المذهب، صوفي السلوك، وكان محبا لابن عربي، ومعتقدا عقيدته في وحدة الوجود، وقال عن نفسه: "الذي اعتقده في حال المسئول عنه [أي ابن عربي]، وأدين الله تعالى به: أنه كان شيخ الطريقة

حالا وعلما، وإمام الحقيقة حقيقة ورسما، ومحيي رسوم المعارف فعلا واسما. وقد كتب الفيروزابادي العديد من المصنفات من أهمها: "القاموس المحيط، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز"، وقد صنف في التفسير والحديث والتاريخ، وما يتصل بهذه العلوم، وقد فُقد معظم مصنفاته.

٢. تقسيم الفيروزابادي للعلم:

يقول الفيروزابادي في كتابه بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز- باب بصيرة في "علم" عدة تقسيمات للعلم، كل منها يعتبر تقسيما للعلم من زاوية معينة، ويتغير التقسيم إذا نظرت إليه من زاوية أخرى، فيقول:

١. العلم ضربان:
- إدراك ذات الشيء.
- والحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه.

٢. والعلم من وجه ثان ضربان: نظري وعملي:
- فالنظري: ما إذا عُلِم فقد كَمُل: نحو العلم بموجودات العالم.
- والعملي: ما لا يتم إلا بأن يعمل به كالعلم بالعبادات.

٣. ومن وجه آخر ضربان:
- عقلي.
- وسمعي.

والعلم منزلة من منازل السالكين إن لم يصحبه السالك من أول قدم يضعه إلى آخر قدم ينتهي إليه، يكون سلوكه على غير طريق موصل، وهو مقطوع عليه ومسدود عليه سبل الهدى والفلاح، وهذا إجماعٌ من السادة العارفين، ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق ونواب إبليس. ويستدل الفيروزابادي على أهمية العلم في السلوك بأقوال أكابر الصوفية، فيقول:

- قال سيد الطائفة وإمامهم الجنيد: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ وقال من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا الأمر: لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة"[1].
- وقال أبو الحسين النوري: "من رأيتموه يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربوه، والكلمات التي تروى عن بعضهم في التزهيد في العلم فمن أنفاس الشيطان، كمن قال: نحن نأخذ علمنا عن الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه عن حي يموت
- وقال آخر: العلم حجاب بين القلب وبين ربه.
- وقال آخر: إذا رأيت الصوفي يشتغل بحدثنا وأخبرنا فاغسل يدك منه.
- وقال آخر: لنا علم الحروف، ولكم علم الورق.
- وقيل لبعضهم: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاق! وأحسن أحوال قائل مثل هذا أن يكون جاهلا يُعْذَرُ بجهله، أو والها شاطحا مصرفا بسخطه، وإلا فلولا عبد الرزاق، وأمثاله من حفاظ السنة لما وصل إلى هذا وأمثاله شيء من الإسلام، ومن فارق الدليل، ضل عن السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة إلا الكتاب والسنة. والعلم خير من الحال، الحال محكوم عليه والعلم حاكم، والعلم هاد والحال تابع، الحال سيف، فإن لم يصحبه علم فهو مِخْراق المخراق: منديل يلف ليضرب به لاعب، الحال مركوب لا يجارى، فإن لم يصحبه علم ألقى صاحبه في المتالف والمهالك، ودائرة العلم تسع الدنيا والآخرة، ودائرة الخال ربما تضيق عن صاحبه، العلم هاد والحال الصحيح مهتد به، فهو تَرِكة الأنبياء وتراثهم،...

ويستطرد قائلا: وطلب العلم أفضل من صلاة النافلة، نص عليه الشافعي وأبو حنيفة، واستشهد الله ﷻ أهل العلم على أَجَلِّ مشهود، وهو التوحيد، وقَرَنَ شهادتهم بشهادته وشهادة

---

١ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز أبادي.

ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم، فإنه لا يستشهد بمجروح، ومن ههنا يُوجه [والله أعلم] الحديث: "يرث هذا العلم [وفي رواية: يحمل هذا العلم] من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين" [1]

وهو حجة الله في أرضه، ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلى جنته، ومدنيهم من كرامته، ويكفي في شرفه أَنَّ فَضْلَ أَهْلِهِ على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وكفضل سيد المرسلين على أدنى الصحابة منزلة، وأن الملائكة تضع لهم أجنحتها، وتظلهم بها، وأن العالِمَ يستغفر له مَن في السموات ومَن في الأرض حتى الحيتان في البحر، وحتى النملة في جُحرها، وأن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير، وأَمَر الله أَعَلَم العباد وأكملهم رسول الله ﷺ أن يسأل الزيادة من العلم فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه-١١٤]، واعلم أن العلم على ثلاث درجات:

- أحدهما: ما وقع من عيان وهو البصر.
- الثاني: ما استند إلى السمع وهو الاستفاضة.
- الثالث: ما استند إلى العلم وهو علم التجربة.

على أن طرق العلم لا تنحصر فيما ذكرنا، فإن سائر الحواس توجب العلم، وكذا ما يدرك بالباطن وهي الوجدانيات، وكذا ما يدرك بالمخبر الصادق، وإن كان واحدا، وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط، وإن لم يكن تجربة"[2].

خامسا: الشعراني وتخاريفه الباطنية.

يهدم القطبُ الرباني والهيكل الصمداني عبدُ الوهاب الشعراني – بدعوى الباطنية وفتوحاتها العالية– أركان الإسلام ركنا تلو الآخر في كتابه الطبقات الكبرى:

---

١ رواه عدد من الصحابة منهم: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأسامة بن زيد، وأبو أمامة الباهلي، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأخرجه الخلال في العلل، وتمام في فوائده، وابن عدي، والخطيب البغدادي، وابن جرير الطبري، والدارقطني.

٢ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز أبادي ٤: ٨٩

١. القرآن الكريم:

يزعم الشعراني أن للباطنية وأوليائها قرآنا غير القرآن الكريم، فيروي:

"إن الشيخ شعبان المجذوب كان من أهل التصريف بمصر، وكان يقرأ سورا غير التي في القرآن الكريم على كراسي المساجد يوم الجمعة وغيرها، وكان لا ينكر عليه أحد، وكان العامي يظن أنها من القرآن لشبهها بالآيات والفواصل، وقد سمعه الشعراني مرة يقرأ على باب دار على طريقة الفقهاء ويقول: وما أنتم بتصديق هود بصادقين، ولقد أرسل الله لنا قوما بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا، وما لنا من ناصرين، ثم يقول: اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان"[١].

٢. الحديث الشريف:

ومن أغرب بدع الشعراني أن يبتكر في علم الحديث أسانيد سريانية، ومقصوده من ذلك نسبة رواة الحديث إلى الملائكة، فيقول:

"جاء الشيخ أمين الدين إلى ابن العباس الغمري بعد موته بسنتين في المنام، فروى له حديثا سنده بالسرياني ومتنه بالعربي أن رسول الله ﷺ قال: من أدمن النوم بعد صلاة الصبح ابتلاه الله تعالى بوجع الجنب"[٢].

٣. حكايات الباطنية مع الملائكة:

● شفاعة الولي في الملك:

يحكي الشعراني كيف نزل في حلقة الشيخ محمد عبد الرحيم القناوي شبحا من الجو لا يدري الحاضرون ما هو، فأطرق الشيخ ساعة ثم ارتفع الشبح إلى السماء، فسألوه عنه فقال: هذا ملك وقعت منه هفوة فسقط علينا يستشفع بنا فقبل الله شفاعتنا فيه فارتفع[١]

١ ١ ٢: ١٦٧

٢ ٢: ١٣٢

● جبريل مستشار الأولياء:

يحكي الشعراني عن الشيخ عبد الرحيم القناوي كيف كان يستشير جبريل في كل شئونه، فيقول: وكان الشيخ القناوي إذا شاوره إنسان في شيء يقول: أمهلني حتى أستأذن فيه جبريل ﷺ، فيمهله ساعة ثم يقول له افعل أو لا تفعل على حسب ما يقول جبريل[٢]، ثم يحاول الشعراني أن يخفف من وطأة القصة وخطورة الحكاية، فيقول: ومراده بجبريل واحد من الملائكة لا جبريل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

● تصحيح الشربيني لعزرائيل:

أما هذه الحكاية فتبلغ حضيض الباطنية، حيث لا يعلم ملك الموت الأوامر الإلهية، ويدركه الشيخ الشربيني قبل فوات الأوان، فيقول: مرض ابن للشيخ محمد الشربيني وأشرف على الموت وحضر عزرائيل لقبض روحه، فقال له الشيخ ارجع إلى ربك فراجعه، فإن الأمر نسخ، فرجع عزرائيل وشفي ولده وعاش بعدها ثلاثين عاما[٣]، وهناك قصة ثانية مفادها أن الشيخ مدين مرض مرضا أشرف فيه على الموت، فوهبه الشيخ محمد الشويمي من عمره عشر سنين ثم مات [أي بعد العشر سنين] في غيبة الشويمي فجاءه وهو على المغتسل فقال: كيف مت؟ وعزة ربي لو كنت حاضرك ما خليتك تموت ثم شرب ماء غسله كله[٤].

٤. حكايات مختلفة عنهم:

● افتعال الابتلاء عندهم أسوة بالأنبياء:

غلب على الشيخ شمس الدين الحفني الذلة والمسكنة والخضوع حتى سأل الله تعالى قبل موته أن يبتليه بالقمل والنوم مع الكلاب والموت على قارعة الطريق، وحصل له ذلك قبل

---

١ ١: ١٣٥

٢ ١: ١٣٥

٣ ٢٣: ١٢٣

٤ ٢٤: ٩٤

موته، فتزايد عليه القمل حتى صار يمشي على فراشه، ودخل له كلب، فنام معه على الفراش ليلتين وشيئا، ومات على طرف حوشيه، والناس يمرون عليه في الشوارع، ثم يعلق الشعراني بقوله: وإنما تمنى ذلك ليكون له أسوة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين ماتوا بالجوع والقمل، وكان السيد عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: والله إن النوم مع الكلاب لكثير على من يموت.[١]

● حرص الباطنية على إبليس، ونهي المريدين عن لعنه:

يقول الشعراني: ولعن شخص إبليس في حضرة الشيخ شمس الدين الحفني، فقال له: لا تعود لسانك إلا خيرا.[٢]

● التوحيد عند الحضري:

صعد الشيخ الحضري على المنبر يوم الجمعة فحمد الله وأثنى عليه ومجده، ثم قال: أشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام، فقال الناس: كفر، فسل السيف ونزل، فهرب الناس كلهم من الجامع، فجلس عند المنبر إلى آذان العصر، وما تجرأ أحد أن يدخل، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة فأخبرنا أهل كل بلد أنه [أي الشيخ الحضري] خطب عندهم وصلى بهم فعددنا ذلك اليوم ثلاثين خطبة هذا ونحن نراه جالسا عندنا في البلدة.[٣]

● الأذان عند الباطنية:

يروي الشعراني قائلا: وكان إبراهيم بن عصيفير يتشوش من قول المؤذن الله أكبر، فيرجمه، ويقول: عليك يا كلب نحن كفرنا يا مسلمين حتى تكبروا علينا.[٤]

---

١ ٢١: ٩٢

٢ ٢٢: ٨٩

٣ ٢: ٩٨

٤ ٢: ١٢٦

● مكانة الاغتسال والطهارة عند أولياء الشعراني:

ذهب جماعة إلى بركات الخياط، فقالوا له: نصلي الجمعة، فقال: ما لي عادة بذلك، فأنكروا عليه، فقال: نصلي اليوم من أجلكم، فخرج إلى جامع المارواني، فوجد في الطريق مسقاة للكلاب، فتطهر منها، ثم وقع في مشخة حمير، ويصف الشعراني دكان بركات هذا، فيقول: وكان دكانه منتنا قذرا: لأن كل كلب وجده ميتا، أو قطا، أو خروفا يأتي به، فيضعه داخل الدكان، وكان لا يستطيع أحد أن يدخل عنده.[1]

● مكانة المسجد في الطبقات الكبرى:

وكان أغلب وقت الشيخ محيسن البرلسي واضعا وجهه في حلق الخلاء في ميضأة جامع الحاكم، وكان يدخل الجامع بالكلاب.[2]

● النوم سبعة عشر عاما:

يحكي الشعراني كيف مكث عيسى بن نجم بوضوء واحد سبع عشرة سنة، وذلك أنه توضأ يوما قبل آذان العصر، واضطجع على سريره، وقال للنقيب: "لا تمكن أحدا يوقظني حتى أستيقظ بنفسي، فما تجرأ أحد يوقظه، فانتظروه هذه المدة كلها، فاستيقظ وعيناه كالدم الأحمر، فصلى بذلك الوضوء الذي كان قبل اضطجاعه، ولم يجدد وضوءه، وكان وسطه منطقه [أي حزام]، فلما قام حلها وتناثر من وسطه الدود"[3].

● نوم الباطنية في الكنيسة:

يقول الشعراني: "وكان أغلب نوم الشيخ إبراهيم بن عصيفير في الكنيسة، ويقول النصارى لا يسرقون النعال في الكنيسة بخلاف المسلمين"[4].

---

١ ٢: ١٣٠

٢ ٢: ١٢٩

٣ ٢: ٩٨

٤ ٢: ١٢٧

● خادم يترك الصلاة لنداء الشيخ:

"وكان شهاب الدين الطويل النشيلي إذا نادى خادمه وهو في الصلاة فإن لم يترك الصلاة ويحضر إليه مشى إليه وصكه [أي ضربه]، ومشى به وقال: كم أقل لك لا تعد تصلي هذه الصلاة المشئومة، فلا يستطيع أحد أن يخلصه منه."[١]

● تهريج المشايخ على المنبر:

يقول الشعراني: "وكان إبراهيم العريان يطلع المنبر ويخطب عريانا، فيستهل خطبته قائلا: السلطان، ودمياط، وباب اللوق، وبين القصرين، وجامع طولون، الحمد لله رب العالمين، فيحصل للناس بسط عظيم."[٢]

● الصوم عند الباطنية:

وكان إبراهيم بن عصيفير، يقول: "أنا ما عندي من يصوم حقيقة إلا من لا يأكل اللحم الضاني أيام الصوم كالنصارى، وأما المسلمون الذين يأكلون اللحم الضاني، فصومهم عندي باطل."[٣]

● الفطر في نهار رمضان:

كرامة يحكيها الشعراني، فيقول: "وكان الشريف المجذوب يأكل في نهار رمضان، ويقول: معتوق أعتقني ربي".[٤]

● الحج في شريعة الباطنية:

يقول الشعراني: "حج عبد القادر الدشطوطي ماشيا حافيا، ولما وصل من مصر إلى المدينة المشرفة، وضع خده على عتبة باب السلام، ونام مدة الإقامة للحج، حتى رجع الناس

---

١ ٢: ١٢٧

٢ ٢: ١٢٩

٣ ٢: ١٢٧

٤ ٢: ١٣٥

من الحج ولم يدخل الحرم". (١)

● **إحياء الموتى في خدمة المريدين:**

يقول الشعراني: "قال إبراهيم المتبولي لأحد أولاده في الطريق: ما لي أراك كثير العبادة ناقص الدرجة، لعل والدك غير راض عنك؟ فقال: نعم، قال: تعرف قبره؟ قال: نعم، قال: اذهب بنا إلى قبره لعله يرضى، قال الشيخ يوسف الكردي: فوالله لقد رأيت والده يخرج من القبر ينفض التراب عن رأسه حين ناداه الشيخ، فلما استوى قائما قال الشيخ: الفقراء جاءوا شافعين تطيب خاطرك على ولدك هذا، فقال: أشهدكم أني قد رضيت عنه، فقال: ارجع مكانك، فرجع قبره". (٢)

● **الفاحشة من الشيخ كرامة عند الشعراني:**

يقول: "كان علي أبو خوده إذا رأى أمرد [أي شاب جميل] راوده عن نفسه، وحسس على مقعدته، سواء كان ابن أمير أو ابن وزير، ولو كان في حضرة والده أو غيره، ولا يلتفت إلى الناس، ولا عليه من أحد." (٣)

● **الشيخ ينكح الحمارة عيانا:**

ولا يخجل الشعراني من هذه المصيبة، فيقول: "وكان الشيخ وحيش إذا رأى شيخ بلد أو غيره ينزله من على الحمارة، ويقول له: امسك رأسها لي حتى أفعل فيها، فإن أبى شيخ البلد تسمر في الأرض، ولا يستطيع يمشي خطوة، وإن سمع حصل له خجل عظيم، والناس يمرون عليه." (٤)

● **نار الشيخ وأرزاق أهل مصر:**

---

١ ٢: ١٢٥

٢ ٢: ٧٨

٣ ٢: ١٢٢

٤ ٢: ١٣٥

يدلنا الشعراني على حل جميع مشاكل مصر الاقتصادية في ثوان معدودة، وفي بساطة متناهية، فيقول: "وكان الشيخ محيسن البرلسي يوقد عنده نارا أغلب وقته، وكان علي الخواص إذا شك في نزول بلاء على أهل مصر، يقول: اذهبوا للشيخ محيسن، فانظروا النار التي عنده، هل هي موقودة أو مطفية؟ فإن كانت مطفأة حصل في مصر رخاء ونعمة، وكان الناس في غاية الراحة، فأوقد الشيخ محيسن النار، فقال علي الخواص: الله لا يبشره بخير، فأصبح الناس في شدة عظيمة في مسكنهم لبلاد الهند، وحصل لهم غاية الضيق". [1]

● الأولياء يحرسون البرزخ:

سئل الشعراني شيخه الخواص، فقال: يا سيدي، أيش حالكم؟ فقال: "جعلوني بواب البرزخ، فلا يدخل عمل حتى يعرض علي، وما رأيت أضوأ، ولا أنور من عمل أصحابنا". [2]

---

١ ٢: ١٢٩

٢ ٢: ١٥٧

ملخص الباب الثامن

- يُخرج الصوفية سبل العلم عما ذكره رسول الله ﷺ من أن العلم بالتعلم إلى أنها من الغيوب إلى القلوب.
- غالى الصوفية في شأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعلمه حتى جعلوه المختص بعلم الباطن بل وزعموا أن علمه أعظم من علم جبريل عليه السلام.
- أثبت كثير من العلماء والباحثين تأثر الصوفية بالشيعة وأكد ذلك ما عقده ابن خلدون من مقارنة في مقدمته الشهيرة.
- قسم ابن عربي العلم نوعين: موهوب ومكتسب.
- الحكيم الترمذي يفتح باب العلوم الباطنية على مصراعيه، فالخضر يعلمه كل يوم منذ نعومة أظافره.
- الترمذي يبتكر نظريته في الولاية، ويخترع للولاية خاتما كما للنبوة خاتما.
- يحدد الترمذي مواصفات خاتم الأولياء، بل ويكتب له مائة وخمسون سؤالا لا يستطيع أن يجيب عليها سواه. فيبادر كل من رأى في نفسه أنه الأحق بمرتبة الختم أن يجيب على هذه الأسئلة.
- يقرر الترمذي أن العلم ينال بالتعلم، وأن الحكمة مِنَّة إلهية يهبها لمن يشاء.
- يعد السراج الطوسي من حملة لواء الإصلاح في التصوف، وهو ينكر الكثير من انحراف الصوفية، وانخراطهم في الفلسفة، والقول بالفناء والوحدة، وهو في نفس الوقت يرى أن الصوفية أعلى الناس علما، وأشملهم إحاطة فهم فوق الفقهاء، وأرقى من المحدثين.
- يرى الطوسي في تقسيم العلم رأيا وسطا لا غبار عليه، فهو يقسم العلم إلى ظاهر وباطن، ولكنه لا يرى بينهما تباينا، وأن الباطن يقابل أعمال القلوب، بينما العلم الظاهر يقابل أعمال الجوارح.

- يعد أبا حامد الغزالي من أعلام الصوفية المعتدلين، وتمثل كتبه مرجعا هاما عند المريدين، وإلي رأيه يميل كثير من المشايخ، ويرى الرجل أن العلم الباطن لا يخالف العلم الظاهر، وأن القائل بالمخالفة بينهما قريب من الكفر.
- يخصص الغزالي الحالات التي يرى فيها الحاجة الماسة إلى العلم الباطن، وأنها ترجع إلى دقة العلم الباطن عن فهم العامة، ومنها حالات الكلام على الروح، أو سر القدر، أو الرمز.
- يوافق الفيروزابادي على أقوال كبار الصوفية، ومنهم سيد الطائفة الجنيد في أقوالهم عن أهمية اتباع الكتاب والسنة، والتمسك بهما طوال السلوك إلى الله تعالى.

الباب التاسع

مناقشة أدلة الباطنية عن العلم الباطن

١. علي بن أبي طالب وعلم الباطن.

٢. خصوصيات بعض الصحابة.

٣. حذيفة وعلم النفاق.

٤. النفاق مكشوف في مجتمع المدينة.

٥. أبو هريرة وجرابا العلم.

٦. أخص النبي ﷺ كل قوم بما يصلحهم؟

٧. الظاهر والباطن عند سلف الأمة.

الفصل الأول

اختصاص علي بن أبي طالب بالعلم الباطن

تقوم عقيدة الباطنية على فكرة خصوصية آل البيت رضوان الله عليهم بأسرار الدين، وعلومه الباطنة التي لا يستطيع العامة أن يصلوا إليها، وحين يعرضون أدلتهم تراهم يغالون في شأن علي بن أبي طالب ﷺ، وتسمعهم يقولون أنه الوصي على الدين، وبالتالي الأحق بالخلافة من أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، وسنناقش أفكار القوم بعون الله تعالى وتوفيقه، ونبحث عن الخصوصية بشكل عام، وهل هي حكر على علي بن أبي طالب ثم الحسن والحسين وحدهم، أم أن عطاء الله يتعدد، ومواهبه كثيرة نال منها الصحابة القدر الكبير، وسنبين ذلك بتوفيق الله تعالى فيما يلي:

لا شك أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من أبرز أصحاب رسول الله ﷺ شأنا، فهو ابن عمه وزوج ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وأبو الحسن والحسين سيدَيْ شباب أهل الجنة وريحانتَيْ رسول الله ﷺ، وقد وردت الأحاديث الصحيحة في مناقب علي، ومنها قول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه سعد بن أبي وقاص ﷺ، حيث قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي﴾[1]، كذا قوله يوم غدير خم[2]: ﴿يا بريدة، ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى، يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه﴾[3]، وفي رواية زيد بن أرقم، قال: كنا بالجحفة، فخرج رسول الله إلينا ظهرا، وهو آخذ بعضد علي ﷺ، فقال: ﴿يا أيها الناس ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من

---

١ حديث متفق عليه أخرجه البخاري في المناقب ٣٤٣٠، ومسلم في الفضائل ٤٤١٨، والترمذي في المناقب ٢٩٢٥، وابن ماجة في سننه ١١٢، وأحمد في مسنده ١٤٢٧

٢ غدير خم: موضع بئر ماء قريب من رابغ بين مكة والمدينة بالجحفة، حيث ميقات إحرام أهل مصر ومن مر به.

٣ أخرجه أحمد في مسنده

أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه﴾[١]، كما ورد في مناقب علي ﷺ حديث يدل على عظم شأنه ورفعة قدره، فقد قال رسول الله ﷺ يوم خيبر: ﴿لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله [وفي رواية: فتطاولنا لها]، فلما كان الغد دعا عليا، وهو أرمد، فتفل في عينه، وأعطاه الراية، [وفي رواية: ودفع الراية إليه ففتح الله عليه]﴾[٢]، والناظر إلى هذه المناقب عليه أن يدرك أن هناك الكثير من المناقب لعلي ولغيره من الصحابة، وليس معنى ذكر فضيلة من فضائل أحد الصحابة أنه أعلى شأنا من غيره، وليس فيما ورد في السنة أي إشارة إلى اختصاص علي بالعلم الباطن. ونناقش فيما يلي ما يستدل به القوم على ادعائهم.

أولا: علي والصحيفة.

ترجع نشأة فكرة اختصاص علي بن أبي طالب بالعلم الباطني إلى اليهودي عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء لعنه الله حيث وضع نظرية حاجة الدين إلى وصي يعين بالوحي، وأن وصي هذه الأمة علي بن أبي طالب، وهذا موضوع سنتعرض له بالتفصيل في الكتاب الثالث من هذه السلسلة بتوفيق الله تعالى، وقد جاهر الشيعة والباطنية بهذه العقيدة، بل وجعلوها محور دينهم، ولم يتوقفوا عند ذلك بل راحوا يلعنون أبا بكر، وعمر رضوان الله عليهما، بينما توافقهم الصوفية في فهمهم هذا دون أن يسبوا الشيخين، وبالرغم من غلوهم في علي ﷺ، إلا أن مشايخ الصوفية لا يعلنون تفضيل علي على أبي بكر، وعمر رضي الله عنهم أجمعين، بينما هم عمليا يرون التصوف أرقى من الشريعة، والصوفية أو الفقراء كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم، أعظم قدرا وجاها من علماء الشريعة، أو علماء الرسوم كما يسمونهم، ومن الملاحظ أن سندهم في الطريق يمر خلال سلسلة من المشايخ حتى تصل إلى النبي ﷺ عن طريق علي بن أبي طالب، ولم تظهر دعوى اختصاص آل البيت بالعلم الباطني بعد وفاة علي بن أبي

---

١ حديث زيد بن أرقم أخرجه أحمد في مسنده ١٨٤٧٦، والترمذي في المناقب ٣٦٤٦، وقال حسن غريب

٢ حديث بريدة بن الحصين أخرجه النسائي في السير من سننه الكبرى على ما في تحفة الأشراف ٢: ٩٢، وحديث سعد بن أبي وقاص أخرجه أحمد في مسنده ١٥٢٢، ومسلم ٤٤٢٠ والترمذي في المناقب ٣٦٥٨، وابن ماجة في المقدمة ١١٨

طالب، وإنما ظهر هذا الفهم في حياة علي ﷺ نفسه بل رآه بعينه، حيث نشأ مع أحداث الفتنة، كما سنبين تفصيلا في كتابنا التالي، لذلك سارع كثير من التابعين منهم: أبو جحيفة، وقيس بن عبادة، والأشتر إلى أمير المؤمنين علي ﷺ يسألونه عن هذه الفرية، وما أصلها، وما العلم الذي خصه به النبي ﷺ؟ ولا شك أن إجابة علي بنفسه قطعت دابر المغالين، ونفت أي فهم يخالف ما صرح به في هذا الشأن، فقد روى البخاري عن أبي جحيفة، قال: قلت لعلي بن أبي طالب:

هل عندكم كتاب؟ [وفي رواية]:

هل عندكم شيء من الوحي؟ [وفي رواية]:

هل عندكم شيء مما ليس في القرآن؟ [وقال مرة]:

هل عندكم شيء ما ليس عند الناس؟ [وفي رواية]:

هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء سوى القرآن؟

فقال: لا والذي فتق الحبة، وبرأ النسمة ما أعلمه؟

[وفي رواية ثانية]: ما عندنا إلا ما في القرآن، [وفي رواية ثالثة]:

لا إلا كتاب الله، أو فهما يعطيه الله رجلا في القرآن، [وفي رواية رابعة]:

أو فهم أعطيه رجل مسلم، إلا أن يُعْطِي الله ﷻ عبدا فهما في كتابه، أو ما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: فيها العقل، وفِكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر"[1]، وفي رواية أخرى عن قيس بن عبادة قال: انطلقت أنا والأشتر إلى علي ﷺ، فقلنا: هل عهد إليك نبي الله ﷺ شيئا لم يعهده إلى الناس عامة؟ قال: "لا إلا ما كان في كتابي هذا، فأخرج كتابا من قراب [أي جراب] سيفه، فإذا فيه: المؤمنون تكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ألا لا يُقْتَلُ مؤمن بكافر، ولا ذو عهد بعهده، من أحدث حدثا فعلى نفسه، أو آوى مُحْدِثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"[وفي رواية أخرى]

١ أخرجه البخاري في ثمان مواضع منها ١٧٣٧، ومسلم في صحيحه ١٣٧٠، والحميدي في مسنده حديث ٤٠، وأحمد في مسنده ٥٥٩، والدارمي في سننه ٢٣٦١، والترمذي في الديات ١٤١٢، والنسائي في القسامة ٤٧٤٤، وابن ماجة في سننه ٢٦٥٨

قال: وإذا فيها: إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم المدينة، حرم ما بين حرتيها وحماها كله، لا يُختلى خلاها، ولا يُنفّر صيدها، ولا تُلتقط لُقْطتها، إلا لمن أشار بها، ولا تقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره، ولا يحمل فيها السلاح لقتال، قال: وإذا فيها: "المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، ألا لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده"[1].

ثانيا: علي يرد دعاوى الباطنية.

ينفي علي بن أبي طالب ﷺ مزاعم شيعته باختصاصه بعلم باطني دون الصحابة، وكم كان قوله دقيقا، فليس الأمر علما مغايرا لما عليه الناس إنما هو فهم في دين الله ﷻ، وهذا هو نفس الوصف القرآني في قصة داود وسليمان عليهما السلام وحكمهما في قضية الغنم والحرث، حيث أصاب سليمان في حكمه، وبهذا أخبرنا ربنا ﷻ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء-٧٩]، يقول القرطبي: ففهمناها سليمان أي فهمناه القضية والحكومة، وحملوا قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، على أنه فضيلة له على داود، وفضيلته راجعة إلى داود، والوالد تسره زيادة ولده عليه".

فالأمر لا يعدو أن يكون قد دون في صحيفة بعض الأحكام التي سمعها - هو وغيره من الصحابة - من النبي ﷺ، وقد قرأ عليّ بعض هذه الأحكام على من سأله، حتى يتأكد الناس إلى يوم القيامة من عدم وجود علم باطني يختزنه علي وَيُسِرُّهُ إلى بعض الناس، وحتى يكذب دعوى اختصاصه بشيء دون غيره؛ لذا فإن صحيفة علي بن أبي طالب هو الذي دونها بعد وفاة رسول الله ﷺ، وإلا لقال علي أمرني النبي ﷺ بكتابتها.

١ أخرجه أحمد في مسنده ٩٩٣، وأبو داود ٤٥٣٠، والنسائي ٨: ٢٠ - ٢٤ وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند ٩٩١

كما يحتج الباطنيون أيضا بقول علي بن أبي طالب ﷺ، حين قال: "حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله"[١]، ويشرح ابن حجر هذا الحديث وغيره، فيقول: "حدثوا الناس بما يعرفون أي يفهمون، [وفي رواية: ودعوا ما ينكرون]، أي ما يشتبه عليهم فهمه،.. وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة، ومثله قول ابن مسعود: "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"، رواه مسلم في المقدمة في باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، وممن كره التحديث ببعض دون بعض: أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة في [حديث] الجرابين، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة، وعن الحسن، أنه: أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين، لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب والله أعلم"[٢]. ومن العجيب أن الصوفية حينما يريدون إثبات العلم الباطني يسوقون موافقات عمر بن الخطاب ﷺ للوحي، وحينما يذكرون سلسلة مشايخهم في الطريق فإن أغلبها ينتهي إلى علي بن أبي طالب وحده.

---

١ انفرد به البخاري في كتاب العلم ١٢٤

٢ فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١: ١٨٢

الفصل الثاني

خصوصيات بعض الصحابة

أولا: مناقب عدد من الصحابة.

إن المتتبع لأحاديث رسول الله ﷺ التي تتناول تميز بعض الصحابة في أمور الدين، فإننا لا نجد فيهم علي رضي الله عنه، وليس هذا انتقاصا من شأنه عن غيره من الصحابة، أو أنه ليس له مواقف خاصة، ولكن هذه سنة رسول الله ﷺ، والتي نجد فيها ما يلي: عن ربعي بن حراش، عن حذيفة، قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ، فقال: ﴿إني لا أدري ما [وفي رواية: ما قدر] بقائي فيكم: فاقتدوا بالَّذَيْن من بعدي، وأشار إلى أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه﴾[1]، وفي رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أرحم أمتي بأمتي: أبو بكر، وأشدهم في أمر الله: عمر، وأصدقهم حياء: عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام: معاذ بن جبل، وأفرضهم [أي أعلمهم بعلم الفرائض، وهو المواريث]: زيد بن ثابت، وأقرؤهم [وفي رواية لكتاب الله]: أُبَيُّ بن كعب﴾[2].

ثانيا: أبو عبيدة أمين الأمة.

وللحديث السابق بقية حيث تفرد أبو عبيدة بن الجراح بمرتبة سامية من بين أصحاب رسول الله ﷺ ألا وهي الأمانة، وما خشيت السموات والأرض والجبال من الأمانة إلا لعظمها وخطورة أمرها، وهنيئا لأبي عبيدة بن الجراح أن يصفه رسول الله بأنه أمين هذه الأمة بما فيها: أبو بكر، وعمر، وباقي الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، والحديث يروى عن رسول الله ﷺ،

---

١ حديث حذيفة بن اليمان أخرجه الترمذي في المناقب ٣٥٩٥، وقال حديث حسن، وابن ماجة في المقدمة ٩٤

٢ حديث أنس بن مالك متفق عليه أخرجه البخاري في المناقب ٣٤٦١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤١٩، والترمذي في المناقب ٣٧٢٣، وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجة في المقدمة ١٥١، وأحمد في مسنده.

أنه قال: ﴿ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة: أبو عبيدة بن الجراح﴾[١]، وفي رواية أخرى عن أنس ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لكل أمة أمين، وأبو عبيدة أمين هذه الأمة﴾[٢].

ثالثا: عبد الله بن عمرو بن العاص يدون الأحاديث.

ومما هو ثابت تاريخيا أن رسول الله ﷺ نهى أصحابه أن يدونوا عنه السنة، أو يكتبوا أحاديثه في حياته، خشية اختلاط كلامه مع كلام رب العالمين، ولم يأذن لأحد إلا عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، كما يروي عن نفسه، حيث قال: ﴿قلت: يا رسول الله، إني أسمع منك الشيء، فأكتبه، قال: نعم، قلت: في الرضا والغضب، قال: نعم، فإني لا أقول فيهما إلا حقا﴾[٣]، وليس معنى هذا أن يرى الناس عبد الله بن عمرو يقرأ ما دونه عن النبي ﷺ، فيقولون هذا علم باطني اختص به عبد الله بن عمرو ﷺ.

رابعا: أبو ذر وصدق اللهجة.

يروي عبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو الدرداء خصوصية لأبي ذر الغفاري رضي الله عنهم سمعاها وغيرهما من الصحابة من النبي ﷺ، يقول فيها: ﴿ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء، من رجل أصدق لهجة [من ذي لهجة أصدق] من أبي ذر﴾[٤].

خامسا: لكل نبي حواري.

يروى عن علي بن أبي طالب، وجابر بن عبد الله أنهما سمعا رسول الله ﷺ، يقول: ﴿إن لكل نبي حواريا وحواري الزبير﴾[١]، وروى جابر بن عبد الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ، قال: ﴿الزبير ابن عمتي، وحواريي من أمتي﴾[٢].

١ حديث أنس بن مالك متفق عليه أخرجه البخاري في المناقب ٣٤٦١، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٤١٩، والترمذي في المناقب ٣٧٢٣، وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجة في المقدمة ١٥١، وأحمد في مسنده ٣: ١٢٥

٢ حديث أنس بن مالك أخرجه أحمد في مسنده.

٣ حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه أبو داود والحاكم في المستدرك وغيرهما.

٤ حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه أحمد في مسنده ٦٦٤١، وحديث أبي الدرداء.

سادسا: من يعادي عمارا؟

كان بين عمار بن ياسر وخالد بن الوليد اختلاف في أمر، فشكاه عمار إلى رسول الله ﷺ: ﴿إنه من يعادِ عمارا يعادِه الله ﷻ، ومن يبغضه يبغضه الله ﷻ، ومن يسبه يسبه الله عز وجل﴾[٣]

سابعا: شهادة خيثمة.

ابتاع النبي ﷺ فرسا من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ: ليقضيه ثمن فرسه فأسرع النبي ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي يساومون بالفرس، لا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبي ﷺ فنادى الأعرابي النبي ﷺ، فقال: إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه، وإلا بعته، فقام النبي ﷺ، فقال: أو ليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعتك. فقال النبي ﷺ: بلى قد ابتعته منك، فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي، وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدا يشهد أني بعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك النبي ﷺ لم يكن ليقول إلا حقا، حتى جاء خزيمة، فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدا يشهد أني بعتك، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة، فقال: بم تشهد؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمة، شهادة رجلين.
[٤]

فلو كانت دعاوى الشيعة والصوفية صحيحة، فلم خلت هذه الأحاديث من الإشارة إلى اختصاص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالعلم الباطني أو الأسرار التي لا يعلمها غيره. وكيف يحدد الرسول خصوصيات أصحابه: فأبو عبيدة أمين الأمة، والزبير حواري

١ حديث علي بن أبي طالب أخرجه أحمد في مسنده ٦٤٢، ٦٤٣، وأخرجه البخاري ٢٧٧٥

٢ حديث جابر بن عبد الله أخرجه أحمد في مسنده ١٣٨٥٥

٣ أخرجه أحمد في مسنده.

٤ حديث حذيفة بن اليمان أخرجه أحمد في مسنده.

النبي، ولا أحد يدون أحاديث رسول الله ﷺ في حياته سوى عبد الله بن عمرو، وأصدق الناس لهجة أبو ذر، وأقرؤهم أُبيّ، وعلى الصحابة أن يهتدوا بهدي عمار، ويتبعوا أبا بكر وعمر، وأكثرهم علما بالفرائض زيد بن ثابت، وأعلمهم بالفقه والحلال والحرام معاذ بن جبل، وأكثرهم حياء ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

والسؤال الذي يطرح نفسه أين اختصاص علي بن أبي طالب بعلم الباطن أو التصوف بين هؤلاء؟ وأين حجة هؤلاء المغالين في علي رضي الله عنه؟

والجواب: أن دعواهم كذب وافتراء على الله ورسوله ﷺ، وإذا قالوا: إن رسول الله ﷺ لم يكن ليخصص عليا بشكل علني وهو ابن عمه، حتى لا يزداد تحفظ العرب - بقبليتهم المعروفة - على دعوته، نقول: إن هذه الدعوى ينقضها تخصيص الزبير أنه حواري الأمة، وفي الحديث: ﴿الزبير ابن عمتي، وحواريي من أمتي﴾، وقبل أن ننهي هذا الفصل ينبغي التنبيه عن حديث انتشر بين الصوفية، وهو في حقيقته حديث موضوع يزعمون فيه أن رسول الله ﷺ اختص أبا بكر بعلم باطني، ولم يكن يعلمه عمر رضي الله عنه، فقد روى بعض الكذابين أخبارا يزعمون فيها اختصاص بعض الصحابة بأسرار لا يعلمها غيرهم، ومن ذلك ما يروى عن عمر أنه قال: "كان النبي ﷺ وأبو بكر يتحدثان وكنت بينهما كالزنجي"[1].

---

١ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وهذا من أظهر الكذب، وذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة حديث ١٧ ص ٣٣٥

الفصل الثالث

حذيفة وعلم النفاق

أولا: اهتمام حذيفة بمعرفة الفتن.

اشتهر بين الناس وصف حذيفة بن اليمان أنه صاحب سر النبي ﷺ الذي لا يعلمه غيره، فقد قَدِمَ أبو الدرداء إلى الشام، فجلس إلى إبراهيم بن علقمة، وقال له: ممن أنت؟ قال: من الكوفة. قال: أوليس عندكم ابن أم عبد صاحب النعلين والوسادة والمطهرة، وفيكم الذي أجاره الله من الشيطان [يعني على لسان نبيه ﷺ] أوليس فيكم صاحب سر النبي ﷺ الذي لا يعلمه أحد غيره"[1]. دون ذكر عبارة "صاحب السر الذي لا يعلمه غيره". ويفسر العلماء سبب هذه تسمية حذيفة بن اليمان ﷺ بهذا الاسم بعدة أمور منها:

- أن النبي ﷺ أسر إليه عام تبوك بأسماء جماعة من المنافقين أرادوا أن يَحِلُّوا حِزَام ناقة النبي ﷺ بالليل ليسقط عن بعيره فيموت، وأنه أُوحي إليه بذلك، وكان حذيفة قريبا منه فأسر إليه بأسمائهم، ولم يفضحهم النبي ﷺ؛ لأنهم لم يُحَوِّلُوا نيتهم إلى فعل، حتى يخضعوا لحكم الشرع في معاقبتهم.
- أن حذيفة سمع يوما المنافقين في خلوة لهم يسبون رسول الله ﷺ، فقد ذكر ابن الجوزي في "زاد المسير في علم التفسير": "إن المنافقين كانوا إذا خلوا سبُّوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا في الدين، فنقل حذيفة إلى رسول الله ﷺ بعض ذلك، فحلفوا ما قالوا شيئا، فنزلت هذه الآية: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة-٧٤].

١ أخرجه البخاري في مناقب عمار وحذيفة حديث ٣٤٥٩، أحمد في مسنده ٢٧٦٠٨، وأخرجه مسلم والترمذي.

• ولا ننسى أن حذيفة بن اليمان ﷺ كان شغوفا بالسؤال عن الفتن والشر مخافة أن يقع فيه، وقد أخبر عن نفسه، فقال: "كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني" [١]، وبذلك تجمعت عنده حصيلة من المعلومات عن الفتن وأشراطها وعلاماتها.

وقد اشتهر بين كثير من الناس أن عمر بن الخطاب لم يكن يصلي على أحد حتى يصلي عليه حذيفة رضي الله عنهما، ويروون أخبارا في ذلك منها: عن حميد بن هلال، قال: أُتي عمر بن الخطاب برجل [مات] يُصلي عليه، فدعا بوضوء ليصلي عليه، وعنده حذيفة فَمَرَزَهُ [٢]؛ لئلا يصلي عليه مرزة شديدة، فقال عمر: اذهبوا فصلوا على صاحبكم [من غير أن يُخْبره]، فقال عمر: يا حذيفة! أمنهم أنا؟ قال: لا، قال: ففي عمالي أحد منهم؟ قال: رجل واحد، وكأنما دل عليه حتى نزعه من غير أن يُخْبِره" [٣]، وعن رسته في الإيمان وعن زيد بن وهب، قال: مات رجل من المنافقين فلم يصل عليه حذيفة، فقال له عمر: أَمِنَ القوم هذا؟ قال: نعم، قال: بالله أمنهم أنا؟ قال: لا، ولن أخبر به بعدك أحدا".

فهذا ليس فيه شيء من علوم الباطن كما سنوضح تفصيلا، ولا من الباطن الذي يخالف الظاهر، فحذيفة نفسه ينفي هذا الأمر، ويشرح السر الذي ينسبونه إليه، كما أن علم النفاق ليس سرا، فإن الله قد ذكر في كتابه، كما أخبر النبي ﷺ في سنته صفات المنافقين وأخبارهم كما سنبينه فيما يلي:

---

١ متفق عليه أخرجه البخاري ٣٣٢٨، ومسلم ٣٤٣٤، وابن ماجه ٣٩٦٩، وأخرجه أحمد في مسنده ٥: ٣٨٦، ٣٩٢، ٣٩٣

٢ فمرزه: أي قرصه بأصابعه.

٣ أخرجه الهندي في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ١٣: ٣٤٤، حديث ٣٦٩٦٢

ثانيا: حذيفة يكشف السر.

يقول حذيفة ﷺ: "لو كنت على شاطئ نهر، وقد مددت يدي لأغترف [ماءً]، فحدثتكم بكل ما أعلم ما وصلت يدي إلى فمي حتى أقتل"[١]. ربما يحاول الباطنية أن يستندوا على مثل هذا الخبر، ولكن حذيفة لا يترك لهم المجال حيث يروى ابن عساكر في الكتاب تحديد حذيفة للسر الذي يحمله، حيث يقول: لو حدثتكم بحديث لكذبني ثلاثة أثلاثكم؟

فنظر إليه شاب فقال: من يُصدِقُك إذا كَذَّبك ثلاثة أثلاثنا؟

فقال: إن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشر.

فقيل له: وما حملك على ذلك؟

فقال: إنه من اعترف بالشر، وقع في الخير"[٢].

يحدد لنا حذيفة الأمر بوضوح، فكثرة سؤاله عن الشر لم تذهب سدى، فقد أجابه الصادق المصدوق عن الشر وأحداثه، والفتن ومواقعها، فإذا خاطب الناس بها يعرف ما تركه الظلمة والطغاة والجبارين، ولا أعوانهم ممن يستخدمون أساليب التصفية الجسدية - حسب المفهوم المعاصر للقتل - وما قصد حذيفة بهذه الإجابة أنه يعلم أسرار الربوبية التي لو أذاعها تنتفي النبوة، كما يزعم الصوفية، فلو فرضنا جدلا أن حذيفة كان يقصد أنه علم العلم الباطن الذي يخالف الشريعة، وأنه لو أذاعه لكَفَّره الناس، فإن إفشاءه لهذه الأسرار لا يقتله قبل أن يبلغ الماء إلى فمه، وإنما سيطبق عليه أحكام المرتد، وبالتالي يحبس ويستتاب ويناظره أصحاب النبي ﷺ، أما أن يضمن حذيفة القتل الفوري حتى أن الماء الذي في يده لن يصل إلى فيه، فليس له إلا معنى واحد وهو: أنه سيُقتل قبل أن يستكمل كلامه، لأنه سيزعزع سلطة الحاكم، ويكشف أعوان الظالم، وهم لا يتأخرون عن إراقة دم صحابي جليل في سبيل العرش. وكثير

---

١ أخرجه الهندي في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ١٣: ٣٤٤، حديث ٣٦٩٦٩، ورواه ابن عساكر عن يعقوب بن سفيان.

٢ أخرجه الهندي في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ١٣: ٣٤٤، حديث ٣٦٩٦٨، ورواه ابن عساكر عن أبي البختري.

مـن الحكـام لا يحركـون سـاكنا إذا انتهكـت حرمـات الـدين، أو ظهـرت البـدع والأهـواء في المعتقدات والسلوك، والذي لا يختلف حوله اثنان، أن رد فعل الحاكم لحماية ملكه، أسرع مئات المرات من رد فعله لنصرة دين الله، والدليل على قولنا هذا هو مئـات بـل آلاف المنحـرفين عـن الدين طوال تاريخ الإسلام، الـذين حـاولوا هـدم كثـير مـن مفـاهيم الـدين البسـيطة بأفكـار ونظريات ما أنزل الله بها من سلطان، كالوصـاية عـلى الـدين، والغلـو في الأئمـة، والأقطـاب، والباب، وعلم الدورة، والتناسخ، والقول بالفناء والبقاء، ووحدة الوجود، والوجـود المطلـق، والحقيقة المحمدية، أمثال: البسطامي، وابن عربي، والحكيم الترمذي، وابـن سـبعين، والجـيلي، وغيرهم حتى الحلاج قتله الناس بعد أن استفحل أمره، وحبسوه وأقاموا عليه الحجة، وما قتله أحد قبل أن يبلغ ما في يده إلى فمه.

ومن لا يوافقنا على استنتاجنا هذا فليبحث في تاريخ الإسـلام عـن رجـل نطـق بمعـاني باطنية أو أفكار كفرية لأول مرة، فقتل من فوره قبل أن يشرب وهو على شاطئ النهر.

ويزداد الأمر وضوحا حينما يقرر حذيفة بن اليمان ﷺ أن ما عنده من علم، لم يتلقـاه سرا عن النبي ﷺ بل هو علم عام قاله رسول الله ﷺ في خطبة عامة قال فيها: ﴿قام فينا رسول الله ﷺ مقاما، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه﴾[1].

ثالثا: النفاق والمنافقون.

١. القرآن يفضح النفاق:

واجه القرآن المدني مشكلة النفاق من يومه الأول، فمن المعـروف أن سـورة البقـرة هـي أول ما نزل في المدينة المنورة، ويقول مجاهد: "نزلت أربع آيات مـن سـورة البقـرة في المـؤمنين، واثنتان في نعت الكافرين، وثلاث عشر آية في المنـافقين"،[2] تبـدأ بقـول الحـق تبـارك وتعـالى:

١ أخرجه أحمد في مسنده ٢٢٧٧٠

٢ الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي ١: ١٦٧ تفسير سورة البقرة، ورواه ابن جريج عن مجاهد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة ٨: ٢٠]. وقد تتابع نزول القرآن الكريم في المدينة المنورة، وآياته تزداد كشفا لأحوال المنافقين، وتصف أساليبهم حتى يجنب المؤمنون شرهم، ويأخذوا منهم حِذْرهم، ومنها الآيات: أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بالصبر على أذى الكفار والمنافقين في أول الدعوة بقوله: ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ [الأحزاب-٤٨]، فلما فتح الله مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا، وأنزل الله سورة براءة، قال فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة-٧٣]، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب٦٠-٦١]، فلما رأى مَنْ بقي من المنافقين ما صار الأمر إليه من عز الإسلام، وقيام الرسول بجهاد الكفار والمنافقين كتموا حقدهم ونفاقهم في قلوبهم، فلم يكن يُسْمَع من أحد من المنافقين بعد غزوة تبوك كلمة سوء، وماتوا بغيظهم، حتى بقي منهم أناس بعد موت النبي ﷺ يعرفهم من بقي من الصحابة رضي الله عنهم.

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة محمد: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ ۞ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد ٢٩-٣٠]، قال أنس رضي الله عنه: "فلم يَخْفَ منافق بعد هذه الآية على النبي ﷺ عرَّفه الله ذلك بوحي أو علامة عَرَفَها بتعريف الله إياه". حتى إذا نزلت آخر سورة من القرآن وهي التي سميت بسورة "التوبة"، والتي فَصَّلَت شأن المنافقين، وأظهرته على أكمل وجه؛ ولذلك فقد تعددت تسميات هذه السورة حتى بلغت تسعة أسماء وكل اسم له دلالة تفيدنا في بحثنا هذا منها: سورة "التوبة"، وسورة "العذاب"، قاله حذيفة، سورة "المُقَشقشة" قاله ابن عمر،

وسورة "البَحوث"؛ لأنها بحثت عن سرائر المنافقين، قاله المقداد بن الأسود، وسميت "الفاضحة"؛ لأنها فضحت المنافقين، قاله ابن عباس، وسميت "المبعثرة"؛ لأنها بعثرت أخبار الناس، وكشفت عن سرائرهم، قاله الحارث بن يزيد وابن إسحاق، كما سميت "المثيرة"؛ لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم، قاله قتادة، وسميت "الحافرة"؛ لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، قاله الزجاج [وروي نحوه عن الحسن][1]

لكن القرآن لم يذكر فلانا وفلانا من المنافقين بالاسم، فليس دور القرآن أن يكشف خبايا أفراد بعينهم، أو يعلن أسماء المنافقين على الناس، بل الأهم والأنفع والأبقى أن يضع أحوال المنافقين تحت المجهر، فيشرح لنا أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، وهذه أمور لن تتغير إلى يوم القيامة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن نزول سورة "براءة" عَرَّفت المؤمنين أن فلانا وفلانا من المنافقين الموصوفين في آيات هذه السورة الفاضحة، كان ذلك بمنزلة تعريفه ﷺ أن فلانا وفلانا من المؤمنين الموعودين بالجنة، فإخباره أن أبا بكر وعمر وغيرهما في الجنة، كإخباره أن أولئك منافقون. كما أن كثيرا من المنافقين كانوا معروفين بالاسم في عهد النبي ﷺ، ويؤكد هذا الفهم ما رواه البكائي عن غزوة تبوك حين افتقد الناس الماء، يقول: قال ابن إسحاق: "فلما أصبح الناس، [يعني من يوم الحِجْر]، ولا ماء معهم، دعا النبي ﷺ فأرسل الله سحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، فحدثني عاصم، قال: قلت لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟

قال: نعم والله، لقد أخبرني رجال من قومي، عن رجل من المنافقين، لما كان من أمر الحِجْر ما كان، دعا رسول الله ﷺ حين دعا فأرسل الله السحابة، فأمطرت، قالوا: أقبلنا عليه

---

١ أبو الفرج بن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير ٣: ٣٨٩ وغير ذلك من الأسماء.

[أي على الرجل المنافق الذي يعرفونه]، نقول: ويحك، هل بعد هذا شيء؟ قال [أي المنافق]: سحابة سائرة"[١].

٢. السنة تحدد علامات المنافقين

وكالعهد دائما تزيد السنة النبوية الأمر إيضاحا وبيانا، فقد بين النبي ﷺ آيات المنافقين وعلاماتهم في أحاديث متواترة، منها: ﴿أربع خلال من كن فيه كان منافقا خالصا: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها﴾، وفي رواية أخرى: ﴿آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف﴾، وهذه العلامات لا تفارق المنافقين في أي زمان ومكان، فالمنافق لا تصدق حديثه، فالكذب أحب إلى قلبه من الصدق والصراحة، والخيانة أقرب إلى قلبه من الأمانة، وكأنه جُبل على الخيانة، ولهذا يقول الحكماء: "ما خان أمين قط، ولكن ائتمن خائن فخان"، والوفاء بالعهد والالتزام بالمواثيق من خصال الإيمان، لا يستطيع قلب المنافق أن يتمسك بوعده، بل تراه يتحين الفرص؛ ليفلت مما عاهد عليه الناس ورب الناس، كما أن المؤمن إذا خاصم تلطف مع خصمه، وبدأ بالتماس العذر، ثم يغلبه تسامح قلبه، وعفة نفسه، فلا تراه يكثر العتاب، وسريعا ما تصفو نفسه، ويسارع في العفو عما سلف، أما المنافق فغضبه يزداد مع الوقت وتدبيره ينحدر إلى أهوى الدركات، فخصامه لا بد وأن يوصله إلى الفجور، وإذاعة الأسرار، وهتك الحرمات والأستار، فهو عنيف في ردود أفعاله، لا يهدأ إذا ذكره أحد بربه، أو ذكره أحد بأيام صفائه ووداده.

ومن سمات المنافق ما علمناه رسول الله ﷺ، حيث يقول: ﴿من مات ولم يغزُ ولم يُحدث به[٢] نفسه مات على شعبة من نفاق﴾[١]، فالمنافق إذن تكشفه خصاله، وتفضحه أحداث الحياة

---

١ نقلا عن المغازي للذهبي في غزوة تبوك.

٢ أي: بالغزو.

اليومية، فالمرء بين قول يقوله، أو وعد يقطعه، أو خلاف يطرأ مع أصحابه، أو أمانة من قول، أو عرض، أو غير ذلك من صور الأمانات التي لا تعد، ولا تحصى، ومن هنا عالج القرآن والسنة موضوع النفاق بأفضل صورة ممكنة.

وبالتالي أصبحت معرفة أسماء المنافقين ليست سرا باطنيا كما يزعم الناس، وإنما فهما واضحا في نصوص الكتاب والسنة خاصة إذا كان صاحب هذا الفهم حذيفة بن اليمان ﷺ، الذي لم يشغله من أمر الدين شيء كما شغلته الفتن وأحداث الشر ومقدمات الملاحم وما يترتب عليها.

١ حديث أبي هريرة أخرجه مسلم في صحيحه ٣٥٣٣

الفصل الرابع

النفاق مكشوف في مجتمع المدينة

يعتقد كثير من الباطنية أن أمر النفاق كان سرا لا يعلمه سوى حذيفة بن اليمان ﷺ، وهذا فهم غير صحيح، فإننا إذا تتبعنا كتب التاريخ والسيرة وكتب السنة، نجد المنافقين معروفين بالاسم، ولا يختلف أحد عليهم، وسنضرب أمثلة لتأكيد هذه الحقيقة.

أولا: أشهر المنافقين.

١. عبد الله بن أُبيّ:

يَعْرِف المسلمون في عهد النبي ﷺ أن عبد الله بن أبي هو رأس النفاق والمنافقين، حتى أنه عندما مات طمع ابنه عبد الله في حلم النبي ﷺ ورأفته فجاءه يرجوه أن يستغفر لأبيه، فكان من أمرهما ما ترويه كتب السنة، يقول عبد الله: يا رسول الله أعطني قميصك أكفنه فيه، وصلِّ عليه واستغفر له، فأعطاه النبي ﷺ قميصه، فقال: آذني أصلي عليه، فآذنه فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر ﷺ، فقال: أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال ﷺ: «أنا بين خيرتين، قال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة-٨٠]، فصلى عليه، فنزلت: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة-٨٤]»، وتثبت هذه الواقعة أن رأس النفاق معروف بين الناس، ولا يجد الفاروق عمر أي غضاضة أن يتهم الرجل بعد موته بالنفاق، وأمام ولده الذي لم ينفي التهمة عن أبيه، وإنما أراد أن يشفع له النبي ﷺ.

٢. حرقوص بن زهير:

وروى جابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري أن ذا الخويصرة، وهو: حرقوص بن زهير أتى رسول الله ﷺ بالجِعرانة مُنْصَرِفَه من حنين، وفي ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها يعطي الناس، فقال: يا محمد اعدل، قال ﷺ: ﴿ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل، لقد خِبت وخَسِرْت إن لم أكن أعدل﴾، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق، فقال ﷺ: ﴿معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية﴾[1]، فذو الخويصرة يصفه الفاروق عمر بالنفاق في مجلس النبي ﷺ، وبين أصحابه رضوان الله عليهم، فيؤكد النبي ﷺ ذلك، بل ويحذر أصحابه من أصحاب هذا الرجل، وأنهم يخرجون من الدين ولا يعودون، وقد تحققت نبوءة النبي ﷺ، فخرجت الخوارج وأفكار التكفير من نسل هذا المنافق وأصحابه.

٣. الجلاس بن سويد المنافق التائب:

كان الجلاس بن سويد زوجا لأم عمير بن سعيد، وكان عمير بن سعيد غلاما في السنة التاسعة من الهجرة، حين عزم رسول الله ﷺ على الخروج لتبوك، وقد أزمع المنافقون على التخلف عن شهود هذه الغزوة، فسمع عمير يوما الجلاس يقول: إن كان ما يقول محمد حقا لنحن شر من الحمير، فقال عمير للجلاس: والله إنك لأحب الناس إلي، وأحسنهم عندي يدا [أي معروفا]، وأعزهم علي أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها إلي رسول الله لأفضحنك، ولئن صمت عليها ليهلكن ديني، ولإحداهما أيسر من الأخرى، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ يخبره بمقولة الجلاس، فاستدعى النبي ﷺ الجلاس، وسأله عما قال، فأنكر الجلاس، واتهم عميرا بالكذب، وما لبث أن نزل الوحي على رسول الله ﷺ بقول الله ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِّ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا

---

١ أخرجه مسلم في صحيحه ١٧٦١

إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [التوبة-٧٤].

ولما انتهى أمين الوحي جبريل ﷺ من تبليغ هذه الآية تلاها رسول الله ﷺ على أصحابه، ثم أخذ بأذن عمير بن سعد ﷺ، وقال له: وفت ذمتك يا غلام، وصدقك ربك عز وجل، حينئذ أحس الجلاس بافتضاح أمره، فأقبل على رسول الله ﷺ، قائلا: استتب لي ربي، فإني أتوب إلى الله، وأشهد أن عميرا صادق، لقد سارع الجلاس إلى التوبة، واعترف بذنبه، ولو كابر وجادل وأنكر ربما استمر على نفاقه إلى يوم القيامة، ولأصبح من أعلام النفاق في المجتمع المدني.

٤. زيد بن اللُّصيت:

حدث في غزوة تبوك أن ضلت ناقة رسول الله ﷺ فخرج أصحابه في طلبها، ويروي لنا ابن إسحاق بقية الأحداث كما يلي: وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له عمارة بن حزم، وكان عَقَبِيًّا [أي شهد بيعة العقبة] بدريا [أي شهد بدرا]، وكان في رَحْلِهِ زيد بن اللصيت القينقاعي وكان منافقا، فقال زيد، وهو في رحل عمارة: أليس يزعم محمد أنه نبي، يخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: إن رجلا قال كذا وكذا، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها [أي على الناقة]، وهي في هذا الوادي في شِعب كذا، وقد حبستها شجرة بزمامها. فذهبوا فجاءوا بها. فذهب عمارة إلى رحله فقال: والله عجبٌ من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفا، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا. فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي. فأقبل عمارة على زيد يَجَأُ [أي يُمسك] في عنقه ويقول: أي عباد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر، اخرج أي عدو الله من رحلي. وزعم بعضهم أن زيدا تاب بعد ذلك.

٥. وديعة بن ثابت:

قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ۞ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة٦٤-٦٥].

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، قال الطبري وغيره، عن قتادة: بينما النبي ﷺ يسير في غزوة تبوك، وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: انظروا هذا يفتح قصور الشام، ويأخذ حصون بني الأصفر! فأطلعه الله سبحانه على ما في قلوبهم، وما يتحدثون به، فقال: احبسوا علي الركب، ثم أتاهم، فقال: قلتم كذا وكذا، فحلفوا: ما كنا إلا نخوض ونلعب. يقول ابن عمر رضي الله عنهما رأيت قائل هذه المقالة وديعة بن ثابت متعلقا بحقب ناقة النبي ﷺ يماشيها والحجارة تنكبه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب"[1].

ويروي لابن إسحاق قال: قد كان رهط منهم وديعة بن ثابت، ومُخَشِّن بن حُمَيْر، يشيرون إلى رسول الله ﷺ، وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم إلى بعض: أتحسبون جِلَاد [أي قتال] بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا غدا مُقَرَّنين في الحبال [أي أسرى] إرجافا وترهيبا للمؤمنين، فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أني أُقَاضَى على أن يُضرب كل منا مائة جلدة، وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: أدرك القوم فقد اخترقوا [بمعنى هلكوا وفي بعض النسخ احترقوا]، فسلهم عما قالوا، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون، فقال وديعة بن ثابت: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فنزلت الآية، وختمت بقوله تعالى: ﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة-٦٦]، فقال مخشن بن حمير: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي،

١ الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي ٣٠٣٦

فكان الذي عُفِي عنه في هذه الآية:" مخشن، فتسمى عبد الرحمن، فسأل الله أن يقتله شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر.

وعندما يروي الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين هذه الواقعة، ألا يدل ذلك على أنهم يعرفون من أخبر به النبي ﷺ، وهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يصرح باسم واحد من المنافقين، ويعلن أنه وديعة بن ثابت، فأين إذن اختصاص حذيفة بأسماء المنافقين!

ثانيا: تخلف المنافقين عن تبوك.

بعد أن ذكرنا بعض المنافقين المعروفين بأسمائهم، نعرض الآن جماعة معروفة في المجتمع حيث تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ في ساعة العسرة يوم تبوك، وقد وصفهم القرآن الكريم بالنفاق قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة-٨١]، فهذا كعب بن مالك يروي حال المدينة المنورة عندما تخلف عن غزوة تبوك، فيقول: "فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا[1] عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء"[2]، وكان عددهم يقارب التسعين رجلا، وبهذا أخبر كعب بن مالك في حديث، حيث يقول: "ثم جلس للناس [أي رسول الله ﷺ بعد عودته من تبوك]، فجاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا".

لا شك أن الناس يعرفون كل من تأخر عن الخروج مع رسول الله ﷺ، فالأسواق تعرفهم والجيران يشاهدونهم، وقد خلت المدينة من رجالها، ولا يظن أحد أن معرفة أسمائهم نوع من الأسرار وعلم البواطن.

---

١ وكلمة مغموصا: أي متهما بالنفاق.

٢ متفق عليه أخرجه البخاري ٢٨٥٨، ومسلم ٤٩٧٣، وأبو داود ٤٠٦٦، والترمذي ٣٠٢٧، والنسائي ٧٢٣، وأحمد في مسنده ٣: ٤٥٤، والدارمي في سننه ١٤٨٠

ثالثا: المنافقون يمنعون الزكاة.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَّ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَّ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة ٧٥:٧٧]، يروي العلماء منهم القرطبي وابن الجوزي عن الضحاك وغيره أن هذه الآيات نزلت في نبتل بن الحارث، وجد بن قيس، ومتعب بن قشير. وقد اتخذ الإسلام من نفقات المنافقين موقفا واضحا قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهَّ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة٥٣-٥٤]، فالمنافقون يصلون مع المسلمين، وعلامة نفاقهم أنهم يؤدون الصلاة وهم كسالى، ولا ينفقون عادة، وإذا اضطرتهم الظروف إلى الإنفاق، تراهم يتصدقون وهم كارهون.

رابعا: مؤامرات المنافقين.

لم تتوقف مؤامرات المنافقين على الإسلام ورسوله الكريم ﷺ وقد أشار القرآن إلى مؤامراتهم بقوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾، فيروي ابن الجوزي في تفسيره أن المنافقين هموا بقتل النبي ﷺ، رواه مجاهد، عن ابن عباس قال: والذي هم رجل يقال له: الأسود، وقال مقاتل: هم خمسة عشر رجلا، هموا بقتله ليلة العقبة[1]، فهذا حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يعرف من المنافقين رجلا اسمه الأسود، ويحدد لنا سبب نفاقه، كما أن مقاتل يحدد من المنافقين خمسة عشر رجلا.

١ زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي ٣: ٤٧١

خامسا: النبي ﷺ يكشف المنافقين.

اضطر رسول الله ﷺ أن يرد على نشاط المنافقين المتزايد في مجتمع المدينة، يقول أبو مسعود الأنصاري: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

﴿إن فيكم منافقين، فمن سميت فليقم، ثم قال: قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى سمى ستة وثلاثين رجلا، ثم قال: إن فيكم [أو منكم]، فاتقوا الله، قال: فمر عمر على رجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه،قال:ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بُعْدًا لك سائر اليوم﴾[1]

سادسا: أم سلمة تعرف المنافقين.

كيف يعتقد الناس أن معرفة أسماء المنافقين كانت سرا، وهي مذاعة على منبر رسول الله ﷺ، ويسمعها أكثر الصحابة. ولكن ليس من الإنصاف أن نطالب كل الصحابة بتتبع أسماء المنافقين وحفظها، كما أن الزعم بأن معرفة أسماء المنافقين أحد العلوم الباطنة هو قول أجوف يخلو من الحقيقة، وعلى افتراض أنه من العلم الباطن كما يحلو للباطنية أن يروجوا بين أتباعهم، فهو من الباطن الموافق للظاهر المحقق والمطابق له. ويؤكد ما ذهبنا إليه حديث يَسألُ فيه عمر بن الخطاب سيدتنا أم سلمة رضوان الله عليهما، نفس سؤاله لحذيفة، فقد روى مسروق، قال: دخل عبد الرحمن على أم سلمة رضي الله عنها، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أموت أبدا، فخرج عبد الرحمن من عندها مذعورا، حتى دخل على عمر، فقال له: اسمع ما تقول أمك، فقام عمر حتى أتاها، فدخل عليها فسألها، ثم قال: أنشدك الله أَمِنْهُم أنا؟ فقالت: لا، ولن أُبَرِّئ بعدك أحدا﴾.

فلو كان علم النفاق خاص بحذيفة ما سأل عمر أم سلمة نفس سؤاله له، ولكن شدة خوف عمر من ربه ﷻ هو المسئول عن الأمة بكاملها - وهذا دافع كاف جدا لعمر رضي الله عنه ليكرر

---

١ رواه أحمد في مسنده ٢١٣١٧

سؤاله للآخرين. هو ما دعاه إلى الاطمئنان من أكابر الصحابة عن سلوكه وسياسته وأسلوب إدارته للدولة الإسلامية الوليدة، وكيف يرونه بعيونهم، ولا سيما وهو يحمل على كاهله هموم أمته ولا يفارق عقله مسئوليته أمام ربه عن أحوال رعيته. إن إحساس عمر بن الخطاب بالمسئولية، وإدراكه لعظمها، جعلته يرفض ترشيح الصحابة لولده عبد الله بن عمر البار التقي لخلافته في إدارة الدولة وإمارة المؤمنين، ألا يدفع خوف كهذا صاحبه إلى أن يتحرى ويكثر من السؤال، حتى يطمئن قلبه على سلامة قراراته، وصدق نيته فيها. رحمك الله يا أبا حفص ورضي عنك، فقد أتعبت كل من حكم الناس بعدك.

الفصل الخامس

أبو هريرة وجرابا العلم

يزعم الصوفية أن النبي ﷺ قال: ﴿إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى، فلا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما منه، فإن الله ﷻ لم يحقره إذ آتاه إياه﴾[1]، "ولكن ليس في هذا من الباطن الذي يخالف الظاهر شيء، بل ولا فيه من حقائق الدين خردلة وإنما كان في ذلك الجراب: الخبر بما سيكون من الملاحم والفتن، فالملاحم هي الحروب التي بين المسلمين والكفار، والفتن ما يكون بين المسلمين، ولهذا قال عبد الله بن عمر: "لو أَخْبَرَكم أبو هريرة، أنكم تقتلون خليفتكم، وتفعلون كذا وكذا لقلتم كذب أبو هريرة، وإظهار مثل هذا مما تكرهه الملوك، وأعوانهم لما فيه من الإخبار بتغير دولهم".

ويشرح ابن حجر هذا الحديث بقوله: "حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه [أبو هريرة] على الأحاديث التي فيها تبيين أسماء أمراء السوء وأحوالهم، وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضهم، ولا يصرح بهم خوفا على نفسه منهم، كقوله: أعوذ بالله من رأس الستين، وإمارة الصبيان، يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة، واستجاب الله

---

١ رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف، والسلمي متهم بوضع الأحاديث للصوفية، ذكره أبو حامد الغزالي في الإحياء في كتاب العلم ص ٣٥، وصرح الحافظ العراقي بتضعيفه عند تخريج أحاديث الإحياء، وأخرجه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٢: ٢٦٢ حديث رقم ٨٧٠، وقال عنه: حديث ضعيف جدا، كما أشار بضعفه المنذري في الترغيب والترهيب ١: ٦٢ وإسناد الحديث ضعيف جدا، ورواه راوٍ متهم بوضع الحديث. وأما الحديث المأثور: "إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله، فإذا ذكروه لم ينكره إلا أهل الغرة بالله"، وذكر شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري عن شيخه يحيى بن عمار أنه كان يقول: المراد بذلك أحاديث الصفات.

أما حديث أبي هريرة الذي يقول فيه: ﴿حفظت من رسول الله ﷺ جرابين [أي من العلم]: فأما أحدهما فبثثته فيكم، وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم هذا البلعوم﴾. انفرد به البخاري في كتاب العلم حديث ١١٧، فهو حديث صحيح.

دعاء أبي هريرة، فمات قبلها بسنة. قال ابن المنير: جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم، حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهرا وباطنا، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين.

ويستطرد ابن حجر قائلا: "وإنما أراد أبو هريرة بقوله قطع هذا البلعوم، أي قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسعيهم،.. وقال غيره: يحتمل أن يكون أراد مع الصنف المذكور [الذي إذا بثه] ما يتعلق بأشراط الساعة، وتغيير الأحوال، والملاحم في آخر الزمان، فينكر ذلك من لم يألفه، ويعترض عليه من لا شعور له به"[١]، ومن ذلك أيضا ما أخرجه مسلم في صحيحه عن قيس بن عباد قال: قلنا لعمار بن ياسر: أرأيت قتالكم أرأيا رأيتموه فإن الرأي يخطئ ويصيب، أو عهدا عهده إليكم رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئا لم يعهده إلى الناس كافة﴾[٢]

وقد خلط كثير من الصوفية والباطنية حين فهموا مجموعة من الأحاديث والأخبار التي تنهي المرء أن يحدث بكل ما سمع، وبين الإشارة إلى غوامض الأشياء وعلوم الباطن، فكل ما روي في هذا الشأن: ما انفرد به البخاري، عن علي ﷺ، أنه قال: "حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله". انفرد به البخاري في باب من خص بالعلم قوما كراهية أن لا يفهموا حديث ويعلق عليه ابن حجر العسقلاني في شرحه فتح الباري فيقول: "وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة. فقد أنكر الحسن تحديث أنس بن مالك للحجاج بقصة العرنيين؛ لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء، بتأويله الواهي. وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره

١ فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١: ١٧٤

٢ أخرجه مسلم في صحيحه ٤٩٨٣، وأحمد في مسنده.

مطلوب، والله أعلم"[١]، كحديث أبي هريرة الذي يرفعه إلى النبي ﷺ الذي يقول فيه: ﴿كفى بالمرء كذبا أن يُحَدِّث بكل ما سمع﴾[٢]، وكذا ما ورد عن عمر بن الخطاب، وابن عمر رضي الله عنهما الذي يقولان فيه: "بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع"[٣]، وأيضا قول ابن مسعود ﷺ: "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"[٤]. وقد ذكر مسلم في نفس الباب ما يخصص المعني المراد هو خشية الكذب، فينقل عن الإمام مالك أنه قال لابن وهب: "اعلم أنه ليس يَسْلَمُ رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماما أبدا، وهو يحدث بكل ما سمع". يقول النووي في شرحه لصحيح مسلم: "وأما معنى الحديث والآثار التي في الباب، ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع، فقد كذب لإخباره بما لم يكن، وقد تقدم أن مذهب أهل الحق: أن الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، ولا يشترط فيه التعمد، لكن التعمد شرط في كونه إثما، والله أعلم"[٥].

١ فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١: ١٨٢

٢ أخرجه مسلم في كتاب المقدمة حديث ٦، وأبو داود في الأدب حديث

٣ أخرجه مسلم في كتاب المقدمة.

٤ أخرجه مسلم في كتاب المقدمة باب النهي عن الحديث بكل ما سمع

٥ صحيح مسلم بشرح النووي مجلد ١: ٧٥ انتهى شرح النووي.

الفصل السادس

هل خص النبي ﷺ كل قوم بما يصلحهم؟

يناقش شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى قول الباطنية: إن النبي ﷺ خص كل قوم بما يصلحهم، فيقول: هذا الكلام له وجهان:

١. إن أراد به أن الأعمال المشروعة يختلف الناس فيها بحسب اختلاف أحوالهم فهذا لا ريب فيه: فإنه ليس ما يؤمر به الفقير كما يؤمر به الغني. ولا ما يؤمر به المريض كما يؤمر به الصحيح. ولا ما يؤمر به عند المصائب كما يؤمر به عند النعم. ولا ما تؤمر به الأئمة كالذي تؤمر به الرعية. فأمر الله لعباده قد يتنوع بتنوع أحوالهم، كما يشتركون في أصل الإيمان بالله وتوحيده، والإيمان بكتبه ورسله.

٢. وإن أراد به أن الشريعة في نفسها تختلف، وأن النبي ﷺ خاطب زيدا بخطاب يناقض ما خاطب به عمرا، أو أظهر لهذا شيئا يناقض ما أظهره لهذا،.. وأنه خاطب العامة بأمور أراد بها خلاف ما أفهمهم لأجل مصلحتهم، إذ كان لا يمكنه صلاحهم إلا بهذا الطريق.

فإن قول هؤلاء من أكفر الأقوال، وجهلهم من أعظم الجهل، إذ لو كان الأمر كذلك، فلا بد أن يعلمه أهل العقل والذكاء من الناس، وإذا علموه امتنع في العادة تواطؤهم على كتمان ما تتوفر الهمم والدواعي على بيانه وذكره، لا سيما مثل معرفة هذه الأمور العظيمة، التي معرفتها والتكلم بها من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي عليه،.. وإذا كانت الرسل تُبطن خلاف ما تُظهر، فإما أن يكون العلم بهذا الاختلاف ممكنا لغيرهم، وإما: أن لا يكون، فإن لم يكن ممكنا كان مدعي ذلك كذابا مفتريا، وإن كان العلم بذلك ممكنا، علم بعض الناس مخالفة الباطن للظاهر، وليس لمن يعلم ذلك حد محدود، بل إذا علمه هذا، علمه هذا وعلمه هذا،

فيشيع هذا ويظهر. وينفي الصحابة رضوان الله عليهم دعوى اختصاص بعضهم بعلم دون غيرهم، ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن قيس بن عباد، قال: قلنا لعمار بن ياسر: أرأيت قتالكم أرأيا رأيتموه؛ فإن الرأي يخطئ ويصيب، أو عهدا عهده إليكم رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئا لم يعهده إلى الناس كافة﴾[1].

ونضيف إلى هذه المعاني أيضا: أن رسول الله ﷺ قد سُئل سؤالا واحدا من عدد من الصحابة، فتعددت إجاباته ﷺ، ويعد سؤال: أي الأعمال أفضل؟ من أشهر هذه الأمثلة، فقد أجاب في رواية كل من: أم فروة [وهي من المبايعات] أجاب ﷺ بقوله: ﴿الصلاة في أول وقتها﴾[2]، بينما أجاب في رواية عبد الله بن حُبْشِي الخثعمي بقوله: ﴿طول القيام﴾[3]، وفي رواية عبد الله بن حُبْشِي الخثعمي التي أوردها النسائي في سننه أن رسول الله ﷺ أجاب بقوله: ﴿إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة﴾ وفي رواية أبي هريرة: ﴿سأل رجل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله، قال: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قال: ثم ماذا؟ قال: ثم حج مبرور﴾[4]، ولما سأله عبد الله بن مسعود نفس السؤال أجابه رسول الله ﷺ بقوله: ﴿الصلاة على وقتها، قال: قلت ثم أي، قال: ثم بر الوالدين، قال: قلت ثم أي، قال: ثم الجهاد في سبيل الله﴾[5].

وكما نرى أن الإجابة تعددت، وكل منها يوجه صحابيا جليلا إلى غايته أن يعبد الله تبارك وتعالى بأفضل الأعمال، ولا يخفي أن بر الوالدين يسبق الجهاد للصحابي الذي ما زال

---

١ أخرجه مسلم حديث ٤٩٨٣، وأحمد في مسنده ٥: ٣٩٠، وذكره ابن تيمية في الفتاوى الكبرى.

٢ حديث أم فروة أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ٣٦٢

٣ حديث عبد الله بن حُبْشِي الخثعمي أخرجه أبو داود في الصلاة حديث ١١٢٩، والنسائي ٢٤٣٤، وأحمد في مسنده ٣: ٤١١ والدارمي في سننه ١٣٨٨

٤ حديث أبي هريرة متفق عليه أخرجه البخاري في الإيمان ٢٥، ومسلم في الإيمان ١١٨، والترمذي في فضائل الجهاد ١٥٨٢، والنسائي ٢٥٧٧، وأحمد في مسنده ٣: ٢٥٨، والدارمي في سننه ٢٢٨٦

٥ حديث عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ١٢٢

أبويه على قيد الحياة، أما إذا سأل نفس السؤال من مات أبويه، فإن ترتيب الأعمال يتغير بالنسبة له، وهكذا تكون كل إجابة من منظور مصلحة السائل، فليس الأمر مجردا، ومن يرى في هذا الأمر أن رسول الله خص كل قوم بما يصلحهم فلا حرج من هذا الفهم، ولكن مع وضع المحاذير الآتية:

١. أن إجابة رسول الله ﷺ لم تخرج عن حيز العلم الظاهر الذي تعرفه الأمة.
٢. لم يُسِرَّ رسول الله ﷺ لأحد مما سأله باسم سرياني، أو وفق من الأوفاق، أو علمه الاسم الأعظم، أو أي شيء من تلك الأمور التي يزعمها الباطنية.

الفصل السابع

الظاهر والباطن عند سلف الأمة

أولا: الظاهر والباطن في القرآن.

إذا بحثنا في القرآن الكريم عن الآيات التي ذكرت ألفاظ الظاهر والباطن نجدها ست آيات نوردها مع بيان فهم السلف الصالح لها.

١. الفواحش والإثم:

يقول سبحانه: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام-١٥١]، ويقول عز من قائل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف-٣٣] ويقول سبحانه: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام-١٢٠]، وتُجْمِع كتب التفاسير - بعد أن تذكر أقوال الصحابة والتابعين في هذه الآيات - فيما بينها على أن المراد من ظاهر الإثم والفواحش وباطنها - والله أعلم بمراده - هو كل ما عُصي الله به وانتُهكت به محارمه سره، وعلانيته ما ظهر منها أمام الناس، وما خفي عليهم واستتر عن أعينهم، ولم يشهده إلا الملائكة الكرام الكاتبون، بل إن هناك بواطن تخفى حتى على الملائكة من أعمال القلوب: كالتصديق، والطمأنينة، والسكينة، والصبر، والشكر، والرجاء والخوف، والتواضع والكبر، والحسد، والعجب، وسوء الاعتقاد، والعزم، والظن، والتمني، والشاهد الوحيد المطلع على القلوب هو الملك العلام الذي يعلم السر، وما هو أخفي من السر.

٢. النِّعَم الظاهرة والباطنة:

وكما حذرنا ﷻ من اقتراف ظاهر الإثم وباطنه، فقد وجهنا أيضا إلى شكر نعمه الظاهرة والباطنة، فيقول عز من قائل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان-٢٠]، وتعرض

كتب التفسير فَهْم خير قرون الإسلام عن هذه الآية فتقول: النعم الظاهرة: ما في الأعضاء من السلامة وما أوتي الإنسان من نعم في الحياة الدنيا على صورها المختلفة، والنعم الباطنة هي: الإيمان، والتسليم، والتفويض، والتوكل، والخوف، والرجاء، والحب، ويقول مجاهد: "النعم الظاهرة هي الإسلام، والقرآن، والرسول ﷺ، والرزق، والنعم الباطنة: هي ما ستر من العيوب والذنوب".

٣. السور بين الرحمة والعذاب:

أما الآية الخامسة فهي قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد-١٣]، يقول ابن عباس ﷺ: "السور هو الأعراف، وهو سور بين الجنة والنار، ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾، هي الجنة، ﴿وَظَاهِرُهُ﴾، يعني: من وراء السور، ﴿مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، وهو جهنم"[١]، وإلى هذا المعنى ذهب قتادة، ومجاهد، وابن زيد، ومقاتل، والكسائي، وغيرهم[٢].

٤. من أسماء الله الحسنى:

أما الآية السادسة فتعلمنا بعض أسماء الحق سبحانه حيث يقول: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد-٣]، وتفسير هذه الآية ما ورد عن النبي ﷺ حيث قال في دعائه: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدين، وأغننا من الفقر»[٣]، فهو سبحانه الظاهر القادر على كل شيء والغالب له، وأيضا الظاهر بالأدلة ونظر العقول في صفته وآثار قدرته، وهو الباطن الذي لا يدانيه شيء، فهو سبحانه أقرب إلينا من

١ زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج بن الجوزي ٨: ١٦٦

٢ التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٩: ٢٢٦ والألوسي في روح المعاني ٩: ١٧٦، والجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي ٧: ٦٤١٦

٣ أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الذكر حديث ٤٨٨٨، وأبو داود في سننه ٤٣٩٢، والترمذي ٣٣٢٢، وابن ماجة في سننه ٣٨٢١، وأحمد في مسنده ٢: ٣٨١

حبل الوريد، قربا بعلمه وقدرته وإحاطته ومشيئته، لا قربا بذاته كما يفهمه أصحاب وحدة الوجود، فهو سبحانه: ليس كمثله شيء.

ويقول الثوري ﷺ في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة-٧].

يقول الثوري: "علمه معكم أينما كنتم"، وقد أجمعت الأمة على تفسير المعية في هذه الآية على أنها معية العلم، وأنها لا تُحمل على معية الذات، فالآية تبدأ بالعلم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ [المجادلة-٧]، وتنتهي بالعلم أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة-٧] للإشارة إلى معية العلم والإحاطة. ومذهب السلف هو إثبات العلو لله تبارك وتعالى، علو الذات، وعلو القدر، وعلو المكانة، وبهذا نصت الآيات القرآنية في سورة الملك، حيث يقول تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۞ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك١٦-١٧].

وهذه الآيات تقرر علو الحق تبارك وتعالى، وأنه فوق جميع مخلوقاته من الجن والإنس والملائكة والسموات والأرض، وقد ورد في السنة النبوية عن معاوية بن الحكم السلمي أنه: أراد أن يعتق جارية، فقال: فقلت: «يا رسول الله: أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها، فأَتَيْتُه بها، فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة»[1].

وَرُبَّ قائل يقول: أن رسول الله ﷺ أمر أن نخاطب الناس على قدر عقولهم، وهو يطبق هذه القاعدة مع هذه الجارية، وأنه قَبِلَ إجابتها لأنها لا تدرك أكثر من ذلك، والإجابة على هذا

١ أخرجه مسلم في صحيحه حديث ٨٣٦، وأبو داود في سننه ٧٩٥، والنسائي في السهو: ١٢٠٣، ومالك في الموطأ حديث ٤٨٥، وأحمد في مسنده ٥: ٤٤٧، والحافظ ابن منده في كتاب الإيمان ١: ٢٣٠

السؤال أن رسول الله ﷺ أكد نفس المعنى في أحاديث أخرى منها ما قاله ﷺ في خطبته يوم عرفة: ﴿وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد﴾[1]، وكذا قوله ﷺ: ﴿ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء﴾[2]. وكذا قوله ﷺ: ﴿ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء﴾[3]. وليس معنى قول السلف الصالح: "أن الله تبارك وتعالى فوق سمواته مستوٍ على عرشه"، أنه بعيد عن خلقه، بل إن معية الله لخلقه بعلمه وقدرته وإحاطته من الأمور التي لا ينكرها إلا الجاحدون، والدليل على صحة هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد ٣-٤]، فخصصت الآية صفة العلم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثم في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾، ثم في ختام الآية أيضا وذلك قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فهي إذن معية علم وقدرة وإحاطة لا معية ذات، فحاشا لله أن يكون ملامسا لخلقه، أو ممازجا لهم، أو حالًّا فيهم، أو متحدا معهم، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. فالآيات القرآنية حين تتعرض صراحة للظاهر والباطن، لم تُشِر من قريب أو بعيد إلى تلك المفاهيم الصوفية والباطنية، وتقسيماتهم الوضعية.

١ حديث متفق عليه أخرجه البخاري في الحج ١٤٦٦، ومسلم في صحيحه، والدارمي في سننه ١٧٧٨، والترمذي في الحج: ٧٤٦، والنسائي ٢٨٩، وابن ماجة في سننه في المناسك ٢٩٠٤، وأحمد في مسنده ٣: ٣٧٨، وموطأ مالك في الحج.

٢ حديث متفق عليه أخرجه البخاري في المناقب ٣٣٤١، وأبو داود في سننه ٤١٣٦، والنسائي في الزكاة ٢٥٣١، وابن ماجه في سننه في المقدمة ١٦٥، وأحمد في مسنده ٣: ٤، وموطأ مالك في الزكاة ٤٣٨

٣ حديث عبد الله بن عمرو أخرجه أبو داود في سننه في الأدب ٤٢٩٠، والترمذي ١٨٤٧، وقال: حديث حسن صحيح.

ثانيا: التفسير والتأويل عند السلف.

لزمنا بعد أن عرضنا منطق الباطنية في التأويل، وكيف أخرجوا النص عن مراده بالكلية، أن نوضح فهم السلف الصالح عن التفسير والتأويل والفرق بينهما، فنقول وبالله التوفيق:

١ . التفسير لغة واصطلاحا:

- **تعريف التفسير في اللغة:**

التفسير هو الإيضاح، والتبيين، والكشف، وإظهار المعنى المعقول، تقول فسر الشيء، وفسره أي أبانه، قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، [الفرقان-٣٣]، والتفسير هنا أي البيان والتفصيل كما قال ابن عباس رضي الله عنه.

● **والتفسير في الاصطلاح:**

هو علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية، والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها التركيب، وعرفه الزركشي: بأنه علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه.

٢. التأويل لغة واصطلاحا:

● **والتأويل لغة:**

مأخوذ من الأول وهو الرجوع إلى الأصل، يقال: آل إليه أولا ومآلا، أي رجع وأصله من المآل وهو العاقبة والمصير قال تعالى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف-٨٢].

● **والتأويل في الاصطلاح:** له معنيان عند السلف.

● **حقيقة الكلام:**

أي ما يئول إليه الكلام ويرجع حقيقته التي هي عين المقصود "كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف-٥٣]، والتأويل هنا هو مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها ووضع الموازين والجنة والنار.

● **تفسير الكلام:**

أي بيان معناه وهذا ما يعنيه ابن جرير الطبري في تفسيره بقوله: والقول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا، وبقوله أيضا: اختلف أهل التأويل في هذه الآية ومراده التفسير. التأويل عند المتأخرين: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به. وينبغي الانتباه إلى أهمية وجود دليل سمح بالحيود عن المعنى الراجح إلى معنى آخر يسمح به اللفظ، أما تأويلات الباطنية فهي صرف اللفظ عن مدلوله بلا حجة أو دليل على صحة هذا الصرف، غير الهوى والضلال.

٣. الفرق بين التفسير والتأويل:

- إذا أريد بالتأويل هو تفسير الكلام، وبيان معناه، فالتفسير والتأويل على هذا متقاربان.
- إذا أريد بالتأويل هو نفس المراد بالكلام: أي العاقبة التي تئول وتقع في ثاني حال، فالفرق كبير بينه وبين التفسير، لأن التأويل على هذا المعنى المراد به وقوع الْمُخْبَر به.
- وقيل إ ن التفسير ما وقع مبينا في كتاب الله أو معينا في صحيح السنة؛ لأن معناه قد ظهر ووضح، أما التأويل فهو ما استنبطه العلماء برأيهم، ولذا قال بعضهم التفسير ما يتعلق بالرواية والتأويل ما يتعلق بالدراية.
- قيل التفسير أكثر ما يستعمل في الألفاظ ومفرداتها، والتأويل أكثر ما يستعمل في المعاني والجمل[1].

ثالثا: العلم والحكمة عند السلف.

١. علوم قبل الإسلام:

اشتهر قبل الإسلام مجموعة من العلوم منها الفلسفة والمنطق والجدل وعلا شأنها بين علماء اليونان الأقدمين، ونتعرف بإيجاز على هذه العلوم حتى تساعدنا على فهم كلام الباطنية وغيرهم من دعاة البحث عن الحقائق في غير ما أنزل الله تعالى، وأولها:

- **الفلسفة:**

هي الاستخدام غير المغرض للعقل في البحث عن الحق واكتشافه، وكما يفهمها أرسطو "هي المجموع المنظم لكافة جوانب المعرفة المحررة من الغرض، أي المعرفة التي نسعى

١ نقلا عن الجداول الجامعة في العلوم النافعة لجاسم محمد مهلهل وآخرين ١٤٦

للحصول عليها من أجل المتعة التي يجلبها محض الحصول عليها، وليس لأنها مجرد أداة للأهداف النفعية، والدافع الذي يقابل هذه المتعة هو دافع فطري في الإنسان"[١].

والفلسفة عند القدماء هي الحكمة، أو العلم، وهدفه المباشر هو الحق ﷻ، ولهذا فإنه يستلزم البدء من مقدمات صادقة. والمشتغل بالفلسفة يسمى المحب للحكمة ويسمى باللغة اليونانية فيلسوفا، ومن هنا ظهر هذا الاسم في عالم المعرفة. ثم ظهر اسم السوفيست الذي كان عند قدماء اليونان أعظم شأنا من اسم الفيلسوف، الذي ظهر بعده، فالسوفيست: ينتمي إلى ربة الحكمة التي كانوا يسمونها "صوفيه"، وبالتالي كان معني السوفيست أنه الحكيم الذي ألهمته تلك الربة "صوفيه"، وفرغ من مئونة المعرفة، وأنه ملك الحكمة واستوفاها. فلما ظهر الحكيم فيثاغورس استكبر اسم السوفيست واعتبرها دعوى لا تنبغي له، فتواضع الرجل وسمى نفسه محبا للحكمة؛ لأنه يطلبها، ولا يزعم أنه وصل إليها.

● **المنطق:**

يظن كثير من الناس أن المنطق هو علم يجمع الأصول والقواعد التي يستعان بها على تصحيح النظر والتمييز، وبالتالي فهو بحث عن الحقيقة من طريق النظر المستقيم، والتمييز الصحيح.

● **الجدل:**

علم يعرفك بالأساليب التي تعينك على محاجة الخصوم، وإفحامهم في مجال المناقضة واللجاج، وقيل هو البحث عن الغلبة والإلزام بالحجة، قد يرمي إلى الكسب والدفاع عن مصلحة مطلوبة، وقد يتحرى مجرد المسابقة للفوز على الخصم، وإفحامه في مجال المناقضة واللجاج، إلا أن المنطق عند الفلاسفة يختلف معناه عما سبق بيانه، ففي رأي أرسطو أن الجدل: "هو فن البرهان الدقيق ابتداء من مقدمات محتملة أو ممكنة التصديق، سواء كانت صحيحة أم

---

١ أرسطو: ألفريد إدوارد تايلور، ترجمة د. عزت قرني: ٢٠

فاسدة، والجدل لا يهتم بصدق مقدماتها أو صحتها، ففي مقدورك أن تقيم برهانا جدليا معتمدا على مقدمات تعتقد أنت نفسك أنها خاطئة أو كاذبة، ولكنك تقيم برهانك قصدا من أجل إظهار النتائج المتناقضة غير المقبولة التي تؤدي إليها تلك المقدمات، كما أنك قد تقوم بالاستدلال ابتداء من مقدمات تفترض صحتها لكي ترى ما هي النتائج التي ستتمخض عنها - إن أنت قبلت بها - وفي كلتا الحالتين فإن هدفك المباشر ليس إظهار الحق، بل المحافظة على الاتساق"[1]. ومن يتبين لنا أن الجدال والمراء من الأمور المكروهة شرعا، فقد صح عن رسول الله ﷺ، أنه قال: ﴿أنا زعيم [أي ضامن وكفيل] ببيت في ربض [ما حول الجنة وفي أطرافها] الجنة، لمن ترك المراء، وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُنَ خلقه﴾[2].

● **السفسطة:**

تختلف عن العلم من وجهة النظر الأخلاقية، فهي مهنة تؤمن عيش صاحبها عن طريق إساءة استخدام البرهان والخدع باستخدام المهارة المنطقية في البرهنة الظاهرية على أخطاء علمية أو أخلاقية، ويقول أرسطو: "إن السفسطائي يكتسب رزقه من حكمة ظاهرية، ولكنها غير محققة، واهتمامه الفعلي إنما ينصب على أجره" [3].

٢. تعريف العلم:

كانت بداية العلم في الإسلام تنزل الوحي بقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق-١]، فكان وسيظل التوجيه القرآني واضحا حيث إن القراءة الصحيحة للإنسان لا بد أن تكون باسم الله، وليست باسم العقل أو من اجتهاداته، وحددت دائرة استخدام العقل

---

١ أرسطو: ألفريد إدوارد تايلور، ترجمة د. عزت قرني: ٢١

٢ حديث أبي أمامة الباهلي انفرد به أبو داود حديث ٤١٦٧ في كتاب الأدب

٣ أرسطو: ألفريد إدوارد تايلور، ترجمة د. عزت قرني.

في تأمل الخلق وعمارة الدنيا، هذا التأمل يُعرف الإنسان بخالقه من ناحية، ويقيم المجتمع الكامل أو المدينة الفاضلة التي كان ينشدها أفلاطون من ناحية أخرى، ومن هنا تعلم المسلمون عبر قرون الهداية أن الوحي وتفسيره أو الكتاب والسنة هما المنهل الصافي للعلوم، وروافد هذا المنهل تسقي الأصول الثلاثة التي يحتاجها المسلم لينال سعادة الدنيا والآخرة هي:

- معرفة الله ﷻ.
- معرفه دينه وأوامره ونواهيه.
- معرفة رسوله ﷺ.

لا سبيل لإدراك هذه الأصول الثلاثة إلا من خلال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبالتالي تراجعت مصطلحات الجدل والمنطق والفلسفة وغيرها وحل مكانها علوم الإسلام، وسيتبين لنا الفرق بين أدوات المسلم ووسائله التي يسلك بها إلى كمال المعرفة، وبين وسائل أرباب الفلسفة وأدعياء الباطن. ونبدأ مع ابن القيم رحمه الله حيث يقول: "إن الناس لا يختلفون في أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن دليل، وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد". والمعرفة الحاصلة عن دليل تأتي من الاستجابة لله ﷻ ولرسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص-٥٠]، فالأمر ينقسم إلى: هُدى وهَوى:-

- فالهدى ينتج عن اتباع الحق والاستجابة لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ
- والهوى هو ثمرة تقليد ما لم يأت به الرسول ﷺ ويؤكد نفس المعنى قوله سبحانه: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص-٢٦]، فخطاب الله تبارك وتعالى لنبيه داود ؑ، هو في نفس الوقت، خطاب عام لكل الناس، وتحذير الله لنبيه داود من اتباع الهوى تنبيه لنا جميعا

أن الحيود عن الحق، لا يكون إلا اتباعا للهوى، والهوى لا يوصل إلا إلى الضلال في الدنيا والعذاب يوم القيامة.

ويؤكد أهمية هذا التحذير الإلهي أن الله جل شأنه خاطب سيدنا محمدا ﷺ بنفس ما خاطب به داود تعليما لنا وتنبيها، وتحذيرا من الانصراف عن الوحي إلى أهواء الجاهلين، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية١٨-١٩]، فالشريعة هي وحي الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ وهي الحق، وطريق الولاية والتقوى، والميل عنها هو في حقيقته اتباع للهوى، ولأهواء الذين لا يعلمون. كما أن الهدى يقابله الهوى من الناحية الأخرى، فكذلك العلم يقابله الجهل، وبينهما مراحل عديدة، ونستطيع أن نتبين هذه المراحل إذا أمعنا النظر في تعريف السلف الصالح للعلم في كتب الأصول حيث يقولون:

"**العلم**: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكا جازما، كإدراك أن الكل أكبر من الجزء، وأن النية شرط في العبادة. فخرج بقولنا: إدراك الشيء عدم الإدراك بالكلية، ويسمى الجهل البسيط، مثل أن يُسأل: متى كانت غزوة بدر؟ فيقول: لا أدري. وخرج بقولنا: على ما هو عليه، إدراكه على وجه يخالف ما هو عليه ويسمى الجهل المركب، مثل أن يُسأل: متى كانت غزوة بدر؟ فيقول: في السنة الثالثة من الهجرة. وخرج بقولنا: إدراكا جازما، إدراك الشيء إدراكا غير جازم بحيث يحتمل عنده أن يكون على غير الوجه الذي أدركه، فلا يسمى ذلك علما، ثم إن ترجح عنده أحد الاحتمالين: فالراجح ظن، والمرجوح وهم، وإن تساوى الأمران، فهو شك. وبهذا تبين أن تعلق الإدراك بالأشياء كالآتي:

١. علم: وهو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكا جازما.
٢. جهل بسيط: وهو عدم الإدراك بالكلية.
٣. جهل مركب: وهو إدراك الشيء على وجه يخالف ما هو عليه.

٤. ظن: وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مرجوح.

٥. وهم: وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد راجح.

٦. شك: وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مساوٍ".

ويمكننا ترتيب هذه الدرجات حسب دقة الإدراك إلى: علم يليه ظن، ثم شك، ثم وهم، ثم جهل بسيط، ثم جهل مركب.

٣. مراتب العلم:

يمكن تقسيم مراتب العلم من حيث الحاجة إليه إلى قسمين: ضروري ونظري:

- **العلم الضروري:**

ما يكون إدراك المعلوم فيه ضروريا، بحيث يضطر إليه من غير نظر ولا استدلال، كالعلم بأن الكل أكبر من الجزء، وأن النار حارة، وأن محمدا رسول الله.

- **العلم النظري:**

ما يحتاج إلى نظر واستدلال: كالعلم بوجوب النية في الصلاة" (١)، والحق تبارك وتعالى عليم خبير بصير بخلقه وبما يصلحهم، لذا أنزل كتابه فيه صلاح خلقه وهدايتهم، وأعلم الخلق بالله تعالى هو النبي، وهو الذي يبين لنا ما نزل علينا، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي أوحاه الله إليه، لذلك أدرك السلف أن العلم هو تلقي المعارف عن الله ﷻ من خلال كتابه العزيز، وعن رسوله الكريم ﷺ من خلال سنته الشريفة المدونة في مصادر الحديث، وهذا التلقي يجعلنا ندرك الأشياء على ما هي عليه إدراكا جازما، يقوم عليه الدليل، فمن يعلم الأشياء على حقيقتها إلا خالقها وبارئها ومصورها؟ ومن يُفصل لنا هذا الإدراك ويشرحه لنا أصدق من الصادق الأمين رسول رب العالمين، المبعوث رحمة للعالمين؟ ألم يكلفه ربه بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل-٤٤]، فالبيان جاءنا ممن أوتي جوامع

١ الأصول في علم الأصول لمحمد صالح العثيمين ١٣ - ١٤

الكلم، أخشى خلق الله لله، وأعرفهم به سبحانه؛ لذا حظيت أمته بأعظم إدراك، حيث تلقت المعارف من منبعها، ولا شك أن خسران أتباع هذه الأمة كبير، إذا طلبوا العلم فيما سوى ذلك، فلن يصلوا إلا إلى ظن لا دليل عليه؛ ولذلك وصفهم الحق سبحانه بقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم-٢٣]، ورضي الله عن الشافعي، حيث يقول:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

٤. الحكمة:

• الحكمة في اللغة:

نتعرف أولا على المعاني اللغوية للحكمة، وماذا تفهم العرب من هذه اللفظة، لذا نرجع إلى ابن منظور الذي يقول في كتابه الجامع "لسان العرب" ما يلي: الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم. والحكمة: العدل، ورجل حكيم: أي رجل عدل، وأحكم الأمر: أتقنه، واحتكم الأمر واستحكم: أي وَثُقَ، وأحكمته التجارب، وأحكمت الشيء، فاستحكم صار محكما، وحكم الشيء، وأحكمه كلاهما أي منعه من الفساد، وحكمت[1] السفيه وأحكمته: إذا أخذت على يده [أي منعته من الفساد والإفساد].

• الحكمة في الاصطلاح:

يروي أبو الفرج بن الجوزي في كتابه نزهة الأعين النواظر قول بعض أهل العلم: الحكمة ضرب من العلم يمنع من ركوب الجهل، وقال آخرون: الحكمة خروج نفس الإنسان إلى كمالها الممكن لها في حدي العلم والعمل، فحينئذ تنال الخُلُق الذي يسمى العدالة.

١ والحَكَمَةَ: حديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه.

وذكر أهل التفسير أن الحكمة في القرآن على ستة أوجه:

١. الموعظة: ومنه قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر-٥].

٢. السُّنَّة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة-١٢٩]، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة-٢٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء-١١٣]، وقوله جل شأنه: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران-١٦٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب-٣٤].

٣. الفهم: ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام-٨٩]، وفي مريم: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم-١٢]، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء-٧٩] وفي سورة لقمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان-١٢]

٤. النبوة: ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾[البقرة-٢٥١]، وفي [سورة ص]: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [سورة ص-٢٠].

٥. القرآن: ومنه قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [النحل-١٢٥]، وقيل علوم القرآن: ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة-٢٦٩].

٦. وقيل الحكمة هي: الفقه والعلم والإصابة والعقل في الدين.

٧. ومما سبق يتبين لنا أن العلم ما قام عليه الدليل، وأن أشرف دليل هو الكتاب والسنة، والحكمة لفظ مرادف لهما، والعلم بالتعلم كما أسلفنا، والحكمة ثمرة الاتباع، وينالها من سلك على صراط الله المستقيم، ومن اقتدى بالمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

٥. فهم السلف الصالح:

صح عن الحسن البصري أنه قسم العلم إلى قسمين فقال: "العلم علمان: فعلم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم".

أما الباطنية الذين يزعمون أن للقرآن ظاهرا وباطنا، فتراهم يروون خبر أن الحسن البصري قال: ويزعم آخرون أن الحسن يرويه عن النبي ﷺ مرسلا أنه قال: "إن لكل آية ظهرا وبطنا، وحدا ومطلعا"، وهذا الخبر لا يوجد في شيء من كتب الحديث كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، ثم يستطرد قائلا: "وقد شاع في كلام كثير من الناس: "علم الظاهر وعلم الباطن"، وأهل الظاهر وأهل الباطن، ودخل في هذه العبارات حق وباطل"، ثم يحدد شيخ الإسلام أين الحق والباطل في هذه الأقوال؟ فيقول: قول الرجل: "الباطن" إما أن يريد علم الأمور الباطنة مثل: العلم بما في القلوب من المعارف والأحوال، والعلم بالغيوب التي أخبرت بها الرسل، وإما أن يريد به العلم الباطن، أي الذي يبطن عن فهم أكثر الناس، أو عن فهم من وقف مع الظاهر ونحو ذلك. فأما الأول فلا ريب أن العلم منه: ما يتعلق بالظاهر كأعمال الجوارح، ومنه ما يتعلق بالباطن كأعمال القلوب، ومنه ما هو علم بالشهادة، وهو ما يشهده الناس بحواسهم، ومنه ما يتعلق بالغيب وهو ما غاب عن إحساسهم. وأصل الإيمان هو الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة١:٣]، والغيب الذي نؤمن به ما أخبرت به الرسل من الأمور العامة، ويدخل في ذلك الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، وملائكته والجنة والنار، فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر يتضمن الإيمان بالغيب، فإن وصف الرسالة هو من الغيب، وتفصيل ذلك هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة-١٧٧]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا﴾ [النساء-١٣٦]، والعلم بأحوال

القلوب كالعلم بالاعتقادات الصحيحة والفاسدة، والإرادات الصحيحة والفاسدة، والعلم بمعرفة الله ومحبته، والإخلاص له وخشيته، والتوكل عليه والرجاء له، والحب فيه والبغض فيه، والرضا بحكمه والإنابة إليه، والعلم بما يُحمد ويُذم من أخلاق النفوس: كالسخاء والحياء، والتواضع، والكبر والعجب، والفخر والخيلاء، وأمثال ذلك من العلوم المتعلقة بأمور باطنة في القلوب ونحوه.

قد يقال: له: "علم الباطن" أي علم بالأمر الباطن، فالمعلوم هو الباطن، وأما العلم الظاهر فهو ظاهر يُتكلم به ويُكتب، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة وكلام السلف وأتباعهم، بل غالب آي القرآن هو من هذا العلم، فإن الله أنزل القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس-٥٧] بل هذا العلم هو العلم بأصول الدين، فإن اعتقاد القلب أصل لقول اللسان، وعمل القلب أصل لعمل الجوارح، والقلب هو مَلِكُ البدن، كما قال أبو هريرة ﷺ: "القلب مَلِكٌ والأعضاء جنوده، فإن طاب المَلِكُ طابت جنوده، وإن خبث المَلِكُ خبثت جنوده". وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، وفي المسند عن النبي ﷺ، أنه قال: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب، قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، قال: ثم يقول: التقوى ههنا، التقوى ههنا»، وكلام الصحابة والتابعين في هذا أكثر منها في الإجارة والحيض والطهارة بكثير كثير، ولكن هذا العلم ظاهر موجود مقول باللسان، مكتوب في الكتب، ولكن من كان بأمور القلب أعلم كان أعلم به وأعلم بمعاني القرآن والحديث. وعامة الناس يجدون هذه الأمور في أنفسهم ذوقا ووجدا فتكون محسوسة لهم بالحس الباطن، لكن الناس في حقائق الإيمان متفاضلون تفاضلا عظيما،... ويستكمل ابن تيمية حديثه قائلا: فلهذا كان في حقائق الإيمان الباطنة وحقائق أنباء الغيب التي أخبرت بها الرسل ما لا يعرفه إلا خواص الناس، فيكون هذا العلم باطنا من جهتين: من جهة كون المعلوم باطنا. ومن جهة كون العلم باطنا لا يعرفه أكثر الناس.

ثم إن الكلام في هذا العلم يدخل فيه من الحق والباطل ما لا يدخل في غيره، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق، وما خالف ذلك فهو الباطل، كالكلام في الأمور الظاهرة. وأما إذا أريد بالعلم الباطن العلم الذي يبطن عن أكثر الناس أو عن بعضهم فهذا على نوعين: أحدهما: باطن يخالف العلم الظاهر، والثاني: لا يخالفه. أما الأول: فباطل، فمن ادعى باطنا أو علما بباطن وذلك يخالف العلم الظاهر كان مخطئا، إما ملحدا زنديقا وإما جاهلا ضالا. وأما الثاني: فهو بمنزلة الكلام في العلم الظاهر قد يكون حقا، وقد يكون باطلا، فإن الباطن إذا لم يخالف الظاهر لم يعلم بطلانه من جهة مخالفته للظاهر المعلوم، فإن عُلِمَ أنه حق قُبِلْ، وإن عُلِمَ أنه باطل رُدَّ، وإلا أمسك عنه، وأما الباطن المخالف للظاهر المعلوم فمثل ما يدعيه الباطنية القرامطة من الإسماعيلية والنصيرية وأمثالهم، ممن وافقهم من الفلاسفة وغلاة الصوفية والمتكلمين".

خامسا: السلف ومسائل الصفات.

قال أبو عثمان النيسابوري: "من أَمَّرَ السُّنَّة على نفسه قولا وفعلا: نطق بالحكمة، ومن أَمَّرَ الهوى على نفسه قولا وفعلا: نطق بالبدعة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور-٥٤] يزعم الباطنية وكثير من الصوفية أن العلم الباطني هو ما يلقيه الحق تعالى في قلب الولي، ولا يشترط أن يكون موافقا للعلم الظاهر الذي هو الشريعة، ومنهج السلف في هذه الأمور هو الإيمان بالنص على الوجه الذي يليق بالله تبارك وتعالى، وفي إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ويشرح ابن القيم رحمه الله ذلك بقوله: "لم يتنازع الصحابة رضي الله عنهم في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة، من أولهم إلى آخرهم، لم يسموها تأويلا، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا، ولم يبدوا لشيء منها إبطالا، ولا ضربوا لها أمثالا،.. ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها، وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم، وجعلوا الأمر فيها كلها أمرا واحدا، وأجروها على سَنن واحد، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبِدع حيث جعلوها

عِضِينَ، وأقروا ببعضها، وأنكروا بعضها، من غير فرقان مبين، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه.."، ويقول تحت عنوان: الأمر بالرد دليل على أن الكتاب والسنة يشتملان على حكم كل شيء: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء-٥٩]، وقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [فِي شَيْءٍ] جاءت نَكِرَه في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دِقِّه وَجُلِّه، جَلِّيه وخَفِّيه، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافيا لم يأمر بالردِّ إليه، إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالردِّ عند التنازع إلى مَنْ لا يُوجد عنده فصل النزاع، ومنها أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

ملخص الباب التاسع

- أصل الباطنية الغلو في علي بن أبي طالب.
- لا أساس لدعاوى الباطنية باختصاص علي بن أبي طالب بعلم الباطن. وقد أثبتنا بالأخبار الصحيحة اختصاص عدد كبير من أصحاب رسول الله بأنواع من العلوم والفضائل، تدل على علو شأن الصحابة الذين تخرجوا من مدرسة النبي ﷺ.
- علي بن أبي طالب، وغيره من الصحابة ينفون عن أنفسهم دعاوى الباطنية.
- صحيفة علي بن أبي طالب لا تتضمن علوما باطنية، وإنما هي محاولة لتدوين بعض ما سمعه علي عن رسول الله ﷺ بعد وفاته.
- صحيفة علي تماثل ما دونه عبد الله بن عمرو بن العاص بإذن رسول الله ﷺ.
- كذب دعوى اختصاص حذيفة بسر النفاق دون غيره من الصحابة، والأمر لا يتعدى انشغال حذيفة أكثر من غيره بمعرفة الفتن وأحوالها، وأن ما يعرفه حذيفة يشاركه فيه كثير من الصحابة، وكل منهم يعرف ما نما إلى علمه من أحداث لها طرف مع النفاق.
- أمر النفاق والمنافقين مكشوف في مجتمع المدينة المنورة سواء على مستوى الأفراد بأعيانهم وأسمائهم، أو بتحديد صفاتهم وتصرفاتهم، الكتاب والسنة كشفهم،

وأعمالهم بين الصحابة جعلتهم معروفين حتى اضطر رسول الله ﷺ يوما أن يحددهم على المنبر، وينادي عليهم فيقفوا في المسجد يراهم الناس حتى يأمن الإسلام جانبهم.

- جرابا العلم الذي أشار إليهما أبو هريرة يحتويان أخبار الفتن التي ستظهر للناس، وليس فيهما علم باطني آخر، أو تأويل باطني يناقض ظاهر القرآن والسنة، ولا يوجد دليل، أو برهان مع من يزعم هذه الأباطيل.

- الفكر الباطني لا أصل له في الدين، وإنما هو نتاج مؤامرة واضحة المعالم على الإسلام، تهدف إلى تعطيل القرآن وإنكار السنة.

- يعترف الباطنيون أنهم كونوا اعتقاداتهم بمزج الدين بالفلسفة العقلانية التعليمية، واعتمدوا أفكارا ونظريات، وضعوها من عند أنفسهم، حتى خرجوا من دائرة الإسلام إلى عقيدة توليفية فاسدة.

- تشابه الفكر الباطني عند الباطنية والشيعة.

- لا يمكن ضبط علوم الباطنية، فاللفظ في القرآن له دلالة تخالف المعنى المتعارف عليه عند اللسان العربي، وبالتالي تجد أنه من اليسير مناقشة من ينكر وجود الله تعالى عن أن تناقش باطنيا، فمجادلة المنكر بالقرآن أو بالعقل توصل إلى نتيجة، أما الباطني فإن ناقشته بالقرآن قال لك له معنى آخر باطني، فأنى تصل معه إلى نتيجة.

- يخالف الفكر الصوفي أفكار الباطنية في تمسكه بمحبة الخلفاء الراشدين، مع الغلـو في محبة علي بن أبي طالب وآل البيت.

الباب العاشر

مراتب دولة الأولياء

١. مقام الأبدال.

٢. درجة الأقطاب.

٣. مقام الغوثية.

٤. الطرق الصوفية والأقطاب.

الفصل الأول

مقام الأبدال

يقول أحمد بن عياد، أحد مشايخ الشاذلية في مقدمة كتابه "المفاخر العلية في المآثر الشاذلية"، تحت عنوان فائدة في تعريف القطب، ما يلي: [سألت] الشيخ الصالح، الورع، الزاهد، المحقق المدقق، شمس الدين بن كتيلة... فقلت له: يا سيدي، ما معنى القطب؟ فقال لي: الأقطاب كثيرة، فإن كل مقدم قوم هو قطبهم، وأما قطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد، وتفسير ذلك أن النقباء هم ثلاثمائة، وهم الذين استخرجوا خبايا النفوس، ولهم عشرة أعمال: أربعة ظاهرة، وستة باطنة.

- **فالأربعة الظاهرة**: كثرة العبادة، والتحقق بالزهادة، والتجرد عن الإرادة، وقوة المجاهدة.
- **وأما الباطنة،** فهي: التوبة، والإنابة، والمحاسبة، والتفكر، والاعتصام، والرياضة. فهذه الثلاثمائة لهم إمام منهم يأخذون عنه، ويقتدون به، فهو قطبهم.
- ثم النجباء أربعون، وقيل: سبعون، وهم مشغولون بحمل أثقال الخلق، فلا ينظرون إلا في حق الغير، ولهم ثمانية أعمال: أربعة باطنة، وأربعة ظاهرة.
- **فالظاهرة**: الفتوة، والتواضع، والأدب، وكثرة العبادة.
- **أما الباطنة**: فالصبر، والرضا، والشكر، والحياء، وهم أهل مكارم الأخلاق.
- **وأما الأبدال**: فهم سبعة رجال، أهل كمال واستقامة واعتدال، قد تخلصوا من الوهم، والخيال، ولهم أربعة أعمال باطنة، وأربعة ظاهرة.
- **أما الظاهرة**: فالصمت، والسهر، والجوع، والعزلة. ولكل من هذه الأربعة ظاهر وباطن.

- أما الصمت: فظاهره ترك الكلام بغير ذكر الله تعالى، وأما باطنه: فصمت الضمير عن جميع التفاصيل والأخبار.
- وأما السهر: فظاهره عدم النوم، وباطنه عدم الغفلة.
- وأما الجوع فعلى قسمين: جوع الأبرار لكمال السلوك، وجوع المقربين لموائد الأنس.
- وأما العزلة: فظاهرها ترك المخالطة بالناس، وباطنها ترك الأنس بهم.
- وللأبدال أربعة أعمال باطنة، وهي: التجريد، والتفريد، والجمع، والتوحيد. ومن خواص الأبدال: من سافر منهم من موضعه، وترك جسدا على صورته، فذاك هو البدل لا غير، والبدل على قلب إبراهيم ﷺ، وهؤلاء الأبدال لهم إمام مقدم عليهم، يأخذون عنه، ويقتدون به، وهو قطبهم: لأنه مقدمهم، وقيل: الأبدال أربعون، وسبعة هم الأخيار، وكل منهم لهم إمام منهم هو قطبهم، ثم الأوتاد: وهم عبارة عن أربعة رجال، منازلهم منازل الأربعة أركان من العالم: شرقا، وغربا، وجنوبا، وشمالا. ومقام كل منهم تلك.
- ولهم ثمانية أعمال: أربعة ظاهرة، وأربعة باطنة: **فالظاهرة**: كثرة الصيام، وقيام الليل والناس نيام، وكثرة الإيثار، والاستغفار بالأسحار.
- **وأما الباطنة**: فالتوكل، والتفويض، والثقة، والتسليم، ولهم واحد منهم، هو قطبهم.
- "وأما الإمامان: فهما شخصان: أحدهما عن يمين القطب، والآخر عن شماله: فالذي عن يمينه ينظر في الملكوت، وهو أعلى من صاحبه، والذي عن شماله ينظر إلى الملك، وصاحب اليمين هو الذي يخلف القطب"، وهذا أيضا من أقوال ابن عربي[1]، ولهما أربعة أعمال باطنة، وأربعة أعمال ظاهرة.
- **فأما الظاهرة**: فالزهد، والورع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر،

---

١ راجع إن شئت رسائل ابن عربي – نقلا عن الحكومة الباطنية للشرقاوي ٥٦

- **وأما الباطنة**: فالصدق، والإخلاص، والحياء، والمراقبة.
- والغوث: عبارة عن رجل عظيم، وسيد كريم، تحتاج إليه الناس عند الاضطرار، في تبيين ما خفي من العلوم المهمة والأسرار، ويُطلب منه الدعاء: لأنه مستجاب الدعاء. لو أقسم على الله لأبر قسمه، مثل أويس القرني في زمن رسول الله ﷺ، ولا يكون القطب قطبا حتى تجتمع فيه هذه الصفات التي اجتمعت في هؤلاء الجماعة الذين تقدم ذكرهم[1].

ولم ينفرد أحمد بن عياد بهذه المفاهيم عن درجات الأولياء، وأسمائهم، وأوصافهم، بل انتشرت هذه المفاهيم في أوساط الصوفية، وحضراتهم، وطرقهم المختلفة، بل سنذكر بعد قليل علامات القطب، وصفاته، حين نُفصل الحديث، ونخصصه حول القطب.

والباحث عن الحقيقة يتساءل عن مصدر هذه المفاهيم، وكيف تسربت إلى الإسلام؟: ولذا نبحث عن أصل هذا الموضوع، ونشأته، ودعائمه التي قامت عليه. ولعلنا نوفق بإذن الله تعالى في عرض تدرج الفكر الصوفي حول الحكومة الباطنية.

أولا: أحاديث الأبدال.

اخترع الصوفية مراتب لأوليائهم، ومشايخهم أكثرها شهرة: الأقطاب، والأبدال، وغيرها من المسميات، وقد ألف الشعراني كتابا سماه: "الميزان الخضرية"، كما وضع السيوطي رسالة سماها: "الخبر الدال على وجود الأقطاب، والأوتاد، والنجباء، والأبدال"، أورد فيها مجموعة كبيرة من الأخبار، والآثار الضعيفة. حاول بها إثبات وجود الأبدال، وبرغم تضارب هذه الأقوال، واختلاف متونها اختلافا كبيرا، إلا أنه من الغريب حقا أنها تخبر عن كل من الأبدال، والنقباء، والنجباء، والعمد، دون أدنى ذكر للأقطاب، ويبدو أن القطب درجة استحدثت فيما بعد، وسنتتبع بتوفيق الله تعالى هذه الروايات، ونستعرض أقوال المحدثين،

---

١ المفاخر العلية في المآثر الشاذلية لأحمد بن محمد بن عياد ١٦ – ١٧

وأقوال علماء الجرح والتعديل عن رجال هذه الأخبار ورواتها، حتى يُميز القارئ الكريم بين الطيب والخبيث، مما اشتهر على ألسنة الصوفية من هذه الأحاديث. ومما يلفت النظر أن معظم روايات الصوفية، تتفق على أن للشام الحظ الأوفر من الأبدال، عددهم في رواية: "الأبدال بالشام، وهم أربعون رجلا"،[١] وتارة: "ستون"، وتارة:"الأبدال أربعون رجلا، وأربعون امرأة"[٢]، وفي رواية: "الأبدال بالشام ثلاثون رجلا على منهاج إبراهيم، كلما مات رجلا أبدل الله مكانه آخر، وعشرون منهم على منهاج عيسى ابن مريم، وعشرون منهم قد أوتوا من مزامير آل داود".

واليافعي يرى تقسيما آخر، حيث يقول: "الأوتاد واحد باليمن، وواحد بالشام، وواحد بالمشرق، وواحد بالمغرب، والله سبحانه يُدير القطب في الآفاق الأربعة من أركان الدنيا، كدوران الفلك في أفق السماء"[٣]. وهذا الشكل الذي يقدمه اليافعي أبسط مما اخترعه الكتاني: فالدنيا على حد علمه: يحدها شمالا الشام، وجنوبا اليمن، وعلى القطب أن يدور على أركان الدنيا. إلا أن القاشاني ابتكر تصورا أيسر، فيقول: "البدلاء سبعة رجال، يسافر أحدهم عن موضع، ويترك فيه جسدا على صورته، بحيث لا يعرف أحد أنه فُقِد، وذلك معنى البدل لا غير، وهم على قلب إبراهيم"[٤].

وهناك أخبار أخرى تكسر احتكار الشام للأبدال، وتفتح المجال أمام التوزيع الجغرافي، والانتشار على باقي الدول والأمصار. ولهذا ظهرت أسماء مساعدة للأبدال: كالنقباء والنجباء، والأوتاد، وبذلك نجد الأخبار، تقول: "الأبدال من أهل الشام، والأوتاد من أبناء الكوفة"،

١ رواه أحمد في مسنده، عن علي بن أبي طالب، حديث ٨٩٨، وإسناده منقطع بين علي وشريح، ورواه السيوطي في الجامع الصغير، وعده الألباني ضعيف، وأورده في ضعيف الجامع الصغير، وزياداته رقم ٢٢٦٦، ٢: ٢٧٥

٢ رواه الخلال في كرامات الأولياء، عن أنس، ورواه السيوطي في الحاوي، وعده الألباني ضعيفا، وأورده في ضعيف الجامع الصغير، وزياداته رقم ٢٢٦٥، ٢: ٢٧٤

٣ رواه السيوطي في الحاوي للفتاوى ٢: ٤٦٧، نقلا عن كفاية المعتقد لليافعي.

٤ اصطلاحات الصوفية للقاشاني ٣٦، تحقيق د. محمد كمال إبراهيم جعفر.

وفي رواية: "النجباء بالكوفة، والأبدال بالشام، والنجباء من أهل مصر، والأخيار من أهل العراق"، وفي رواية أخرى، نرى توزيعا جغرافيا آخر: "دعامة أمتي عصب اليمن، وأبدال الشام، وهم أربعون"، ثم يجمع أحمد بن أبي الحواري بين هذه الروايات، فيقول: سمعت أبا سليمان الداراني، يقول: "الأبدال بالشام، والنجباء بمصر، والعصب باليمن، والأخيار بالعراق".

وقد تعقب شيخ الإسلام الشوكاني هذه الأحاديث في كتابه: "الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة"، وكذلك الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة"، وفي "ضعيف الجامع الصغير"، وغيرهما من العلماء الذين أثبتوا ضعف هذه الآثار.

وسنورد فيما يلي كل حديث من هذه الأحاديث، ثم نتتبع رجاله، ونظهر علته، وننقل أقوال علماء الحديث عن كل منها: حتى يعرف الصوفية مستوى أدلتهم التي تقوم عليها عقيدتهم عن مشايخهم، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

١. حديث ابن عمر ﷺ:

"خيار أمتي في كل قرن خمس مائة، فالأبدال أربعون، فلا الخمس مائة ينقصون، ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله من الخمس مائة مكانه، وأدخل من الأربعين مكانه، قالوا: يا رسول الله، دلنا على أعمالهم، قال: يعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويتواسون فيما آتاهم الله ﷻ "[1].

درجة الحديث: الحديث ضعيف، ولا يصح، وفي إسناده من لا يعرف، وحكم عليه ابن الجوزي بالوضع"[2].

٢. حديث عبد الله بن مسعود ﷺ:

"إن لله في الخلق ثلاث مائة، قلوبهم على قلب آدم. ولله في الخلق أربعون، قلوبهم على قلب موسى، ولله في الخلق سبعة، قلوبهم على قلب إبراهيم، ولله في الخلق خمسة، قلوبهم على قلب جبريل، ولله في الخلق ثلاثة، قلوبهم على قلب ميكائيل، ولله في الخلق واحد، قلبه على قلب إسرافيل، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، - ثم هكذا باقي الأعداد، فبهم يحيي، ويميت، ويمطر، وينبت، ويدفع البلاء، قيل لابن مسعود: وكيف بهم يحيي ويميت؟، قال: لأنهم يسألون الله إكثار الأمم، فيكثرون، ويدعون على الجبابرة فيقصمون، ويستسقون

١ أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١:٨ من طريق الطبراني، ورواه السيوطي في الحاوي للفتاوى ٢:٤٦١ وفي الجامع الصغير، وعلق الألباني بقوله: أورده السيوطي في الجامع الصغير، فأساء٣٢: ٣٣٩، وسنده: ثنا محمد بن الخراز الطبراني، ثنا سعيد بن أبي زيدون، ثنا عبد الله بن هارون الصوري، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ.

٢ ويعلق الشوكاني في كتابه الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة حديث ٧٨، ص ٢٤٥ على السند بقوله: لا يصح، وفي إسناده عبد الله بن هارون الصوري رواه - بوقاحة -، عن الأوزاعي، عن الزهري، عن نافع، عن ابن عمر، وترجم الذهبي في الميزان، ترجمة رقم ٤٦٦١، جزء ٢: ٥١٦، وفي المغني في الضعفاء ١: ٣٦١، ترجمة ٣٤٠٤ عبد الله بن هارون الصوري، عن الأوزاعي، وقال: لا يُعرف، والخبر كذب في أخلاق الأبدال، وحكم عليه ابن الجوزي بالوضع في الموضوعات الكبرى ٣: ١٥١، وأقره المناوي، وكذلك الألباني، في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٢: ٣٣٩ حديث ٩٣٥، وحكم عليه بالوضع، وقال: وهذا سند مظلم.

فيسقون، ويسألون فتنبت لهم الأرض، ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء"[١]. ويكفي من وهن هذه الرواية أن تكون قلوب أولياء أمة محمد ﷺ على قلب أنبياء آخرين ليس فيهم النبي ﷺ.

درجة الحديث: الحديث موضوع، قال الطبراني: في إسناده مجاهيل. وقال عنه الذهبي: هذا كذب، قاتل الله من وضع هذا الإفك.

٣. وعن ابن مسعود بلفظ آخر:

" لا يزال أربعون رجلا من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام، يُدفع بهم عن أهل الأرض، يقال لهم: [الأبدال]، إنهم لن يدركوها بصلاة، ولا صوم، ولا صدقة. قالوا: يا رسول الله، فبم أدركوها ؟ قال: بالسخاء، والنصيحة للمسلمين"[٢].

درجة الحديث: ضعيف جدا[٣].

٤. حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

"الأبدال بالشام، وهم: أربعون رجلا، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا، يُسقى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب"[١].

١ أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤:١٧٣، وابن عساكر عن طريق عبد الرحيم بن يحيى الأرمني [الأدمي]، قال: ثنا عثمان بن عمارة، ثنا المعافى بن عمران، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال النبي ﷺ، ورواه السيوطي في الحاوي للفتاوى ٢: ٤٦٢، وذكره الشوكاني في كتابه الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ٢٤٦، وقال في إسناده مجاهيل: عبد الرحيم بن يحيى الأدمي، وعثمان بن عمارة، والمتهم بوضعه أحدهما، ويقول الذهبي في لسان الميزان، ترجمة رقم ٥٠٤٠، جزء ٢: ٦٠٨، يقول عبد الرحيم بن يحيى الأدمي، عن عثمان بن عمارة بحديث الأبدال: اتهمه به، وذكره في المغني في الضعفاء ترجمة ٣٦٨٤، وقال: اتهمه، وفي ترجمة عثمان ٥٥٤٩ في ٢: ٥٠، يقول عثمان بن عمارة، عن المعافى بن عمران حديث: لله في الخلق أربعون على قلب موسى...، هو كذب، ثم قال: فقاتل الله من وضع هذا الإفك، كما ذكره في المغني ترجمة ٤٠٤٩، وقال: وهذا كذب، ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٤٧٩، وحكم عليه بالوضع.

٢ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠٣٩٠، وعنه أبو نعيم في الحلية ٤:١٧٣ وإسناده: أنا أحمد بن داود المكي، ثنا ثابت بن عياش الأحدب، ثنا أبو رجاء الكلبي، ثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود، وقال: ثابت بن عياش الأحدب، ثنا أبو رجاء الكلبي، وكلاهما لم أعرفه، وقال أبو نعيم غريب من حديث الأعمش، عن زيد ما كتبناه إلا من حديث أبي رجاء.

٣ قال عنه ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة، وقال ابن حبان: يروي عن الثقات الموضوعات، ويرفع الموقوفات، لا تحل الرواية عنه. وذكره الألباني حديث ١٤٧٨ في سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٤٧٩، وحكم عليه بأنه ضعيف جدا.

درجة الحديث: الحديث ضعيف، وإسناده منقطع.

٥. حديث أبي هريرة رضي الله عنه:

"لن تخلو الأرض من ثلاثين، مثل إبراهيم خليل الرحمن، بهم يغاثون، وبهم يرزقون، وبهم يمطرون".

درجة الحديث: الحديث موضوع وباطل، وفي إسناده وضّاع وكذاب.[٢]

٦. حديث أنس بن مالك رضي الله عنه:

"البدلاء أربعون رجلا: اثنان وعشرون بالشام، وثمانية عشر بالعراق".

درجة الحديث: الحديث موضوع، وفي طرقه متروك كذاب خبيث، ومجاهيل. ودرجة طرقه الأخرى ضعيفة.[٣]

٧. حديث عوف بن مالك رضي الله عنه:

---

١ رواه أحمد في مسنده، حديث ٨٩٨، ١١٢:١، وسنده: ثنا المغيرة، ثنا صفوان، حدثني شريح بن عبيد، عن علي مرفوعا، وسنده منقطع بين شريح، وعلي بن أبي طالب: حيث لم يدرك شريح عليا، بل لم يدرك إلا بعض متأخري الوفاة من الصحابة.

٢ رواه ابن حبان في التاريخ: وسنده: ثنا محمد بن المسيب، ثنا عبد الرحمن بن مرزوق، ثنا عبد الوهاب بن عطاء الخفاف، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة مرفوعا، قال الشوكاني في الفوائد: في إسناده وضاع، وهو عبد الرحمن بن مرزوق، أبو عوف، قال ابن حبان: يضع الحديث، ولا يحل ذكره إلا على سبيل القدح، وأورد له خبر الأبدال، وذكره الذهبي في الميزان ترجمة ٢: ٥٨٨، ترجمة رقم ٤٩٦٩، وقال عنه: وهذا لكذاب، وفرق بينه، وبين عبد الرحمن بن مرزوق بن عطية، الذي قال عنه الدارقطني: لا بأس به، وذكره الذهبي أيضا في المغني في الضعفاء، ونقل عن ابن حبان، أنه قال: كان يضع الحديث، ورجّح ابن حجر العسقلاني أنهما واحد، ثم قال: وكأن الحديث المذكور أدخل عليه، فإنه باطل".

٣ رواه ابن عدي، عن أنس، وهو من نسخة موضوعة، عن العلاء بن زيدل، ويقال: ابن زيد، وابن يزيد، وابن زياد، وهو متروك كذاب خبيث، وله طرق، عن أنس، أخرجها الطبراني، والخلال، وابن عساكر، وأبو نعيم، أما الطبراني، ففي إسناده:علي بن سعيد بن بشير الرازي، وقال عنه الدارقطني: ليس بذاك، تفرد بأشياء، وترجم له الذهبي في لسان الميزان ٥٨٥٠، أما رواية الخلال: ففي سنده مجاهيل، وقال عنه ابن الجوزي: يوجد من يسمون تلك الأسماء، ولكن لا تستقيم رواية بعضهم عن بعض، وهذا يُشعِر أن السند مركب، أما ابن عساكر: فمن طريق نوح بن قيس، عن عبد الملك بن معقل، عن يزيد الرقاشي، عن أنس، وعبد الملك مجهول، ويزيد: ليس بشيء، وقال السخاوي: وحديث أنس له طرق بألفاظ مختلفة كلها ضعيفة، حديث ٨ ص ٤٣

"لا تسبوا أهل الشام، فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول فيهم الأبدال، وبهم تُنصرون، وبهم ترزقون".

درجة الحديث: الحديث ضعيف، ويقول عنه الألباني: إسناده ضعيف جدا [1].

٨. حديث عبادة بن الصامت ﵁:

قال: "الأبدال في هذه الأمة ثلاثون، مثل: إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل الله تبارك وتعالى مكانه رجلا" [2].

درجة الحديث: ضعيف، وإسناده منقطع، ورواه أحمد بن حنبل في مسنده: وعلق عليه بقوله: وهو منكر.

لفظ آخر لحديث عبادة بن الصامت.

جاء فيه: "لا يزال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون"[1].

درجة الحديث: ضعيف، وفيه من لا يعرف. رواه الطبراني

٩. حديث معاذ بن جبل ﵁:

أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في سنن الصوفية، ولم يسق للحديث سندا.

درجة الحديث: الحديث موضوع، والسلمي نفسه اتهم به، فقد "كان يضع الأحاديث للصوفية"[2].

١٠. كما تفرد الحكيم الترمذي في:"نوادر الأصول"، بحديث عن الأبدال يرويه، عن أبي الدرداء ﵁، وتفرده به يدل على سقوطه، كما روى عن حذيفة ﵁، بلا سند أيضا.

١١. حديث عمر بن الخطاب ﵁:

---

١ رواه الطبراني من طريق عمرو البزار، عن عنبسة الخواص، يقول الهيثمي: وكلاهما لم أعرفه، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة.

٢ ترجم الذهبي لأبي عبد الرحمن السلمي في الميزان رقم ٧٤١٩، صفحة ٣: ٥٢٣، وقال: تكلموا فيه، وليس بعمدة، وفي القلب مما يتفرد به، وسئل الدارقطني: قال الخطيب: قال لي محمد بن يوسف القطان: كان [عبد الرحمن السلمي] يضع الأحاديث للصوفية.

درجة الحديث: موضوع، فيه: متهم بالزندقة، ومن يضع الحديث[1].

مما سبق يتبين لنا أن جملة أحاديث الأبدال التي يحاول رواتها نسبتها إلى النبي ﷺ تنحصر درجتها بين الحديث الموضوع المكذوب على النبي ﷺ، وبين الحديث الضعيف جدا، والذي لا يجوز الاحتجاج به: حيث لا تقوم به حجة في دين الله ﷻ، كما لا يجوز نقله للناس، أو العمل به.

ويبقى بعد ذلك مجموعة من الأخبار يتناقلها الصوفية فيما بينهم، نتعرض لها من خلال بيان الغرض من الأبدال، ومهمتهم التي يكلفون بها، كما نتعرض للمراتب المساعدة التي اخترعتها الصوفية، كالنجباء، والنقباء، وغيرهم.

١ حديث عمر: رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، وفي سنده شعيب بن إبراهيم، عن سيف بن عمر، قالوا عنه: كان يضع الحديث، واتهم بالزندقة، وذكره الذهبي في "المغني في الضعفاء" ٢٧١٦، وقال: له تواليف، متروك باتفاق، وقال ابن حبان: اتهم بالزندقة، وقال مرة: يروي الموضوعات، وذكره الدارقطني في "الضعفاء والمتروكين" ٢٨٣، وذكره النسائي في "الضعفاء والمتروكين" ٢٥٦، وقال: ضعيف، وقال ابن عدي: عامة حديثه منكر، وقال يحيى: ضعيف، وفِلْسٌ خير منه، وقال أبو داود: ليس بشيء، وقال ابن نمير: كان سيف يضع الحديث، واتهم بالزندقة.

ويقول الألباني في الأحاديث الضعيفة: "واعلم أن أحاديث الأبدال لا يصح منها شيء، وكلها معلولة، وبعضها أشد ضعفا من بعض."

ثانيا: وظائف أبدال الصوفية.

لم يخترع الصوفية الأبدال والأقطاب دون أن يكون لهم أسباب لوجودهم، ووظائف يقومون بها، وأهمها أنهم يتواجدون في أكثر من مكان في آن واحد، ويحكي صلاح القوصي تجربته مع الأبدال، فيقول تعليقا على بيت[1] من ديوانه العتيق، فيقول: "يشير المؤلف إلى عشرات من أحبابه الذين كانوا يرونه يقظة، في أماكن مختلفة، في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وغيرهما في آن واحد، وهو لم يغادر مكانه، وسكنه بالقاهرة، وكذلك رؤية بعض أحبابه له خلال الحضرات، في عدة صور، في آن واحد".

وسنتعرف على خطورة اختراع مرتبة الأبدال إذا عرفنا الهدف والغاية.

١. الأبدال وسائط بين الصوفي وربه:

يتناقل الصوفية أثرا موضوعا، رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عن الكتاني، أنه قال: "النقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والبدلاء أربعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكة، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء، ثم النجباء، ثم الأبدال، ثم الأخيار، ثم العمد، فإن أجيبوا، وإلا ابتهل الغوث، فلا تتم مسألته حتى تجاب دعوته"[1].

وأبسط دلالة لهذا الأثر أنه يهدم الأساس الأول للإسلام، وهو انعدام الواسطة بين الله وبين عباده: فالله تبارك وتعالى يقول:﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ [البقرة-١٨٦]،

---

١ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣:٧٥ سطر ٢٠، وسنده أخبرنا عبد العزيز بن أبي الحسن القرميسني، حدثنا علي بن عبد الله بن الحسن بن جهم الهمذاني بمكة، حدثنا عبد الله بن محمد العيشي، قال: سمعت الكتاني... والكتاني هو محمد بن علي بن جعفر أبو بكسر الكتاني، مات سنة ٣٢٢ ه، وهو أحد مشايخ الصوفية، قال الذهبي في الميزان: علي بن عبد الله بن الحسن بن جهم الزاهد أبو الحسن شيخ الصوفية بمكة، ومصنف كتاب "بهجة الأسرار"، متهم بوضع الحديث، قال ابن خيرون: تُكلم فيه، وقال: قيل: إنه كان يكذب، وقال غيره: اتهموه بوضع صلاة الرغائب توفي سنة ٤١٤ هـ.

بينما يضع الكتاني متاهات الروتين الباطني، فدعاء العامة لا يصل إلى الله ﷻ، ولا يرفع إليه مباشرة، بل لا بد أن يبتهل فيه النقباء الذين يسكنون المغرب، ثم يأتي دور النجباء من مصر، ثم يتدخل الأبدال من أولياء الشام، ثم يبتهل السياحون في الأرض، ثم العمد في زوايا الأرض، وفي النهاية يدعو الغوث، فلا يُتم دعاءه إلا استجيب له، **وهذا الشكل الهرمي لمملكة الباطن جديد مُحدث في الإسلام، ولعله مأخوذ من النظام الهرمي المتدرج في الكنائس**، وقد بنت الصوفية على هذه الأفكار موضوعا مبتدعا في الدين، ما أنزل الله به من سلطان، ألا وهو موضوع ديوان التصريف والمملكة الباطنية، وسيكون لنا وقفة مع هذا الموضوع.

٢. الأبدال والأوتاد أمان لأهل الأرض:

يقول ابن عربي في رسائله: "يرى بعض أئمة الصوفية أن الأوتاد الذين يحفظ الله بهم العالم: أربعة، لا خامس لهم، وهم أخص من الأبدال، والإمام أخص منهم، والقطب أخص الجماعة، والأوتاد الأربعة في الكون يمثلون: عيسى، وإدريس، وموسى، وهارون، والخضر عليهم السلام، وهم وزراء الغوث، ومساعدوه في أمور الحكومة الباطنية، ويحفظ الله بهم الجهات الأربع: الجنوب، والشمال، والشرق، والغرب.. والأوتاد قد بلغوا، ووصلوا، وثبتت أقدامهم، وأركانهم، أما الأبدال، فإنهم يتقلبون من حال إلى حال"[1].

ولا نعرف كيف يمثل الأوتاد الأربعة خمسة أنبياء فيهم الخضر عليه السلام؟! ثم كيف يمثل الأوتاد الخضر والصوفية تؤمن بحياته إلى اليوم؟! ومن الإسرائيليات التي تُروى عن كعب الأحبار، قوله: "لم يزل في الأرض بعد نوح عليه السلام أربعة عشر، يدفع بهم العذاب"[2] ويروى عن إبراهيم المتبولي، أنه كان يقبض على لحيته، ويقول: ما تقاسي مصر بعد هذه اللحية، أنا أمان لها"[3].

١ معجم ألفاظ الصوفية للدكتور حسن محمد الشرقاوي ٦٢

٢ رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن كعب الأحبار ٦:٢٠

٣ الطبقات الكبرى للشعراني ٢:٧٨

٣. الأبدال يتشكلون:

يعتقد الصوفية في قدرات الأبدال على التشكل والتواجد، في أكثر من مكان، في نفس الوقت: لذا يقول اليافعي: "إنما سمي الأبدال أبدالا: لأنهم إذا غابوا تبدل في مكانهم صور روحانية تخلفهم، والولي إذا تحقق في ولايته مُكِّنَ من التصور في صور عديدة، تظهر روحانيته في وقت واحد في جهات متعددة، ولا يلزم من ذلك وجود شخص في مكانين في وقت واحد، لأن ذلك إثبات تعدد الصور الروحانية لا الجسمانية"[١]، ويقص السيوطي في رسالته منجلى في تطور الولي، أن سئل عن رجل حلف بالطلاق، أن الشيخ عبد القادر الطشطوطي بات عنده ليلة كذا، فحلف آخر أنه بات عنده أيضا في تلك الليلة بعينها، فهل يقع الطلاق على أحدهما أم لا؟ فبعث يسأل الشيخ الطشطوطي عن ذلك، فأجابه قائلا: ولو قال أربعة أني بت عندهم لصدقوا، يقول السيوطي، فأفتيت بأنه لا يحنث واحد منهما"[٢].

ويروي الشعراني في طبقاته: "إن القطب إذا تقطب يحمل هموم أهل الدنيا كلها، كالسلطان الأعظم بل أعظم، وكان الشيخ يتطور [أي يتشكل] في بعض الأوقات، حتى يملأ الخلوة بجميع أركانها ثم يصغر قليلا قليلا، حتى يعود إلى حالته المعهودة، ولما علم الناس بذلك سد الطاق التي كانت تشرف على الخلوة"[٣]، ويقول عن الشيخ أبو علي: "إنه كان من كُمَّل العارفين، وأصحاب الدوائر الكبرى، وكان كثير التطور، تدخل عليه بعض الأوقات تجده جنديا، ثم تدخل عليه فتجده سبعا، ثم تدخل عليه فتجده فيلا، ثم تدخل فتجده صبيا، وهكذا"[٤]. كما يقص الشعراني قصة عن شيخ ظهر للناس في ثلاثين موضعا، في نفس اللحظة،

---

١ الحاوي للفتاوي للسيوطي ٢: ٤٧٢ ينقله عن كتاب كفاية المعتقد لليافعي، حكاية عن الشيخ مفرح الدماميلي الذي شاهده الحجاج معهم، وهو لم يغادر دماميل في هذه الأثناء، فقال الشيخ: ما نقله السيوطي عن معنى الأبدال.

٢ الحاوي للفتاوي ١: ٢٨٨

٣ الطبقات الكبرى للشعراني ٢:٨٦

٤ الطبقات الكبرى للشعراني ٢:٨٠

وليس العجب في ذلك فقط، وإنما الأعجب في سياق الحكاية نفسها، يحكي الشعراني، عن محمد الحضري، أنه خطب الجمعة، فقال بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: "وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام، فقال الناس: كَفَرَ، فسلّ السيف ونزل، فهرب الناس كلهم من الجامع، فجلس عند المنبر إلى آذان العصر، وما تجرأ أحد أن يدخل، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة، فأخبر أهل كل بلد أنه خطب [أي الشيخ الحضري] عندهم، وصلى بهم، قال: فعددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة، هذا ونحن نراه جالسا عندنا في بلدنا"[1].

يحكي قصة مشابهة لقصة السيوطي، عن أبي الحسن القرشي، أنه قال: "رأيت قضيب البان في بيته بالموصل قد ملأه، ونما جسده نماء خارقا للعادة، فخرجت وقد هالني منظره، ثم عدت إليه، فرأيته في زاوية البيت، وقد تصاغر حتى صار قدر العصفور، ثم عدت إليه فرأيته كحالته الأولى"[2].

ويساهم صلاح القوصي في هذا الهراء، فيصف نفسه أنه يتشكل هو الآخر، فينظم شعره، ويعلق عليه، فيقول[3]:

وزدنا "سبعة" منكم إليهم		ليعرف أنكم "بدلا" بعين

تعليق صلاح القوصي عن نفسه: يقيم المؤلف[يقصد نفسه] حضرة ذكر بعد عشاء، أيام: الجمعة، والسبت، والأحد اعتبارا من [١٩٩٤/ ١٤١٤] بالقاهرة، وكثيرا ما يراه بعض الحاضرين في أكثر من صورة إلى سبع صور، أو شخصيات في نفس الوقت. انتهى.

ولا يتوقف مقام صلاح القوصي عند التشكل في صورة حيوانات، وإنما بينه وبينهم محبة خاصة، حتى أنه يشاهد نفسه في المنام، وهو يخاطبهم ويقبلهم، ولولا نفور المريدين منه لزعم أنهم يأتونه يقظة، يقول في هذا البيت[1]:

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني ٢:٩٨

٢ الحاوي للفتاوي ١:٢٩٤

٣ البيت ٢٠٨

وأرسلنا إليك سباع وحش		تقبلكم لكي تحظى بحضن

"تكررت للمؤلف رؤى أنواع الوحوش تخاطبه، أو تشكو حالها، أو تستأذنه، وكذلك تقبله، وتحتضنه، وكانت كلها في حال ذكر، ووجد، وسكر، وغيبة، ومن أنواعها الأسود، والنمور، والذئاب، والأفيال، والخيل، والجمال، والحمير، والكلاب، والقطط، وغيرهم".

ويفسر مشايخ الصوفية ظاهرة تطور الولي التي تقع للأبدال بثلاثة أمور، أحدهما: "أنه من باب تعدد الصور بالتمثل، والتشكل كما يقع للجان، والثاني: أنه من باب طي المسافة، وزوي الأرض، من غير تعدد، فيراه الرائيان كل في بيته، وإنما هو في مكان واحد، والثالث: أنه من باب عظم جثة الولي بحيث أنه ملأ الكون، فشوهد في كل مكان، كملك الموت، ومنكر ونكير، حيث يقبض من مات بالمشرق والمغرب في ساعة واحدة"[٢].

ولهذا لا يستنكر الصوفية توقف أوليائهم عن العبادات ، فقد سئل الشيخ عبد القادر الكيلاني عن ولي، فقال: هو ولي مقرب ذو حال مع الله، وقدم صدق عنده، فقالوا له: ما نراه يصلي، فقال: إنه يصلي من حيث لا ترونه، وإني أراه إذا صلى بالموصل، أو بغيرها من آفاق الأرض، يسجد عند باب الكعبة"[٣]. ولا بأس أن نروي مساهمة أبي اليزيد البسطامي في موضوع الأبدال، فقد قيل له يوما:"إنك من الأبدال السبعة الذين هم أوتاد الأرض؟ فقال: أنا كل السبعة."[٤]

٤ . دعوة توصل إلى مقام الأبدال:

١ البيت ٢١٩

٢ الحاوي للفتاوي ١:٢٨٩

٣ الحاوي للفتاوي ١:٢٩٤

٤ رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠: ٣٧

يقول د. عبد الفتاح عبد الله بركة: إن أول من قال بالأبدال، هو معروف الكرخي المتوفى في سنة ٢٠٠ هـ، فقد روي عنه قوله: "من قال في كل يوم عشر مرات: اللهم صلِّ على أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد. كتب من الأبدال"[٢].

وتفتح هذه الدعوة مجال الوصول إلى مراتب الأبدال، والاجتماع بالخضر عليه السلام، إذا التزم بالشروط التالية:

٥. شروط اجتماع الصوفي والخضر:

يقرر الشيخ علي النبتيني شروط هذا اللقاء بقوله: "لا يجتمع الخضر عليه السلام بشخص إلا إذا اجتمعت فيه ثلاث خصال، فإن لم تجتمع فيه فلا يجتمع به قط، ولو كان على عبادة الملائكة.

الخصلة الأولى: أن يكون العبد على سننه في سائر أحواله.

والثانية: ألا يكون له حرص على الدنيا.

والثالثة: أن يكون سليم الصدر لأهل الإسلام، لا غل، ولا غش، ولا حسد".

وحكي له عن الشيخ أبي عبد الله التستري أحد رجال الرسالة القشيرية، أنه كان يجتمع بالخضر عليه السلام، ويقول: إن الخضر لا يجتمع بأحد إلا على وجه التعليم له، فإنه غني عن علم العلماء لما معه من العلم اللدني"[١]

٦. دور الخضر في تعيين الأبدال:

يروي السيوطي، عن اليافعي، عن بعض أصحاب الشيخ عبد القادر الكيلاني قصة غريبة، تجعل للخضر دورا في اختيار الأبدال، حيث يقول: "خرج الشيخ عبد القادر من داره ليلة، فانفتح له باب المدرسة، فخرج وخرجت خلفه، فإذا نحن في بلد لا أعرفه، فدخل فيه مكانا شبيها بالرباط، فإذا فيه ستة نفر، فبادروا بالسلام عليه، والتجأت إلى سارية هناك، وسمعت أنينا، فلم نلبث إلا قليلا حتى سكن الأنين، ودخل رجل، وذهب إلى الجهة التي

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني ٢:١١٣

سمعت فيها الأنين، ثم خرج يحمل شخصا على عاتقه، ودخل آخر مكشوف الرأس طويل الشارب، وجلس بين يدي الشيخ، فأخذ عليه الشيخ الشهادتين، وقص شعر رأسه وشاربه، وألبسه طاقية، وسماه محمدا، وقال لأولئك النفر: قد أمرت أن يكون هذا بدلا عن الميت، قالوا: سمعا وطاعة، ثم خرج الشيخ وتركهم، وخرجت خلفه، وشيئا غير بعيد، وإذا نحن عند المدرسة في بغداد، فأقسمت على الشيخ أن يبين لي ما رأيت، فقال: أما البلد فنهاوند، وأما الستة فهم الأبدال، وصاحب الأنين سابعهم، وكان مريضا، فلما حضرته وفاته جئت أحضره، وأما الرجل الذي خرج يحمل شخصا، فأبو العباس الخضر ﷺ، ذهب به ليتولى أمره [أي يجهزه للدفن]، وأما الرجل الذي أخذت عليه الشهادتين، فرجل من أهل القسطنطينية كان نصرانيا، وأمرت أن يكون بدلا عن المتوفى، فأتي به فأسلم على يدي، وهو الآن منهم"[1].

يستدل الصوفية علي بقاء الخضر حيا إلى الآن بمثل هذه الحكايات، التي يصعب حصرها، التي تتناول اجتماعهم به، وكتب القوم تفيض بكرامات من اجتمع بالخضر، ومن كان الخضر يحضر مجلسه، إلى غير ذلك من القصص والحكايات، فحياة الخضر إلى اليوم ليست موضوعا ثانويا، لا يضر التصديق به، أو إنكاره عند الصوفية، وفي حقيقة الأمر لقد أصبحت فكرة بقاء الخضر عمود الرحى الذي تدور حوله مجموعة من الأفكار المترابطة، لا يُقبل أن يؤمن الصوفي ببعضها، ويكفر ببعض، فمن رد موضوعا واحدا ينفرط له عقد الفكر الصوفي بالكلية.

الفصل الثاني

درجة الأقطاب

برغم أن جميع الأخبار التي تنسب إلى الصوفية بدأت منذ القرن الثالث بذكر الأبدال، والنقباء، وغيرها من الألقاب، ليس من بينها القطب، إلا أن اصطلاح القطب قد طغى على كل ما سبق وضعه، واستأثر بالمكانة الأوسع انتشارا بين الدراويش، حتى أصبح القطب أشهر الكلمات استخداما بين الصوفية، وأغلب الناس لا يعرفون معنى القطب، ولا دوره الذي رسمه له المشايخ، والملاحظ اليوم أنه لا يخلو كتاب من كتب الصوفية، ولا ورد من أوارد طرقهم المختلفة، ولا إجازة لشيخ من مشايخهم، ولا قصيدة من قصائد التوسل عند الصوفية من إشارات واضحة الدلالة عن المقصود بـ "القطب"، وكلما ارتقى المريد في سلوكه، وطالت صحبته للمشايخ، ورسخت أقدامه في الطريق، كلما سمع المزيد عن القطب، وأدرك شيئا من المهام التي ينسبونها له، **ونظرا للتدرج الذي يتبعه المشايخ في التصريح بهذه المعلومات، لا يجد المريد غضاضة في قبول هذه المفاهيم، جرعة بعد أخرى، وبالتالي لا يفكر في إدراك مراميها، أو يتوقف عن قبول تلقيها** ، ولبيان الأمر نعرض ما سطره مشايخ الصوفية في كتبهم عن القطب، ورتبة القطبانية.

أولا: تعريف مقام القطبانية.

لا اختلاف بين الصوفية على تعريف القطب، والمتأمل في تعريفاتهم عن قطبهم، يجد ما يلي:

- القاشاني يُعرِّف القطب قائلا: "هو الواحد الذي هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان، وهو على قلب إسرافيل عليه السلام. [1]

---

١ اصطلاحات الصوفية للقاشاني ١٤٥

- والشعراني يقول عن القطب: "وهو العَمَد المعنوي المشار إليه بقوله تعالى:﴿الله الذِي رفَع السموات بِغَير عمدٍ تَرونَها﴾ [الرعد-٢][1].
- ويعرف الدكتور الحفني في معجم مصطلحات الصوفية القطب بقوله: "عبارة عن رجل واحد هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان، ويسمى الغوث أيضا باعتبار التجاء الملهوف إليه، وهو خلق على قلب محمد ﷺ، ويسمى أيضا بقطب العالم، وقطب الأقطاب، والقطب الأكبر، وقطب الإرشاد، وقطب المدار"[2].
- ولمحمد غازي تعريف آخر عن القطب، يقول فيه: القطب هو الغوث، وهو جامع الأسماء الحسنى، لا تجد صفة من الصفات الحسنة إلا رأيتها فيه"[3].
- ولعلي الخواص تعريف للقطب، يشرحه بقوله: "الخلوة بالله وحده، لا تكون إلا للقطب الغوث، في كل زمان، فإذا فارق هيكله المنور بالانتقال إلى الدار الآخرة انفرد الحق بشخص آخر مكانه، لا ينفرد بشخصين قط في زمان واحد، ويستطرد - في جرأة غريبة - قائلا: وهذه الخلوة وردت في الكتاب والسنة، ولكن لا يشعر بها إلا أهل الله تعالى"[4].
- ويعرف ابن عربي القطب بقوله: "هو المنعوت بجميع الأسماء تخلقا وتحققا، وهو مرآة الحق ومجلى النعوت المقدسة، ومجلى المظاهر الإلهية، وصاحب الوقت، وعين الزمان، وسر القدر، وله علم دهر الدهور، الغالب عليه الخفاء،

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني.

٢ معجم مصطلحات الصوفية للدكتور عبد المنعم حفني ٢١٨

٣ النصوص في مصطلحات الصوفية لمحمد غازي عرابي.

٤ الطبقات الكبرى للشعراني.

محفوظ في خزائن الغيرة، ملتحف بأردية الصون، لا تعتريه شبهة، ولا يخطر له خاطر يناقض مقامه"[١].

ونلاحظ اتفاق تعريفات الصوفية على معنى محدد في وصف "القطب"، وهو أنه الموضع الوحيد لنظر الحق تبارك وتعالى من الكون، وهذه معلومة مغايرة تماما للمفاهيم الأساسية التي يقدمها الإسلام عن الله الواحد القهار. أما أن تحصر الصوفية توجه صفات الله تعالى إلى شخص واحد من بين جميع الخلق، فهذا هو الفكر الباطني بعينه، والذي يتفق تماما مع الفكر المسيحي والفلسفات القديمة[٢].

ثانيا: علامات القطب وصفاته.

ينقل الشعراني رأيا لأبي الحسن الشاذلي يشرح فيه علامات القطب، يقول فيه: "إن للقطب خمس عشرة علامة: أن يُمَد بمدد العصمة، والرحمة، والخلافة، والنيابة، ومدد حملة العرش العظيم، ويُكشف له حقيقة الذات، وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحلم، والفصل بين الموجودين، وانفصال الأول عن الأول، وما انفصل عنه إلى منتهاه، وما ثبت فيه، وحكم ما قبل وما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم الإحاطة بكل علم ومعلوم، ما بدا من السر الأول إلى منتهاه، ثم يعود إليه"[٣].

أما صفات القطب التي يضعها الصوفية، فمنها أنه: "راغب النساء، وريث الأنبياء، مرآة الحق، وصاحب علم سر القدر، وعلم دهر الدهور، غالب عليه الخفاء، لا يعتريه شبهة في دينه، ولا خاطر، دائم العبودية والافتقار، يُقبح القبيح ويُحسن الحسن، يحب الجمال المقيد في الزينة والأشخاص، تأتيه الأرواح في أحسن الصور، لا تظهر روحانيته إلا من خلف حجاب الشهادة والغيب، لا يرى من الأشياء إلا محل نظر الحق، وهو غير أصحاب الأحوال من

١ الفتوحات المكية لابن عربي ٢:٥٧٣

٢ راجع كتاب "جذور الشيعة وجيش المهدي" لتتبع تسرب الفكر الباطني إلى الشريعة الإسلامية.

٣ اليواقيت والجواهر للشعراني ٢:٧٨

الأولياء [أي أصحاب التلوين] الذين يتغيرون باستمرار: لكثرة انتقالهم من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام"[1].

ثالثا: شروط القطبانية.

يضع الصوفية لمن يحتل مقام القطبانية شروطا منها:

١. أن يكون صاحبها ذا جسم طبيعي وروح، وموجود في الدنيا بجسده.
٢. أن يكون واحدا في زمانه، فلا ينازعه في هذا المقام ولي آخر.
٣. أن يكون له نائبان هما الإمامان، كل منهما يحكم نصف المعمورة. [وهذا شرط اختلف فيه الصوفية، وهناك رأي أن أحد الأئمة يتصرف في المُلك، والآخر في الملكوت].
٤. أن يكون له في زمانه أربعة أوتاد، واحد منهم يحفظ الإيمان، والثاني يحفظ الولاية، والثالث يحفظ النبوة، والرابع يحفظ الرسالة.

كما يرى ابن عربي أيضا أن القطب مقام بعد النبي ﷺ: لأنه مُمَثِّلُهُ في الزمان والمكان، ولا يتمكن القطب أن يقوم في القطبانية إلا بعد أن يُحَصِّلَ معاني الحروف التي في أوائل السور مثل: ﴿الم﴾، ﴿المص﴾، وغير ذلك، فإذا أوقفه الله تعالى على حقائقها ومعانيها، تعينت له الخلافة، وكان أهلا لها".

ويشرح ابن قضيب البان موقف القطبية، فيقول: "أوقفني الله تعالى على بساط القطبية. وقال لي – معاذ الله –: الإنسان الكامل قطب الشأن الإلهي، وغوث الآن الزماني، أول ما أُسْلِمَ له التصريف في قطر نفسه حتى يبلغ الأَشُد، ثم أُسلم له، وأُوقف له أقطار الأقاليم، ثم أُسلم له الأرض، ثم أُسلم له المُلك، ثم أجمع له المُلك والملكوت، وهذا هو الغائب الرحماني. وقال لي تعالى – معاذ الله –: القطب يعرفه كل شيء حتى أهل الغيب، وعالم المُحال، وأهل الأرض

---

١ اليواقيت والجواهر للشعراني ٢:٨٧

البيضاء، وتعرفه أيضا العوالم، وصور أُولي العلم حتى يسلمها بطابع الرحمة، ويرويها بالبصر. وقال لي تعالى: القطب قلبه كن في عالم الأزل، وخدع الألوهية. وقال لي تعالى: القطب خزانة أرواح الأنبياء، والكون كله صورة القطب، وهو شمعة نُصِبت لفراش المقربين، وصلاح مشاهد العارفين، وغذاء أفئدة الواصلين. وقال لي تعالى: من نفس القطب صور برزخ الشئون والصفاتية، وعقله إسرافيلية، وفي نفسه عمود الشموس الروحية، والذين يختارونه هم أهل زمانه"[1]. وقال لي تعالى: "القطب الفرد الواحد في كل زمان: الحقيقة المحمدية، ولكل زمان قطب منها، وهو خطيب سر الولاء: بلى! وهو شمس عروس:[أشهدهم]، وتلقي عشاق أشواق:﴿إن كُنْتُم تُحِبون الله﴾ [آل عمران-٣١]، وهذا وصف من ذاق لوحدة الشهود، وعاين وشاهد، بعد أن كابد وجاهد، حتى وصل إلى أعلى مقام، فرأى ما رأى، وهو في المقامات الرفيعة، وتجلى الله له مبسطا بعض علمه، وأسراره، وفتوحاته عليه.

رابعا: مبايعة القطب.

يصف الدكتور الشرقاوي بيعة الأولياء للقطب، فيقول: "يُبايع القطب بأمر إلهي على السمع والطاعة، كل مأمور من أدنى إلا العالين أي العابدين لله تعالى بالذات، وكل من يدخل عليه يسأله سؤالا، فيجيب عليه، ويرى الإمام الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" أن العابدين لله هم الأفراد، وهم أولياء خارج نطاق الحكومة الباطنية، ويمكن أن تكون مقاماتهم أعلى من مقامات الأقطاب، ويبنى للقطب سرير في الحضرة المثالية، يقعد عليه، ويحيط بعلم كل شيء [ولله المثل الأعلى]، وبعد أن ينصب إليه السرير، يُخلع عليه جميع الأسماء، التي يطلبها العالم، ويظهر بها حُللا وزينة متوجا بها"[2].

١ نقلا عن الحكومة الباطنية للدكتور حسن الشرقاوي ٥٠

٢ الحكومة الباطنية للدكتور حسن الشرقاوي ٤٦

ويروي الشعراني أن الأقطاب كانوا يعملون في حِرَف شتى: فتارة يكون أحدهم حدادا، وتارة تاجرا، وأحيانا يبيع الفول، ولا يجد الشعراني أي غضاضة في الزعم أن القطب قد يكون شحاذا يتسول الناس، فيروي عن الشيخ علي الجمل: "وكان قطبا غوثا أنه كان يسأل القراريط [المال: أي يتسول] من حانوت إلى حانوت، فالسؤال هو طريق لمخالفة النفس، فلا يجد الولي الكامل حظا لنفسه، مهما أوتي من نعم، ومنن، ومقامات عالية"[1].

١ نقلا عن الحكومة الباطنية للدكتور حسن الشرقاوي ٤٧

خامسا: مدة ولاية القطب.

تكثر الحكايات في كتب الصوفية عن مقام القطبانية، ومن تَعيّن قطبا؟، وكم مدة ولايته لهذا المنصب الخطير، وسواء يقرر القطب نفسه مدة ولايته، أو يُنقل عنه بواسطة أتباعه ومريديه، أو يقرر ذلك أحد أبنائه، ومن ذلك: قول الشيخ إسماعيل عن مدة قطبانية أبيه محمد الحفني، أنه: "أقام في درجة القطبانية ستة وأربعين سنة، وثلاثة أشهر، وأياما، وهو القطب الغوث الفرد الجامع هذه المدة"[1]، وكذلك يرى أئمة الصوفية، أنه ليس للقطب في الزمان الواحد مدة محددة، ولا يعزل حتى ينقضي أجله، وقد يستمر سنواتٍ، أو سنة، أو شهرا، أو يوما، أو ساعة، وذلك حسب ما قدر الله له، ومن الأقطاب من يمكث ثلاثة وثلاثين سنة، ومنهم من يمكث ثلاث سنوات، وتنسخ دعوة القطب بدعوة أخرى كما تنسخ الشرائع بالشرائع، ولا يُورِثُ القطب كما يُورَثُ الحكم الظاهر"[2].

سادسا: مكان القطب وإقامته.

يحدد ابن عربي مكان القطب بقوله: "إن القطب لا يرى شيئا إلا ويرى الله قبله، وله في البلاد مكة، وإذا سكن في أي مكان آخر بجسمه، فإن محله مكة، وليس غيرها[3].

وسنفصل في الباب التالي بتوفيق الله تعالى شكل مملكة أولياء الصوفية حيث نتعرف على مكان الأقطاب، واجتماعاتهم اليومية، والأسبوعية، والسنوية.

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني ٢:٨٤

٢ نقلا عن الحكومة الباطنية للدكتور حسن الشرقاوي ٤٧

٣ رسائل ابن عربي منزل القطبية نقلا عن الحكومة الباطنية للدكتور حسن الشرقاوي ٥١

الفصل الثالث

مقام الغوثية

يفرق الصوفية بين مقام القطب ودرجة الغوث، فهم يزعمون أن الغوثية أعلى من مرتبة القطبانية، وأعلى مقامات الأولياء على الإطلاق مرتبة يسمونها مرتبة: القطب الغوث الفرد الجامع، ويحدثنا علي الخواص عن الغوث، فيقول: " الخلوة بالله وحده، لا تكون إلا للقطب الغوث في كل زمان، فإذا فارق هيكله المنور بالانتقال إلى الدار الآخرة، انفرد الحق تعالى بشخص آخر مكانه، لا ينفرد بشخصين قط في زمان واحد"، ومن العجيب أن يقرر الخواص: "وهذه الخلوة وردت في الكتاب والسنة، لكن لا يشعر بها إلا أهل الله تعالى خاصة"[١].

وسنتعرف على الغوث من خلال تعريفات القوم.

أولا: تعريف القطب الغوث.

يعرف الصوفية مقام القطب الغوث بأنه:

- "هو القطب حين يلتجأ إليه، ولا يسمى في غير ذلك الوقت غوثا"،[٢]
- "وهو جامع الأسماء الحسنى، ولا تجد صفة من الصفات الحسنة إلا رأيتها فيه، يأتي بالجديد الذي يناسب زمانه، فلزمانه بُعث، ولولاه ما ابتُعث، فهو غوث العباد، وهو النجم الهادي، وفي كتاب الله سورة باسمه، وفي أولها:﴿والنجمِ إذَا هوى﴾ [النجم-١]، إشارة إلى المصدر الذي جاء منه القطب، وقد هوى إلى الأرض: ليجعل الله به

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني ٢: ١٤١

٢ اصطلاحات الصوفية للقاشاني.

أفئدة من الناس تهوي إليه"[1]، قارن بين قول الصوفية عن القطب، والشيعة عن الإمام.

- "وقالوا في صفات القطب: إن علمه ينطبق على علم الله تعالى، وقدرته على قدرة الله تعالى، فيعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر عليه الله."[2] -معاذ الله.

فالقطب بهذا المفهوم هو إله مع الله ﷻ، فعلمه يساوي علم الله ﷻ، ويقدر على ما يقدر عليه الله ﷻ!. فكأنه إله معين لفترة زمانية معينة، ثم يعين غيره، وهكذا!، كما أنه يأتي بالجديد، وسبق أن قلنا أنه ينسخ ما قبله كما تنسخ شريعة النبي ما كان قبله من شرائع.

ثانيا: خصائص القطب الغوث.

مما سبق نستطيع أن نستخلص أن للقطب الغوث عند الصوفية خصائص عديدة، منها:

١. أنه يَخْتَلِي وحده بالحق تعالى، ولا تكون لغيره من الأولياء هذه المزية، والمعروف أن القطب الغوث في المرتبة الرابعة، وهي مقام الصديقية الكبرى، أو القرابة العظمى.
٢. إذا مات القطب الغوث انفرد بتلك الحظوة، أو الخلوة قطب آخر، ولا ينفرد بالخلوة مع الله تعالى شخصان في آن واحد أبدا، وهذه الخلوة تعتبر من علوم الأسرار.
٣. يلزم أن يكون القطب واحدا في إقامة الدين، وذلك لئلا يقع التنازع والفساد.
٤. قد يكون القطب قطبا بالسيف، كأبي بكر، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وقد يكون الخليفة نائبا للقطب، ويقصد بقطب السيف، أنه المطبق للشريعة من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

---

١ النصوص في مصطلحات التصوف لمحمد غازي عرابي ٢٧١

٢ مجموع الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧: ١٠٠، ومنهاج السنة النبوية ١: ٢٢

٥. قد تكون القطبانية لولاة الأمور، كالخلفاء، ويصح أن تكون للأئمة المجتهدين الأربعة، أو لغيرهم، وفي هذه الحالة يكون انشغالهم بالعلم حجابا، لأن شأنهم التخفي، والأئمة الأربعة هم: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل رضي الله عنهم أجمعين.

٦. ينبه ابن عربي إلى أن طاعة الأقطاب واجبة، ويستشهد بالآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء-٥٩]، ويقصد بهم الأقطاب، والخلفاء، والولاة، ولكن المباح فقط.

ويضيف الدكتور حسن عباس زكي في كتابه مذاقات في عالم التصوف: "ولا عجب، فإن غوث كل زمان، يُعطى مثل أجور جميع المسلمين في عصره، من عرفه، ومن لم يعرفه، إذ مددهم منه، وإن لم يشعروا، وهذا عطاء الله يختص به من يشاء، والله يرزق من يشاء بغير حساب"[١]. وهذه الدعوى التي يزعمها الدكتور حسن خالية من الدليل والسند، والله تبارك وتعالى يأمرنا بالمطالبة بالبرهان على صدق هذه التخيلات والأوهام يقول تعالى: ﴿قُلْ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [البقرة-١١١]، فالدين ليس مجالا للابتكار والاختراع. وقد لا يصرح الصوفية بعقيدتهم حول عصمة القطب بخلاف الباطنية الذين يرون الإمام معصوم" [٢].

ثالثا: سلطات القطب الغوث.

يمثل القطب الغوث الحكومة الباطنية، ويعتبر الرئيس الأعلى لها، ويعتقد أئمة الصوفية أن القطب له مطلق السلطات على أهل الباطن، فأمره، وطاعته، وحكمه نافذ، ورؤيته صادقة، وقوله غير مردود، لأن علمه لا يصدر إلا عن الله تعالى، وهو يتصل بأعضاء حكومته إلهاما، أو

١ مذاقات في عالم التصوف – د. حسن عباس زكي ٢١

٢ نقلا عن الحكومة الباطنية د. حسن الشرقاوي ٤٧

عن طريق الرؤيا، أو بطريق التوجه"[١]. ويكشف لنا صلاح القوصي عن مقامه الباطني كما يدعي، وتوليه القطبانية بعد مرحلة إعداد دامت سنتين، وفي بيت[٢] من ديوانه العتيق، يقول:

وأعددناك في عامين "قطبا"		وقلت لك: استقم ثم انتظرني

ويعلق القوصي بقوله: يشير المؤلف[يقصد نفسه] إلى رؤى لبعض أولاده بمدينة الرياض بالسعودية [عام ١٩٩٢]، حيث أبلغوا مناما من قطب غوث زمانه بأن المؤلف يُعد منذ عامين ليتولى هذا المنصب، وكذلك رأى المؤلف [عام ١٩٩٢] عدة رؤى تشير كلها بوضوح إلى الإعداد لتولية الغوثية، وكذلك رأى أحد أولاده بالرياض احتفالا مهيبا لتنصيب المؤلف للغوثية، وتكررت الرؤيا له، ولغيره.ويقول[٣]:

فأرسلنا إليك شهود عدل		بأنك صرت "قطبا غوث كون"

ويعلق بقوله: يشير المؤلف[القوصي] إلى وفد كبير من كبار الأولياء، حيث زاروه بين المنام واليقظة مهنئين بالغوثية لعدة مرات، وذلك في [١٣ من المحرم ١٤١٣ هـ]، الموافق [١٣ من يوليو ٩٢]، وفي الثاني من جمادي الثانية ١٤١٤ هـ، الموافق [١٧ من نوفمبر ٩٣]، وفي [٢٠ المحرم ١٤١٥]، الموافق [٢٩ من يونيو ٩٤]، ويستطرد معلقا على البيت ٢٩٨، قائلا: "يشير المؤلف إلى رؤى يقظة لإحدى بناته، حيث سألت رسول الله ﷺ عن من يكون قطب الغوث؟ فأجابها باسم المؤلف كاملا، وذلك [٢٠، ٢٣ من ربيع الأول ١٤١٥ هـ]، يومي [٢٦، ٢٩ من أغسطس ١٩٩٤]، وكذلك في [٤ من ربيع الثاني عام ١٤١٥ هـ]، يوم [٩ من سبتمبر ١٩٩٤م]، رأت حفل تقليده الغوثية بالمسجد النبوي الشريف".

---

١ نقلا عن الحكومة الباطنية د. حسن الشرقاوي ٤٧

٢ البيت ٢٠٦

٣ البيت ٢١١

الفصل الرابع

الطرق الصوفية والأقطاب

قد يعتقد من لم يعايش الطرق الصوفية أن القول بوجود القطب يقول به بعض الصوفية دون البعض، ولكنا نكاد نجزم بأن: **كل طريقة صوفية لا تعتقد بوجود الأقطاب فحسب، وإنما تؤمن يقينا أن شيخ الطريقة هو القطب الغوث الفرد الجامع**، بل إن بعض المشايخ يقولون لمريديهم: نزهوا مشايخكم عن مقام القطبانية، كما نسب مثل ذلك للشاذلي وغيره. ولا يتسع المجال هنا لتتبع أقوال مشايخ الطرق الصوفية المختلفة عن القطب، فالحصر يصعب على أي باحث لضخامة حصيلة هذا الحصر، ويفصح صلاح القوصي عن أسماء بعض الأقطاب في ديوانه العتيق، فيزعم أن النبي ﷺ هو الذي عرفه بالأقطاب، فيقول[1]:

وعرَّفه بغوث بعد غوث		وأيده بسر مستكين

ويعلق على نفسه، فيقول: "تعرف الشاعر على أربعة أقطاب غوث في زمانهم [منذ عام ١٩٦٣، وحتى ١٩٩٢]، وهذا بخلاف السابقين مثل: السيد/ أبي الحسن الشاذلي، السيد/ أحمد البدوي، السيد/ إبراهيم أبي العيون، السيد/ عبد العزيز الدباغ، وخلافهم ممن لم يتعرف على أسمائهم، وذلك في أعوام [٦٣، ٨٠، ٨٢، ٨٤، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩].

وبالتالي سأكتفي بذكر مثالين يمثلان بوضوح شديد حقيقة فهم المشايخ عن أقطاب طرقهم.

١ البيت: ١١٨

أولا: قطبانية التجاني.

حدث أثناء نقاش لي مع أحد مريدي الطريقة التجانية، أن قال: نعم، نحن نقول إن شيخنا هو القطب، ولكن لا نعني به ما أسلفت، ونفى الرجل عن طريقته مثل هذا الغلو، بل وأحضر لي كتب الطريقة، وتحداني على إثبات غلو الصوفية في كتب مشايخه، والعجيب أن يقدم الرجل دليل إدانته بيده، وللأسف هو لم يقرأ حتى كتب طريقته، ومع هذا يفتخر بسلامتها، وصحة ما لم يشغل نفسه بالاطلاع عليه، وبدراسة هذه الكتب وجدت ما يلي: سؤال يطرحه عَلِيٌّ حرازم على شيخه أبي العباس التجاني عن حقيقة القطبانية؟ أجابه الشيخ قائلا: "اعلم أن حقيقة القطبانية هي الخلافة العظمى عن الحق مطلقا في جميع الوجود، جملة وتفصيلا، حيثما كان الرب إلها، كان القطب خليفة في تصريف الحكم، وتنفيذه في كل من عليه ألوهية لله تعالى، ثم قيامه بالبرزخية العظمى بين الحق والخلق، فلا يصل إلى الخلق شيء كائنا ما كان من الحق إلا بحكم القطب، وتوليه ونيابة عن الحق في ذلك، وتوصيله كل قسمة إلى محلها، ثم قيامه في الوجود بروحانيته في كل ذرة من ذرات الوجود جملة وتفصيلا، وقيامه فيها، في أرواحها وأشباحها، ثم تصرفه في مراتب الأولياء، يتذوق مختلفات أذواقهم، فلا تكون مرئيةٌ في الوجود للعارفين والأولياء خارجةً عن ذوقه، فهو المتصرف في جميعها، والمُمد لأربابها، وله اختصاص بالسر المكتوم الذي لا مطمع لأحد في دركه والسلام"[1]، ثم يقول علي حرازم عن قطب الأقطاب، أو الغوث الجامع -[ليتك تعيد أخي القارئ الكريم إلى ذهنك قول الإسماعيلية عن الأساس، والشيعة عن الإمام، والمسيحيين عن المسيح، وأفلاطون عن الفيض الأول، واليهود عن آدم قدمون]-: "هو الذي يحفظ الله به نظام الوجود، وبه يرحم جميع الوجود، وبه صلاح جميع الوجود، ولو زال عن الوجود طرفة عين واحدة لصار الوجود كله عدما في أسرع من طرفة عين."[2] سبحانك ربنا هذا ضلال مبين.

---

١ كتاب جواهر المعاني وبلوغ الأماني من فيض سيده أبي العباس التجاني لعلي حرازم بن العربي ٢: ٩٠

٢ كتاب جواهر المعاني وبلوغ الأماني من فيض سيده أبي العباس التجاني لعلي حرازم بن العربي ٢: ٢٢٧.

ويروج مريد التجاني لشيخه، قائلا: "إنه هـو خـاتم الأوليـاء، وسـيد العـارفين، وإمـام الصديقين، وممد الأقطـاب والأغـواث، وإنـه القطـب المكتـوم، والـبرزخ المختـوم الـذي هـو الواسطة بين الأنبياء والأولياء بحيث لا يتلقن واحد من الأولياء من كَبُر شأنه ومن صَغُر فيضا من حضرة نبي إلا بواسطته، من حيث لا يشعر به ذلك الولي، وحيث كان الأمر هكـذا، فإيـاك يا أخي الإنكار على مثل هذا السيد العظيم"[1]. فالشيخ – عنـدهم – لـيس واسـطة بـين الحـق والخلق فقط، ولكنه أيضا واسطة بين الأنبياء والأولياء.

ثم يستمر في غيه ناقلا عن شيخه ما لم يقله أحد قبله، ويأتي بما لم يأت به الأولون، ويجعل لقطبانيته المزعومة سرمدية، وأبدية، فيقول: "اعلـم أن الفيـوض التـي تفـيض مـن ذات سـيد الوجود ﷺ تتلقاها ذوات الأنبياء تتلقاه ذاتي، ومني يتفرق على جميع الخلائق من نشأة العـالم إلى النفخ في الصور، ويدخل فيه جميع الصحابة رضي الله عنهم، فيكون أفضل من جميع الصحابة"[2].

ثم يتمادى في ضلاله إلى منتهاه، فيقول: "لا يشرب ولي، ولا يسقى إلا مـن بحرنـا، مـن نشأة العالم إلى النفخ في الصور، وإذا جمع الله تعالى خلقه في الموقف ينـادي منـادٍ بـأعلى صـوته، يسمعه كل من في الموقف: يا أهل المحشر هذا إمامكم الذي كان مددكم منه،.. ويقول كـذلك: "إن روح النبي ﷺ وروحي هكذا – مشيرا بأصبعيه السبابة والوسطى –: روحه ﷺ تمد الرسل، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وروحي تمد الأقطاب، والعارفين، والأوليـاء، مـن الأزل إلى الأبد"، وكذا قوله: "قدماي هاتان على رقبة كل ولي لله تعالى من لدن آدم إلى النفخ في الصـور"[3].

---

١ رماح حزب الرحيم في نحور حزب الرجيم لعمر بن سعيد ٢: ٥

٢ رماح حزب الرحيم في نحور حزب الرجيم لعمر بن سعيد ٢: ٥

٣ رماح حزب الرحيم في نحور حزب الرجيم لعمر بن سعيد ٢: ٥

ونهدي إلى فضيلة شيخ الأزهر وعلمائه الأجلاء أعضاء المجلس الأعلى للطرق الصوفية، ونستفتي أيضا فضيلة مفتي الديار المصرية في هذا النص الوارد في كتب التجانية، كمثال لما في كتب القوم من ضلالات، ونطالبهم بالقيام بدورهم، وليصدروا للناس الفتاوى الشرعية، ويعلنوها في وسائل الإعلام حتى يتمكن رجل الشارع البسيط - في مصر وغيرها من الدول - من أن يعرف حكم الدين في مثل هذه الشطحات حيث يزعم التجاني مؤسس الطريقة التجانية أن مقامه عند الله أفضل من جميع الصحابة رضي الله عنهم، حيث يقول التجاني: "إن مقامنا عند الله في الآخرة لا يصله أحد من الأولياء، ولا يقاربه من كبر شأنه، ولا من صغر، وإن جميع الأولياء من عصر الصحابة إلى النفخ في الصور ليس فيهم من يصل مقامنا"(١).

ثانيا: صلاة الفاتح.

ينسب التجانية عن سيدنا علي ﷺ صيغة للصلاة على رسول الله ﷺ نصها: "اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم".

ويَعتبِر التجانية صلاة الفاتح سر الفتح الذي يحصل للمريد، ففيها سر من أسرار الشيخ، وفتح الله عليه، ولهذا يوصون المريدين بترديدها مئات المرات، ويكتبون في فضائلها، وأسرارها الكتب، والمقالات. ويقول عنها شيخهم الأكبر أبو العباس التجاني: "سألت رسول الله ﷺ عن فضل صلاة الفاتح، فأخبرني أولا: بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات.

ثم أخبرني ثانيا: أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون، ومن كل ذكر، ومن كل دعاء كبير، أو صغير، ومن القرآن ستة الآف مرة: لأنه من الأذكار"، ثم يصف

١ رماح حزب الرحيم في نحور حزب الرجيم لعمر بن سعيد ٢: ٥

صلاة الفاتح بأنها: "أمر إلهي لا مدخل فيه للعقول"، وأنها "وردت من الغيب"، وأن ملكا نزل بها على الشيخ: "فأتاه الملك بهذه الصلاة مكتوبة في صحيفة من النور"[١]. والرجل لا يستحي أن يفتري الكذب على الله ﷻ، ورسوله ﷺ، فيقول في كتاب جواهر المعاني: سألت رسول الله ﷺ عن ثواب صلاة الفاتح، فقال ما معناه: إن صلاة الفاتح لِمَا أُغلق بستمائة ألف صلاة، وكل صلاة من الستمائة ألف صلاة بأربعمائة غزوة [في سبيل الله]، ثم قال بعده ﷺ - حسب زعمه-: إن من صلى بها [أي بالفاتح لما أغلق] مرة واحدة حصل له ثواب ما إذا صلى بكل صلاة وقعت في العالم من كل جن، وإنس، وملك ستمائة ألف صلاة، من أول العالم إلى وقت تلفظ الذاكر بها، ويستطرد الشيخ قائلا: أي كأنه صلى بكل صلاة ستمائة ألف صلاة، من جميع المصلين عموما، ملكا، وجنا، وإنسا، وكل صلاة من ذلك بأربعمائة غزوة، وكل صلاة من ذلك بزوجة من الحور، وعشر حسنات، ومحو عشر سيئات، ورفع عشر درجات في الجنة، وأن الله يصلى عليه وملائكته بكل صلاة على عشر مرات[٢]، وليت الرجل يسمع حديث النبي ﷺ الذي رواه البخاري في صحيحه: ﴿إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إن لم تستحِ فاصنع ما شئت﴾ [٣]، وقد أشرنا في هذا الكتاب[٤] إلى مجموعة من الفتاوى الشرعية التي أصدرتها الهيئة العامة للبحوث العلمية والإفتاء بخصوص حكم الشرع في أوراد التجانية، والتي ورد فيها أن: **هذه الأوراد تُخْرِج قائلها من حدود الإسلام، وفيها كثير من الكفريات، والشركيات، والبدع التي تعد انتهاكا خطيرا لمبادئ الدين وأهدافه السامية.**

ثالثا: الجيلانية الشيخ والطريق.

١ جواهر المعاني وبلوغ الأماني من فيض سيده أبي العباس التجاني لعلي حرازم بن العربي ١١٤، ١١٦، ١١٧

٢ كتاب جواهر المعاني وبلوغ الأماني من فيض سيده أبي العباس التجاني لعلي حرازم بن العربي ١١٥

٣ أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء من حديث عقبة ٣٢٢٤، وأبو داود في الأدب ٤٧٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٨٣ ومالك في الموطإ ٣٧٧ وأحمد في المسند ٤: ١٢١

٤ انظر الباب الخامس

إن من الأمثلة المحيرة في مجال التصوف ذلك التباين الشديد بين ما تجده في كتب الطريقة الجيلانية، وبين ما كتبه العلماء المحققون من ثناء على شيخ الطريقة عبد القادر الجيلاني، ولم يحظ كثير من رجال التصوف بمثل ما حظي به شيخ الجيلانية.

١. شيخ الجيلانية:

ترك عبد القادر الجيلاني كتبا طيبة منها الفتح الرباني، والغنية لطالبي طريق الحق، ذكر فيها الموعظة الحسنة، ودعا فيها إلى فضائل الأعمال، ولا تجد فيها الشطط المنتشر في كتب الصوفية، يدعو فيها المريد، بقوله أن: "يكون على عقيدة السلف الصالح أهل السنة القويمة سنة الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والأولياء والصديقين، وعليه التمسك بالكتاب والسنة، والعمل بهما أمرا ونهيا، أصلا وفرعا، فيجعلهما جناحيه، يطير بهما في الطريق الواصل إلى الله ﷻ، ثم الصدق، ثم الاجتهاد، حتى يجد الهداية والرشاد"[١]، ولقد أثنى على الشيخ عبد القادر الجيلاني علماء عصره، وسطروا في كتبهم كثيرا من مناقبه، وأهمها: حرصه الشديد على التمسك بالكتاب والسنة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حتى أنه يدعو كل سالك أن يكون: "عبد الآمر [الآمر هنا هو الله ورسوله] لا عبد الهوى، كالطفل مع الظئر، والميت مع الغاسل، والمريض المقلوب على جنبيه مع الطبيب"،[٢] وقد تحولت عبارته هذه عند الصوفية إلى أن المريد ينبغي أن يكون مسلما لشيخه كالميت بين يدي الغاسل.

ويصف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الجيلاني بقوله: "إنه من أعظم مشايخ زمانهم، آمرا بالتزام الشرع، والأمر والنهي، وتقديمه على الذوق والقدر، ومن أعظم المشايخ بترك الهوى، والإرادة النفسية"[٣].

---

١ الغنية لطالبي طريق الحق للشيخ عبد القادر الجيلاني ٢:١٦٣

٢ فتوح الغيب للشيخ عبد القادر الجيلاني ٢٨

٣ مجموع الفتاوى الكبرى لابن تيمية مجلد السلوك ١٠: ٤٤٨

ويقول أبو الفرج بن الجوزي: "تكلم عبد القادر على الناس بلسـان الـوعظ، وظهـر لـه الصيت بالزهد، وكان له سمت وصمت، وضاقت مدرسته بالناس، فكـان يجلـس عنـد سـور بغداد مستندا إلى الرباط، ويتوب عنده في المجلـس خلـق كثـير، فعمـرت المدرسـة ووسـعت، وتعصب في ذلك العوام، وأقام فيها يدرس، ويعظ، إلى أن تُوفي"[1].

ويقول الذهبي في ترجمة الجيلاني: "قال السمعاني: كان عبد القادر من أهل جيلان إمـام الحنابلة، وشيخهم في عصره، فقيه صالح ديّن خيّر، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة"[2]، ثم يختم بقوله:"وفي الجملة الشـيخ عبـد القـادر كبـير الشـأن، عليـه مآخـذ في بعـض أقوالـه، ودعاويه، والله الموعد، وبعض ذلك مكذوب عليه"[3].

١ المنتظم في تاريخ الأمم لأبي الفرج بن الجوزي ١٠: ٢١٩

٢ سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠: ٤٤١

٣ سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠: ٤٤١

٢. الطريقة الجيلانية:

ولما كان بين الجيلاني والذهبي حوالي قرنين من الزمان فإن عبارة: "وبعض ذلك مكذوب عليه"، تدل على أن أتباعه خالفوا تعاليمه، والغريب أن تأتي المخالفات في أغلب الأحيان على يدي الأتباع الذين يزعمون أنهم ورثة الشيخ، وسدنة معابده، ويقال: أن حفيدا للشيخ الجيلاني قد قام بهذه المهمة أسوأ قيام، فأضاف على تراث جده ما لم ينزل الله به من سلطان، وقد تتابع التحريف، والشطح عبر السنين، حتى أنك إذا اطلعت على ما في كتب الطريقة الآن لوليت منهم فرارا، ولملئت عليهم شفقة وأسفا وحزنا، وإليك بعض ما في كتبهم من ضلال، ومنها قصيدة[1] يرويها المريدون، وينسبونها بالطبع للشيخ، ويطبعونها في العديد من كتبهم، مطلعها:

سقاني الحب كاسات الوصال		فقلت لخمرتي نحوي تعالي

ومن أبياتها يقول فيها الشيخ عبد القادر بزعمهم:

وولاني على الأقطاب جمعا		فحكمي نافذ في كل حال
نظرت إلى بلاد الله جمعا		كخردلة على حكم اتصالي
فلو ألقيت سري فوق نار		لخمدت وانطفت في سر حالي
ولو ألقيت سري فوق ميت		لقام بقدرة المولى مشا لي
ولو ألقيت سري في جبال		لدكت واختفت بين الرمال
بلاد الله ملكي تحت حكمي		ووقتي قبل قبلي قد صفا لي

١ وردت هذه القصيدة في العديد من كتب الصوفية المطبوعة في مصر، وليبيا، وغيرهما، ومنها الفيوضات الربانية في المآثر، والأوراد القادرية جمع وترتيب إسماعيل القادري ٤٦، وكتاب فتوح الغيب الذي يرويه الجيل الثاني من المريدين، عن الجيلاني ٢٣٠، وكذلك كتاب السفينة القادرية، طبعة طرابلس.

وينسبون إلى الشيخ قوله: "قدمي هذه على رقبة كل ولي لله"، ومن الغريب أن يتبارى الأتباع في تفسير قول الشيخ، وحاله وقت أن قال ذلك، ويفرد الشطنوفي ما يقرب من عشرين صفحة من الحجم الكبير، يثبت فيها صحة قول الشيخ، ويروي أسماء من سمعوا مقولته هذه!، ومن حنى رأسه من الأولياء، الأحياء والأموات، وتعظيم الأولياء له بعد أن صرح بهذا القول، وقد تناقلت هذا القول كتب كثيرة من كتب المتأخرين منهم اليافعي، والقادري، وغيرهم. وينسبون للجيلاني قصيدة في الشطح يسمونها الوسيلة، تفيض بالكفر، والزندقة، جاء فيها:

ذراعي من فوق السموات كلها		ومن تحت بطن الحوت أمددت راحتي
وأعلم نبات الأرض كم هو نابت		وأعلم رمل الأرض كم هو رملة
وأعلم علم الله أحصي حروفه		وأعلم موج البحر كم هو موجة
ملكت بلاد الله شرقا ومغربا		وإن شئت أفنيت الأنام بلحظتي
ولولا رسول الله بالعهد سابقا		لأغلقت بنيان الجحيم بعظمتي

ثم يخاطب مريده بقوله[1]:

مريدي لك البشرى تكون على الوفا		إذا كنت في هم أعنك بهمتي
مريدي تمسك بي وكن بي واثقا		لأحميك في الدنيا ويوم القيامة
أنا لمريدي حافظ ما يخافه		وأنجيه من شر الأمور وبلوة
وكن يا مريدي حافظا لعهودنا		أكن حاضر الميزان يوم الوقيعة

ويدعوهم لأداء فريضة الحج في بيته، فيقول في قصيدة أخرى[2]:

حجوا إليَّ فداري كعبة نصبت		وصاحب البيت عندي والحمى حرمي

١ الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، جمع وترتيب إسماعيل القادري ٥٩، ٦١

٢ الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية جمع وترتيب إسماعيل القادري ٥٥ وفتوح الغيب

ثم يقول[1] عن نفسه مترفعا عن مقام القطبانية:

قالت الأولياء جمعا بعزم		أنت قطب على جميع الأنام
قلت كفوا ثم اسمعوا قولي		إنما القطب خادمي وغلامي
كل قطب يطوف بالبيت سبعا		وأنا البيت طائف بخيامي

ويزعمون أن شيخهم أخبر عن بركات قبره وضريحه بعد موته ما يلي[2]:

ضريحي بيت الله من جاء زاره		يهرول له يحظى بعز ورفعة
وسري سر الله سار بخلقه		فلُـذ بجنـابي إن أردت مودتي
وأمري أمر الله إن قلت كن يكن		وكل بأمر الله فاحكم بقدرتي

ويُعَلِم خلفاء الطريق المريد كيف يستغيث بالشيخ الأكبر عبد القادر الجيلاني إذا أهمه أمر، أو حزبه ما يكدره، فما عليه إلا: "أن يصلى ركعتين ليلة الثلاثاء، ويقوم بعد الصلاة، ثم يخطو إحدى عشر خطوة جهة العراق إلى يمين القبلة، ويقول في الخطوة الأولى: يا شيخ محيي الدين، وفي الثانية: يا سيد محيي الدين، وفي الثالثة: يا مولانا محيي الدين، وفي الرابعة: يا مخدوم محيي الدين، وفي الخامسة: يا درويش محيي الدين، وفي السادسة: يا خواجه محيي الدين، وفي السابعة: يا سلطان محيي الدين، وفي الثامنة: با شاه محيي الدين، وفي التاسعة: يا غوث محيي الدين، وفي العاشرة: يا قطب محيي الدين، وفي الحادي عشر: يا سيد السادات عبد القادر محيي الدين، ثم يقول: يا عبيد الله، أغثني بإذن الله، يا شيخ الثقلين أغثني، وامددني في قضاء حوائجي"[3].

١ الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية جمع وترتيب إسماعيل القادري ٥٤، وفتوح الغيب ٢٣٣

٢ الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية جمع وترتيب إسماعيل القادري ٤٤، وفتوح الغيب ٢٢٦

٣ الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية جمع وترتيب إسماعيل القادري ٤٢، ٤٣

ولا شك أن الدس واضح جلي، ولغته فارسية، وموطنه شمالي إيران. وليس أمام المنصف إلا أن يصدق أقوال علماء الأمة عن الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله [1]، فلو علم عنه علمائنا ما أسلفناه، ما سكتوا عنه، وفي نفس الوقت نحذر الناس من سموم الشرك التي تجري مجرى الدم في العروق في أوراد الطريقة المنسوبة له، وعلى أتباع الطريقة، ومشايخها أن يتوبوا إلى الله من هذا الضلال، وأن يتبعوا سبيل المؤمنين الذين لا يأتمرون إلا بكتاب الله ﷻ، وسنة النبي ﷺ، وأن يجتنبوا الابتداع، وتقليد كل ناعق، فإنما يدعون أصحابهم: ليكونوا من أصحاب السعير، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

١ ومما هو محير حقا أننا نحاول أن ننفي عن الشيخ الجيلاني مقولة: "قدمي هذه على رقبة كل ولي لله"، في نفس الوقت الذي يكتبها بنفسه، ويعلق عليها صلاح القوصي في ديوانه العتيق على البيت ٣٠٣، فيقول: "يشير المؤلف[القوصي] إلى حالة حدثت معه يقظة، ليلة الأحد ٢٨ ربيع الأول ١٤١٥ هـ، الموافق ٣ سبتمبر ٩٤م، حيث سمع بحال شديد له رسول الله ﷺ، يقول لأحد مدعي الولاية، والتشيخ من منطقة دمنهور بدلتا مصر: "ضع عنقك تحت قدمه، فإن جميع الأولياء أعناقهم تحت قدمه، ومن لا يأته منهم، ويأتمر بأمره فسوف يسلبه ما عنده "، ولم يستجب الولي لقول رسول الله ﷺ، فسلبه المؤلف حاله، فصار مسيحيا لفوره، والأبيات التالية تشير إلى روحانية المؤلف، وهو في الحال المذكور". ولا نعرف أندافع عن الجيلاني، أم ما نسب إليه من قوله فعلا؟، والله تعالى أعلم.

ملخص الباب العاشر

- اخترع الصوفية مرتبة الأبدال في بداية الأمر، ثم وضع أتباعهم مجموعة من الأحاديث التي ينشرونها بين أتباعهم، وينسبونها للنبي ﷺ، وقد تتبعنا كل ما روي من أحاديث حول الأبدال، وتنحصر درجاتها بين الضعيف الواهي الضعف، أو الحديث الموضوع.

- ظهرت مجموعة أخرى من المراتب المساعدة لمرتبة الأبدال كالنجباء، والنقباء، والأوتاد، والأخيار، وأحاديث هذه المراتب أوهى، وأضعف من أحاديث الأبدال.

- حدد الفكر الصوفي دور الأبدال في أنهم وسائط بين الله، وبين خلقه، وأنهم أمان لأهل الأرض، وأنهم يتشكلون، ويتواجدون في أكثر من مكان في آن واحد، ويعلم الصوفية المريدين أدعية توصل إلى مقام الأبدال، وأدعية أخرى تجمع المريد على الخضر عليه السلام.

- من مهام الخضر التي يحيى من أجلها إلى قيام الساعة أنه يتولى اختيار، وتعيين الأبدال.

- اختفت جميع المراتب السابقة من الكتب الصوفية، ويتم التركيز على مرتبة القطب، وأنه أعلى وأرقى من جميع المراتب السابقة.

- أخطر ما في فكرة القطب أنهم عزلوا معبودهم عن قيوميته على خلقه، وتركوا هذه المهام للقطب، وأصبح الأله عندهم لا ينظر إلى الخلق جميعا، وإنما ينظر إلى القطب فقط، وعلى القطب تقوم باقي الأمور.

- قدمنا فهم الصوفية عن الأقطاب، والغوث، ومهامهم: لنبين للناس خطورة الموضوع، فالناس تُكْثِر من استخدام كلمة القطب دون أن يعرفوا المراد منها، كما عرجنا على أوراد التجانية، والجيلانية، كأمثلة عن غلو المريدين في مقام شيوخهم.

- الله تعالى أعلم بحال الشيوخ، فمن صدق مع ربه، واعتدل فكره، وتمسك بالكتاب والسنة، فحسابه على ربه، وربما أثنى عليه أهل زمانه، إلا أن الذي ينسبه أتباعهم لهم اليوم هو الضلال بعينه، فللَّه الأمر وحده، وسبحان من يحاسب كل نفس بما كسبت، ولا تظلمون فتيلا.

الباب الحادى عشر

ديوان التصريف والحكومة الباطنية

- تهيئة لما بين دفتي الباب

١. ديوان التصريف [الإدارة المركزية]

٢. الحكومة الباطنية و الأضرحة [الاختصاص المحلي]

٣. حكم الأضرحة والتصريف في ضوء الكتاب والسنة

تهيئة لما بين دفتي الباب

كان من الأجدر والأيسر أن أسمي هذا الباب بالإدارة المركزية والاختصاصات المحلية، ولكن فضلت في تسمية هذا الباب الالتزام بمصطلحات الصوفية أنفسهم؛ فالصوفية تؤمن أن الله تبارك وتعالى قد منح أولياءهم صلاحيات إدارة الكون وفوضهم في اتخاذ ما يرونه من قرارات سواء على المستوى المحلي من خلال أضرحة الأولياء الموزعة على مستوى الأقاليم والبلدان، أو ديوان التصريف الذي يمثل الإدارة المركزية لتصريف شئون الكون، وللتعرف على تلك الأفكار الغريبة التي تقوض مفاهيم ومبادئ التوحيد الإسلامي لا بد لنا أن نتناول مجلس إدارة الكون عند الصوفية المتمثل في الديوان، ثم نتناول معتقدات الصوفية على المستوى الإقليمي المحلي المتمثل في المشايخ والأضرحة، وسوف نوضح الشطط الذي زاغ بهؤلاء عن مفهوم التوحيد المتمثل في وجود خالق واحد للكون يتولى أمر كل شيء ومخلوق يحتاج إلى ربه في كل لحظة دونها وسيط، أو رسول، أو حاجب، أو سفير، أو العقل الأول، أو الهيولى، أو الإمام، أو القطب، أو أي صورة من صور التداخل بين الخالق والمخلوق، تلك المسميات التي تتغير وتتبدل ويبقى مدلولها.

وهذه الاختصاصات عند الصوفية تنقسم إلى:

أولا: الإدارة المركزية المعروفة بـ"ديوان التصريف"، وهذا ما سنتناوله في الفصل الأول.

ثانيا: الاختصاصات المحلية الموزعة على الأولياء.

أ. إما وهم أحياء، وهو المعروف بـ"التوسل بالمشايخ".

ب. أو بعد موتهم وهو ما يعرف بـ"الأضرحة".

وسوف نتناول ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب.

ثم سنتناول في الفصل الثالث حكم الأضرحة والتصريف في ضوء الكتاب والسنة.

الفصل الأول

ديوان التصريف

(الإدارة المركزية)

أولا: نشأة الديوان والتعريف به

ثانيا: اجتماعات الديوان

ثالثا: مَن يحضر الديوان؟

الفصل الأول

ديوان التصريف

أولا: نشأة الديوان والتعريف به.

يكثر بين أتباع الصوفية الحديث عن الأقطاب، والأبدال، والنقباء، ودور كل منهم على حدة، ولكنهم وجدوا أنه ليس من المعقول أن يظل كل ولي من هؤلاء في معزل عن صاحبه، لا سيما وقد أشارت معارف الصوفية إلى تحركات، وتنقلات للأبدال، والأقطاب، وغيرهم، فهداهم شيطان الشطح أن يخترعوا اجتماعات روحية، وجسدية يومية لكل أصناف الأولياء، وطبقاتهم: لذا راحوا يرتبون اللقاءات فيما بينهم، ولا يجتمع هؤلاء لأمر بسيط، وإنما ليتولوا تشكيل مجلس يدير الكون، وينظر في أموره، وأحواله نيابة عن الله ﷻ. وهو ما يُعرف بالديوان، أو المملكة الباطنية.

ولما كان الدباغ أكثر من تحدث عن الديوان: لذا سنعرض ما جاء في إبريزه بصورة مختصرة، وعلى هيئة نقاط محددة، وسنذكر أقوال الرجل أمام كل نقطة:

١ . ما الديوان؟

عبارة عن اجتماع يومي يتم بين الأولياء الأموات منهم والأحياء، من مشارق الأرض ومغاربها، ويروي الشعراني في طبقاته[1]، عن عبد الله التستري، أنه قال: "ما من ولي لله صحت ولايته إلا ويحضر إلى مكة في كل ليلة جمعة لا يتأخر عن ذلك".

٢ . مكان الديوان: غار حراء بمكة المكرمة.

٣. نشأة الديوان:

ويزعمون أن: الديوان كان معمورا بالملائكة، ولما بعث الله النبي ﷺ جعل الديوان يعمر بأولياء هذه الأمة، فظهر أن أولئك الملائكة كانوا نائبين عن أولياء هذه الأمة المشرفة، حيث رأينا الولي إذا خرج إلى الدنيا، وفُتِحَ عليه، وصار من أهل الديوان، فإنه يجيء إلى موضع

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني ١: ٦٧

مخصوص، فيجلس فيه، ويصعد الملك الذي كان فيه، فإذا ظهر ولي آخر جاء إلى موضع، ويصعد الملك الذي في ذلك الموضع، وهكذا كانت بداية عمارة الديوان حتى كمل، وأما الملائكة الذين هم باقون فيه، فهم ملائكة ذات النبي ﷺ الذين كانوا حفاظا لها في الدنيا، ولما كان نور ذاته ﷺ مفرقا في أهل الديوان بقيت ملائكة الذات الشريفة مع ذلك النور الشريف.

٤. وصف الديوان:

يتكون الديوان من سبع دوائر متحدة المركز، ويطلق الدباغ في كتابه اسما لكل دائرة صفا، فأصغر الدوائر قطرا تسمى الصف الأول، ووصفها كالتالي: يجلس القطب الغوث في صدر الصف الأول، وأربعة أقطاب عن يمينه، وهؤلاء الخمسة مالكية المذهب، وعن يساره ثلاثة أقطاب، واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة، والوكيل في مواجهة الغوث، وهو مالكي أيضا[1]، ولا يتكلم الغوث إلا مع الوكيل، ولذلك سمي وكيلا؛ لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان، والتصرف للأقطاب السبعة عن أمر الغوث، وكل واحد من الأقطاب السبع تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته.

ثانيا: اجتماعات الديوان.

ما زلنا ننقل لك أيها القارئ الكريم الحديث عن الدباغ من كتابه الإبريز، ودورنا في هذا النقل هو التلخيص خشية الإطالة، والتبويب لبيان فكرة الديوان، وتكاملها في الفكر الصوفي، ولتغطية كافة التفاصيل، فالاجتماعات لها موعد، ولغة، وجدول أعمال، ومعروف من يدعون إليها، كما أن الاجتماعات السنوية تشبه اجتماعات الجمعية العمومية في وقتنا الحالي.

١. موعد الاجتماع:

يوميا في الثلث الأخير من الليل، وهي ساعة استجابة الدعاء، وساعة ميلاد رسول الله ﷺ.

---

١ لاحظ تحيز الدباغ للمذهب المالكي، فقد منحهم ستة مقاعد في الصف الأول، ولم يعطِ بقية المذاهب إلا مقعدا واحدا لكل منهم، فالرجل مالكي المذهب.

٢. لغة الاجتماع:

السريانية: لاختصارها، وجمعها المعاني الكثيرة: ولأن الديوان يحضره الأرواح والملائكة، والسريانية هي لغتهم، ولا يتكلمون بالعربية إلا إذا حضر النبي ﷺ أدبا معه.

٣. الغرض من الاجتماع:

إذا اجتمعوا اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد، فهم يتكلمون في قضاء الله تعالى في اليوم المستقبل، والليلة التي تليه، ولهم التصرف في العوالم كلها السفلية والعلوية، وحتى في الحجب السبعين، وحتى ما فوق الحجب السبعين، فهم يتصرفون فيه - حسب زعمهم - وفي أهله، وفي خواطرهم، وما تهجس به ضمائرهم، فلا يهجس في خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصريف، وإذا كان هذا في عالم ما فوق الحجب السبعين التي فوق العرش، فما ظنك بغيره من العوالم؟!.

٤. كيف يجتمعون؟

ينزل الأموات من البرزخ، ويطيرون طيرا بطيران الروح، فإن قربوا موضع الديوان بنحو مسافة نزلوا إلى الأرض، ومشوا على أرجلهم، إلى أن يصيروا إلى الديوان، والميت يحضر بذات روحه، لا بذاته الفانية الترابية.

٥. الاجتماع السنوي:

يحضره الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مثل: إبراهيم، وموسى، وغيرهما من الرسل.

٦. موعد الاجتماع السنوي:

في ليلة القدر، ويحضره الملأ الأعلى من الملائكة المقربين، وأزواج النبي ﷺ، وأكابر صحابته رضوان الله عليهم.

ثالثا: مَن يحضر الديوان؟

يُفصِّل الدباغ أمور الديوان، وننقل عنه ما يتعلق بالحضور، ومتى يحضر النبي ﷺ اجتماعات الديوان؟ وما حال الحضور حينئذ؟ ومن يخلف القطب إذا اعتذر عن الاجتماع، وشغله أمر أهم من تدبير شئون الكون؟ وما إلى ذلك من أمور، فنراه يقول:

١. الحاضرون هم:

الأولياء، الأحياء والأموات، والملائكة وهم من وراء الصفوف، والجن الكمل، وهم الروحانيون، وهم من وراء الجميع، وهم يبلغون صفا كاملا، وليس كل من يحضر الديوان من الأولياء يقدر على النظر في اللوح المحفوظ.

٢. كيف نميز الأحياء من الأموات؟

يمكن تمييز الحاضرين الأحياء من الأموات بثلاثة أمور، هي:

- إن زِيّ الأموات لا يتبدل، وهيئته ثابتة، بينما الأحياء ثيابهم تتغير وهيئاتهم، كذلك فمرة ترى الواحد منهم حليق الشعر، ومرة بدون شارب وهكذا.
- إن ذات الميت لا ظل لها، فإذا وقف الميت بينك وبين الشمس لا ترى له ظلا.
- الأموات لا تقع معهم مشاورة في أمور الأحياء: لأنهم لا تصرف لهم فيها، وقد انتقلوا إلى عالم آخر في غاية المباينة لعالم الأحياء، وإنما تقع معهم المشاورة في أمور عالم الأموات.

٣. هل يحضر النبي ﷺ ؟

نعم، وإذا حضر النبي ﷺ إلى الديوان جلس في موضع الغوث، وجلس الغوث في موضع الوكيل، وتأخر الوكيل للصف، وإذا جاء النبي ﷺ جاءت معه الأنوار التي لا تطاق، وإنما هي أنوار محرقة قاتلة لحينها، وهي أنوار المهابة والجلال، وكلامه ﷺ مع الغوث، فالأمر الذي ينزل من عند الله لا تطيقه ذات إلا ذات النبي ﷺ، وإذا خرج من عنده ﷺ لا تطيقه ذات إلا ذات الغوث، ومن ذات الغوث يتفرق على الأقطاب السبعة، ومنهم يتفرق على أهل الديوان. وإذا حضر النبي ﷺفي الديوان، وجاءت معه الأنوار التي لا تطاق، بادرت الملائكة من أهل الديوان، ودخلوا في نوره ﷺ، فما دام النبي ﷺ في الديوان لا يظهر منهم ملك، فإذا خرج من الديوان رجع الملائكة إلى مراكزهم.

٤. غياب الغوث وديكتاتورية الأغلبية:

قد يغيب الغوث عن الديوان فلا يحضره، فيحصل بين أولياء الله تعالى ما يوجب اختلافهم، فيقع فيهم التصرف الموجب لأن يقتل بعضهم بعضا، فإن كان غالبهم اختار أمرا، وخالف الأقل من ذلك، فإن الأقل يحصل فيهم التصرف السابق، فيموتون جميعا[١].

٥. سبب غياب الغوث:

إما لاستغراقه في مشاهدة الحق سبحانه، وإما لكونه في بداية توليته بعد موت الغوث السابق، لذا فإنه قد لا يحضر في بداية الأمر حتى تتأنس ذاته شيئا فشيئا.

٦. حضور النبي ﷺ في غياب الغوث:

يحصل لأهل الديوان من الخوف الجزع، من حيث يجهلون العاقبة من حضور النبي ﷺ ما يخرجهم عن حواسهم، حتى أنه لو طال ذلك أياما كثيرة لانهدمت العوالم[٢].

٧. لِمَ يحضر الجن والملائكة؟

إن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواتهم الوصول إليها، وفي أمور أخرى لا تطيق ذواتهم الوصول إليها، فيستعينون بالملائكة والجن فيها.

٨. هل يحضر نساء في الديوان؟

نعم، يحضره النساء، وعددهن قليل، وصفوفهن ثلاثة، وذلك من جهة الأقطاب الثلاثة التي على اليسار خلف الصف الأول[٣].

---

١ لا نعرف مسمى لهذا النوع من الديكتاتورية، أهي ديكتاتورية الأغلبية؟!، أم تراها تهدف إلا أن تركب الأقلية الموجة خشية القتل؟، وهذا النوع من البطش لا يليق بالحكومات الظالمة، فكيف يقع من صفوة الأولياء رواد الديوان؟!

٢ أرأيت باطلا أشنع من هذا: مجرد غياب الغوث عدة أيام عن حضور ديوان التصريف تنهدم العوالم!

٣ لاحظ النساء ممثلات في الديوان، ويجلسن في ناحية الأحناف، والشافعية، والحنابلة، وبالطبع بعيدات عن المالكية.

٩. سبب قيام الساعة [عندهم]:

لا دخل للمجاذيب في الديوان، ولا بأيديهم تصرف، وإذا بلغ إليهم التصرف هلك الناس، فإذا كان كبير الديوان [أي الغوث] منهم، وليس معه عقل تمييز، فيقع الخلل في التصرف، ويكون ذلك سببا في خروج الدجال.

لا شك أن حجم الضلال والبهتان في موضوع الديوان، والمملكة الباطنية أكبر مما يظن أتباع الصوفية، وحين قَبِلَ المريدون من مشايخهم تقسيم الدين إلى ظاهر وباطن، فإنهم لا يدركون أن هذا الباطن يلغي توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، ويشكك في أسماء، وصفات مالك الملك ﷻ، فالدنيا تسير بتصريف القطب وأتباعه، والقيامة تقوم إذا تولى تصريف الكون مجذوب لا يدري من أمر نفسه شيئا، والمجذوب لا يأمنه عاقل على بضاعة يبيعها للناس، فكيف يقبل الناس أن يتولى مجذوب تصريف شئون الكون، فيقع الخلل، ويخرج الدجال، وتقوم الساعة. سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم، أعانهم عليه قوم آخرون، ومن علامات الحق أنه واحد أبلج لا اختلاف فيه، ومن علامات الباطل أنه لجلج، وظلمات بعضها فوق بعض، وأنه لا يتفق فيما بينه أبدا.

وقد تحدث بعض الصوفية في كتبهم عن الديوان منهم الدباغ، والخواص، والشعراني، ويقول التجاني: أنه رأى في الديوان سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام يطلب الدعاء من سيده منصور"[1] . ومن أمثلة التصريف التي يرويها الشعراني في ترجمة الشيخ مُحَيسِن البرلسي: "أنه كان من أصحاب الكشف التام، وكانت النار موقدة عنده في أغلب أوقاته صيفا وشتاء، وكان سيده علي الخواص إذا شك في نزول بلاء على أهل مصر، يقول: اذهبوا إلى الشيخ محيسن، فانظروا النار التي عنده، هل موقدة هي أم مطفأة، فإن كانت مطفأة حصل في مصر رخاء، ونعمة، وكان الناس في غاية الراحة، فإذا كانت موقدة، يقول علي الخواص: الله لا يبشره بخير، فيصبح الناس في شدة عظيمة في مسكنهم حتى بلاد الهند، ويحصل لهم غاية الضيق"[1]، ويحكي الشعراني كرامة لقميص إبراهيم المجذوب، فيقول: "وكل قميص لبسه الشيخ إبراهيم

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني ٢: ١٢٩

يخيطه، ويحزقه على رقبته، فإن ضيقه جدا حتى ينخنق، يحصل للناس شدة عظيمة، وإن وسعه حصل للناس الفرج"[1]، ويقرر الشعراني أن شيخه علي الخواص أوتي التصريف في ثلاثة أرباع مصر، وكان: "يرسل للشيخ الشريف المجذوب الحملات الثقال، فيقوم بها"[2]. ويتمادى الشعراني، فيدعي أنه لا ينام كل ليلة حتى يطمئن بنفسه على الدنيا، ويقوم بنوبته لحراستها، ويصف لنا مساره قائلا: "وصورة طوافي كل ليلة على مصر، وجميع أقاليم الأرض، أنني أشير بإصبعي إلى أزقة جميع المدائن، والقرى، والبراري، والبحار، وأنا أقول: الله الله الله، فأبدأ بمصر العتيقة، ثم بالقاهرة، ثم بقراها، حتى أصل إلى مدينة غزة، ثم إلى القدس، ثم إلى الشام، ثم إلى حلب، ثم إلى بلاد العجم، ثم إلى بلاد التركية، ثم إلى بلاد الروم، ثم أعدي من البحر المحيط إلى بلاد المغرب، فأطوف بلدا بلدا حتى أجيء الإسكندرية، ثم أعطف منها إلى دمياط، ثم منها إلى أقصى الصعيد، ثم إلى أقصى بلاد العبيد، ثم إلى بلاد الرجرا، وهي إقطاع جدي الخامس، ثم أعطف إلى بلاد التكرور، وبلاد السكوت، ومنها إلى بلاد النجاشي، ثم إلى أقصى بلاد الحبشة، وهي سفر عشر سنين، ثم منها إلى بلاد الهند، ثم إلى بلاد السند، ثم إلى بلاد الصين، ثم ارجع إلى بلاد اليمن، ثم إلى مكة، ثم أخرج من باب المعلى، إلى الدرب الحجازي، إلى بدر، ثم إلى الصفراء، ثم إلى مدينة النبي ﷺ، فأستأذنه عند باب السور، ثم أدخل حتى أقف بين يديه ﷺ، فأصلي وأسلم عليه، وعلى صاحبيه، وأزور من في البقيع، ثم أقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات١٨٠:١٨٢]، وما أرجع إلى داري بمصر، إلا وأنا ألهث من شدة التعب، كأني كنت حاملا جبلا عظيما، ولا أعلم أحدا سبقني إلى مثل هذا الطواف، وكان ابتداء حصول هذا المقام لي سنة ٩٣٣ هـ، فرأيت نفسي في محفة طائرة، فطافت بي سائر أقطار الأرض في لحظة، وكانت تطوف بي على قبور المشايخ من فوق أضرحتهم، إلا ضريح سيده أحمد البدوي، وضريح سيده إبراهيم الدسوقي، فإن المحفة نزلت بي من تحت عتبة كل منهما، ومرت من تحت قبره"[1].

١ الطبقات الكبرى للشعراني ٢: ١٢٨

٢ الطبقات الكبرى للشعراني ٢: ١٣٤

وأمثلة هذا الهراء لا تنتهي، فما أيسر ادعاء الناس بالباطـل، ودون دليـل أو برهـان، فـلا حاجز يمنع اللسان من أن يخوض، ويصول، ويجول، فما أيسر أن يُغلف الشيطان هذه الأقـوال بثياب الفتوح، والإلهام، وتلبيس التوحيد لله ﷻ. وحقيقة الأمر أنها غياهب الضلال، وإلهامات الشياطين.

الفصل الثاني

المشايخ والأضرحة
والحكومة الباطنية

أولا: الأحياء.

- آداب المريد مع الشيخ.
- اكتفاء المريد بشيخه.
- عقوبة الاعتراض على الشيخ.
- مدد الشيخ.
- الفتح الصوفي.
- التوسل والاستغاثة بالمشايخ.

ثانيا: الأضرحة عند الصوفية

١. اهتمام الصوفية بالأضرحة.
٢. الحكومة الباطنية.
٣. الموالد وما يقع فيها.

الفصل الثاني

المشايخ والأضرحة والحكومة الباطنية

المشايخ عند الصوفية

سبق أن ذكرنا أن ديوان التصريف عند الصوفية يشبه الإدارة المركزية، وأن المشايخ تمثل عندهم الاختصاصات المحلية سواء أكانوا أحياء أو بعد موتهم، وفيما يلي سنتحدث أولا عن المشايخ الأحياء عند الصوفية وما لهم من مكانة عندهم وكيف أنه على المريد آداب يلتزم بها مع شيخه، وأن المريد ينبغي له أن يكتفي بشيخه، وكيف أن للشيخ حق عقوبة مريده إذا اعترض عليه، وأن الشيخ أصبح عندهم مصدر الأنوار والبركات والفيوضات، ثم نتحدث بإذن الله تعالى عن توسل المريد بشيخه والاستغاثة به. ثم نتناول الأضرحة عند الصوفية والموالد التي تقام لصاحب الضريح وما يحدث في هذه الموالد.

أولا: المشايخ الأحياء عند الصوفية.

آداب المريد مع الشيخ

يغالي الشيعة في أئمتهم لاعتقادهم أن طبيعة الإمام مختلفة عن طبيعة البشر، فالناس خلقوا من طينة الأرض ثم نفخت فيهم الأرواح، أما طينة الأئمة فهي طينة من كنز مكنون تحت العرش، وأرواحهم نور من نور الله ﷻ؛ لذلك جاءت أوصاف الأئمة في كتب شيعتهم بأنهم نور الله ووجه الله وما سبق الإشارة إليه، وبالتالي فإن الاختلاف مع الشيعة اختلاف أصلي وأساسي، حيث يتبع القوم عقيدة مختلفة في جوهرها عن حقيقة الإسلام، وهذا ما جعلنا لا نخوض في دراستنا هذه في أفعال الأئمة وأحوالهم، لأنها في النهاية ترفعهم إلى مصاف الآلهة، وهذا ما تؤكده طبيعتهم في مفهوم أتباعهم.

إن المتأمل في اعتقاد الصوفية في مشايخهم قد يظن - للوهلة الأولى - أن فجوة الاختلاف مع الشيعة واسعة، أما المتأمل والدارس فيرى هذه الهوة لا تعدوا أن تكون فجوة شكلية، ونحن مضطرون إلى أن نعالج هذا الموضوع بأسلوب مختلف عن تناولنا لعقيدة فرق الباطنية، فالصوفية لا يزعموا أن طبيعة مشايخهم مثل طبيعة الأئمة، بل هم يرونهم أولياء الله فقط،

ولكننا إذا تتبعنا أفعال المشايخ وأحوالهم وآداب صحبة المريد معهم، يتبين لنا بتوفيق الله ﷻ أن الغلو ملة واحدة مهما تعددت الأهواء والطرق والنحل. ونجد الالتقاء واضحا بين الشيعة والصوفية. وحين جعل الصوفية من لقاء موسى والخضر عليهما السلام الحجة والدليل والبرهان، ومن حوارهما استقوا دستور الآداب الصوفية، وتَبَوّء الخضر عليه السلام مكانة عظيمة في الفكر الصوفي، فهو شيخ الصوفية الأكبر، بل إن له دورا مستمرا، فشيخ الطريقة في الظاهر نائبا عن الخضر، وفي الباطن هو صورة الاستمداد للعلم الباطني، فظن كل شيخ أنه الخضر عليه السلام، ولن يُسقى المريد من العلم الباطني مهما بلغ في السلوك إلا بواسطة استمداده من الخضر بواسطة شيخه، لذلك يحدد أحمد بن أبي الحواري علامات المريد الصادق، فيقول: "من علامة المريد الصادق أن لو قال له شيخه: ادخل التنور، دخل ثم إذا دخل لا يحترق، فإن احترق فهو كاذب"[1].

ومن هذه المفاهيم صاغ القوم آداب المريد مع شيخه؛ فللشيخ مكانته الكبرى في الفكر الصوفي، ومن ثم اخترع المشايخ مجموعة من الآداب وصنفوا فيها الكتب ونظموا لها الأشعار، ولا يكاد يخلو أي كتاب صوفي في تناول هذا الموضوع الذي استنبطوه من قصة موسى والخضر عليهما السلام. ويوضح أبو علي الدقاق أهمية أدب المريد مع شيخه، فيقول: "من علامة المريد الصادق حفظ قلب شيخه عليه – لما هو عليه من شدة الأدب والسياسة والمحبة لشيخه، ومن علامات الكاذب الاعتراض على شيخه ولو بقلبه، وأجمع الأشياخ كلهم على أن عقوق الأستاذ لا توبة عنها، فكل من صحب شيخا واعترض عليه فقد نقض عقد الصحبة، وخرج عن طريقته وانقطعت العلاقة بينهما. وسنعرض فيما يلي عددا من النصوص التي تبين حجم هذا الموضوع:

أولا: منظومات شرح الآداب.

من أشهر العبارات التي يتناقلها الصوفية للتعبير عن قمة أدب المريد بين يدي شيخه "أن يكون المريد بين يديه كالميت بين يدي الغاسل"، وأول من قال هذه العبارة هو: الشيخ عبد

١ نقلا عن العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن طريق لمحمود محمد خطاب السبكي ٦٦

القادر الجيلاني، ونص عبارته: "ينبغي على المريد أن يكون بين يدي الكتاب والسنة كالميت بين يدي الغاسل"، إلا أن المشايخ حرفوها ورفعوا الشرع ممثلا في الكتاب والسنة واستبدلوه بالشيخ، وانتشرت هذه العبارة بين الصوفية حتى أنها أصبحت ركنا من أركان الآداب الصوفية.

وقد نظم الصوفية قصيدة تحث المريد على التأدب مع شيخه منها ما يلي[1]:

إن كنت تقصد أن تحظى بصحبته	فاسلك على سنن طابت مساعيه
واخلص ودادك صدقا في محبته	والزم ثرى بابه واعكف بناديه
واستغرق العمر في آداب صحبته	وحصّل الدر والياقوت من فيه
وابذل قواك وبادر في أوامره	إلى الوفاق وبالغ في مراضيه
واحذر بجهدك أن تأتي ولو خطأ	ما لا يحب وباعد عن مناهيه
وكن محب محببيه وناصرهم	والزم عداوة من أضحى يعاديه
واعلم يقينا بأن الله ناصره	وإن لم يكن ناصر فالله يكفيه
وأنزل الشيخ في أعلى منازله	واجعله قبلة تعظيم وتنزيه
ولست تفعل هذا إن ظننت به	نقصا ولا خللا فيما يعانيه
واترك مرادك واستسلم له أبدا	وكن كميت مخلى في أياديه
وليس ينفع قطب الوقت ذا خلل	في الاعتقاد ولا من يواليه

الشيخ هنا يربي لا يعلم المريد كيف يتعامل مع الناس جميعا، وإنما يعلمه كيف يتحزب لشيخه ويسالم من يسالمه ويعادي من يعاديه، كأنها حرب السويس، وفي نفس الوقت تتكرر عبارة وكن بين يدي الشيخ كميت بين يدي الغاسل، حيث لا إرادة ولا حركة إلا بإذن الشيخ. كما ورد في أوراد مشيخة عموم السادة البيومية نصيحة للمريد وكيف يعامل شيخه وتحذيره من الاعتراض ومغبته، حيث يقول الشيخ شعرا[2]:

١ تحفة الأخوان في آداب الطريق لأحمد الدردير ٣٨

٢ مجموعة أوراد الطريقة البيومية ٢٩

وكن عنده كالميت عند مغسلٍ	يقلبه ما شاء وهو يطاع
ولا تعترض فيما جهلت من أمره	عليه فإن الاعتراض تنازع
وسلم له فيما تراه وإن يكن	على غير مشروع مخادع
ففي قصة الخضر الكريم كفاية	بقتل الغلام والكليم يدافع
فلما أضاء الصبح عن ليل سره	وسل حسام للمحاجج قاطع
أقام له العذر الكليم وإنه	كذلك علم القوم فيه يدافع

ثانيا: نقلا عن إجازة المشيخة.

وجاء في إجازة مشيخة الطريقة الخلوتية العونية العيونية[1] بيان أكثر تفصيلا لما أوردناه نظما عن آداب المريد مع شيخه – نسوقها بعد إعادة ترتيبها – حيث يقولون: "فأما الآداب التي تُطلب من المريد في حق، فهي كثيرة جدا منها:

١. أن يحسن فيه الظن في كل حال.
٢. أن لا يتجسس على أحوال الشيخ من عبادة أو عادة، فإن في ذلك هلاكه.
٣. أن لا يذكره بخير عند أعدائه خوفا من أن يكون وسيلة لقدحهم فيه.
٤. أن يحب من أحبه الشيخ ويكره من يكرهه.
٥. أن لا يزوره إلا على طهارة؛ لأن حضرة الشيخ من حضرة الله.
٦. تقديمه على غيره وعدم الالتجاء إلى غيره من الصالحين، فلا يزور وليا من أهل العصر ولا صالحا إلا بإذنه، ولا يحضر مجلس غيره إلا بإذنه، ولا يسمع مِنْ سواه حتى يتم سقيه من ماء سر شيخه.
٧. عدم الاعتراض عليه في أي شيء فعله، ولو كان ظاهره أنه حرام.
٨. تعظيمه وتوقيره باطنا وظاهرا؛ لأنه دليله وبه وصوله إلى المقصود، لأن من سلك طريقا بغير دليل تاه وضل، وربما هلك مع الهالكين.
٩. أن يحفظه في غيبته كحفظه في حضرته.

١ إجازة مشيخة الطريقة الخلوتية العونية العيونية المطبوعة مع أوراد الاسم الأول ص ١٠ – ١٢

١٠. أن يقدم محبته على محبة غيره ما عدا الله ورسوله، فإن محبتهما هي المقصودة بالذات، ومحبة الشيخ وسيلة لها.
١١. أن يلازم الورد الذي رتبه له، فإن مدد الشيخ في ورده، فمن تخلف عنه فقد حرم المدد، وهيهات أن يصح في الطريق.
١٢. أن يعتقد أن كل بركة حصلت له من بركات الدنيا والآخرة من بركة شيخه.
١٣. أن يلاحظه في قلبه في جميع أموره.
١٤. أن يستمد المريد بقلبه عند شروعه في الذكر من شيخه، وأن يرى استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من النبي ﷺ.

وسنعيد ترتيب هذه الآداب حسب درجة الغلو فيها، فهي تبدأ بآداب شرعية مثل: حسن الظن، وعدم التجسس على الناس، ثم تتدرج إلى عدم إنكار المنكر، ثم تخصيص الشيخ بأنه المصدر الذي يستقي منه المريد منهج العبادة وهو الورد، إلى أن تجعل الشيخ وسيطا بينك وبين ربك في الإمداد، وتلقي البركات، مع حجب السالك إلى الله تعالى من أسباب العلم وطرق تحصيله ومنها: تحذير المريد من لقاء الصالحين والعلماء، وهذه نقطة حيوية في الفكر الصوفي، حتى أن الشيخ علي وفا يشرح خطورة محبة الصالحين والاستماع إليهم بقوله: "لما كان الحق تعالى: ﴿لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء-٤٨]، فكذلك الأشياخ لا يغفرون أن يُشرك بهم، تخلقا بنظر مسمى أخلاق الله ﷻ فإذا رأيت أيها المريد شيخك يتشوش منك إذا أشركت في محبته شيخا آخر، فإياك أن تسيء به الظن، بل اشهد أن ذلك من أخلاق الله ﷻ الذي يقول: ﴿إن اللـه لا يغْفِر أن يشْرك بِهِ﴾ [النساء-٤٨] ظهر على لسان وليه"[1]. وتضيف كتب الصوفية الآداب التالية[2]:

١. أن لا يجلس المريد بحضرة الشيخ إلا كجلوسه للصلاة، إلا لضرورة، وليحذر من الإكثار من مجالسته، فإن المريد ربما ذهبت حُرْمَـةُ شيخه من قلبه بكثرة

---

١ الأنوار القدسية في معرفة قواعد وآداب الصوفية لعبد الوهاب الشعراني ٢: ١٢

٢ العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن طريق لمحمود محمد خطاب السبكي ٨٣

مجالسته له، فيهون عليه بذلك قدره فيُحرم بركته. وأن لا يديم النظر إلى وجهه، فمن أدمن النظر إلى وجه شيخه فقد خلع ربقة الحياء من عنقه، وربما حرم بركته.

٢. أن يجتهد المريد في إكرام كل من يلوذ بالشيخ، ولا سيما أولاده إذا غاب.

٣. أن لا يتغير المريد علي شيخه إذا نَقَّصَهُ بين إخوانه، أو فعل به أي فعل؛ لأن الشيخ لا يفعل مع المريد ذلك إلا لمصلحة يَقْصُرُ عن إدراكها عقله.

٤. أن يمتثل المريد أمر شيخه إذا منعه من فعل مباح،.. وإذا احتج المريد على الشيخ بأقاويل العلماء في جواز فعل المباح لم يفلح أبدا، وإذا تركه المريد يحتج عليه، ولم يزجره عن ذلك، فقد مكر به وأخرجه عن صحبته.

وتضيف النصوص السابقة إلى الآداب الصوفية تقديسا جديدا للشيخ، سواء بعدم مجالسته أو النظر إليه، وللشيخ الحق في نهي المريد عن المعروف، وليس للمريد أن يناقشه أو يتعرف على حكمة هذا المنع، وبهذا يتأكد أن كل شيخ يعتبر نفسه في مقام الخضر عليه السلام.

ثالثا: الآداب الظاهرة.

للشعراني باع طويل في اختراع آداب ينبغي للمريد أن يعمل بها حين يعامل شيخه ومنها قوله: "إن طريق الوصول إلى الحقيقة هو السلوك على يد شيخ عارف بميزان كل حركة وسكون، بشرط أن يسلمه نفسه يتصرف فيها وفي أموالها وعيالها كيف شاء مع انشراح قلب المريد لذلك كل الإنشراح" ثم يحذر من مخالفة الشيخ بقوله: "وأما من يقول له شيخه طلق امرأتك، أو اسقط حقك من مالك، أو وظيفتك مثلا فيتوقف، فلا يشم من طريق الوصول إلى عين الشريعة المذكورة رائحة ولو عَبَدَ الله ألف عام"[1].

ويكرر ابن عجيبة نفس المفاهيم الصوفية عن آداب المريد مع شيخه في الطريقة الشاذلية فيقول في كتاب إيقاظ الهمم: "أما الآداب التي تكون مع الشيخ، فمرجعها إلى ثمانية أمور: أربعة ظاهرة، وأربعة باطنة،

١ الميزان الكبرى للشعراني ٢٠

أما الآداب الظاهرة فهي:

١. امتثال أمره وإن ظهر له خلافه، واجتناب نهيه وإن كان فيه حتفه، فخطأ الشيخ أحسن من صواب المريد.
٢. السكون والوقار في الجلوس بين يديه، فلا يضحك بين يديه، ولا يرفع صوته عليه، ولا يتكلم حتى يستدعيه للكلام، أو يفهم عنه بقرائن الأحوال، كحال المذاكرة بخفض صوت ورفق ولين، ولا يأكل معه ولا بين يديه، ولا ينام معه أو قريبا منه، ثم يستشهد بشيخ له يقول: ولا ينام في فراشه، ولا يجلس في موضع جلوسه، ولا يتكلم في مجلس الشيخ ولو كلمة واحدة، والكلام فيه سوء الأدب أكثر من كل شيء، كل ما يشبه هذه الأوصاف يؤدي لعدم التعظيم والازدراء بجانب الشيخ، وذلك هو الخسران المبين، والعياذ بالله من السلب بعد العطاء، والطرد بعد الإقبال.
٣. المبادرة إلى خدمته بقدر الإمكان بنفسه أو بماله أو بقوله، فخدمة الرجال سبب للوصال لمولى الموالي.
٤. دوام حضور مجلسه، فإن لم يكن فتكرير الوصول إليه، إذ بقدر تكرير الوصول إليه يقرب الوصول، فمدد الشيخ جار كالساقية، فإذا غفل عن الساقية تخرم وانقطع الماء.

رابعا: الآداب الباطنة.

● **أما الآداب الباطنية فهي:**

١. اعتقاد كماله، وأنه أهل للشيوخة والتربية، لجمعه بين شريعة وحقيقة، وبين جذب وسلوك، وأنه على قدم النبي ﷺ
٢. تعظيمه، وحفظ حرمته غائبا وحاضرا، وتربية محبته في قلبه، وهو دليل صدقه، وبقدر التصديق يكون التحقيق. انعزاله عن عقله ورياسته وعلمه وعمله إلا ما يرد عليه من قِبَلِ شيخه، كما فعل الشاذلي عند ملاقاته بشيخه، فهي سُنَّةٌ في طريقة، فكل من أتى شيخه في هذه الطريقة الشاذلية فلابد أن يغتسل من علمه وعمله قبل أن يصل إلى شيخه، لينال الشراب الصافي من بحر مدده الوافي.

٣. عند الانتقال عنه [أي الشيخ] إلى غيره، وهذا عندهم من أقبح كل قبيح، وأشنع كل شنيع، وهو سبب تسويس بذور الإرادة، فتفسد شجرة الإرادة لفساد أصلها، وهذا كله مع شيوخ التربية كما تقدم، وأما شيوخ أهل الظاهر فلا بأس أن ينتقل عنهم إلى أهل الباطن إن وجدهم، ولا يحتاج إلى إذن والله أعلم[1].

ويروي الشعراني قائلا: سمعت علي المرصفي، يقول: "يجب على المريد أن يعتقد في شيخه أنه على شرع من ربه وبَيّنة من أمره، ولا يزن أحواله بميزان عقله هو، فقد يأتي الشيخ صورة مذمومة في الظاهر وهي محمودة في الباطن، كما وقع للخضر مع موسى عليهما السلام"، ويقول في موضع آخر: "يجب على المريد أن يرى الخلق كالأطفال في حجر الشيخ، يربيهم ويفعل معهم ما هو أصلح لهم، فمثل هذا الاعتراض عليه كالاعتراض على الخضر عليه الصلاة والسلام فيما فعله مع موسى عليه الصلاة والسلام، فإن قول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف-٨٢] مثل قول نبينا ﷺ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام-٥٠]، فكما أن الخضر هو شيخ الأولياء في علوم الحقيقة بحكم النيابة لرسول الله ﷺ فعلم أنه لا ينبغي الاعتراض إلا على من يبلغ حد الكمال من المتمشيخين بأنفسهم"[2].

خامسا: خطورة آداب الصوفية

إن آداب الصوفية التي يطالب المشايخ المريدين باتباعها تتضمن سموما قادحة تهلك العقيدة السمحة، والتوحيد الخالص، وأخطر ما فيها هو التالي:

١. الاكتفاء بالشيخ وتعظيمه والتحذير من سماع العلم من غيره أو حتى زيارة العلماء والصالحين، وألا يقرأ كتابا في العلم إلا بإذن الشيخ، بل إن أكثر المشايخ يطلب من المريد أن يحرث ما تعلمه من علم قبل أن يلقنه العهد، وقد

١ إيقاظ الهمم في شرح الحكم ابن عطاء الله السكندري لابن عجيبة ١٣٦

٢ الأنوار القدسية في معرفة قواعد وآداب الصوفية لعبد الوهاب الشعراني ٢: ١٢

حدث هذا مع الشاذلي وشيخه ابن بشيش، وكذا الشعراني وشيخه الخـواص، وابن المبارك وشيخه الدباغ وغيرهم.

٢. عدم الاعتراض على الشيخ ولو أتى فعلا حراما، أو قولا مخالفا للشريعة.
٣. التوقف عن فعل المعروف إذا أمره الشيخ.
٤. تقديس الشيخ: فليس للمريد أن يتكلم أو يأكل أو يضحك في حضرته بـل لا يجلس في فراشه ولا ينظر في وجهه.
٥. استمداد المريد من شيخه وبركته تعم المريد في دنياه وأخراه.
٦. ملازمة ورد الشيخ، والويل لمن تركه فلن يفلح أبدا
٧. أن لا يتزوج المريد امرأة رأى الشيخ مـائلا إلى التـزوج بهـا، ولا امـرأة طلقهـا الشيخ أو مات عنها.

كيف يطلب المشايخ من أتباعهم ما لم يطلبه رسول الله ﷺ من أصحابه، بل إنهم يطلبـون منهم ما نهى النبي ﷺ عنه حتى أنه ﷺ لعن الرجل الذي يتميز بين إخوانه.

اكتفاء المريد بشيخه.

تمثل حقيقة آداب الصـوفي مـع شـيخه – التـي عرضـناها في الفصـل السـابق – نظامـا متكاملا يضمن إحكام سيطرة الشيخ على المريد، فـالخطوة الأولى أن يسـد الشـيخ عـلى المريـد أسباب تحصيل العلم، فغير مسموح للمريـد أن يقـرأ كتابـا، أو يلقـى شـيخا صـالحا أو يحضر مجلسه، ولا يسمع من عالم إلا بإذن الشيخ، ولن يعدم الشيخ أن ينفر المريد من أي خاطر يراوده نحو تحصيل العلم، بل هم يقولون للمريدين إن العلم حجاب، وعلم الظاهر قشـور، والعلـم الحقيقي الباطني لن يناله المريد إلا بعد أن يُسلم نفسه لشيخه كالميت بين يدي الغاسل. تطالـب التربية الصوفية المريد أن يحرث علمه السابق، حتى يعد نفسه لتلقي العلـم اللـدني، فـالمطلوب من المريد أن يستمر على صلته وصحبته لشيخه، وحضور الحضرات وقراءة الأوراد، ففي ذلك نجاة المريد وتأهيله؛ ليصبح من أهل الخصوص، وكثـيرا مـا سـمعنا في الحضرات أن المريـد إذا تلقن الطريق، وأعطاه شيخه العهد، فإن ركعتين يصليهما المريد تفوق عبـادة أربعـين سـنة مـن عبادة العامة. وما اهـتم المشـايخ بهـذه النصـوص إلا ليجعلـوا المريـدين لا يحرصـون إلا عـلى حضور الحضرات والالتزام بالأوراد والاكتفاء بهما فقط.

ومن أهم الآداب الصوفية أن يرى المريد كمال شيخه وأن ينزهه عن مقام القطبانية، وألا يرى شيخا أعلى قدرا ومقاما من أستاذه في الطريق، ونادرا ما تجد عارفا أو صوفيا تتلمذ على يدي أكثر من شيخ، وهذا المسلك على النقيض تماما من مسلك علماء الأمة النوابغ، على اختلاف علومهم في القرآن والحديث والفقه وغير ذلك من العلوم الأصلية. وقد بلغ عدد شيوخ أحدهم المئات في بعض الأحيان، ولا يستطيع المتتبع أن يستقصي عدد من روى عنهم المصنفون للسنن والصحاح وغيرها، فالبخاري ومسلم وأحمد بن حنبل - على سبيل المثال - تتلمذ كل منهم على الكثير من المشايخ، بل كانوا يسافرون البلدان ويقطعون الفيافي والصحراء ليعلو أحدهم بإسناد حديث يحفظه بإسناد نازل، وما حذرهم أحد من كثرة التردد على العلماء.

عقوبة الاعتراض على الشيخ

إن القارئ لكتب التصوف وخاصة كتب الكرامات وطبقات المشايخ يدرك من أول وهلة أن من أبرز أهدافها تحذير المريدين من الاعتراض على المشايخ سواء في حياتهم أو بعد مماتهم؛ لذا يقول أبو عبد الرحمن السلمي: من قال لأستاذه: لِمَ؟ لا يفلح أبدا[1].

ويعرف الأستاذ أبو سهل الصعلوكي التصوف بقوله: "التصوف الإعراض عن الاعتراض"[2].

ولهذا فقد تأصل في وجدان الصوفية مفهوم من اعترض انطرد، وليس الطرد المقصود هو إخراج المريد من أمام شيخه، أو حتى من طريقته، وإنما الأمر أخطر من ذلك بكثير، فهو في حقيقته قريب من الطرد الكنسي والحرمان من دخول ملكوت المسيح يوم الدينونة عند النصارى، وهذا يشرحه الشعراني بقوله: "إن رجلا أنكر حضور مولد أحمد البدوي، فسُلِبَ الإيمان، فلم تكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام، فاستغاث بأحمد البدوي، فقال [أي البدوي]: بشرط ألا تعود، فقال: نعم، فَرَدَّ عليه ثوب الإيمان، ثم قال له: ماذا تُنكر علينا؟ قال: اختلاط الرجال والنساء [في الموالد]، فقال له أحمد البدوي: ذلك واقع في الطواف ولم يمنع أحد منه،

---

١ العهد الوثيق لمن أراد أحسن طريق للسبكي ٦٩

٢ نقلا عن كتاب فرق معاصرة إعداد غالب بن علي عواجي ٥٩٦

ثم قال له: وعـزة ربي مـا عصى أحـد في مولـدي إلا تـاب وحسـنت توبتـه، وإذا كنـت أرعـى الوحوش والسمك في البحار وأحميهم من بعضهم بعضا، أفيعجزني الله ﷻ عن حماية من يحضر مولدي"[1]، وقد يتعجل قارئ صوفي فيقول إن هـذه الروايـة مدسوسـة وظـاهر بطلانهـا، ولم يقلها الشعراني، نقول له: إذا كانت الرواية منكرة، فلِمَ نقلها عنه كثير من أكابر الصوفية[2]، فلو كانت مدسوسة على الشعراني أو البدوي، فلم ينقلها المشايخ في كتبهم، وينقلونها لكم؟

هذه الكرامة المزعومة ينسج الشعراني وغـيرة مئـات مـن القصـص والحكايـات عـلى منوالها، والصوفية تعتبر الأحلام عن البـدوي أو غـيره تشريـع في حـد ذاتـه، ومـن المؤكـد أن الأفكار والمفاهيم التي تُسَوِّقُ لها مثل هذه الحكايات تخالف أصول الإيمان، مثل إقامـة الموالـد، وسلب الإيمان عمن ينكرها، ثم الاستغاثة بصاحب الضريح، ثم الحديث مع الموتى، واشتراط البدوي على الرجل عدم الإنكار، ثم تكرم البدوي برد الإيمان بعد أن سلبه منه، ثم قسم غلـيظ من البدوي صاحب الضريح - يتضمن الإعـلان عـن ربوبيتـه للأسـماك في البحـار والتزامهـا بأوامره - فكيف لا يضمن تأمين العصاة عنده، وكيف تضرهم المعصية، وهم في معيـة ضريحـه المقدس!، وبالتالي يضمن أن تعقب هـذه المعـاصي توبـة نصـوح. وفي ذلـك رخصـة كـبرى في مجالسة النساء في الموالد، وتصريح لشاربي الحشيش، ولاعبي القمار وفناني السيرك عـلى سـلامة موقفهم، طالما يشاركون في الموالـد ويسـاهمون في إحيائهـا. ويحكـي النبهـاني صـاحب كتـاب "جامع كرامات الأولياء" أن رجلا يدعى ابن اللبان اعترض يوما على أحمـد البـدوي "فسُـلب القرآن والعلم والإيمان، فلم يزل يستغيث بالأولياء، فلم يقدر أحد أن يـدخل في أمـره، فـدلوه على [الشيخ] ياقوت العرش، فمضى إلى ضريح أحمد البـدوي وكلمـه في قـبره، وأجابـه قـائلا: أنت أبو الفتيان رد على هذا المسكين رأس ماله، فقـال: بشرط التوبـة، فتـاب، ورد عليـه رأس ماله، وهذا كان سبب اعتقاد ابن اللبان في ياقوت العرش"[3]. ولما اعترض ابن دقيق العيد على

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني ١: ١٦٢

٢ ومنهم الشبلنجي في كتابه نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار صفحة ٢٤٠، ونسبها للشعراني في طبقاته.

٣ جامع كرامات الأولياء ليوسف إسماعيل النبهاني ١: ٥١٢

ترك أحمد البدوي للصلاة وقال له: "إنك لا تصلي وما هذا من سنن الصالحين، فقال البدوي: اسكت وإلا أُغَبِّر دقيقك، ودفعه فإذا هو بجزيرة متسعة جدا فضاق ذرعا حتى كاد أن يهلك، فرأى الخضر عليه السلام، فقال: لا بأس عليك، إن مثل البدوي لا يُعترض عليه، لكن اذهب إلى هذه القبة، وقِفْ ببابها، فإنه سيأتيك العصر؛ ليصلي بالناس، فتعلق بأذياله لعله أن يعفو، ففعل فدفعه فإذا هو بباب بيته"[١].

والمعنى المقصود من ذكر هذه الكرامة أن الناس تظلم المشايخ والأقطاب الذين لا يصلون، بينما هم في الحقيقة يصلون في الجزر المتسعة أو تحت الأرض أو عند العرش، والويل كل الويل لمن يعترض على ترك مشايخ الصوفية للفرائض، فلقد أعذر من أنذر.

ويروى أن عليا المرصفي قال: "يجب على المريد أن يعتقد في شيخه أنه على شرع من ربه، وبينة من أمره، ولا يزن أحواله بميزان عقله هو، فقد يأتي من الشيخ صورة مذمومة في الظاهر، وهي محمودة في الباطن، كما وقع للخضر مع موسى عليهما السلام"[٢]. وكثير من مشايخ الطرق الصوفية يستفتح كتاب الأوراد بالتحذير من الاعتراض فقد نظم شيخ الطريقة الختمية المرغنية في أول ورده ما يلي:

لا تعترض واعتقد تكتب مع الأحباب ... ولا تكن مُنكرا يُغلق عليك الباب

الأولياء في الورى أخفاهم الوهاب ... كليلة القدر أخفاها على الطلاب

ثم يستشهد الشيخ بشعر لابن عربي يقول فيه:

نحن حزب الله من يغلبنا ... جدُّنا جدٌّ وجدٌّ هزلنا

ويعرفنا الشبلي علامة صدق المريد فيقول: "من علامة صدق المريد اعتقاده أن شيخه جاسوس على قلبه، يدخل في قلبه، يعلم ما عنده، ويخرج من حيث لا يحتسب"[٣]، فمن يدخل

---

١ جامع كرامات الأولياء ليوسف النبهاني ١: ٥١٢، وأوردها الشبلنجي في نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ص ٢٣٩

٢ الطبقات الكبرى للشعراني ٢: ٨٨

٣ نقلا عن العهد الوثيق لمن أراد أحسن طريق للسبكي ٦٨

قلب مريده وجب مراقبته، وعدم الاعتراض عليه، بل والخوف منه، فقد ورد عن حمدون القصار أنه قال: "من علامة صدق المريد إذا دخل على شيخه كأنه داخل على سلطان جائر يخاف سطوته"[١]، بل إن مخالفة الشيخ في أبسط الأمور قد تؤدي إلى أوخم العواقب، فقد قال شقيق البلخي لمريد صائم يوما: "أفطر معنا اليوم ولك أجر يوم، فقال: لا. فقال الشيخ: لك أجر جمعة، فقال المريد: لا. فقال الشيخ: لك أجر شهر، فقال المريد: لا. فقال الشيخ: لك أجر سنة، فقال المريد: لا. قال الشيخ دعوه، فقد سقط من رعاية الله تعالى، فخرج المريد من عندهم، فسرق فقطعت يده"[٢].

إن المريد إذا أذعن لشيخه وسلم له قياده، وتأدب بآداب الصوفية التي وضعوها وصاغوا قوالبها بمعرفتهم، وأصبح بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل، لا إرادة له ولا حراك، تراه وقد تعطل عقله، وتحجر فهمه، تجده ينهل من الأحاديث الموضوعة، ويستغرب صحيح السنة المطهرة، ويئولها ليخرج مضمونها عن مراده، والأمثلة على ذلك كثيرة لا يتسع موضوعنا لذكرها، والخلاصة أن المريد يحول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى اعتراض على أحوال الناس، والطامة الكبرى لو كان هؤلاء الناس من أرباب الطرق.

مدد الشيخ

من أكثر الألفاظ انتشارا بين أبناء الطرق الصوفية: "مدد يا سيدي فلان"، وكلمة مدد يراد بها: أن فلانا هذا هو مصدر الإمداد بالبركات، والأنوار، والفيوضات، والفتوحات، وأن طلب المدد من الشيخ يحتاج إلى إخلاص وصدق وحب وما إلى ذلك من أمور، والشيخ – عندهم – بصفته وليا من أولياء الله فقد أوكل الحق تبارك وتعالى إليه إمداد أبناء الطريق، ولا بد للمريد من التيقن أن مدد شيخه واصل إليه لا محالة خاصة عند الشدائد، سواء في الدنيا أو عند الموت والسؤال في القبر، ثم ينعم المريد بحماية شيخه يوم الهول الأكبر. وقد زعم بعض المشايخ أنهم لا يمدون أبناء طرقهم فحسب، أو الصوفية وأتباعها ككل، بل إنهم يتعهدون العالمين،

---

١ نقلا عن العهد الوثيق لمن أراد أحسن طريق للسبكي ٥٧

٢ نقلا عن العهد الوثيق لمن أراد أحسن طريق للسبكي ٧١

ومنهم أبناء الطريقة الدسوقية والتجانية التي ننقل عن أورادها بعض مناقب شيخهم أبي الفيض التجاني، يقولون فيه[1]:

وإني كنيته أبا الفيض إنه ... يمد جميع العالمين بفيضة
فكل ولي كيف كان ببحره ... أمد بقدر ماله من فضيلة
من أول نشأة العوالم كلها ... إلى النفخ يسقي كل فرد وذرة
فما فاض من ذات النبي محمد ... تلقته ذات الختم دون وسيطة
كما تتلقى كل فيض من أنبيا ... ورسل عليهم جميعا تحيتي
فمنها تفرقت فيوض الخليقة ... فما ذرة إلا وفازت بقسمة

لا نستطيع أن نعلق على هذه الترهات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكيف تقبل أتباع هذه الطرق إملاء الشيطان بهذا القدر من الشرك والكفر، وكيف سمح لهم عقولهم بتصديق هذه المزاعم التي ترفع شيخهم إلى رتبة الربوبية.

أولا: مدد الشيخ في الدنيا.

إذا حجب الشيخ المريد، وعزله عن العلم وأسبابه، حذره من توجيه الأسئلة في مجلسه، طالبه أن يفسح له صدره، ولا يخالفه حتى إذا قال ما ينكره عليه الشرع، أو فعل الحرام عيانا جهارا، طالبه أن يحسن الظن في شيخه ويعتقد أن بركته هي التي ساقت إليه خيرات الدنيا والآخرة، وأعرف شيوخا للطرق يقولون لمريديهم كلما زادت خدماتكم لشيخكم اتسعت أرزاقكم، ومن يناله ضر يقول له الشيخ، ذلك جزاء عصيانك أو تقصيرك، وقال شيخ أعرفه لمريد مشاغب سُجن في قضية رشوة اتهم فيها، إن هذا السجن كان من غضب الشيخ عليه، فاستحق المريد دخول السجن، فكأنها قرصة أذن من الشيخ، ثم قال له بالحرف الواحد: "وإن عدتم عدنا".

إن المريد مطالب بحسن الاعتقاد في شيخه، مع بالغ التعظيم والتنزيه، وأن يرفعه فوق مقام القطبانية، فكل شيخ قطب لمريده، بل إن شئت قلت: هو الخضر بالنسبة له، فشيخه هو

---

١ الياقوتة الفريدة في الطريقة التجانية لمحمد بن عبد الواحد محمد النظيفي ٨

العبد الرباني الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو عضو بارز في ديوان التصريف، فلقاء المريد وتلقيه عن شيخه يمنحه حماية ظاهرة وباطنة، ولا تنتهي هذه الحماية بنهاية حياة الشيخ أو المريد بل هي ممتدة في عالم الأرواح إلى قيام الساعة، فلا غرابة أن يصرح إبراهيم الدسوقي بقوله: "أشهدني الله تعالى ما في العلا وأنا ابن ست سنين، ونظرت في اللوح المحفوظ وأنا ابن ثمان سنوات، وفككت طلسم السماء وأنا ابن تسع سنين، ورأيت في السبع المثاني حرفا معجما حار فيه الجن والإنس ففهمته، وحمدت الله رب العالمين على معرفته، وحَرَّكْتُ ما سكن، وسكنت ما تحرك بإذن الله وأنا ابن أربع عشرة سنة"[1]. تحكي هذه الرواية مراحل حياة إبراهيم الدسوقي حتى شرخ الشباب، أما شأنه في عالم الأرواح فتقصه علينا هذه الحكاية التي نظمها عن نفسه وينقلها عنه أحبابه في الطريق:

أنا كنت مع نوح أُشاهد في الورى ... بحارا وطوفانا على كف قدرتي

وكنت مع إبراهيم مُلقى بناره ... وما بَرُدَ النيران إلا بدعوتي

أنا كنت مع راعي الذبيح فداءه ... وما نزل الكبشان إلا بفتوتي

أنا كنت مع يعقوب مُلقى بناره ... وما بَرئت عيناه إلا بتفلتي

فإذا بلغ تصرف الدسوقي في حماية الأنبياء هذا المدى، فهو ربان سفينة نوح، ومن بركة دعائه بردت النيران على إبراهيم الخليل، وبفتوته أنقذ الله إسماعيل من الذبح، وبإمداده برئت عينا يعقوب عليه السلام. فكيف لا يركن إليه أبناء الطريق. ولا غرو أن يقول الدسوقي في قصيدة أخرى[2]:

كل كرم لله في الأرض ملكي ... منه فضلا سبحانه من قدير

يا وزيري جُزت السماء بأمي ... وأبي كان صحبتي وسميري

عاينتني الأملاك وقت مسيري ... حين تخفى الأنوار من ضوء نوري

طاب وقتي بين الرجال وأنسي ... فاح ريح بطيبه كالبعير

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني ١:١٢٨

٢ الحزب الكبير والصغير لإبراهيم الدسوقي ص ١٧

يا وزيري يكفيك من سر سري حول ربعي في الليل ذكر الطيور

ولا تنتهي الكرامات المزعومة للمشايخ، ومنها ما يرويه الشعراني عن الشيخ عبد الرحيم القناوي الذي: "كان إذا شاوره إنسان في شيء يقول: أمهلني حتى أستأذن فيه جبريل عليه السلام، فيمهله ساعة ثم يقول له: افعل، أو لا تفعل على حسب ما يقول جبريل"[١].

وبعض المشايخ لا يحتاج إلى ساعة حتى يستفتي جبريل؛ لأنه مطلع على اللوح المحفوظ ومنهم الشيخ جاكير الذي يقول: "ما أخذت العهد قط على مريد حتى رأيت اسمه مكتوبا في اللوح المحفوظ"[٢].

وقد لاحظ الشيخ إبراهيم المتبولي أن أحد أبنائه في الطريق لا يتقدم بالمعدل الذي يريد فسأله قائلا: "ما لي أراك كثير العبادة ناقص الدرجة، لعل والدك غير راض عنك، فقال: نعم، قال: تعرف قبره! فقال: نعم، قال: اذهب بنا إلى قبره لعله يرضى، قال الشيخ يوسف الكردي راوي هذه الرواية: فوالله لقد رأيت والده يخرج من القبر ينفض التراب عن رأسه حين ناداه الشيخ، فلما استوى قائما، قال الشيخ: الفقراء جاءوا شافعين، تطيب خاطرك على ولدك هذا، فقال: أشهدكم أني قد رضيت عنه، قال: ارجع مكانك، فرجع قبره"[٣] إن الشيخ المتبولي بهذا التصرف يتصدى لأصل القضية، ويعالجها من جذورها، ولا يمنعه موت الرجل أن يبعثه ويسترضيه على ولده فيرضى عنه فيتحسن سلوك ولده في الطريق، أي ذهن مشوش صاغ هذه الحكاية وأي سذاجة تلك التي دفعت الشعراني إلى الاحتجاج بها، وأي جاهل يخشى من الخطر عليه إن هو أنكر هذه البلاهة وتلك البلايا.

ثانيا: مدد الشيخ عند الموت.

من أغرب الروايات التي يمكن أن يقرأها المرء في كتب القوم ما يرويه الشعراني قائلا: "مرض ابن للشيخ محمد الشربيني، وأشرف على الموت، وحضر عزرائيل عليه السلام لقبض روحه،

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني ١: ١٣٥

٢ الطبقات الكبرى للشعراني

٣ الطبقات الكبرى للشعراني ٢:٧٨

فقال الشيخ لعزرائيل: ارجع إلى ربك فراجعه، فإن الأمر نُسِخ، فرجع عزرائيل، وشفي ولـده، وعاش بعدها ثلاثين عاما"[١].

إن الشيخ الشربيني قد أنقذ ملك الموت من ارتكاب خطأ كبير، فأمر قبض روح ولده نسخ، ولم يعلم به ملك الموت، وعلمه الشربيني، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! وربما تكون هذه القصة أكثر غرابة من سابقتها حيث يُروى أن: "الشيخ مدين مرض مرة أشرف فيها على الموت، فوهبه الشيخ محمد الشويمي من عمره عشر سنوات، [ثم مات الشيخ مدين بعد هذه السنوات العشر] في غيبة الشيخ الشويمي، فجاءه وهو على المغتسل، فقال: كيف مت وعزة ربي لو كنت حاضرك ما خليتك تموت، ثم شرب ماء غسله كله"[٢].

ويروى أن عبد الله با علوي دَفَنَ مريدا له، ثم جلس على قبره ساعة، فتغير وجهه ثم ضحك واستبشر، فسئل عن ذلك، فقال: "إن الرجل لما سأله الملكان عن ربه، قال: شيخي عبد الله با علوي، فَتَعِبْتُ لذلك، فسألاه أيضا فأجاب بذلك، فقالا له: مرحبا بك وبشيخك عبد الله با علوي"، ويعلق بعض الصوفية قائلا: هكذا ينبغي أن يكون الشيخ يحفظ مريده حتى بعد موته"[٣].

إذن ليس من العجيب أن ينتشر بين الصوفية أن أهم دور يلعبه الشيخ في حياة المريد، هو تثبيته عند سؤال الملكين في القبر، وانظر يا أخي إلى إجابة المريد عندما سئل: من ربك؟ حيث قال: شيخي فلان، والغريب أن يقص الشيخ هذه الكرامة على أبنائه؛ ليعلمهم كيف يكون سؤال الملكين، ويلقنهم الرد الصوفي المناسب. ويقرر أبو المواهب عبد الوهاب الشعراني تلك المفاهيم حين يقول: "من الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد موته، أكثر مما ينفعه حال حياته، ومن العباد من تولى الله تربيته بنفسه بغير واسطة، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه، ولو

---

١ الطبقات الكبرى للشعراني ١:١٢٨

٢ الطبقات الكبرى للشعراني ١:٩٤

٣ جامع كرامات الأولياء يوسف النبهاني ٢:٢٤٥

كان في قبره، فيربي مريده وهو في قبره، ويسمع مريده صوته من القبر" [١]. ويكرر الشعراني نفس المفاهيم في كتابه الميزان الكبرى فتراه يجامل علماء الشريعة بقوله: "أن أئمة الفقهاء: أبا حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد يشفعون في مقلديهم، ويلاحظون أحدهم عند طلوع روحه، وعند سؤال منكر ونكير، وعند النشر، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، ولا يغفلون عنهم في موقف من المواقف"، ثم يستطرد قائلا: "إذا كان مشايخ الصوفية يلاحظون أتباعهم ومريديهم في جميع الأهوال والشدائد في الدنيا والآخرة، فكيف بأئمة المذاهب الذين هم أوتاد الأرض، وأركان الدين، وأمناء الشارع على أمته" [٢].

ثالثا: مدد الشيخ بعد الموت.

يعتقد الصوفية أن المريد ببركة شيخه قد يقطع المقامات، ويرقى الدرجات بعد موته وهو في عالم البرزخ، كما أن المشايخ إذا ماتوا يتصرفون وهم في قبورهم في أحوال مريديهم، وأعرف خليفة من خلفاء الشيخ يُظْهِرُ لمريديه أنه لا يتحرك إلا إذا استأذن شيخه الذي مات منذ عقدين من الزمان، ومن جرأة الرجل أن يُقسم أن شيخه لا يفارقه طرفة عين، وقد أقام الدنيا ولم يقعدها بعد عندما قال له بعض قرنائه: "إن الشيخ مات ودفن"، فراح يؤكد لهم أن الشيخ يحيى معه ولا يفارقه، وأنه يتلقى عنه مشافهة، ولا يتركه في صغير ولا كبير؛ لذا تراه يشير إلى هذه القضية في قصيدته المسماة بالعيونية، فيقول [٣]:

وقلت لهم يقينا إن شيخي	معي كالليث يربض بالعرين
وليس كما زعمتم غاب عني	ولست مصدقا إلا عيوني
وبعد الله ثم رسول ربي	فلست بمرتج إلاه عوني
له أمر ونهي في فؤادي	وإرشاد لفعل أو سكون
يلي أمري بأسرار ونور	وألوان المعارف والفنون

١ الطبقات الكبرى للشعراني.

٢ الميزان الكبرى للشعراني ١:٩

٣ ديوان الأسير لصلاح الدين القوصي في مدح شيخه محمد أبراهيم أبي العيون.

فيا مات الذي بالحي يحيا وإن كالناس ذاق من المنون

ويقول صلاح القوصي الذي يعلن عن نفسه بأنه خادم السيدة نفيسة في ديوان العتيق[1]:

حباه "أبو العيون" بعين فضل فأبدله يقينا بعد ظن

ثم يعلق القوصي في الهامش بقوله: يشير المؤلف[يقصد نفسه] إلى فضيلة الشيخ العارف بالله تعالى السيد/ محمد إبراهيم أبي العيون وكيل أصول الدين بالأزهر الشريف وشيخ الطريقة الخلوتية، وقد كان قطب غوث عصره بلا خلاف، وقد تولى تربية المؤلف[يقصد نفسه] منذ عام ١٩٥٣م وحتى بداية عام،١٩٧٠ حيث انتقل إلى جوار ربه، وظهرت خصوص رعايته الروحية للمؤلف بعد انتقاله إلى رضوان الله تعالى حتى سلمه يد بيد إلى سيدنا رسول الله ﷺ، في ليلة الاثنين [٢٦ من ربيع الأول ١٤١١هـ] الموافق [١٥ من أكتوبر ١٩٩٠ م]. ويؤكد وصول مدد شيخه إليه بعد وفاته بقوله[2]:

أتاني راجيا من بعد أمر من السلطان مولانا الحسين

ويعلق بنفسه قائلا: "يشير الشاعر إلى رؤيا له أمره فيها الإمام الحسين ﷺ بسلوك الطريق الخلوتي [عام ١٩٦٧م] على يد شيخه، وفي فبراير ١٩٧٢ المحرم ١٣٩٢ أجازه شيخه السيد أبو العيون مناما بعد انتقاله إلى رضوان الله تعالى بالتربية لمن سأله سلوك الطريق، ثم أجازه بثلاث إجازات أخرى وكانت شاملة عامة".

ويزعم الرجل أن شيخه لا يتركه، ولما احتجب عنه فترة عاتبه[3]:

فقلت لك: استعد على دوام تفز مني بتحناني وحضني

ويعلق على البيت بقوله: احتجب الشيخ أبو العيون عن المؤلف فترة، فلما عاتبه المؤلف عتاب محبة ومودة، قال له الشيخ: إننا لا نترك أبدا وكثيرا ما نزورك، فلا تشعر بناح لأنك لا

---

١ البيت ١١٣

٢ البيت ١٢١

٣ البيت ٢٠٢

تكون مستعدا للقائنا فكن دوما على استعداد تجدنا حولك، وكان ذلك عام ١٩٨٠ بالرياض بالمملكة العربية السعودية.

لهذا يُعظم الصوفية القبور، فالشعراني يجعل للأضرحة دوريات للحراسة يسميهم أصحاب النَّوْبَة، ويقول في إحدى شطحاته أنه استأذن هو وأخوه أفضل الدين شيخهما الخواص في زيارة القرافة، فقال لهما: "ما معكما دستور، فإن أصحاب النوبة اليوم من بلاد المشرق، ما هم من أهل مصر، فنسينا قول الشيخ، وذهبنا فحصل لنا انحراف في القلب، ما كنا إلا هلكنا، أما أنا ففارقته من بعض النواحي، فلقيت واحد من أصحاب النوبة فما كانت روحي إلا أن زهقت، وأما أخي أفضل الدين فاجتمع بأربعة نفر منهم على الهيئة التي وصفها لنا الشيخ، فمنهم اثنان سألا له العافية، والآخران حصل منهما المثاقلة، فقال لهما: الله ورسوله أقوى منكما فذهبا، فلما رجعنا وحكينا للشيخ ذلك، قال: الحمد لله الذي ما صدفكما إلا هؤلاء، ولو صدفكما أحد من كبار أصحاب النَوْبَة لهلكتما؛ لأنه لا طاقة لأحد بهم، فلو توجهوا لجبل لهدموه"[1].

رابعا: مدد الشيخ يوم القيامة.

يستخدم كثير من المشايخ الكرامات والمناقب لإثبات قدرتهم على نفع المريد في الدنيا والآخرة، وسنضرب مثالا من الطريقة التجانية، حيث يقول التجاني: "ومن أخذ الورد المعلوم الذي هو لازم الطريقة، أو عمن أَذنته يدخل الجنة هو ووالده، وأزواجه وذريته المنفصلة عنه، والحفدة بلا حساب ولا عقاب، بشرط ألا يصدر منهم سب ولا بغض ولا عداوة، وبدوام محبة الشيخ، بلا انقطاع إلى الممات"[2].

ويقول أحد خلفاء التجاني عن شيخه: "وليس لأحد من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بغير حساب، ولو عملوا من الذنوب ما عملوا، وبلغوا من المعاصي ما بلغوا،

١ درر الغواص في فتاوى الخواص للشعراني ٢: ٨١

٢ الدرة الخريدة ٤: ٢٦

ووراء ذلك من ما ذكره لي فيهم وضمنه لي ﷺ أمـر لا يحـل ذكـره، ولا يُـرى ولا يُعـرف إلا في الآخرة"[١].

وقال مؤلف بغية المستفيد: "إن من جملة ما ذكره سيده [التجاني] من فضـل هـذا الـورد العظيم عن نبينا المصطفى الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، أن كل من أخذه عن الشيخ أو عمن عنده الإذن الصحيح في التلقين، يكون مقامه ومستقره من فضل الله تعالى في أعلى عليـين بجوار سيد المرسلين، وإمام المتقين ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، ويغفر الله له تعالى بفضله من ذنوبه الكبائر والصغائر، وتؤدى عنه التبعات من خزائن الرب المجيد القادر، ولذلك كان آمنـا من أن يروعه هول المحشر، أو يؤلمه ضنك القبر، وأزواجه وأولاده المنفصلون عنه دنيـة، وكـذا أبواه داخلون معه في هذا الخير الجزيـل، بشرط ألا يصـدر بغـض مـن الجميـع في هـذا الشـيخ الجليل، وجانبه الأعز المنيع"[٢].

إن ما ذكرناه من إيمان المريدين بمدد مشايخهم أمـر ثابـت في معظـم الطـرق الصـوفية، فالشاذلي قد اختار المريدين من اللوح المحفوظ، والجيلاني يحمي مريده في كل المواقف وأصعب الأحوال في الدنيا والآخرة، ومدد البدوي عند القوم لا يشمل المريدين فقط، بـل كـل مـن زار ضريحه، وإن ارتكب الكبائر، وهذا التجاني يتعهد عائلة المريد بالرضوان الأكبر، فقط إذا أحبوه ولم يعترضوا عليه.

الفتح الصوفي

تبدو هاوية علوم الباطن عند الصوفية عميقة الأغوار حين يتحدثون عن الفتح الأكـبر، ولا يمنع الناس من هذا الفتح إلا حجاب النفس، فمن قام بتأديبها ونفى عنهـا الأغيـار، يأتيـه الفتح، ويصف الدباغ كيف حدث له الفتح بدقة شديدة، فيقول: "فاشتد عـلي الحـال، وجعـل صدري يضطرب اضطرابا عظيما حتى كانت ترقوتي تضرب لحيتي، فقلت: هذا هو الموت مـن غير شك، ثم خرج من ذاتي شيء كأنه بخار الكسكاس، ثم جعلت ذاتي تتطاول حتـى صـارت

---

١ رماح حزب الرحيم ١: ٥١

٢ بغية المستفيد ٢٧٣

أطول من كل طويل، ثم جعلت الأشياء تنكشف لي وتظهر كأنها بين يدي، فرأيت جميع القرى والمدن والمداشر، ورأيت كل ما في هذا البر، ورأيت النصرانية [مريم عليها السلام] ترضع ولدها وهو في حجرها، ورأيت جميع البحور، ورأيت الأرضين السبع وكل ما فيهن من دواب ومخلوقات ورأيت السماء وكأني فوقها وأنا أنظر ما فيها، وإذا بنور عظيم كالبرق الخاطف الذي يجيء من كل جهة، فجاء هذا النور من فوقي ومن تحتي وعن يميني وعن شمالي وعن أمامي وخلفي وأصابني منه برد عظيم حتى ظننت أني مت، فبادرت ورقدت على وجهي لئلا أنظر إلى ذلك النور، فلما رقدت رأيت ذاتي كلها عيونا، والعين تبصر، والرأس تبصر، والرِجل تبصر، وجميع أعضائي تبصر، ونظرت إلى الثياب التي علي فوجدتها لا تحجب ذلك النظر الذي سرى في الذات، فعلمت أن الرقاد على وجهي والقيام على حد سواء، ثم استمر عليّ ساعة، وانقطع وصرت بمثابة الحالة الأولى التي كنت عليها أولا"[1].

ومن التكاليف التي يتحملها أصحاب الفتح الصوفي أن يقوموا بدوريات على الكون للاطمئنان على سير الأمور وهاهو الشعراني يشرح مهمته التفتيشية اليومية على الكون التي كُلف بها بعد أن رُزق الفتح فيقول: "وصورة طوافي كل ليلة على مصر، وجميع أقاليم الأرض، وأنني أشير بإصبعي إلى أزقة المدائن والقرى والبراري والبحار، وأنا أقول الله الله، فأبدأ بمصر العتيقة، ثم القاهرة، ثم بقراها، حتى أصل إلى مدينة غزة، ثم القدس، ثم إلى الشام، ثم إلى حلب، ثم إلى بلاد العجم، ثم البلاد التركية، ثم بلاد الروم، ثم أعدي من البحر المحيط إلى بلاد المغرب، فأطوف عليها بلدا بلدا، حتى أجيء إلى الإسكندرية، ثم أعطف منها إلى دمياط، ثم منها إلى أقصى الصعيد، ثم إلى أقصى بلاد العبيد، ثم إلى بلاد الرجر وهي إقطاع جدي الخامس، ثم أعطف إلى بلاد التكرور، وبلاد السكوت، ومنها إلى بلاد النجاشي، ثم إلى أقصى بلاد الحبشة وهي سفر عشر سنين، ثم منها إلى بلاد الهند، ثم إلى بلاد السند، ثم إلى بلاد الصين، ثم أرجع إلى بلاد اليمن ثم إلى مكة، ثم أخرج من باب المعلى إلى الدرب الحجازي إلى بدر، ثم إلى الصفراء ثم إلى مدينة النبي ﷺ فأستأذنه عند باب السور، ثم أدخل حتى أقف بين يديه ﷺ

١ الإبريز لعبد العزيز الدباغ ص ٩

فأصلي وأسلم عليه وعلى صاحبيه، وأزور البقيع، ثم أقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات١٨٠:١٨٢]، وما أرجع إلى داري بمصر إلا وأنا ألهث من شدة التعب، كأني حاملا جبلا عظيما، ولا أعلم أحدا سبقني إلى مثل هذا الطواف، وكان ابتداء حصول هذا المقام لي في سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائه، فرأيت قبور المشايخ من فوق أضرحتهم إلا ضريح أحمد البدوي، وضريح إبراهيم الدسوقي، فإن المحفة [لعله يقصد بساط الريح] نزلت بي من تحت عتبة كل من أحدهما، ومرت من تحت قبره"[1].

قد يقول قائل: إن هذا تخريف واضح، فلماذا نشغل أنفسنا بقوم مرضى يحتاجون إلى المصحات النفسية وليس إلا النقد العلمي والحكم الشرعي؟. والإجابة على ذلك: إن هذه الأفكار تعيش اليوم، بل وتدور المطابع لتصف هذا التخريف، ويوزع على المريدين الذين يظنون أنهم من الخاصة ومن أتباع قطب الوقت، فهاهي النصوص من المخرف العصري صلاح الدين القوصي، حيث يقول في ديوانه العتيق، وبعد إيراد البيت[2] يعلق عليه بنفسه، فالرجل يسرى به:

وكيف سريت شرقا ثم غربا ... كطير هائم من فوق غصن

يشير إلى حالات الانتقال بالروح من مكان إلى مكان إسراء في اليقظة وذلك ابتداء من عام ١٩٩٤ ومنها الإسراء إلى جبال الأناضول جنوب تركيا وبعض جبال جنوب غرب آسيا والمدينة المنورة وبعض مناطق تايلاند، ثم يقول[3]:

وفي " وادي الملوك" لزمت نصحي ... وما قد كنت أقصده وأعني

---

١ لطائف المنن المعروف بالمنن الكبرى للشعراني ١٧٤

٢ البيت ٣٦٩

٣ البيت ٢٢١

ثم يقول القوصي: "يشير المؤلف إلى رؤية له يقظة في يوم الاثنين [٢٠ من ديسمبر ١٩٩٣] الموافق [٧ من رجب ١٤١٤ هـ] جرى له فيها إسراء إلى منطقة وادي الملوك، وأحيط فيها بأسرار كثيرة، وقابل فيها بعض أهل الديوان من أهل التصريف، وكان له معهم حديث طريف، حيث تحايل المؤلف؛ ليعرف بعض المعلومات التي حجبوها عنه"، ثم يقول[1]:

وإذ دنيا الخلائق منك صارت حزام الخصر تنظرها بعين

"يشير المؤلف إلى حالة لازمته فترة في جمادى الأول ١٤١٥ هـ الموافق أكتوبر ١٩٩٤، حيث كان يرى الكرة الأرضية تحيط بخصره، وكأنها معلقة بوسطه"، ثم يقول[2]:

ويوم أراك من سبع طباقا وكيف تسبح المولى وتثني

يشير المؤلف إلى حالة له مع بعض أهل الديوان حيث رأى وسمع تسبيح الأرض السابعة والجبال بلسان المقال وليس بلسان الحال، وذلك اعتبارا من جمادى الأولى ١٤١٢ هـ الموافق نوفمبر ١٩٩١، ويقول أيضا[3]:

وحين عرجت في الملكوت ترقى وتحضر حفل تكريم بإذني

- يشير إلى رؤيتين بين النوم واليقظة كانت الأولى عام ١٩٧١، حيث حضر حفلا في السماء السابعة؛ لتكريم الشيخ محمد أبي العيون، وسمع فيه خطيبا يقول: "إن الله قد منح الشيخ من كل شيء تسعا"، والثانية: في السماء الرابعة عام ١٩٧٢، وكانت لتكريم المؤلف ذاته، وحين طلب شرابا أمره الساقي بضرورة الاستئذان من الشيخ أبي العيون حتى في طلبه للشراب، وإن كان الحفل لتكريمه.
- تكررت سبحات المؤلف الفضائية بين الكواكب نوما ويقظة، وكان في البداية يرافقه الشيخان: محمد أبو العيون: وعبد العزيز الدباغ، ثم أصبح يسري منفردا، وذلك بين عامي ٩١ - ٩٤ م.

---

١ البيت ٣٧٢

٢ البيت ٣٧٤

٣ البيت ٣٧٦

وقل لي كيف عشت بلا زمان وكنت بغير كيف بين بين

يشير[1] إلى حالة تشبه فقدان الوعي ويشعر بأنه يعيش في ماضي الزمان في عهود سابقة، ولا تستمر هذه الحال طويلا، وكذلك تنتابه حالات يكون فيها حاضرا في زمنين معا أحدهما مع الناس، وقد تكثفت هذه الحالات في عامي ٩٣ - ٩٤.

إن هذا التخريف يعتبره الشيخ ومريديه الفتح الأكبر، فالرجل عنده إسراء، ومعراج، وطلعات فضائية، ويعيش في زمانين في آن واحد، ومسكين يحمل الأرض في وسطه!، فلك أن تتخيل ما يتعرض له من إجهاد.

وهكذا نرى مهمة الأقطاب، وديوان التصريف، وأحوال المشايخ عقيدة أصيلة عند الصوفية، لم يفترِها عليهم أعداؤهم، وإنما كتبوا حروفها بأنفسهم وسطروها في كتبهم، وليس غريبا أن نجد تماثلا كاملا بين قطب الصوفية، وإمام الشيعة، وحجة الإسماعيلية وبابها، ومن هذا كله ندرك دقة العبارة التي كتبها الدكتور الغنيمي في أطروحته للدكتوراه، والتي يقول فيها: "إن المصدر الشيعي والإسماعيلي هو أصل لكل أفكار التصوف الإسلامي"، ونحن نضيف إليها: إن جذور التصوف استقت من الشيعة، والإسماعيلية، وامتدت أيضا إلى الفلسفة الأفلاطونية، والعقيدة المسيحية، وأفكار الفلسفة اليهودية".

إلا أن أخطر آداب الصوفية ضررا على عقيدة المسلم - وهي المقصودة في رأيي من كل هذا - هي الأوراد، فالمشايخ لم يكتفوا بتحريم الحلال، وتحليل الحرام كما فعل الأحبار، والرهبان باليهود والنصارى، وإنما حصروا المريدين في أوراد ألفوها من عند أنفسهم، واستعملوا أسلوب التدرج في تلقينها للمريد، فالورد في أول الطريق يتضمن آيات قرآنية وأدعية نبوية، وبالتالي لا يرى المريد في طريقه ما ينكره، وإذا شرح العلماء مزالق الصوفية، خاطبك المريد السالك في أول سلوكه، بأن طريقه ليس فيه ما يزعمونه، فإذا ظهر من المريد الهمة والالتزام بالحضرات والأدب مع الشيخ، رقاه إلى مرتبة أعلى، وكلفه بأوراد أكثر، وهكذا على ثلاث أو سبع أو أحد عشر مرتبة حسب الطريق الذي يسلكه المريد، وتبدأ الأوراد

---

١ في البيت ٣٧٩

بالإشارة، ثم بصريح العبارة عن حقيقة مفاهيم الصوفية وعقيدتها، وهي: وحدة الوجود، والحقيقة المحمدية، والذكر بالأسماء السريانية، وقراءة قصائد التوسل بالمشايخ، وسلسلة رجال الطريق، وآل البيت، وهكذا حتى يجد المريد نفسه في النهاية - إلا ما رحم ربي - يتعبد الله ﷻ بأشياء ما أنزل الله بها من سلطان، ومن موجبات الفتن أن تكثر رؤى المريد وأحلامه في هذه المرحلة، فلا يخلو الأمر من منامات يلتقي فيها بالمشايخ، ويرى فيها المرائي التي يتثبت بها من الطريق الذي يسلكه، وربما ظن أنه أصبح من الأولياء، وقد رأيت أمثلة كثيرة لأناس لا يعرفون من الدين أحكام الطهارة، ولا كيف تصح عبادتهم لله ﷻ، ثم تراه بعد أن يُلَقَّن الطريق وتتواتر عنده الأحلام والمنامات لبس ثوب الأولياء، وراح يحدثك عن المهدي المنتظر، ومتى سيظهر وعلاماته، وربما راح يخبر الناس بالغيب والكشف حسب الاصطلاح الصوفي، ولو سقت له الدليل من الكتاب والسنة لا يقابلك في نهاية الأمر إلا بثقته المطلقة في شيخه والأحلام التي رآها هو أو رآها غيره من المريدين، وتصبح الأوهام، والأحلام، وأحاديث النفس في النهاية الحجة والدليل على صدق سلوكه، ويقينه بصحة طريقه، ولو ناقشت أحدهم وشرحت له أنواع الرؤى، وقسمتها إلى ثلاثة أنواع كما جاء في الصحيحين [البخاري، ومسلم]، والترمذي، والنسائي، وغيرهم من مصادر السنة عن رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: ﴿الرؤيا ثلاث: فرؤيا حق، ورؤيا يحدث بها الرجل نفسه، ورؤيا تحزين من الشيطان﴾[1]، لا يجد المريد لذلك صدى في نفسه، ويلوي هو أو شيخه معاني الآيات، ومقاصد الحديث حتى يعرض لك عكس المراد من الدليل، ولا يسمح لنفسه إلا بالروغان والانفلات. وفي النهاية لا يستند الطريق الصوفي إلا على مجموعة من الأحلام، وكثير من الكرامات والأحوال، ومكاشفات المشايخ، والظنون، والأوهام، وبالتالي حل الكشف والإلهام محل الكتاب والسنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التوسل والاستغاثة بالمشايخ.

---

١ أخرجه البخاري في كتاب الرؤيا، باب القيد في المنام ومسلم في صحيحه، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

كثير من العلماء يفتي في قضية التوسل والاستغاثة بالمشايخ والصوفية دون أن يتعرض لكل ما تعرضنا له من مفاهيم عن اعتقاد المريدين في مشايخهم، ومن ينظر إلى الأمر على اتساعه يدرك أن الشرك المصاحب للتوسل بالأقطاب والأوتاد، والاستغاثة بهم يعد أمرا هينا إذا ما قارناه بعقيدة المريدين عن قدرات مشايخهم، ومددهم في الدنيا، وعند الموت وبعد الموت، وبالتالي تصبح قضية التوسل نتيجة منطقية لمراحل متتابعة من انحدار الفكر الصوفي، الذي يودى بصاحبه في غياهب الشرك، ويبعده عن حقائق الإسلام وبساطته الشديدة، ولو أن الناس علموا ما أشرنا إليه، وما أوضحناه من حقيقة الشيخ في الفكر الصوفي، ما استغربوا قصائد التوسل التي تطفح بها الطرق الصوفية، ولكل طريق سلسلة مشايخ، ولهم توسلات بكل شيخ منهم، وعادة ما تكون هذه القصيدة مكتوبة حسب التسلسل التاريخي للمشايخ ومن أمثلة هذه القصائد، قصيدة توسل بالسادة الخلوتية يقول مؤلفها محمود أفندي عوني:

بسم الإله وحمده استفتاحنا	إذ باسمه السامي سمت أرواحنا
وبنور مشكاة الوجود وسره	إنسان عين الكل طه نبينا
متوسلين بأهل سلسلة الطريق	الخلوتي اقبل يا مجيب دعاءنا
بأمين سر الوحي جبريل الذي	سر الطريقة من علاك تلقنا
بالمصطفى الهادي البشير محمد	من جاء بالشرع الشريف وأعلنا
بإمام أهل القرب صهر المصطفى	بحر الكمال أبي المعالي عَلِيِّنا
بالمرتقى الحسن التقي البصري من	حاز الشريعة والطريقة شيخنا
وبحبيب العجمي مرشد عصره	شمس المعارف والعوارف والسنا

ونكتفي بهذا القدر من القصيدة، وبهذا المثال حيث يكاد لا يخلو طريق من قصائد التوسل. وهكذا تسلسل القصيدة مع مشايخ الطريق واحدا بعد الآخر، وكل منهم يلقب بأطايب المناصب والمقامات، ولا يخفى أن التوسل بدأ بالله ﷻ، ثم بجبريل الذي يعدونه أول من تلقن الطريقة الخلوتية عن رب العزة، ثم نقلها إلى النبي ﷺ، كما نلاحظ وصف علي بأنه إمام أهل القرب بحر الكمال، وطبعا لا يخفى إغفال القصيدة لأبي بكر، وعمر، وعلي رضوان الله عليهم.

ثانيا: الأضرحة عند الصوفية

١. اهتمام الصوفية بالأضرحة.

قَلَبَ الصوفية الهدف من زيارة القبور رأسا على عقب، فبدلا من الزيارة للاعتبار وتذكر الموت، نجد الضريح ليس مجصصا فقط كما نهت الأحاديث، وإنما ترى الضريح الآن محاطا بسياج من الذهب أو الفضة الخالصة، ومضاء بألوان السرج الحديثة، والإضاءة المختلفة، ومرتفعا عن الأرض، يطوف الناس حوله، ويقبلون الضريح وأعتابه، ويطلقون البخور، ويطيبون المكان بمختلف ألوان الطيب، فلا أعتقد أن الزائر لهذا المكان يخطر على باله الموت والبلى، أو لحد الميت في التراب، فالإنسان لا ينير قبره إلا عمله الصالح.

وفي نفس الوقت تحول هدف الزائر من الدعاء للميت إلى طلب الدعاء من الميت، وبعد أن شد الناس الرحال إلى أضرحة المشايخ، وطلبوا منهم قضاء الحوائج والتوسط لتحقيق المراد، ومن ثم زال هدف الشرع الحكيم من زيارة القبور.

ويجب النظر إلى اهتمام الصوفية بالأضرحة على أساس غلو المريدين في مشايخهم ومقدرتهم على التصريف واجتماعاتهم في الديوان؛ وعلى ذلك فإن زيارة القبور تحصيل حاصل على فهم الصوفية عن الأبدال، والأوتاد، والأقطاب، فالزائر في حقيقة الأمر لا يخطر على باله أهداف الإسلام من زيارة القبور، فهو هنا لا يزور قبرا، وإنما يزور قطبا صوفيا له صفات وقدرات منحتها له المفاهيم الصوفية التي عرضناها بالتفصيل في الأبواب السابقة؛ ولذلك لا يلتقي هدي من يريد اتباع النبي ﷺ مع بدع وضلال من يقلد شيخا من مشايخ الصوفية، فالأمر في حقيقته مختلف تماما؛ ولذلك يحرص المشايخ، ويخطط الأحياء منهم لبناء قبورهم على شكل الضريح، بحيث يصبح له مقام بعد موته، ومنهم من لا ينفق على بناء ضريحه من خالص ماله، وإنما هذه مهمة الأتباع والمريدين، وقد كان صلاح القوصي شيخ الطريقة القوصية حريصا كل الحرص على بناء ضريح له في مسجد التحرير بمصر الجديدة، بعد هلاكه ليدفن فيه؛ لذا فقد أشاع بين أتباعه ومريديه أكثر من مرة أنه علم قرب انقضاء أجله، ثم دعا مهندسا معماريا من مريديه، وطلب منه أن يبني له ضريحا على شكل ضريح تاج محل، ويستعد تماما لتنفيذه بأسرع وقت ممكن حتى إذا وافته المنية دفن فيه، وقد أعان الله تعالى أحد الأحباب، فوقف لهذا الأمر

بالمرصاد حتى استحال على الشيخ تنفيذ أفكاره. ومن ساعتها وهو يعتبرنا من ألدِّ أعدائه. ومن أقوال الرجل وارتباطه بالقبور وسكانها ما ينشده قائلا في هذا البيت[1]:

وأموات إليك أتوا ودادا لتحيا روحهم من بعد دفن

ويعلق على البيت بقوله: "للمؤلف علاقة وطيدة بالقبور وأرواح الأموات وهو شديد الحب لهم كما كان الكثير منهم يحضرون الحضرات التي يقيمها في الرياض والقاهرة، وبعض قرى الوجه البحري، وكان الكثير من الحضور يرونهم في هذه الحضرات".

٢. الحكومة الباطنية.

لا شك أن ما قدمناه فيما سبق من بيان حول مقامات الصوفية، ودرجاتهم، والديوان، واجتماعات الأقطاب، والأبدال، والأوتاد قد أعطى تصورا واضحا عن مدى الهلوسة في الفكر الصوفي، وتأثره بالأفكار الباطنية، فهذه الهيئة الصوفية الباطنية المختفية عن الأنظار تماثل تماما فكرة غياب المهدي في السرداب، وتصريفه للأمور إلى أن يخرج للشيعة، ويفعل الأفاعيل بأهل السنة. إن مفاهيم الدباغ غاية في الخطورة، فالرجل يزعم، والصوفية من ورائه أن أهل الديوان يتصرفون في جميع العوالم، ولا يقف افتراء الرجل عند هذا الحد، بل يتجاوزه بجرأة، ووقاحة بالغتين، حين يزعم أنهم يتصرفون في الحجب السبعين التي فوق العرش، وهو بهذا يخفي مراده، فالرحمن على العرش استوى، فلم يبقَ للدباغ إلا أن يقول أن أهل الديوان يتصرفون في حجب عظمة الله ﷻ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبحانك ربنا، وإليك المصير، ويومئذ تُوفى كل نفس ما كسبت، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

أولا: هلوسة في رسالة دكتوراه.

ومن أغرب الكتب التي اطلعت عليها، كتاب ألفه حسن محمد الشرقاوي الحاصل على الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية، وقد سمى كتابه الحكومة الباطنية، ويهديه[1] إلى: "الخائفين ليثبتوا، والمتشككين ليؤمنوا، واليائسين ليتحرروا، والتائبين ليطمئنوا، إلى المؤمنين ليزدادوا

---

١ البيت ٣٨٨

إيمانا، والصابرين ليشتدوا عزما، والمخلصين ليروا ثمرة إخلاصهم، والمجاهدين لينعموا، والعارفين ليشهدوا"، "إلى كل هؤلاء أهدي كتابي هذا عسى أن يتقبلني تقبلا حسنا، ونعم بالله وكيلا. المؤلف حسن الشرقاوي".

ثم يدافع المؤلف[٢] عن الصوفية، ويخرجهم من دائرة الفرق الباطنية، ويقول: "ولا شك أن التصوف السني يأخذ من الكتاب والسنة طريقه، ويهتم بآراء الصوفية الذين أخذوا مادتهم عن الرسول ﷺ، وعن الصحابة، والتابعين سلوكياتهم التي لم تخرج قيد أنملة عن تعاليم الإسلام[١]، وربما يتبادر إلى ذهن المتأمل النظري، والذي يهتم بالظاهر فحسب أنهم خرجوا بشكل أو بآخر عن التعاليم الإسلامية، ذلك لأنه لم يستخدم تأويله الجانب العملي، أو السلوكي، أو الذوقي الذي يربط بين الظاهر والباطن، وهذا ما جعل كثيرا من الظاهرين ينكرون التصوف السني رغم أنه لم يخرج عن تعاليم الإسلام".

ثانيا: اختصاص أضرحة الصوفية.

يؤمن الدكتور الشرقاوي بأهمية الأضرحة، وأسرارها الباطنية: لذا فقد ألف كتابا أسماه "الحكومة الباطنية"، ثم ذكر في الفصل الذي أسماه الجامعة السطوحية[٢]، عن مقام البدوي، ودرجته الباطنية، يقول فيه: "ومن البحث الميداني اتضح أن عدد الأولياء بمدينة طنطا نفسها ثلاثة وثلاثون وليا،.. يختص كل منهم بكرامة معروفة، ويمتاز بها عن غيره من الأولياء، منهم:

- **البدوي**: "برغم وجود ضريح البدوي بالمنطقة، فإن هذا لا يمنع الناس من الاعتقاد في أتباعه، ووزرائه من الأولياء، وعلى العكس من ذلك تماما، فإن مريدي البدوي في اعتقاد العامة أيسر في استجابة الطلبات، وفي حل المشاكل، ونصرة المظلوم، وفك المربوط، لأن البدوي في اعتقادهم قطب عظيم [وأن مدده عالٍ]، وأنه للوصول إليه يتطلب شفاعة بعض أنصاره، وأتباعه.
- **عبد العال الأنصاري**: هو خليفة [البدوي]، وواسطته، والشفيع لديه، ولذلك فإن الناس الذين يزورون ضريح البدوي، لا يفوتهم قراءة الفاتحة، وزيارة

١ لاحظ جرأة الرجل

ضريحه الموجود بجامع البدوي، بل وطلب حاجتهم منه، باعتباره خليفة البدوي، وتلميذه، ونائبه.

- **عز الرجال**: مشهور عنه شفاء أمراض الأطفال، ولذلك تأتي إليه النساء من كل حدب وصوب، حاملات أطفالهن المرضى بغية الشفاء، وهو معروف عنه شفاء الأطفال من المس الروحي، وغيره من الأمراض العصبية، وهو مغربي الأصل، ويقام له مولد، ويزار، وتزداد شهرته سنة بعد أخرى[1].
- **مرزوق**: من أهل النجدة، ومن كراماته أنه لا يقصده مظلوم إلا وينصره، وكثير من النساء يذهبن بعد صلاة الجمعة إلى مقامه، ويقمن بكنس الضريح على الظالم، وهذا يعني كنسه من الدنيا.
- **محمد البهي**: كان عارفا بعلم الحرف، ودعوته مستجابة، يقال أن مسجده الحالي ما زال يصلي فيه البدوي حتى الآن.
- علي الحامولي: مشهور عنه زواج العانس، ولذلك يردد الزوار [من النساء طبعا] قولهم: "سيدي يا حامولي، جوزني وأنا أجيب لك شمعة طولي".
- أحمد البابلي [الذي كان مقرئا في حضرة البدوي]: يشتهر عنه نصرة المظلوم، ويردد الزوار: "يا بابلي كن باب لي" [أي بابا له إلى مقام البدوي].
- **يونس**: يشتهر عنه "ماضيها" بقضاء الحوائج، ويظهر ذلك في التعبير الشائع بين الناس: "يا ماضيها اقضيها".
- **محمد رمضان**: كان من الأبدال فيظهر في أكثر من مكان في وقت واحد، وكان يشفي الأمراض، ويحضر الفاكهة في غير أوانها، ويكشف الحجاب، ويفرج الكرب عن المكروبين.

١ وهكذا يبشر الدكتور الشرقاوي بازدهار الموالد في السنوات المقبلة، نسأل الله أن يخيب ظنه

- **محمد أبو شوشة**: مكشوف عنه الحجاب، وعنده القدرة على شفاء المرضى، وإدخال الرضا، والراحة النفسية في قلوب المتصلين به، وذلك عند مجالسته، أو ملازمته، ويشتهر عنه عطفه، وبره على الفقراء.
- **الشيخه صباح**: من كراماتها الكثيرة شفاء المرضى خاصة النساء من العقم، وإحضار الفاكهة في غير أوانها، وتلقين المريدين الطريق إلى الله، وإظهار خوارق العادات، وأنها كانت ترى في الحج في مكة والمدينة، وهي في طنطا، لم تبارحها.

كما يذكر مؤلف الحكومة الباطنية بركات الشيخ أحمد الحجاب. ثم يذكر بركات البدوي على التجار، والزراع من أهل المنطقة"[1].

وتعليقنا على كلام الدكتور، أنه: لو أَلف كتاب الحكومة الباطنية الشعراني، أو اليافعي، أو الدباغ، أو الخواص لهان الأمر. أما أن يكتبه حاصل على الدكتوراه، دون أن ينبه الناس على حجم الضلال في مفاهيم الدراويش، وينتصر ولو مرة واحدة لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، فهذا ليس له إلا معنى واحد، هو أننا ما زلنا في عصور الظلام، وأن كبوة المسلمين ما زالت قائمة، ليت أحدا من القراء ينتصر لدين الله تعالى، فلا يسمح الأزهر بنشر هذا كتاب، ويحاسب مؤلفه على ما قدمت يداه، وسطره بقلمه.

إن هذا البحث الميداني الذي أجراه الشرقاوي، كان من الممكن أن يكون أفضل كتاب لسنوات قادمة، لو أنه أنفق من وقت إعداده جزءا يسيرا، يدرس فيه أحاديث رسول الله ﷺ، عن الأضرحة، والقبور، وموقف الإسلام منها: ليعرف مدى الجاهلية التي يقع فيها جمهور البسطاء من أهل مصر. لو أن المؤلف نبه على مظاهر الشرك، ودل الناس على ربهم، ووجههم إلى الاستعانة بالله وحده، وعدم الاستغاثة بسواه. لو حوَّل كتابه إلى إجراءات مطلوبة من المسئولين عن بيان الدين في مجتمعنا هذا، وكتب في الصحف، وظهر في التلفاز، وخاطب العالم والجاهل، لكانت له مساهمة عظيمة في رفع هذا الابتلاء عن ربوع هذه الديار، ولكن الكارثة

---

١ الحكومة الباطنية للشرقاوي ١٤٤ – ١٥٦

كل الكارثة أن ينتصر لهذه الجاهلية دون أن يتمعر وجهه غضبا لله تعالى وهو رجل في قمة الشهادات العلمية في الديار المصرية. والحقيقة أن الرجل يدعو لهذه الأفكار، ويهدف من كتابه إلى تثبيت الخائفين، وإيمان المتشككين، كما سطر بنفسه في إهداء الكتاب الذي أشرنا إليه آنفا!. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يصل الدكتور الشرقاوي إلى نتائجه العجيبة، ويعرضها بسذاجة شديدة، كأنها مسلمات في دين الله تبارك وتعالى، فتراه يقول(1): "أما قواعد الدولة الباطنية، فثابتة لا تحتمل التناقض، ولا يأتيها الفساد والتغير: لأنها مستمدة من القرآن الكريم، والسنة المحمدية، فهي قواعد صالحة لكل زمان ومكان، وأصحابها يستمدون وجودهم منها، ومن ثم كانوا طبقة خاصة أرستوقراطية، ليس بينهم إلا مؤمن صالح، ومريد صادق، وسالك تائب، وولي عارف".

ثالثا: أكثر الصوفية لا يغضبون لله تعالى.

وكم أحزنني جرأة الرجل على كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، كيف يسوق خرافاته التي نقلها بالحرف من مؤلفات الشعراني، والدباغ، واليافعي، وهم المعروفون بتبني البدع والخرافات، وأصل من أصول الزيغ والشطط، وكتبهم لا يقرؤها الناس إلا على سبيل التعرف على غرائب الأمور، وسمات مراحل انحطاط المسلمين، وانحدارهم تاريخيا وفكريا، لذلك فقد أحصيت عدد الآيات القرآنية في كتاب الحكومة الباطنية، فوجدتها لا تتجاوز أصابع اليدين، ***منها: آية في مقدمة الطبعة الثالثة: ﴿شَهِدَ اللَّـهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وآية في صفحة [٤٨]، ويكررها في صفحة [٧٨]، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء-٥٩]، ثم يُتحف القارئ بشرح ابن عربي لها، فيقول: ويقصد بهم الأقطاب والخلفاء، وآيتان في صفحة [٥٤]، يستند بهما الصوفية على وجود القطب، أو الخليفة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وآية في صفحة ٥٦، وينقل تفسير الشعراني عن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، فيقول هي تأييد لوجود الأوتاد كما فسرها ابن عربي، وفي صفحة [٩٣]، يستند إلى قوله تعالى: ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، وهكذا إلى نهاية الكتاب. بينما لم تبلغ عدد الأحاديث النبوية التي أوردها في كتابه أصابع اليد الواحدة: فيطالعنا في صفحة [٦٢]، أول حديث ينسبه إلى النبي ﷺ عن النقباء، ويقرر بنفسه أنه لم يجد الحديث إلا عند الشافعي، والسيوطي. ورواه

المحب الطبري في الرياض النضرة، وحديث: "الأرواح جنود مجندة" في صفحة [٨٧]، ثم في صفحة [٧٩] يسوق حديث "اختلاف أمتي رحمة"، الذي أورده الملا علي القاري في الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، حديث [١٦٠]، وقال: زعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له، وأورده الألباني في الأحاديث الضعيفة [حديث رقم ١: ٥٧]، وقال: لا أصل له، ونقل عن المناوي قوله: وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح، ولا ضعيف، ولا موضوع، ومعنى الحديث مستنكر عند المحققين من العلماء، فقال العلامة ابن حزم في الأحكام في أصول الأحكام [٥: ٦٤]، بعد أن أشار إلى أنه ليس بحديث: "وهذا من أفسد قول يكون: لأنه **لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق سخطا**، وهذا ما لا يقوله مسلم.

ولم يحاول الدكتور الشرقاوي أن يتبع أي منهج علمي يثبت به دعواه، ومزاعمه أن الحكومة الباطنية مستمدة من الكتاب والسنَّة، ولم يحدد لنا أي كتاب، وأي سُنَّة يتحدث عنها، ويحيرنا موقف الرجل، وجرأته على كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، ولو احترم عقل القارئ لما خاض في الكتابة باسم الإسلام، ولبحث له عن موضوع من الموضوعات الأخرى، فالعاقل من عَقَل لسانَه والجاهلُ من جهلَ قَدره، ورُبَّ سكوتٍ أبلغُ من كلام. ولعل الدكتور الشرقاوي يؤمن بالمثل العربي القائل: (وبعض القول يذهب في الرياح).

٣. الموالد وما يقع فيها.

لن نطيل الحديث هنا؛ لأن العقلاء من الصوفية يستنكرون ما يحدث في الموالد، ويريدون أن تتوقف تلك المهازل الأخلاقية ودعاوى الثقافة الجماهيرية التي تنتشر في الموالد، أما المدافعون عنها فلهم أسباب لا تخفى فقد أصبح صندوق النذور بجوار الضريح مصدرا من مصادر الثراء السريع للسدنة والخلفاء وباقي طابور المنتفعين، حتى أن وزير الأوقاف المصري الدكتور محمود زقزوق لم ينجح في تقليل نسبة ما يحصل عليه هؤلاء، فما بالك إذا أقدم أحد على إلغاء الأضرحة والموالد؟ وصدق شاعر النيل حافظ إبراهيم حين يقول:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم ... وبألف ألف ترزق الأموات

من لي بحظ النائمين بحفرة ... قامت على أحجارها الصلوات

يسعى الأنام لها، ويجرى حولها ... بحر النذور تقرأ الآيات

ويقال: هذا القطب باب المصطفى ... ووسيلة تُقضى بها الحاجات

كما أن الموالد تدر دخلا اقتصاديا كبيرا لأصحاب الفنون من الراقصات والمنشدين والمطربين الشعبيين ولاعبي الأكروبات وأهل السيرك، والمحلات التجارية، والمطاعم، وأصحاب الشقق المفروشة، كما يتجمع في الموالد العاطلين، والمجاذيب، وطلاب المتعة المحرمة، بل وتجار المخدرات، ولاعبو القمار، وبهذا أصبحت احتفالات فولكلورية، وفقدت أي مضمون شرعي، وما يعنينا هنا في المقام الأول هو تلك الحضرات التي يقيمها الصوفية على هامش أعمال المولد، حيث يجتمع أبناء كل طريقة، ويأخذون مساحة صغيرة للغاية لكثرة الطلب على المساحات من أبناء الطرق، ويقيم كل شيخ ما يسمى بالخدمة، ويعين أحد الأحباب لخدمة الزائرين للضريح من أبناء الطريق طوال مدة المولد، وتجد كل جماعة تستأجر الميكروفونات لإذاعة الحضرات وخطب الشيخ، فإذا ذهبت إلى هناك وجدت ضجيجا يختلط فيه المنشدين بقارئي الأوراد مع أصوات الذاكرين بخطب المشايخ، مع أصوات الباعة، والمروجين للفنون، وغيرهم، فأين الدين من ذلك، إن هذا الكم من الضجيج يعده أصحاب العلم الحديث نوعا من أنواع التلوث البيئي، فما بالك باختلاط الرجال والنساء في الحضرات، وهذا يحدث من بعض الطرق باسم المولد وحب صاحب الضريح، وإنا لنرجو الله تعالى أن يرفع عن مصر هذا الابتلاء الذي خلفته الشيعة الإسماعيلية وراءها بعد احتلالهم لمصر ما يزيد على قرنين من الزمان.

وربما لم يشاهد كثير من الصوفية ما يحدث عند قبور أئمة الشيعة، وفي موالدهم، والتي تتميز بالجمع بين الزيارة والمتعة في آن واحد، ففي العراق يُخير الشيعي حين يزور مقام أحد الأئمة، هل غرضه زيارة فقط؟، أم زيارة ومتعة، فإذا اختار الجمع بين الأمرين، فإن شيخا يصحبه في الزيارة؛ ليدعو له، ويكرر الشيعي خلفه، فإذا فرغ من الزيارة أخذه إلى إحدى العمارات المجاورة، حيث يتخير امرأة تسره، ثم يتزوجها زواج المتعة مرة، أو يوما، أو أكثر حسب ما يطيب له المقام، وتعد هذه المتعة عند الشيعة عبادة لها أجر عظيم، فهم يروون حديثا شيعيا يقولون فيه: "من تمتع مره فله أجر الحسن، ومن تمتع مرتين فله أجر الحسين" فالمتعة عند الشيعة دين يتعبدون به. ولكن المؤكد أن الصوفية تسير على درب الشيعة، شبرا بشبر.

الفصل الثالث

حكم الأضرحة والتصريف في ضوء الكتاب والسنة

* القبر والضريح في الكتاب والسنة

أولا: تحذيرات نبوية

ثانيا: حكم الدين في الأضرحة

ثالثا: أهل الكهف والقبور

* التصريف في ضوء الكتاب والسنة.

١ . خزائن العطاء لله وحده.

٢ . التدبير لله وحده ولا شريك معه.

٣. هل للأرواح تصريف؟

٤ . حكم العلماء فيمن يؤمن بتصريف الأولياء.

٥ . فتوى شرعية عن التصريف.

الفصل الثالث

حكم الأضرحة والتصريف في ضوء الكتاب والسنة

بعد أن استعرضنا أفكار الصوفية عن مملكة الباطن وديوان التصريف، ومراتب الأولياء، والأبدال، والأقطاب، نجدها مستقاة من عقيدة الباطنية عن أوصاف الإمام، والباب، وما إلى ذلك من المسميات، ولأدركنا أن حجم الزور الفكري، والبهتان العقائدي في هذه المفاهيم قد تجاوز المدى، ولا يخالف الدين فقط، وإنما يهدم بنيانه، وينقضه من أصله.

القبر والضريح في الكتاب والسنة.

للأضرحة والقبور مكانتها في كل الملل والنحل المنحرفة عن الصراط المستقيم، ويستطيع المرء إذا اطلع على ما يحدث في الأديان والمجتمعات الأخرى أن يتأكد من ذلك. ونستدل هنا بقول العلامة الدكتور موسى الموسوي الشيعي الذي يدعو إلى تصحيح مفاهيم قومه في كتابه "الشيعة والتصحيح"، حيث يقول: "لقد زرت مقابر الأولياء في كثير من البلاد الإسلامية، فرأيت الزائرين فيها على النمط الذي نراه في مشاهد أئمتنا، ودخلت كنائس المسيحيين في كثير من بلاد العالم، فرأيت الناس فيها يتبركون بتمثال المسيح وأقدام العذراء، وقد تركوا الله جانبا، ويطلبون منهما العون في الدنيا والآخرة. ودخلت معابد البوذيين، والشنتو، ومعابد الهنود، والسيخ، فرأيت ما رأيته من قبل في مشاهد المسلمين والمسيحيين معا من تقديم القربان، وطلب الحاجات، وتقبيل التماثيل، والركوع، والخضوع، والخشوع أمامها، وهكذا رأيت البشرية تعوم في سرداب من الأوهام". وتشترك الصوفية مع غيرها من الملل والنحل في تعظيم القبور والاحتفال بميلاد ساكنيها، بينما الموت والقبور في دين الله تعالى له شأن آخر نستوضحه فيما يلي:

أولا: تحـذيرات نبـوية.

١. الموت والقبر في الإسلام:

الموت في الإسلام ليس فناء محضا، بل هو مرحلة من مراحل حياة الإنسان - كما سـنبين بالتفصيل هذه المراحل في آخر الكتاب - تلك المرحلة التي بدأت بخلق الروح في المـلإ الأعـلى يوم أخذ الله من ظهر آدم، وهو منجدل في طينتـه، قبضـة وأخـرج بهـا أرواح المـؤمنين إلى يـوم القيامة، ثم قبض قبضة أخرى، وخلق حينئذ أرواح أصحاب الشمال، ثم أخذ العهد على جميـع الأرواح يوم "ألست بربكم"، ثم أُودعت الأرواح في حياة برزخية لا يعلمها إلا الله تعالى، فإذا اجتمع مني الرجل، وماء المرأة في الرحم، وأذن الله تعالى للجنين أن يجتمع في ظلـمات الـرحم، وبعد مائة وعشرين يوما ينفخ ملك في هذا الجنين بروحه التي قدرها الله تعالى، فتنتقـل الـروح من حياة البرزخ إلى ظلمة الرحم، إلى أن يولد المولود، فتبدأ رحلة هذا الآدمي في الحيـاة الـدنيا، وحتى انقضاء أجله ووفاته، فتخرج الروح، وتعود ثانيـة إلى عـالم الـبرزخ، ويقـبر الإنسـان في قبره، حيث يطلع على مقامه في الجنة، أو درجته في النار، حيث ينال العذاب الـذي يطهـره مـن الذنوب والآثام التي اقترفها في الدنيا.

فالقبر إذن مرحلة تمهيدية لازمة لإعداد المرء إلى الحياة الآخرة، فهو بمثابة الرحم الـذي أعده الله للإنسان نطفة، فعلقة، فمضغة، ثم تظهر العظام، ويكسوها الله تعالى لحما، ويـتم تهيئـة بصر المولود، وإعداد مجالات سمع الأذن؛ لتلقي الـترددات المناسـبة للحيـاة الـدنيا، وكـذلك تضبط العين حتى تتلقى موجات معينة، وتستطيع أن تشاهد مدى معين يناسب ما هو موجـود في الدنيا، فالقبر بهذا المنظور هو المكان الذي يخلع الإنسان عن جسده الحواس التي تـم تحديـد مواصفاتها للتعامل مع الدنيا، بحيث تكون جـاهزة لمرحلـة البعـث، التـي تـأتي مـع الـنفخ في الصور، ففي تلك اللحظة يعاد تكوين الإنسان وتتجمع أجـزاؤه، التـي تسـتطيع التعامـل مـع الحياة الآخرة، سواء أكان المرء من أهل الجنة، أو من أهل النار. وكل ابن آدم مقبور ولا شـك، والقبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، وقد نهى الإسلام في بداية الأمر عن زيارة القبور؛ لأن القوم حـديثو عهـد بشرك، ثـم أذن النبـي ﷺ في زيارتهـا بعـد أن وضـع لهـا الضوابط والأهداف الآتية:

- **تذكر الموت**: القبر هو الحقيقة المادية التي يتفق عليها المؤمن والكافر، وأن الموت لا بد ملاق ابن آدم. ومن تأكد له هذه الحقيقة يجد شعورا بالراحة والسكينة عندما يزور القبور، فكل مصائب الناس تهون عندهم عندما يتذكرون مصابهم الأكبر بفقد الحياة، ومفارقة الأهل والأحباب، ومن هنا شرع الرسول ﷺ زيارة القبور، فقد ورد في حديث أنس، أن رسول الله ﷺ، قال: ﴿نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكركم بالموت﴾[١]. وورد بلفظ آخر، وهو قوله ﷺ: ﴿نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإن لكم فيها عبرة﴾[٢].
- إن صاحب القبر قد انتقل إلى دار حسابه، ولو كان طائعا، فإنه اليوم يلوم نفسه، حيث لم يزدد في طاعة ربه، ولو كان عاصيا، فإنه في أمس الحاجة إلى حسنة تمحوا عنه سيئة، أو يرفع الله بها عنه عذابا، ومن هنا شرع الإسلام زيارة القبور للدعاء لأهلها، عسى الله تبارك وتعالى أن يرزقنا من يترحم علينا إذا صرنا إلى ما صار إليه من كان قبلنا.

كما ورد أن صاحب القبر يشعر بزواره، ويسمع سلامهم عليه، ودعاءهم له. وليس لزيارة القبور من هدف ثالث. ويؤكد ذلك أن رسول الله ﷺ كان يزور القبور، ويدعو لأهلها ومن ذلك:

ما ورد في حديث أبي هريرة ﷺ، أنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المقابر، فقال: ﴿السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله لكم لاحقون﴾، وحديث عائشة، قالت: فقدت النبي

---

١ حديث أنس خرجه الحاكم في المستدرك ص ١٨٠، وأحمد في مسنده، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته ٦٧٩٠، وحديث بريدة خرجه أبو داود ص ١٧٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته ٦٧٨٨

٢ حديث أم سلمة، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والحاكم في المستدرك، وأحمد في مسنده، وحديث أبي سعيد الخدري، أخرجه البيهقي في سننه، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، وزياداته.

ﷺ من الليل، فإذا به بالبقيع، فقال ﷺ: ﴿سلامٌ عليكم دار قوم مؤمنين، وأنتم لنا فـرط[1]، وإنـا بكم لاحقون، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تَفْتِنَّا بعدهم﴾.

وقد حذر رسول الله ﷺ أمته من اتباع اليهود والنصارى وأفعالهم التي ابتدعوها من عند أنفسهم، فقد اخترعوا الأضرحة، واهتموا بالصور والتماثيل، وأضاءوا لها الشموع، وخصصوا لها السدنة، وقد خاف رسول الله ﷺ على أمته من ذلك، حتى أنه في مرض الموت بلـغ أصـحابه فرادى، وجماعات بخوفه من اتخاذ قبره عيـدا، أو وثنـا، أو أن يتخـذوا عليـه مسـجدا، وتتـابع الأحاديث، وارتباطها بتوقيت مرض موت النبي ﷺ يؤكد خطورة الأمر، فكـأن رسـول الله ﷺ يوصي أمته وصية المفارق الحريص على إبلاغ قومـه بـأهم، وأخطـر أمـر عـلى الأمـة، وصـدق رسول الله ﷺ.

وبرغم تحذيره فقد غفل الناس عن هـذا التحـذير، وفتحـوا عـلى الأمـة أبـواب الشرك بصوره المتعددة، حتى أصبح بلاؤنا اليوم في جملـة هـذه المظـاهر التـي لا يـرضى عنهـا الله ﷻ، ورسوله ﷺ، ولا يتحرك عالم، ولا متعلم لتصحيح الأمر، وإرجاعه إلى العقيدة الصحيحة، كـما أُمرنا بها، وحتى نوضح خطورة الأمر، فإننا نسرد أحاديث رسول الله ﷺ، وتحذيره لأمته.

٢. النهي عن بناء المساجد على القبور:

إن من الأحاديث المتواترة الثابتة عن النبي ﷺ، والتي رواها: أبو عبيدة بن الجراح، وعبد الله بن عباس، وعائشة، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبو هريرة، وأسامة بن زيـد، وأم حبيبة، وأم سلمة رضوان الله عليهم أجمعين، ولا يكاد يخلو مصـدر مـن مصـادر الحـديث الشريف دون أن يخرج هذه الأحاديث، والتي تنص كلها على تحريم اتخاذ القبور في المساجد، أو بناء المساجد على القبور، ومن هذه الأحاديث:-

- حديث أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، قال: آخر ما تكلم به النبي ﷺ: ﴿أخرجوا يهـود أهـل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أن مـن شرار النـاس الـذين اتخـذوا قبور أنبيائهم مساجدَ﴾.

---

١ الفرط: السابقون والمتقدمون.

- حديث عائشة، وابن عباس رضي الله عنهما، قالا: حين نزل بالنبي ﷺ جعل يُلقي خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، وهو يقول: ﴿لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قال: تقول عائشة: يُحذر مثل ما صنعوا﴾.
- حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: ﴿اللهم لا تجعل قبري وَثَنًا يُعْبَد، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد﴾.
- حديث أسامة بن زيد ﷺ، قال: ﴿قال لي رسول الله ﷺ: أدخل عليَّ أصحابي، فدخلوا عليه، فكشف القناع، ثم قال: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد﴾.
- حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، أن رسول الله ﷺ، قال: ﴿إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون قبورهم مساجد﴾.
- حديث جندب بن عبد الله البجلي ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: ﴿إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا، كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك﴾.

٣ . النهي عن رفع القبور:

بعث علي بن أبي طالب ﷺ أبا الهياج الأسدي، قائلا: أبعثك على ما بعثني به النبي ﷺ، أن لا تدع قبرا مشرفا إلا سويته، ولا تمثالا إلا طمسته". ولعله من اللطائف التي يحبها الصوفية أن نتساءل: لماذا اختاره النبي ﷺ لأداء هذه المهمة، دون غيره من الصحابة؟ فلعل والله تعالى أعلم أن النبي ﷺ اختار عليا لهذه المهمة؛ ليقيم على شيعته الحجة يوم القيامة كيف يخالفون شيخهم الأول، أو إمامهم الأول، حيث راح يهدم القبور بينما هم يقيمون لأبنائه الأضرحة، ويرفعونها ويحتفلون حولها. وروى جابر بن عبد الله، قال: ﴿نهى النبي ﷺ أن تجصص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها، وأن توطأ﴾.

يقول الشيخ السيد سابق: "والتجصيص هو الطلاء بالجص، وهو الجير المعروف، وقد حمل الجمهور النهي على الكراهة، وحمله ابن حزم على التحريم، وقيل: الحكمة في ذلك أن

القبر للبلى لا للبقاء، وأن تجصيصه من زينة الدنيا، ولا حاجة للميت إليها، وذكر بعضهم أن الحكمة في النهي عن تجصيص القبور كون الجص أحرق بالنار".

وقال الإمام الشافعي: "أكره أن يُرفع القبر إلا بقدر ما يعرف أنه قبر، لكيلا يوطأ ولا يجلس عليه". وقال أيضا: "وأحب ألا يزاد في القبر من تراب وغيره، وإنما أحب أن يشخص على وجه الأرض شبرا، أو نحوه، وأحب أن لا يبنى ولا يجصص، فإن ذلك يشبه الزينة والخيلاء، وليس الموت موضع واحد منهما، ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة، وقد رأيت من الولاة من يهدم ما بني في المقابر، ولم أرَ الفقهاء يعيبون عليه ذلك".

وقال الشوكاني: "والظاهر أن رفع القبور زيادة على القدر المأذون فيه محرم، وقد صرح بذلك أصحاب أحمد بن حنبل وجماعة من أصحاب الشافعي ومالك".

كثير من البسطاء لا يهتدون بهذه الأحاديث، ولا يعملون بها، ويقولون إن قبر النبي ﷺ داخل الحرم المدني، فكيف تنهون عن بنيان الأضرحة والقبور داخل المساجد، والقوم على بساطتهم يستخدمون القياس، فلهؤلاء نقول: إن النبي ﷺ قبر في بيت عائشة رضي الله عنها، ولا شك أن بيت عائشة رضي الله عنها كان خارج المسجد، وظل القبر السنوات المتتالية خارج المسجد حتى وفاة الخلفاء الراشدين، وقد كانت توسعات المسجد في عهد عمر، وعثمان رضي الله عنهما كانت من الناحية اليمنى [الشرقية] والخلفية [الشمالية]. ولم يدخل القبر في المسجد إلا لأسباب سياسية لا علاقة لها بالدين، وذلك في متأخر عن عهد النبوة.

٤ . النهي عن ستر القبور:

يقول الشيخ السيد سابق: "لا يحل ستر الأضرحة لما فيه من العبث، وصرف المال في غير غرض شرعي، وتضليل العامة".

٥ . تحريم السرج على المقابر:

وروى ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ﴿لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج﴾.

٦. كراهية الذبح عند القبور:

كان أهل الجاهلية يعقرون الإبل عند قبر الرجل الجواد، يقولون نجازيه على فعله؛ لذا فقد نهى الإسلام عن الذبح عند القبور منعا للتشبه بأهل الجاهلية. إلا أنك ترى هذا الفعل منتشر بين أوساط الصوفية، ربما لا يذهبون إلى الضريح ويذبحوا عنده، بل تراهم يذبحون في بيوتهم، وعند مناسباتهم، ويهدون ذبيحتهم لآل البيت.

٧ . النهي عن الصلاة إلى القبر أو عليه:

نهى رسول الله عن الصلاة إلى القبر أو عليه، حيث قال: ﴿لا تصلوا إلى قبر، ولا تصلوا على قبر﴾[١]، وفي حديث أنس، قال: ﴿نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور﴾[٢]، ومن العجيب أنك ترى الصوفية وأتباعهم يصرون على مخالفة هذا الحديث، وأيضا مخالفة جماعة المسلمين، فتراهم يغلقون الباب على ضريح السيدة نفيسة رضي الله عنها، وما يظنونه ضريحا لرأس الحسين ﷺ كل صلاة، ويؤمهم أحدهم بينما إمام المسجد خلف غرفة الضريح يصلي بالناس، ولا يعرفون النهي السابق، ولا حرمة قيام جماعتين في مسجد واحد يصلي كل منهما في نفس الوقت نفس الصلاة، وما دعاهم لذلك إلا حب مزعوم لصاحب الضريح، وهو من ذلك براء.

ثانيا: حكم الدين في الأضرحة.

يقول الشيخ السيد سابق رحمه الله في فقه السنة: "ومِن رفع القبور الداخل تحت الحديث دخولا أوليا: القباب والمشاهد المعمورة على القبور، وهو أيضا من اتخاذ القبور مساجد، وقد لعن رسول الله ﷺ فاعل ذلك، وكم قد سرى من تشييد أبنية القبور، وتحسينها مفاسد يبكي لها الإسلام، منها: اعتقاد الجهلة فيها كاعتقاد الكفار في الأصنام، وعظموا ذلك، فظنوا أنها قادرة

---

١ حديث ابن عباس رواه الطبراني في المعجم الكبير، وله شاهدان يقويانه من حديث أبي سعيد الخدري وأنس خرجهما الألباني في كتابه تحذير الساجد ص ٣١ - ٣٢، وخرجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٠١٦

٢ حديث أنس رواه ابن حبان في صحيحه وله شاهد من حديث مرثد خرجه مسلم في صحيحه، والسيوطي في الجامع الصغير، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته.

على جلب النفع، ودفع الضر، فجعلوها مقصدا لطلب قضاء الحوائج، وملجأ لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأل العباد ربهم، وشدوا إليها الرحال، وتمسحوا بها واستغاثوا. وبالجملة: إنهم لم يدَعوا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ومع هذا المنكر الشنيع، والكفر الفظيع، لا تجد من يغضب لله، ويغار حمية للدين الحنيف لا عالما، ولا متعلما، ولا أميرا، ولا وزيرا، ولا ملكا، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يُشك معه، أن كثيرا من هؤلاء القبوريين، أو أكثرهم إذا طلب منه خصم له أن يحلف اليمين حلف بالله فاجرا، وإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني، تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق، فيا علماء الدين، ويا ملوك المسلمين أي رزء للإسلام أشد من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة، وأي منكر يجب إنكاره، إن لم يكن إنكارا لهذا الشرك البين الجلي؟

لقد أسمعت لو ناديت حيا	ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نارا نفخت بها أضاءت	ولكن أنت تنفخ في الرماد

وقد أفتى العلماء بهدم المساجد والقباب التي بنيت على المقابر، وقال ابن حجر في الزواجر: وتجب المبادرة لهدم المساجد والقباب التي على القبور، إذ هي أضر من مسجد الضرار، لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ لأنه نهى عن ذلك، وأمر بهدم القبور المشرفة وتجب إزالة كل قنديل، أو سراج على قبر، ولا يصح وقفه ونذره". "ويستشهد الشيخ سيد سابق بفتوى علماء المسلمين في عهد الملك الظاهر حين عزم على هدم كل ما في القرافة في البناء، فاتفق علماء عصره على أنه يجب على ولي الأمر هدم ذلك كله، وهذه الفتوى يعرفها أهل العلم". انتهى، ومن المحزن حقا إذاعة مواعظ العلماء من سرادقات المولد.

ثالثا: أهل الكهف والقبور.

كثير من الناس يقول لك يا أخي إن القرآن الكريم يحدثنا عن أصحاب الكهف وكيف أن الناس اتخذوا على قبرهم مسجدا، فكيف تنهانا أنت عما أمر القرآن به؟ والأمر هنا غاية في الاختلاط، للأسباب الآتية:

- أنه لا يجوز شرعا الاستناد على فعل وقع من أقوام قبل النبي ﷺ، فنحن مأمورون باتباع النبي الخاتم، وليس لنا اتباع أي نبي قبله، فديننا دين خاتم

أرسى كل الأمور بشكل تفصيلي وواضح، لا نحتاج معه للرجوع إلى من كان قبلنا، ومن هنا جاء رفض النبي ﷺ لفعل عمر بن الخطاب حين رآه يقرأ التوراة، وقال قولته المشهورة: «لو أن موسى ﷺ كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني»، وبهذا أخبر الحق تبارك وتعالى جميع الأنبياء حين أخذ عليهم العهد والميثاق بالإيمان بالنبي الخاتم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران-٨١]، فأتباع اليهود والنصارى مطالبون بترك ما هم فيه، واتباع شرع النبي ﷺ وليس العكس، أن يستدل المسلمون بأفعال اليهود، أو النصارى، ويتناسوا تحذير النبي ﷺ ونهيه، بل ولعنه لمن يفعل ذلك.

- أن تحريم الأضرحة أصل من أصول دين الله تعالى الذي بعث به كل الأنبياء والمرسلين؛ لذلك وقع تحذير الأنبياء لأقوامهم منه، فاليهود والنصارى يعرفون من أنبيائهم أن الأضرحة محرمة، وفاعلها ملعون، ولو كانوا لا يعرفون، فذلك ليس نقصا في تبليغ موسى وعيسى عليهما السلام لرسالة ربهم، ونحن أمة الإسلام نشهد أنهم وجميع الأنبياء قد أدوا الأمانة، وبلغوا رسالات ربهم؛ لذلك ترى المعاصرين لحادثة أهل الكهف، انقسموا في الرأي إلى فريقين، فريق رأى ما يراه الأنبياء فيما يتعلق بالدفن وسننه، وفريق أفتى بالغلو في شأن أهل الكهف، فقالوا: بل نتخذ عليهم مسجدا.

والقرآن الكريم حين ينقل لنا القصة بأسلوبه البياني الرائع، يقول لنا إن نزاعا وقع بين الناس، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ [الكهف-٢١]، فالتنازع بين فريقين: فريق يرى أنه لا داعي لنقلهم إلى المقابر بل يجب أن يدفنوا حيث ما ماتوا، وهذه سنة الله مع الأنبياء أن يقبروا حيث ماتوا، فكان رأي الفريق الأول أن نسد عليهم الكهف ببناء نبنبه على باب الكهف، بينما يرى الفريق الآخر أن يتخذوا عليهم مسجدا، ويحدد القرآن أيضا أن الفريق الثاني القائلين باتخاذ المسجد عليهم كان عددهم قليل، ولكنهم كانوا من الزعماء والكبراء الذين

يقررون، ولا يستشيرون، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف-٢١]، فكأن الآية القرآنية لا تشرع لنا بناء المساجد على القبور، وإنما تقص علينا ما كان من أحداث وقعت منذ مئات السنين لا دخل للتشريع فيها. ومن الثابت والمعلوم من الدين بالضرورة أن قصص صالحي الأمم السابقة التي رواها القرآن الكريم، للموعظة والاعتبار، وليست للاتباع والاقتداء، أما الهدي فهو مقصور على ما عرفنا به سيد الأنبياء وخاتم المرسلين ﷺ.

التصريف في ضوء الكتاب والسنة

إن التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، هي أفضل ما قاله النبي ﷺ، والأنبياء من قبله، والتوحيد ليس كلمات تقال باللسان، وانتهى الأمر بعد ذلك، وإنما هي حقائق إسلامية، وشعب إيمانية، وروضة إحسانية تضيء القلب، وينشرح لها الفؤاد والصدر، ويستريح لها البال، ويركن لها العقل. فهي تبدأ أولا بنفي الآلهة جميعا، ثم تثبت الإله الواحد القهار، ومن يعتقد ذلك عليه أن يكون صادق العبودية مخلصا لله الدين، فلا تشتت في مقاصده، ولا تشعب في نواياه، وعليه إذا حَزَبَهُ أمر ألا يلجأ إلا إلى الله ﷻ، وإذا سره أمر فلا يحمد إلا الله ﷻ، وإذا كانت له حاجة لا يرفع يديه إلا إلى مولاه، ويعلم أنه يناجي ربا واحدا، أزليًّا، أبديًّا، وأن الله ﷻ حيٌّ قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، لا يضل ربي، ولا ينسى، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، وإذا ألمَّ بالعبد مصاب صبر، وطلب من الله العفو والعافية، واحتسب الأجر والثواب ممن بيده خزائن الجود، ومفاتيح العطاء، وإذا أفاض الله ﷻ عليه بنعمة، تحدث إلى الناس بها قولا وعملا، فاستخدم النعمة وفق مراد المنعم، فيأتي الشكر على لسانه، بعد أن حقق الشكر على جوارحه، ومن شكر فضل المنعم، فقد استحق المزيد من النعم، فتلك سنة الكريم الوهاب: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم-٧]، والمتدبر لآيات الكتاب العزيز يرى حقائق الإيمان راسخة، ومظاهر التوحيد ساطعة، وهي بذلك لا تغيب عن عباد الله المخلصين؛ لذا نعرض المفاهيم الإسلامية للتصريف عملا بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْـمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات- ٥٥].

أولا: خزائن العطاء لله وحده.

يمد الله تبارك وتعالى جميع خلقه: الطائع والعاصي، من جوده، وفضله، ورزقه، قبل أن يسأله أحد، أو يتوسط عنده خلق من خلقه، ولو كان لبعض خلقه وساطة بين يديه، فمن الذي دبر الأمر قبل الخلق، وكيف يسير الكون بعد النفخ في الصور، ويلحق الفناء بالخلق أجمعين. قال تعالى:﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء-٢٠]، فالعطاء الإلهي ليس محظورا ومهما تنوعت صوره، فهو من خزائن الجود والفضل، بأمر من الكريم الوهاب، وهو سبحانه منزه عن الشريك والولد، ولم يتخذ من خلقه مشيرا يستشيره، ولا وزيرا بين يديه، ولا حاجبا، أو حاجزا بينه وبين خلقه، وبالتالي هو الغني عن المَلَك، والجن، والإنس، ومن في الكون جميعا، وقد تنزه سبحانه عن النسيان والغفلة، ومن ثم لا يحتاج لمن يذكره، ولا تختلط عنده الأسماع، فيحتاج لمن يخطط، أو ينظم بين يديه، وينسق عنده الأشياء، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ويعلمنا ﷻ بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر-٢١]، فالخزائن عنده سبحانه، وعطاؤه بقدر، وليس لأحد أن يكون وسيطا في هذا الأمر، فالملائكة لا تملك شيئا، ولا ينبغي لها، ودورها الذي قدره الله تعالى لها هو تنفيذ أمره، وتحقيق مراده، قال تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور-٣٧]، ويقول جلَّ من قائل: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [سورة ص- ٩]، ويؤكد الحق تبارك وتعالى هذه المفاهيم بقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ [الإسراء-١٠٠]، وتفسير ذلك أن الخلق فطروا على حب التملك، ولو كان لأحد من الخلق نصيبا في ملك الله ﷻ، وخزائن عطائه، ورحمته، لأمسك خشية الإنفاق، فمن ينفق يخشى نقص النعمة، أما من أوجد النعم من العدم، فلا تفنى خزائنه، ولا يقل ملكه، فالله جل جلاله هو الخالق، وهو الرزاق ذو القوة المتين، ومن اعتقد أن له يدا في الإنفاق من خزائن الله ﷻ، فهو من المنافقين، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون-٧]، حتى الأنبياء، وهم أفضل وأشرف البشر، ينفون عن أنفسهم أي دور بين الله ﷻ وخلقه، فتراهم يقولون: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام-٥٠]، فليس للأنبياء إذن، أي

نصيب في ملكية خزائن الله، ولا يعلمون الغيب، ولا يملكون لأنفسهم نفعا، ولا ضرا، وبذلك يؤكد القرآن الكريم في العديد من الآيات المباركات، يقول سبحانه: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف-١٨٨]

ثانيا: التدبير لله وحده ولا شريك معه.

إن الإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى في تدبيره للكون وشئونه، هو أصل أصول الإسلام، أرساه القرآن الكريم، ووضحته السنة المطهرة، ولم يختلف عليه أحد من السلف الصالح، ولا تجد أحد ممن عاش قرون الخيرية الثلاث ناقش التصريف، أو حام حوله، أو جعله قضية بين المسلمين. والله جل جلاله يقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[الرعد-٢]، ويقول سبحانه ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس-٣]، حتى كفار مكة لم يزعموا أن آلهتهم شركاء لله في تدبير الأمور، هم فقط يعتقدون أنهم يقربون إلى الله زلفى، والقرآن يشهد ببراءتهم من هذا النوع من الشرك، والقرآن يسألهم: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس٣١-٣٢].

وتوضح الآية السالفة مدى الشرك الذي يرتكبه الصوفية حين يؤمنون بالديوان والحكومة الباطنية: فالقرآن يناقش كفار مكة، ومنطقه واضح جلي: إذا كنتم لا ترون لآلهتكم تدبيرا للكون، فلماذا لا تتقون الله ﷻ، ولِمَ تزعمون أن أصنامكم تقرب إلى الله ﷻ زلفى.

فما بالكم بمن يجعل مع الله ﷻ مجلس إدارة يدير الكون يوما بيوم؟، ليس هذا فقط، بل ويدَّعي أن أعضاء هذا المجلس يجتمعون لتحديد ما سيكون في غد، ويؤمن أيضا بالتوسل بهم حتى يقربوه إلى الله زلفى! أليس هذا نكثا خطيرا عن عقيدة الإسلام، وما جاء به أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ ؟!

وتنفي الآيات تِباعا اختصاص أحد من الخلق بالتدبير، أو بأي شأن منه، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾

[الرعد-٣١]، ويقول القرآن الكريم: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب-٣٧]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب-٣٨]، ويقول سبحانه: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال-٤٤]، ثم ينفي القرآن الكريم مزاعم الباطنية من أهل التصريف، ويقرر أن ليس لهم من الأمر أي شيء، فهو سبحانه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ولا يبدأ التدبير والتصريف باجتماع يعقد على الأرض، ثم تصعد قراراته إلى السماء، أو تنفذ قراراته إلى الأرض بمجرد اتخاذها، يقول سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة-٥]، وكذلك قوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم-٤]، ثم ينفي الحق تبارك وتعالى عن حبيبه محمد صلوات الله وسلامه عليه أي دور في التدبير، أو ما يسميه جهلة الصوفية التصريف، فيقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران-١٢٨]، وقوله عز من قائل: ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾، يفيد نفي التبعيض، أي تأكيد عدم قيام النبي بتدبير أي أمر من الأمور، ثم يأتي قوله:﴿شَيْءٍ﴾ بعد قوله ﷻ: ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾؛ لتنفي أي دور جزئي في تنفيذ أي شأن من الشئون، وبذلك يؤكد القرآن الكريم عدم اختصاص المخلوق بأي دور ظاهر أو باطن، صغيرا كان، أو كبيرا، فهو بذلك يعلمنا أنه وحده، لا شريك له، المنفرد بتدبير شئون خلقه، القيوم الذي لا ينازعه أحد، فالتدبير لازم متلازم مع اتصافه بالخالق، فمن أقر بتوحيد الله خالقا ومُوجِدا من العدم، كيف يظن أو يعتقد في وجود شريك له في تدبير شئون خلقه؟، وكيف تسول له نفسه، ويزين له شيطانه: أن يؤمن بوجود ديوان يجتمع فيه أهل التصريف الأحياء والأموات؟، وكيف ترك العلماء هذه الأفكار تحيا بين العامة من المسلمين، وسمحوا أن تظل فتوحات ومذاقات عالية عند العارفين من أهل التصوف؟. ألم يقرأ العلماء للدباغ، أو الشعراني، أو للشرقاوي، أم تراهم لا يسمعون استغاثات عامة الناس برئيسة الديوان؟ عند حدوث الملمات، والفزع لطلب الحاجات، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف-٥٤]، ويعلمنا القرآن الكريم كيف نرفض هذه الخزعبلات حين يقول: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء ٧٢ - ٧٣]، ويعاتب الله ﷻ المخالفين بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد-١٦]، ثم يعلمنا حجة قاطعة بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح-١١]، فهو سبحانه

المتصرف في خلقه والمعلم لنا: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود-٥٦]، وها هي آيات القرآن المجيد تشرح لنا كيف يقضي الله ﷻ أمرا في الكون في ثلاثة مواضع هي:

- الموضع الأول قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران-٤٧].
- والثاني قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر- ٦٨].
- والثالث قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر-٦٨].

فأمر الله بكن يكون، وحاشا لله أن تقوم الساعة إذا تولى المجاذيب التصريف ورئاسة الديوان، سبحانك هذا بهتان عظيم، نسأل الله تعالى أن يوفق العلماء لبيان خطورة هذه المعتقدات، ونسأله سبحانه أن يهيئ قلوب العباد لتصحيح حقائق التوحيد، إنه سبحانه نعم المولى، ونعم النصير.

ثالثا: هل للأرواح تصريف؟

من اللطائف القرآنية أن يتكرر خطاب الحق جل جلاله إلى رسوله ﷺ بعدد من الآيات التي تنفي أي نوع من أنواع الوجود للنبي ﷺ قبل مولده، ومنها أحداث وقعت مع نبي الله موسى ؑ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص-٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[القصص-٤٤]، تنفي جميع صور المشاهدة، بما فيها مشاهد الروح، والكشف، والرؤيا المنامية، وكل سبل المشاهدة. ثم يقول عز من قائل: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص-٤٦]، كما يؤكد نفس المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص-٤٥]، وفي قصة مريم عليها السلام يقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران-٤٤]، وفي قصة نبي الله يوسف ؑ، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف-١٠٢]، ألا تقطع هذه الآيات دابر الذين يفترون على الله الكذب، ويزعمون أن لرسول الله ﷺ أي شهود لأحداث وقعت قبل مولده، فإذا قبلنا الدليل، وأذعنا له، فلا بد من الإقرار، أنه لا تأثير للأرواح في الكون حتى ولو كانت روح النبي ﷺ، قبل مولده. وبالتالي أين الدليل على أن أرواح أصحاب

الديوان تلتقي، وتخترق حاجز الزمان والمكان، فيحضر الأحياء والأموات، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة-١١١]، وكيف يُكَذِّب الصوفية قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف-٩]، فهذا مقام الأنبياء، وعلى رأسهم خاتمهم صلوات ربي وسلامه عليه، لا يدرون ما يفعل الله ﷻ في ملكه، سواء لهم أو لغيرهم، فمن أنشأ في عقول الناس أن القطب الغوث الفرد الجامع، لا يغفل لحظة عن اللوح المحفوظ، ولا يقع في الملك أو الملكوت [ومن الصوفية من قال ولا الجبروت شيء] إلا بإذن القطب وتصريفه، بل إنه يعلم جميع الأولياء، ويمدهم باطنيا بالإمداد والأنوار، أين هذه المزاعم الباطلة من إقرار القرآن الكريم أن رسول الله ﷺ لا يعرف جميع الأنبياء؟ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر-٧٨]، فكيف جاز للناس أن تؤمن بمعرفة القطب لجميع الأولياء؟ ثم ها هما أفضل البشر بعد الأنبياء والمرسلين سيدنا: أبو بكر الصديق وخليفته عمر الفاروق، لم يزعما معرفتهما بجميع الأولياء، بل إن هناك دليل عملي نستخلصه من حياة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، الذي لم يتعرف على أويس القرني من نفسه، وإنما بسؤال قومه عنه، ثم بعلامات عرفها له النبي ﷺ، فكيف يزعم المشايخ معرفتهم بجميع الأولياء من نشأة الخلق إلى يوم القيامة، بل وإمدادهم بالبركات والمدد، وكيف يفتري التجانية مسألة إمداد شيخهم لجميع الأولياء بالأنوار، فمن أين استقى دعاة الباطنية، والشيعة، وجهلة الصوفية هذه الأمور؟ ومن أي مصدر استوردوا هذه البضاعة المزجاة؟!

رابعا: حكم العلماء فيمن يؤمن بتصريف الأولياء.

لا يختلف أحد من العلماء أن من زعم أن أحدا من الأولياء يتصرف في ملك الله تعالى، أو في شيء منه، فقد أشرك مع الله تعالى، والشرك ظلم عظيم، قال تعالى على لسان لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان-١٣]، وحتى يتضح أمامنا أنواع الشرك التي يقع فيها من يؤمن بتصريف الأولياء، وأيضا من يزور قبرا، أو ضريحا، ويرتكب ما تقع فيه العامة من موبقات، نقول وبالله تعالى التوفيق:-

١ . تعريف الشرك لغة:

اسم من شركه في كذا يشركه شركا وشركة، إذا جعل له نصيبا قليلا، أو كثيرا، في ذات أو معنى، والشرك ضد التوحيد، كالكفر ضد الإيمان.

٢ . تعريف الشرك اصطلاحا:

الشرك اعتقاد المرء في غير الله صفة من صفات الله ﷻ، كأن يقول: إن فلانا يعلم كل شيء، أو يعتقد أن فلانا يفعل ما يشاء، أو يقول: إن فلانا بيده خيري، أو شري، أو يصرف لغير الله من التعظيم، ما لا يليق إلا بالله تعالى، كأن يسجد لشخص، أو يطلب من الميت حاجة، أو يعتقد ذلك"[١]، "والشرك في ربوبية الله تعالى، أو أسمائه وصفاته كفر، وفي عبادته تعالى إن كان الفاعل له عالما به مصرا عليه كفر كذلك، إذ الشرك في ربوبيته تعالى، وأسمائه، وصفاته تكذيب له سبحانه، وكذب عليه ﷻ، والشرك في عبادته تعالى تأليه لغيره سبحانه، وتكذيب لله تعالى في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّـهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران-١٨]، وفي قوله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ﴾ [محمد-١٩]"[٢].

٣. أنواع مهمة من الشرك:

"ويختلف الشرك مع الكفر في أن من الشرك ما لا يكون كفرا، كالشرك الأصغر والشرك الخفي، وتكمن خطورة الشرك إذا كان الفاعل عالما بأن حكم فعله شرك بالله تعالى، ثم أصر على شركه عنادا ومكابرة، أو إيثارا للمنافع الدنيوية من مال، أو جاه، أو سلطان"[٣].

- الشرك في العلم لقوله: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّـهُ﴾ [النمل-٦٥].
- الشرك بالاستعانة بالأولياء وطلب العون، لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة-٥].

---

١ قول الإمام عبد القادر الدهلوي الحنفي.

٢ عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري.

٣ عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ٨٣ بتصرف.

- الشرك بالاستغاثة بهم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال-٩].
- الشرك في النذر لهم: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة -٢٧٠].
- الشرك في الحلف بهم: لقول النبي ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[1].
- الشرك بدعاء الصالحين، لقوله: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ [يونس- ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن-١٨].
- الشرك في الطاعة في التحليل والتحريم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة-٣١]، هذه الآية لما سمعها عدي بن حاتم الطائي، وهو نصراني، قال لرسول الله ﷺ: إنهم لم يعبدوهم، فقال ﷺ: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»[2]، وقال حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وغيرهما في تفسيرها، "أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا"، وقال السدي: "استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾، أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ لا إله إلا هو ولا رب سواه"[3].

يقول أبو الحسن الندوي: "إن الشرك لا يتوقف على أن يعدل الإنسان أحدا بالله، ويساوي بينهما بلا فرق، بل إن حقيقة الشرك أن يأتي الإنسان بخلال وأعمال، خصها الله تعالى بذاته ﷻ، وجعلها شعارا للعبودية لأحد من الناس كالسجود لأحد، أو الذبح باسمه والنذر

---

١ حديث عبد الله بن عمر رواه الترمذي ١٤٥٥، وروي بلفظ آخر في باقي الكتب التسعة.

٢ حديث عدي بن حاتم رواه الترمذي ٣٠٢٠ وابن جرير الطبري في تفسير الآية.

٣ تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

له، والاستعانة به في الشدة، والاعتقاد أنه حاضر وناظر في كل مكان، وإثبات التصريف له، كل ذلك يثبت به الشرك، ويصبح به الإنسان مشركا"[1].

فهذه التعريفات للشرك توضح بجلاء أن العديد من الأئمة لم يقتصروا في بيان الشرك، وتعريفه على أمر الربوبية فقط، بل جعلوا صرف العبادة لغير الله أيا كان شركا أكبر، وذلك هو الشرك الذي يحبط العمل، ولا يقبل الله من فاعله صرفا، ولا عدلا، وهذا هو الشرك الذي قال الله فيه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر-٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة -٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء-٤٨]، فالمشرك يحبط عمله، وهو من الخاسرين والجنة محرمة عليه، ولن يغفر الله له شركه أبدا"[2].

وإليك أخي القارئ هذه الفتوى.

خامسا: فتوى شرعية عن التصريف.

ورد في كتاب مختصر فتاوى دار الإفتاء المصرية فتوى أصدرها فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم، عن حكم النذر للأولياء، فقال:

"وأما النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد .. فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه، منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة، والعبادة لا تكون للمخلوق. ومنها أن المنذور له ميت، والميت لا يملك. ومنها أنْ ظنَّ أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى، واعتقاده ذلك كفر ..

والظاهر لنا أن هؤلاء العوام، وإن قالوا بألسنتهم: إني نذرت لله، أو تصدقت لله، فمقصدهم في الواقع ونفس الأمر، إنما هو التقرب إلى الأولياء والصالحين، وليس مقصدهم

---

١ أبو الحسن الندوي نقلا عن بيان الشرك ووسائله عند أئمة الحنفية للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس ص ٩.

٢ محمد إسماعيل الدهلوي، والشيخ أبو الحسن الندوي، نقلا عن بيان الشرك ووسائله عند أئمة الحنفية للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس ٧

التقرب إلى الله تعالى وحده، ولم يبتغوا بذلك وجهه، .. وما أشبه ما يقدمون من قربان، وما ينذرون من نذور، وما يعتقدون في الأضرحة وساكنيها بما كان يصنع المشركون في الجاهلية، وما يغني عنهم نفي الشرك عنهم بألسنتهم، وأفعالهم تنبئ عما يعتقدون من أن هؤلاء الأولياء لهم نافعون ولأعدائهم ضارون .. انتهى، وقد جاء في "سبل السلام شرح بلوغ المرام" ما نصه: "وأما النذور المعروفة في هذه الأزمنة على القبور والمشاهد والأموات، فلا كلام في تحريمها؛ لأن الناذر يعتقد في صاحب القبر أنه ينفع، ويضر، ويجلب الخير، ويدفع الشر، ويعافي الأليم، ويشفي السقيم، وهذا هو الذي كان يفعله عباد الأوثان بعينه، فيحرم كما يحرم النذر على الوثن، ويحرم قبضه لأنه تقرير على الشرك، ويجب النهي عنه، وإبانة أنه من أعظم المحرمات، وأنه الذي كان يفعله عباد الأصنام، لكن طال الأمد حتى صار المعروف منكرا، والمنكر معروفا"[1].

وفي الختام نجد لزاما أن نحمد الله وحده الذي أخرجنا من ظلمات الجهل إلى نر العلم والفهم، وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء-١١١].

١ مختصر فتاوى دار الإفتاء المصرية، جمع وترتيب الشيخ صفوت الشوادفي ٤٧

ملخص الباب الحادى عشر

- يمثل ديوان الصالحين، والحكومة الباطنية أدنى دركات انحراف الصوفية.
- فكيف يصدق هؤلاء الدراويش أن الله تبارك وتعالى قد ترك تدبير الأمر، وتصريفه للصوفية الأحياء والأموات، مع بعض الجن والملائكة. أيُّ أتباع هؤلاء؟! وكيف ينحدر الصوفية إلى هذه الهاوية؟ وكيف يسير العقلاء من الناس خلف الحمقى والجاهلين؟ أيكون الدباغ، والخواص أعلم وأرقى مرتبة من علماء السلف؟! أيؤخذ الدين عن هؤلاء المجانين؟! إنا لله وإنا إليه راجعون.
- ظهر حجم الهراء في ديوان التصريف، وظهر كيف أن الأقلية الديكتاتورية تحكمه ، وكيف أنهم يدعون أن الساعة تقوم حين يتولى المجاذيب تصريف الأمور في الديوان.
- من الخطأ أن يتبع الناس شيخا يظنونه وليا لمجرد أنه يصلي أو يفعل الصالحات، ولا ينبغي للمشايخ أن يتصدروا الناس ويلقنوهم العهود، ولا يجوز أن نُسلم لهم ونسمع لهم ونطيع في كل ما يقولون بلا سند من عقل أو نقل، إنما الغرض من اتباع الصالحين أن يدلوا أتباعهم على سنة رسول الله،ﷺ أما أن نتبعهم لنكون بهم جماعة أو طريقا صوفيا أو منهجا باطنيا، فهذا هو الضلال المبين.
- تتدرج الآداب الصوفية للمريد مع شيخه تدرجا متتاليا تبدأ بالشرك الأصغر، ثم تهوي في حبائل الشرك الظاهر والأكبر، وفي النهاية يتجاوز الغلو كل مدى، ويصبح الشيخ محور السلوك الصوفي، ويسلم المريد انقياده له، وهذا أمر حتمي لازم للانتفاع ببركات الشيخ ونفحاته في الدنيا والآخرة.
- أخطر ما في هذه الآداب هو إخراج الشيخ من دائرة قياس أفعاله بميزان الشرع، فلا يستطيع أحد أن يحاسبه على تجاوزاته وإتيانه المنكر، أو ابتعاده عن المعروف،

حتى وإن عطل الفرائض، وقعد عن الصلوات، ومن يجرؤ على تذكير الشيخ بالله إذا كان النظر إلي وجهه، والحديث، أو الأكل معه، أو الجلوس بين يديه من كبائر العقوق للمقام الصوفي الكبير. والأخطر من هذا أن المريد يجب أن يعتقد في شيخه أنه القطب، والغوث، بل هو الخضر عليه السلام بنفسه، وأن الشيح يستقي علومه مباشرة من مطالعته للوح المحفوظ.

- يعتقد المريد اعتقادا راسخا بأن الشيخ يمده من قَبْل مولده، وإلى ما بعد الحساب والجنة والنار، وكلما اعتقد المريد أن كل خير سيق إليه في دنياه، أو أخراه إنما هو من مدد الشيخ وبركة صحبته، وكلما هوى في الكبائر، بل نال الشرك الأكبر بعينه، وبالتالي تحولت الصوفية إلى منابر تدعو المريدين للإشراك بالله تعالى، والتوسل، والاستغاثة بسلسلة من المشايخ الأحياء والأموات.
- يتلقى الصوفي عن شيخه كيف يذكر الله تعالى في الحضرة، فإذا بالشيخ يطالبه أن يضع شيخه نصب عينيه، وفي قلبه أثناء ذكره لربه.
- يُعَلم جهلة الصوفية مريديهم ويلقنونهم وهم أحياء ماذا يقولون للملائكة الكرام الذين يسألون الناس ويفتنونهم في قبورهم، فإذا سألهم الملك: من ربك؟ يقول المريد له شيخي فلان، فينصرف عنه الملائكة، كما تفتح منزلة الشيخ في الفكر الصوفي أبواب الأضرحة على مصراعيه.
- إن كتاب الدكتور الشرقاوي الذي يعالج دراسة ميدانية عن الحكومة الباطنية، يفيض بالغث الضحل من المفاهيم، التي يهديها المؤلف للصوفية؛ ليتثبتوا على طريق الخواص، والدباغ، أيكون الأعمى قائدا للبصير؟!، إن هذا الأمر يحتاج إلى إعادة النظر في الموضوعات التي يجب أن يوجه إليها الدارسون لنيل شهادات الماجستير والدكتوراه، حتى لا ندلس على المسلم البسيط، ونقدم له المؤلفات الممهورة بأصحاب الشهادات العلمية، ثم يجد فيها الناس خواص أصحاب الأضرحة، وبهذا كأننا ننصح من أراد شفاء ولده أن يذهب إلى ضريح فلان، وكذلك كأننا نقول ليس على العانس إلا أن تحضر شمعة طولها، وتهديها لفلان.

- تجاوز الصوفية كل التحذيرات النبوية المتعلقة بالقبور، حتى أصبحت الموالد، وزيارة الأضرحة أمر يحتاج لمن ينظم للمريدين مواعيد الزيارات، ولم تتدخر مجلة التصوف وسعها في التنبيه على الموالد المختلفة في محافظات الجمهورية.
- ناقشنا في نهاية هذا الباب قضية التصريف على ضوء الكتاب والسنة، وقلنا أن خزائن العطاء لله وحده، وأن الله ﷻ هو المتصرف وحده فيمن خلق، كما ناقشنا فكرة تصريف الأرواح لشئون الناس، كما تعرضنا لقضية التعدي في الدعاء، وفهم السلف الصالح عن أدب الدعاء، كما ذكرنا أن العلماء لا يختلفون فيما بينهم في أن الذي يزعم أن أحدا من الأولياء[أو أي شخص] يتصرف في ملك الله ﷻ، أو في شيء منه، فقد أشرك مع الله ﷻ، وذكرنا أن للكفر أنواعا منها: الشرك في العلم، والاستعانة بالأولياء، والاستغاثة بهم، وأيضا الشرك في الطاعة في التحليل والتحريم.

الباب الثاني عشر

الذكر في الفكر الصوفي

١. مكانة الذكر عند الصوفية.

٢. الذكر بالاسم المجرد.

٣. الذكر وعلم الجفر.

٤. جاه الحروف في الدعاء.

٥. السريانية فتوحات أم إلحاد.

٦. التعدي في الدعاء وطلب التصريف.

٧. أدب النبي في الدعاء.

الفصل الأول

مكانة الذكر عند الصوفية

يعد الذكر من أركان التصوف، ولا يختلف أحد من أمة الإسلام على أهمية الذكر، فقد نص عليه القرآن الكريم في محكم التنزيل، وأكدته الأحاديث النبوية الشريفة في مئات المواضع عن سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، إلا أن الاختلاف الحقيقي بين أهل السنة والجماعة، وبين الصوفية يتولد من فهم الصوفية للذكر، بينما أهل السنة والجماعة يرون الذكر عبادة أصلية في دين الله تعالى، وهي تشمل صور الطاعات التالية:

١. قراءة القرآن الكريم آناء الليل، وأطراف النهار.
٢. مجالس العلم: سواء تعلقت هذه المجالس بالقرآن الكريم تلاوة، وتفسيرا، وحفظا، وتدبرا، أو الحديث الشريف، بدءا من علم مصطلح الحديث إلى حفظ الحديث، أو شرحه، وبيان أحكامه، وما يتعلق به من أمور فقهية شرعية، أو مجلس يتعلم فيه طلاب العلم علوم الفقه، وقواعده، وأصوله، وأحكامه، أو مجلس سيرة للنبي ﷺ، أو أي علم من علوم الإسلام حتى لو كان المجلس يتدارس فيه الناس السنن الكونية، ويتدبرون فيه حكمة الله ﷻ في خلقه، فهذه كلها تعد مجالس ذكر يذكر فيها الله تبارك وتعالى بكل علم يقرب الناس إلى ربهم.
٣. الصلاة والنوافل من الركعات، مع قراءة القرآن قائما، وتسبيح الله تعالى راكعا وساجدا.
٤. تسبيح الله تعالى بالأذكار الثابتة عن سيد العارفين وإمام النبيين سيدنا محمد ﷺ، كسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، وأستغفر الله، أو قول: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
٥. الاستغفار من الذنوب والآثام، ومن اللمم، وصغائر المعاصي، وكثرة الغفلة عن الله ﷻ، وأفضل الاستغفار سيده الوارد عن النبي ﷺ.

٦. الصلاة على النبي المختار سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، بالصيغ المشروعة التي لا غلو فيها، ولا انحراف، وأفضل الصيغ ما تلقاه النبي ﷺ عن أمين الوحي جبريل، وجعلها في التشهد الأخير من الصلاة، وهي المعروفة بالصلاة الإبراهيمية.

٧. الأدعية والأذكار النبوية التي ألزم النبي ﷺ بها نفسه، ودل أمته عليها: كدعاء الاستيقاظ من النوم، ودعاء دخول الحمام، والخروج منه، ودعاء ما بعد الوضوء، ودعاء ارتداء الثوب الجديد، ودعاء الخروج من البيت، ودخول المسجد، وركوب الدابة، والسفر، والطعام، والشراب، ورؤية المبتلى، ورؤية المطر، وسماع الرعد، وما إلى ذلك مما يضيق المقام لحصره.

الفصل الثاني

الذكر بالاسم المفرد

أما الصوفية فهم يوافقون على جميع معاني الذكر السابق بيانها، ويزيدون عليه ما يُعرف بالذكر المجرد، أو الذكر المفرد، وهو الذي تقوم عليه الحضرات، حيث يذكرون الله قياما، أو قعودا، مع التمايل بحركات تناسب كل اسم من الأسماء، أو طبقة الصوت التي يذكر بها الشيخ سواء بمزمار، أو بغير مزمار، وربما بمنشد يمدح النبي ﷺ، ويستلهم المدد من مشايخ الطريق الأحياء، والمنتقلين إلى الدار الآخرة. وكل طريق من الطرق الصوفية يختار له مجموعة من أسماء الله الحسنى، يذكرون بها في حضراتهم، ويلقنون المريدين هذه الأسماء بالتدرج، وعلى مراحل، كل منها يمثل مرتبة من مراتب الطريق، فلو كان الطريق سبع مراتب كان ذكر المريد على مراحل سبعة، ويتفق على هذا أغلب الطرق الصوفية، وإن اختلفت الأسماء التي يذكر بها المريد بشكل خاص، فالخلوتية مثلا لهم سبعة أسماء، هي:

- "لا إله إلا الله"، ويقابلها الاسم الأول حيث يكون المريد في مقام النفس الأمارة بالسوء.
- "الله"، ويذكر به المريد في الاسم الثاني عندما يصل إلى مقام النفس اللوامة.
- "هو"، ويذكر به من وصل إلى الاسم الثالث، ويرتقى إلى مقام النفس الملهمة.
- "حق"، ويذكر به المريد في الاسم الرابع، ومن وصل إلى مقام النفس المطمئنة.
- "حي"، ويذكر به المريد في الاسم الخامس، وبه يذكر من وصل إلى مقام النفس الراضية.
- "قيوم"، ويذكر به المريد في الاسم السادس، ويذكر به من وصل إلى مقام النفس المرضية.
- "قهار"، ويذكر به المريد في الاسم السابع، وبذلك يصل إلى مقام النفس الكاملة، ويصير المريد جاهزا لتلقي الترقية التالية، ومن ثم يصبح شيخا للطريق، ويعطى إجازة من شيخه بتمام سلوكه على طريقته، ثم يُرقى المريد

بعد ذلك، حين يأتيه الإذن بدعوة الخلق إلى طريق الحق، وعلى طريقة شيخه التي تلقاها عنه. وهيئة الذكر : و الذكر خلال المراحل يكون :

أولا: الذكر المنفرد.

حيث يختلي المريد في مكان طاهر في بيته، يذكر الله تعالى حسب العدد الذي رتبه له شيخه، مبتدئا بقراءة الفاتحة لشيخه مع استحضار صورة شيخه، وهيبته في قلبه، ويضعه نصب عينيه، ثم يقرأ الفاتحة لشيخ شيخه، ثم ينتقل بالفاتحة، ويهديها للنبي ﷺ، ثم يبدأ الحضرة بالاستغفار بعدد مخصوص، يحدده له شيخه، ثم يذكر الاسم الذي خصصه له شيخه حسب القواعد السالفة الذكر، وكل مريد يبدأ أولا بالاسم الأول، ثم يذكر بالاسم الثاني، وهكذا حتى يصل إلى آخر مرحلة وصل إليها في الطريق. ثم يصلي على النبي ﷺ بصيغة خاصة لكل طريق، تميزه عن غيره. ففي الخلوتية يصلي على الرسول ﷺ قائلا: "اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله، عدد كمال الله، وكما يليق بكماله". ثم يدعو لنفسه، ولإخوانه، ومشايخه بعد قراءة الفواتح بنفس الترتيب الذي بدأ به الحضرة.

ثانيا: الحضرات المجمعة.

لكل طريق مجموعة من الحضرات الأسبوعية التي يجتمع فيها المريدون مع شيخهم، يذكر بهم الأسماء السبعة، ثم يختم الحضرة هو، أو من ينيبه عنه بالدعاء، ثم يلتف المريدون حول الشيخ يحدثهم قليلا في الطريق، وآدابه، وكرامات الشيخ، وقليل من المشايخ الذي يعظهم، ويعرفهم بربهم، أو سنة نبيهم ﷺ، وقد يختلف أسلوب الذكر من حضرة إلى أخرى داخل نفس الطريق، وحسب الخليفة الذي يستفتح الحضرة. كما أن هناك أسلوبا معينا يصاحب الذكر يختلف باختلاف الاسم، فذكر: "لا إله إلا الله"، يصاحبه حركة رأس المريد من أقصى اليمين، ثم يتوجه الرأس إلى جهة القلب، وكأن المريد يصب أنوار الاسم في قلبه.

بينما ذكر: "الله، الله"، يصاحبه حركة الرأس من أعلى، وإلى الخلف، ثم تتحرك الرأس، كأنها تضرب الجسم إلى أسفل. وهكذا يتلقى المريد عن شيخه طريقة نطق كل اسم من الأسماء، ودرجة الصوت في كل مرحلة من مراحل الحضرة، حيث يختلف أسلوب النطق، ومعدل الذكر من بدء الذكر بالاسم إلى نهاية الذكر.

وقد بحثنا في كتب العلم، ومصادر الحديث الشريف، وفي أفعال النبي ﷺ عن دليل يشير إلى أن رسول الله ﷺ جلس يوما بين أصحابه، وذكر الله تبارك وتعالى ذكرا مجردا، كذكر الصوفية اليوم، وبمعنى آخر: هل الحضرة بشكلها الذي شرحناه آنفا، عبادة على هدي النبي ﷺ؟ فإن كانت كذلك فعلى الرحب، والسعة. أما إذا كانت هذه الهيئة شيئا محدثا، اخترعه مشايخ الصوفية من عند أنفسهم، فهذا هو الأمر الجلل، إذ أن كثير من الناس لا يفرق بين التقليد والاتباع: فالعمل يوم القيامة ينصب له ديوانان، أولهما ديوان الإخلاص لله تعالى، فلا بد للعمل حتى يقبله الحق تبارك وتعالى أن يكون خالصا من الرياء، والشرك، وحب السمعة، والمحمدة، فإذا اجتاز العمل هذا الديوان، دخل إلى ديوان المتابعة، وهل هذه العبادة قام بها العبد متبعا فيها النبي ﷺ؟، أم أن العبد اتبع المشايخ، والأهل، والعشيرة؟ كما اتبع اليهود، والنصارى الأحبار، والرهبان: لذلك بحثنا عن الدليل والبرهان، وتوصلنا إلا أن الصوفية يستندون في ذكرهم هذا على حديث يروونه، أن النبي ﷺ جلس يوما بين أصحابه، وذكر الله ﷻ بالأسلوب الصوفي المتعارف عليه في الحضرات، وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، والطبراني في معجمه الكبير، ونص الحديث: حدثنا الحكم بن نافع، قال: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن راشد بن داود، عن يعلى بن شداد، قال: حدثني أبي شداد بن أوس، وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه، قال: كنا عند النبي ﷺ، فقال: هل فيكم غريب [يعني من أهل الكتاب]، فقلت: لا، يا رسول الله، فأمر بغلق الباب، وقال: ارفعوا أيديكم، وقولوا: لا إله إلا الله، فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله ﷺ يده، ثم قال: الحمد لله، اللهم بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ودعوتني عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد، ثم قال: أبشروا، فإن الله قد غفر لكم.

ولو درسنا إسناد هذا الحديث لوجدنا: إسماعيل بن عياش حذر منه الإمام مسلم في مقدمة الصحيح، ثم روى خبرا قال فيه: حدثنا الدارمي، أخبرنا زكريا بن عدي، قال: قال لي أبو إسحاق الفزاري: لا تكتب عن إسماعيل بن عياش ما روى عن المعروفين، ولا عن غيرهم. كما أن راشد بن داود وصفه علماء الجرح والتعديل بأنه صدوق، له أوهام. وقال عنه البخاري: فيه نظر. وصرح الدارقطني بتضعيفه، حين قال: ضعيف، لا يعتبر به، فالإسناد فيه راويان، أحدهما: صرح العلماء بعدم الكتابة عنه، وبالتالي تكون رتبته في علم الجرح والتعديل هي التاسعة، والثاني: صرح الدارقطني بتضعيفه، وبالتالي يكون الإسناد متروكا، وهي أوهى درجات الحديث قبل الموضوع، وحكمه لا يحتج به مطلقا، ولا ينقل بهذا الإسناد مطلقا. وأما

من حيث المتن: ففيه غرائب كثيرة، أولها سؤال النبي ﷺ: هل فيكم غريب؟ يوحي بأن هذه الواقعة كانت بعيدة عن أعين الناس، وأنها وقعت في مكة، ويلغي هذا الاحتمال أن شداد بن أوس، وعبادة بن الصامت من الأنصار، وأوس والد شداد بايع في بيعة العقبة، وقتل يوم أحد، ولو كان شداد شابا فتيا آنذاك لقاتل يوم أحد، ولكنه كان صغيرا، وبالتالي لا يستطيع أن يحضر هذا المجلس مع النبي قبل يوم أحد، وبالتالي يكون زمن هذه الرواية بعد زمن أحد، وما كان رسول الله ليسأل عن الغرباء من أهل الكتاب حتى يستفتح هذا الذكر، ومن غرابة هذا الحديث أيضا أن يرفع النبي ﷺ يديه طوال فترة الذكر، ولم يتكرر هذا الأمر مرة ثانية طوال البعثة، ولم نرى النبي ﷺ يرفع يديه ساعة في أمر آخر من العبادات حتى يرفعها في الذكر.

أما عن رواية الطبراني لهذه الواقعة، فقد كان نصها: حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقي، والحسين بن إسحاق التستري، قالا: ثنا هشام بن عمار، ثنا عبد الملك بن محمد الصنعاني، ثنا راشد بن داود الصنعاني، ثنا يعلى بن شداد بن أوس، عن أبيه، قال: إني لمع رسول الله ﷺ في بيت رجل من أصحابه، فقال: انظروا، هل فيكم من غيركم؟ فقالوا: لا، فقال: احف [أي اغلق] الباب، فأغلق الباب، ثم قال: ارفعوا أيديكم، وقولوا: لا إله إلا الله، فرفع رسول الله ﷺ، فرفعنا أيدينا، ثم قال: ضعوا أيديكم، وأبشروا فقد غُفِر لكم، إني بعثت بها، وبها أمرت، وعليها أدخل الجنة. والتعليق على حالة السند أن طريق الحديث ينتهي إلى راشد بن داود، عن يعلى، عن أبيه، وهو نفس الطريق السابق، وراشد كما ذكرنا صدوق له أوهام، وفيه نظر، وصرح الدارقطني بتضعيفه. كما أن هذه الرواية تلغي أمر رفع اليدين، وأيضا لا تتفق مع الرواية الأولى في تكرار الذكر بـ "لا إله إلا الله"، وأقل ما يوصف به هذا الحديث، أنه حديث ضعيف، والحديث الضعيف كما قلنا لا ينقل للناس إلا مع التنبيه على ضعفه، ولا يحتج به، ولا يعمل به، ولو أراد الصوفية أن يستندوا إلى هذا الحديث لإثبات صحة الحضرات[1]، نقول لهم: **إن أمور**

---

١ ومن الطريف أن نشير إلى البيت رقم ٢٠٤ من ديوان العتيق لصلاح القوصي، حيث شاهد إبليس يقود الحضرة بنفسه، فيقول:

وعرفناك عن إبليس سرا به افتتن الكرام بحسن ظن

ويعلق القوصي بقوله: "يشير المؤلف[يقصد نفسه] إلى رؤية له، في الثالث من ذي الحجة عام ١٤٠٠ هـ، الموافق ١٢ أكتوبر ١٩٨٠، رأى فيها إبليس يقود حضرة ذكر، وقد شرح له الشيخ أبو العيون في هذه الرؤية، كيف يحدث مثل هذا الأمر، وكيف لا ينتبه له كثير من الأشياخ، وكذلك عن سر الحضرات، وأهمية المستفتح فيها، وعن دور المؤلف نفسه في الاستفتاح في الحضرات".

هذا الدين التي تدل الناس على الخير العظيم، لا ينقلها إلينا الصحابة والتابعين من خلال طريـق معلول، وإنما يحدده القرآن الكريم في آياته المحكمات، وتؤكده الأحاديث الصحيحة.

الفصل الثالث

الذكــر وعلـم الجفـر

أولا: علم الجفر وعلاقته باليهود.

إن المرء ليزداد حيرة حين يبحث عن التوافق الغريب بين الشيعة واليهود، فأكثر انحرافهم عن ملة الإسلام تجده إلى ناحية اليهود، وبني إسرائيل، أما إذا نظرت إلى غلوهم في أئمتهم، فغلو النصارى يتوارى بعيدا عنهم، وتعامل الفكر الشيعي مع اللغة السريانية، يرجع إلى أحد أئمتهم الذي كان يحاكي فيه نبيا من أنبياء بني إسرائيل، وهذا أيضا علم الجفر، وقد أصبح الشيعة باتباع قواعده التي وضعها اليهود شر خلف، لشر سلف. وهذا ما يؤكده الحديث الذي يرويه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أنه قال: مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله ﷺ، وهو يتلو سورة البقرة: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، ثم أتى أخوه حُيَي بن أخطب، وكعب بن الأشراف، فسألوه عن ﴿الم﴾، وقالوا ننشدك الله الذي لا إله إلا هو، أحق أنها أتتك من السماء؟ فقال النبي ﷺ: نعم، كذلك نزلت، فقال حيي: إن كنت صادقا، إني لأعلم أجل هذه الأمة من السنين، ثم قال: كيف ندخل في دين رجل دلت هذه الحروف بحساب الجمل على أن منتهى أجل أمته إحدى وسبعون سنة، فضحك النبي ﷺ، فقال حيي: فهل غير هذا؟ فقال: نعم، ﴿المص﴾، فقال حيي: هذا أكثر من الأول هذا مائة وإحدى وستون سنة، فقال: فهل غير هذا؟ فقال: نعم، ﴿الر﴾، فقال حيي: هذا أكثر من الأولى والثانية، فنحن نشهد إن كنت صادقا ما ملكت أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة، فقال: فهل غير هذا؟ فقال: نعم، ﴿المر﴾، فقال حيي: فنحن نشهد أنا من الذين لا يؤمنون، ولا ندري بأي أقوالك نأخذ؟. فقال أبو ياسر: أما أنا، فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة، ولم يبينوا أنها كم تكون؟، فإن كان محمد صادقا فيما يقول، إني لأراه يستجمع له هذا كله، فقام اليهود، وقالوا: اشتبه علينا أمرك كله، فلا ندري أبالقليل نأخذ، أم بالكثير؟ [1].

١ التفسير الكبير للفخر الرازي ٢:٧

تثبت لنا هذه الرواية عناية اليهود بهذا العلم، وكيف حجزهم عن الدخول في الإسلام، وكيف راحوا يطبقوا قواعد هذا العلم على فواتح السور، ولما رأوا الأمر أعظم مما يظنون تركوا الدين، واتبعوا أهوائهم.

ثانيا: الشيعة على آثار اليهود.

إن من أشهر علوم الباطنية أيضا علم الجفر، وهو علم يرجع في الأصل إلى سحرة بني إسرائيل، وكهنتهم، وقد استخدمه اليهود المعاصرون لظهور الإسلام، وذلك ليحسبوا مدة مُلك الإسلام، ومتى سيزول، ويقوم هذا العلم على أن لكل حرف عربي يقابله رقما حسابيا، بطريقة أبجد هوز حطي كلمن.. فالألف يعادلها واحد، والباء اثنين، والجيم ثلاثة... وهكذا، وبالتالي يمكن تحديد رقم حسابي لكل كلمة من الكلمات، ويزعم الباطنية أن هذا الرقم له دلالات يعرفها من يستطيع تطبيق قواعد هذا العلم، ويظن الباطنية أن هذا الرقم يرمز إلى تواريخ الأحداث المستقبلية، والسنة التي ستقع فيها هذه الغيبيات التي يتحدث عنها النص مثلا، أو غير ذلك من الأمور الغيبية.

ويزعم الكليني أن علم الجفر من علوم الأئمة، ويؤكد الصلة، والتداخل بين علوم الشيعة، وعلوم بني إسرائيل، فيروي عن أحد الأئمة الاثنا عشر قوله: "وإن عندنا الجفر، وما يدريهم ما الجفر؟، قال: قلت، وما الجفر؟، قال: من آدم، فيه علوم النبيين، والوصيين، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل" [1].

ويشرح أحد علماء الشيعة المحدثين، كيف انتقل علم الجفر من آدم إلى الأئمة، فيقول ما نوجزه فيما يلي: "أنزل الله على آدم عشر صحائف، وهو أول من تكلم في علم الحروف، وله كتاب "سفر الخفايا"، وهو أول كتاب في علم الحروف، وذكر فيه أسرارا غريبة، وأمورا عجيبة، وله كتاب "الملكوت"، وهو ثاني كتاب كان في الدنيا، وقد أخذ صاحب الهيكل الأحمر، عن شيث كتاب "الملكوت"، وكتاب "السفر المستقيم"، وهو ثالث كتاب، ثم ورث هذه الكتب أنوش، ثم ابنه قينا، ثم ابنه مهائيل، ثم ابنه يارد، ثم ابنه هرمس، وهو نبي الله إدريس، وإليه انتهت الرئاسة في العلوم الحرفية، والأسرار الحكمية، واللطائف العددية، والإشارات

١ الأصول من الكافي للكليني ١:٢٢٨

الفلكية، فوضع كنز الأسرار، وذخائر الأبرار، كما علمه جبريل علم الرمل، وبه أظهر الله نبوته، ولما وصل الأمر إلى نوح، وضع سفر جليل القدر في علم الحروف، ويذكر كيف ورثه أبناؤه واحدا تلو الآخر، إلى أن وصل إلى إبراهيم عليه السلام، وهو أول من تكلم في علم الوفق[١]، وقيل أنه وقف القاف في أساس الكعبة المشرفة، ثم كان موسى من بعده أعلم الناس في عصره بأسرار الأوفاق، وبالوفق المسدس استخرج تابوت يوسف من النيل، كما كان عالما بالكيمياء، ثم أخذه عنه وصيه يوشع بن نون، ثم إلياس، ثم أخذه جاماسب الحكيم، وهو أكبر أصحابه، ثم داود، وابنه سليمان، ثم آصف بن برخيا، ثم أشعيا، ثم أرميا، ثم عيسى ورث علم الحروف، ثم محمد ﷺ ورث علم الحروف، ثم قال الإمام الحسين بن علي رضي الله عنه: العلم الذي دعي إليه المصطفى علم الحروف، وعلم الحروف في لام الألف، وعلم لام الألف في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، ثم ورث الإمام عليٌّ أسرار الحروف، وهو أول من وضع وفق مائة في مائة في الإسلام [أي ١٠٠ * ١٠٠]، ثم الأئمة من بعده حتى جعفر الصادق، وهو الذي حل معاقد رموزه. وفك طلاسم كنوزه، حتى أنه [أي جعفر الصادق]، قال: علمنا غابر، ومزبور، وكتاب مسطور في ورق منشور، ونكت في القلوب، ومفاتيح أسرار الغيوب، ونقر في الأسماع، ولا تنفر منه الطباع، وعندنا الجفر الأبيض، والجفر الأحمر، والجفر الأكبر، والجفر الأصغر، والجامعة، والصحيفة"[٢] .

أرادت الشيعة الغلو في شأن أئمتهم، فأساءوا إلى مقام الأنبياء، وجعلوا من ضرب الرمل نبوة، ونسبوها لإدريس عليه السلام، وجعلوا عمل الأوفاق سنة الأنبياء، وقالوا أنهم استخدموها كآية من الآيات، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام قد بني الكعبة، ووضع قواعدها على وفق من الأوفاق!!، وأن محمدا ﷺ ورث علم الحروف من الأنبياء قبله، سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

١ علم الوفق هو: أحد العلوم السبعة التي يتفرع عنها علم السيمياء، كما عرف قديما، وباقي العلوم السبعة هي: الحروف، والطبائع، والتنجيم، والأبراج، والمنازل، والأعداد، والأسماء، والرقى.

٢ إلزام الناصب لشيخ فقهاء، ومحدثي الشيعة علي اليزيدي الحائري، هلك سنة ١٣٣٣، نقلا عن الينابيع ص ٢٣٢ – ٢٣٤، نقلناه مختصرا خشية الإطالة.

ثالثا: الصوفية وعلم الجفر.

واقرأ معي يا أخي الكريم ما يقوله الشيخ عبد المقصود سالم في كتابه في ملكوت الله مع أسماء الله: قرأت في كتاب الفتوحات المكية [لسيده] محيي الدين بن عربي ما معناه: "من أراد الفتوح، وسعادة الدارين، فليستخرج عدد اسمه بالجُمل، وليأخذ من أسماء الله تعالى ما يوافق عدده هذا العدد، وليذكرها جميعا بعدد اسمه على حساب طاقته، ففي ذلك الفتوح، وسعادة الدارين، والأعمال بالنيات. رزقنا الله، وإياك حسن النية، وسلامة الاعتقاد".

ثم يستطرد الشيخ عبد المقصود سالم في بيان كيف يطبق الصوفية هذه القواعد العامة التي سنها ابن عربي، فيقول: وإني أيسر لك الطريق إلى ذلك، فأقول مستعينا بالله: "اعلم يا سيدي أن لكل اسم من أسماء الله تعالى عددا خاصا به، ولكل عدد مراتب ينبغي ألا يتعدى الذاكر نهايتها، لأن ذكر الأسماء بعددها الواقع عليها، كما قيل: إنه مفتاح باب الوصول، فإن مجاوزته قد تكون خطرا على من لا شيخ له، إذ لا بد من مرشد يهديك السبيل، وعارف يعلمك معالم التنزيل، ولكي تعرف عدد الاسم الذي تذكر به يجب أن تعرف أن لكل حرف من الحروف عددا، وبيانه في الجدول التالي:...، ثم يعرض الشيخ جدول أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ، ويحدد الرقم المقابل لكل حرف: فالألف يقابلها [١]، والباء يقابلها [٢]، والجيم يقابلها [٣]، وهكذا حتى الياء التي يقابلها [١٠]، ثم تبدأ الأرقام في الزيادة بمعدل [١٠] مع كل حرف، حتى القاف التي يقابلها [١٠٠]، ثم يرتفع معدل الزيادة، ليصبح [١٠٠] لكل حرف بدلا من [١٠]، وهكذا حتى آخر الحروف، وهو الغين التي يقابلها ألف. كما يذكر الشيخ ملحوظة بعد الجدول، يقول فيها: ملحوظة: هذه الجداول مبنية على قواعد ثابتة في علم الحرف، مشهورة بين المشتغلين بحساب الأوفاق، أخذ بها العلماء في بحوثهم، والشعراء في تأريخهم. ثم يحسب الشيخ جُمل كل اسم من أسماء الله تعالى في جدول:

لفظ الجلالة "الله": يقابله [٦٦]، واسم "الرحمن": يقابله [٢٩٨]، واسم "الرحيم": يقابله [٢٥٨]، وهكذا. ثم يقول الشيخ: والآن، قد عرفتَ عدد كل اسم من أسماء الله الحسنى المباركة، فإذا أردت أن تعرف عدد اسمك، فخذ من الجدول الأبجدي عدد كل حرف من اسمك، ومجموع أعداد هذه الحروف، هو عدد اسمك، فإذا كان عدد اسمك يقِل عن عدد أقل عدد من الأسماء، فأضف إلى اسمك اسم الأم، ويضرب الشيخ مثالا عمليا، فيقول لو أن

اسمك محمد، فجمله [٩٢]، يوافق هذا العدد من أسماء الله تعالى: باسط، وعدده [٧٢]، واسمه تعالى: ودود، وعدده [٢٠] فتكون الجملة [٩٢]، وهو عدد اسم محمد، وهكذا. ويكون عدد تلاوتك الأسماء مجتمعة مطابقا لعدد جُمَّل اسمك، ثم يفشي الشيخ سر الصوفية في عدد مرات ذكر أسماء الله ﷻ، فيقول: وأهل الذكر حسب ما جاء في أورادهم، وأحزابهم، وأدعيتهم، يذكرون الله ﷻ [٦٦] مرة، واسمه تعالى اللطيف [١٢٩] مرة.

ثم يضرب مثالا آخر على اسمه تعالى: اللطيف يشرح به مراتب الذكر الثلاث، فيقول:

- **المرتبة الأولى**: عدد مرات الذكر [١٢٩].
- **المرتبة الثانية**: تضرب جُمَّل الاسم * عدد حروف الاسم، أي ١٢٩ * ٤ = ٥١٦
- **المرتبة الثالثة**: تضرب الجُمَّل في نفسه، أي ١٢٩ * ١٢٩ = ١٦٦٤١

وتعد المرتبة الثالثة نهاية هذا الاسم يجب ألا يتعداها الذاكر"[١].

وهكذا وصل ذكر الله ﷻ إلى عملية حسابية وضع أساسها اليهود، واتبعتها الشيعة، وروج لها مشايخ الصوفية: ولذلك ترى كثيرا من المؤلفات الصوفية تتناول الحروف، وأسرارها، وربط هذه الحروف بمنازل القمر، وأحكام البروج، ثم خاضوا في أسرار فواتح السور، وخواص أوائل القرآن، مثل: ﴿الر﴾، ﴿المر﴾، ثم انشغلوا بالاسم الأعظم، والحروف التي استخدمها آصف بن برخيا في نقل عرش بلقيس، والأسماء التي كان عيسى عليه السلام يحيي بها الموتى، ثم في حروف سواقط الفاتحة[٢]، وأسرارها، وتأثيرها على العالم العلوي والسفلي، وما لها من الأوفاق والطلاسم، وما تحدثه على عناصر الماء، والهواء، والتراب، والنار، **كل هذا بحثا عن قدرات التصريف في الكون**، ولهذا يقول البوني في كتابه منبع أصول الحكمة: "لا بد لطالب هذا العلم الجليل: [وهو العلم بالاسم الأعظم] الجامع لما في الموجودات، وأسباب الكائنات، فقد اتفق العلماء على أن الأسرار الرفيعة المكنونة لا سبيل لنيلها إلا به، وأنه الأصل في إدراك الفتوحات الإلهية، والعلوم اللدنية، واجتمعت آراء أكثر الحكماء على أنه خفي في الأسماء الحسنى التي أمر الله ﷻ عباده بها، بل قال كثير منهم: كل اسم منها اسم عظيم في حق من

---

١ في ملكوت الله مع أسماء الله، لعبد المقصود سالم، صفحات ٢٢ – ٢٨

٢ أي الحروف التي لم يتم ذكرها ضمن ألفاظ سورة الفاتحة.

وافقه، وتقرب، أو دعا به، وجعلوا لذلك سبعة وسائل: هي علم الأعداد، وعلم الأوفاق، وعلم الحروف، وعلم الطبائع الأربع، وعلم الكواكب، والأفلاك، والبروج، والمنازل، وعلم الاختيارات النجومية، وسعدها، ونحسها، وشرفها، واتصالها، وعلم الأسماء، والرقى، والدعوات، وعلى هذه العلوم مدار التصريف بسر الخالق في المخلوقات، وقد أطلقوا عليها اسم السيميا، وهو لفظ معرب من أصل شيم يه عبراني، معناه اسم الله تعالى"[١].

وكما نسبت الشيعة السريانية لنبي الله إلياس، فإن الصوفية لا يستحيون من نسبة علم الأوفاق إلى أفلاطون الذي نقله عن هرمس الذي يعتقدون نبوته، فيقول البوني: "واعلم أن أول وضع وُضِع في المربعات هو ما نقله أفلاطون عن هرمس عليه السلام.. واعلم أن هذا المربع الثاني الذي تكلم عنه أفلاطون،.. وأعلم أن هذا المربع اكتفى به الحكماء الأقدمون في أفعال الخير والشر"[٢]. ثم يبدأ البوني في تلقين المريدين طرق السحر على أنها فتوحات، وأسرار لدنية، فتراه يعلمهم كيف يستنزلون السيد رقيائيل، والسيد ميكيائيل، بل يعرض البوني كيف يُستنزل السيد جبريل عليه السلام، حيث يقول: "وأما السيد جبرائيل، فينزل في قبة من نور، وعلى رأس القبة لواء أصفر، ولا يخرج من القبة إلا إذا وجه الطالب خطابه إليه، وله عشرة أعوان"،[٣] ولا شك أن من استطاع أن يستدعي جبريل عليه السلام، لا يعجز أن يستدعي غيره من الملائكة، أو الجن، والأرواح العلوية، والسفلية، وإذا أراد أن يدلهم على اسم من الأسماء السريانية، يقول لهم على سبيل المثال: "برهيولا"، هذا تسبيح إبراهيم الخليل، و"كظهير" تسبيح يونس، ومن أسراره أنه من أراد تعذيب الجن، فليكثر من ذكره" [٤].

كما يسير الشيخ محمد الشافعي الخلوتي على طريق البوني، فتراه يعلم أهل طريقته كيف يستخدمون الطلاسم، والأوفاق في فعل ما يريدون، فتراه يقول: "فإذا أردت الوفق بين اثنين

١ تعريف بكتاب منبع أصول الحكمة، لأحمد بن علي البوني، صاحب كتاب شمس المعارف الكبرى ٣

٢ منبع أصول الحكمة، لأحمد بن علي البوني، صاحب كتاب شمس المعارف الكبرى ٣٣

٣ منبع أصول الحكمة، لأحمد بن علي البوني، صاحب كتاب شمس المعارف الكبرى ٩٣

٤ منبع أصول الحكمة، لأحمد بن علي البوني، صاحب كتاب شمس المعارف الكبرى ٧١

مثلا، أو فرقة، أو غير ذلك، فابدأ بعون الله باسم ملك أرضي، ثم المطلوب، ثم الطالب أحرفا متفرقة[1]، ويستمر الشيخ في شرحه لطرق السحرة وأعوانهم".

ولعل هذا السرد المتتالي يوضح كيف بدأت الصوفية بانحراف بسيط عن الكتاب والسنة، **فالذكر في كتاب الله تعالى يراد به القرآن الكريم، وسنة رسول الله ﷺ، ومجالس العلم،** بينما خصص الصوفية المراد من الذكر بأنه ذكر الله بالاسم المفرد: كأن يقول: "الله الله"، أو "حي حي"، وهكذا. فانصرفوا عن كتاب الله ﷻ، وبحثوا في أسرار الحروف، وتركوا مقام العبودية لله وحده، وانصرفوا إلى البحث عن قدرات التصريف في الكون، وفعل ما لم يأذن به الله ﷻ. وبذلك تتابع مخالفات الصوفية حتى وصل القوم إلى دروب السحر، وأعمال الكهانة، ومدارك الشعوذة، وفاتهم أن رسول الله قد حذر أمته من الانشغال بالنجوم، ومعرفة الغيب، حيث يقول: «من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر، ما زاد زاد، وما زاد زاد»[2]، وسبحان من يمد الظالمين في جهالتهم يعمهون، فيضلون على ضلالهم، يقول تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف-٣٠]، فما زادتهم الأرواح العلوية، والسفلية التي يستغيثون بها إلا بعدا عن ربهم، وصدق الله العلي العظيم، حيث يقول: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۞ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف ٣٦-٣٧].

ومن كثرة ما رأينا من شطط القوم، وجرأتهم على الحق، وتماديهم في الباطل، نرى الشيخ[3] يخبر مريديه أن رسول الله ﷺ جاءه في المنام، وأبدل الأوراد بنفسه. وعندما تقرأ هذه الأوراد ترى فيها تعليمات الاستعداد المطلوب من المريد، لينال المرتبة الثالثة في الطريق ورد فيها: وبعد أن تستكمل قراءة الورد كاملا لمدة ثلاثة أشهر تبدأ في ذكر الأسماء التالية بالأعداد المذكورة أمام كل منهم: فرد (٢٨٤) مرة، جبار (٢٠٦) مرة، شكور (٥٢٦) مرة، ثابت (٩٠٣)

١ السر المظروف في علم بسط الحروف للشيخ محمد الشافعي الخلوتي ٣

٢ حديث ابن عباس، أخرجه أحمد في مسنده ٢٦٩٧

٣ ص ٨٩ من ورد الاسم الثالث لطريقة الشيخ صلاح القوصي المنشق عن طريقته، ومشايخه الخلوتية.

مرة، ظهير مرة (١١١٥)، خبير (٨١٢) مرة، زكي (٣٧ مرة)، وبالطبع لا يدري المريد أن هذا الاستعداد يوقعه في ابتلاءات ثلاث هي:

١. الإلحاد في أسماء الله تعالى، فليس من أسمائه سبحانه: ثابت، أو ظهير، أو زكي.
٢. أن عدد ذكر كل اسم راجع إلى علم الجفر الذي أوضحناه آنفا، وهو يتبع الأصول اليهودية.
٣. أن اختيار هذه الأسماء وراءه قصة تسمى "فجش ثظخز"، وهي سبعة حروف ليست من ضمن حروف الفاتحة، ويقول الصوفية أن وراءها أسرار، وعلاقة بالتصريف، وأن كل حرف من هذه الحروف يرمز إلى اسم من الأسماء السبعة المختارة للاستعداد.

الفصل الرابع

جاه الحروف في دعاء الصوفية

لا يخلو ورد من أوراد الطرق الصوفية من التوسل، والدعاء بحق الحروف، وجاهها عند الله ﷻ، وأسرارها الباطنية المودعة فيها، ويلتمس الصوفية بركة الحروف استنادا إلى أن القرآن الكريم قد استفتح بعض سوره بمجموعة من الحروف، فهم يقولون طالما أن الحق تبارك وتعالى ذكر: ﴿الم﴾، ﴿المر﴾، ﴿طس﴾، ﴿طسم﴾، ﴿ق﴾، ﴿ن﴾، ﴿كهيعص﴾، وغيرها"، فلا بد أن لها أسرارا خاصة، وفوائد جمة، وهذا يبرر لنا الدعاء بحقها، وهم في حقيقة الأمر يتبعون الشيعة، ويسيرون خلفهم، فهم أول من زعم في الإسلام أن للحروف أسرارها، تارة ينسبونها إلى سيدنا علي بن أبي طالب: "وقال بعض العلماء: إن علم الحروف من معجزات إبراهيم الخليل، ثم الإمام علي كرم الله وجهه، ورثه عن سيدنا رسول الله ﷺ، وإليه الإشارة بقوله ﵇: "أنا مدينة العلم، وعلي بابها.. "، وإليه ينسب تصنيف الجفر الجامع في أسرار الحروف" [1]. وتارة ينسبونه إلى جعفر الصادق ﵁، ويسمون هذا العلم بعلم الجفر، وهذا العلم لا يتلقاه الأتباع من الكتب، وإنما هو علم وهبي، لذلك يقول علماء الشيعة: "علم الجفر هو علم الحروف الذي به تعرف الحوادث إلى انقراض العالم". وجاء عن جعفر الصادق، أنه فسر علم الجفر بأنه وعاء من آدم، فيه علم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل، وجاء عنهم الشيء الكثير عن الجفر، وإنا وإن لم نعرف هذا العلم، والقصد منه،.. نعرف من هاتيك الأحاديث التي ذكرت عن الجفر أنه من مصادرهم [أي أئمة الشيعة]، وأن هذا العلم شريف منحهم الله إياه"[2].

---

١ علم الحروف، وأقطابه للدكتور عبد الحميد صالح حمدان ٩٥

٢ علم الحروف وأقطابه، للدكتور عبد الحميد صالح حمدان ٩٥

وهناك أساليب عديدة في تطبيق قواعد تكسير الحروف منها: "التركيب الحرفي، وهو مذهب أفلاطون الإلهي، والتركيب العددي، وهو مذهب سامور الهندي، وكل طريق منها موصلة إلى الغرض المطلوب"[١].

والمتتبع لأوراد الطرق الصوفية يرى الكثير من الأمثلة التي تدندن حول جاه الحروف، وأسرارها، ومن ذلك ما وَرد في وِرد الخلوتية:

- اللهم بحق ﴿كهيعص﴾،... و﴿ق﴾، و﴿ن﴾، وبتصريفهم، اقهر لي خلقك أجمعين، وسخر لي كل أحد. وصرفنا في سرها كيف شئت".
- وأمدني برقائق اسمك الحفيظ الذي حفظت به نظام الموجودات، واكسني بدرع من كفايتك، وقلدني بسيف نصرك وحمايتك، وتوجني بتاج عزك وكرامتك، وردِّني برداء منك، وأركبني مركب النجاة في المحيا، وبعد المات بحق "فجش ثظخز".

وقد نسي المشايخ أن أفضل عابد لله تعالى، وأتقى الناس، وأخشاهم لله تبارك وتعالى سيدنا محمد ﷺ، وهو قدوتنا، والذي أمرنا الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وأن هذا الدين يؤخذ بالتلقي عن رسول الله ﷺ، وليس فيه مكان للتأليف والابتكار خاصة فيما يتعلق بعبادة الله تبارك وتعالى، والتقرب إليه، بل إن الرسول ﷺ قد حذر أمته بأوضح بيان من مغبة إحداث أمور في دين الله ﷻ، فقال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردٌّ»"، والردُّ عودة إلى الجاهلية، واتباع للهوى، والظن. وإن الظن لا يغني من الحق شيئا.

ولقد اقتبس الصوفية علوم الحرف التي أحدثها اليهود، والتي كانوا يستخدمونها في زمن النبي ﷺ، ومن هذه العلوم: علم الجفر، وحساب الجمل، والسحر، والتنجيم، والأوفاق، وغيرها، وقد استعان بها كهان النصارى، وأحبار اليهود، وهي لا تخرج عن كونها استعانة بالجن، ونوع من الحيل، ومهارة السحرة. ويستعمل الصوفية هذه العلوم في فك المربوط،

---

١ الصادق تأليف محمد حسين المظفر، نقلا عن تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبي زهرة.

ومعالجة الذي مسه الجن، ومعرفة المغيبات، وغير ذلك من الأمور. التي تؤكد العلاقة الوثيقة بين الصوفية والجن.

القوصي يؤكد علاقة الصوفية بالجن:

ومن ذلك ما يتيه به صلاح القوصي في ديوانه العتيق، حيث يقول:

فمن ثنتين ضاع الرشد شوقا وحدثنا بكم أرجاء كون

وبعد "الإنس" جاءك كل وفد من "الجن" يبايع أو يهني[1]

ويعلق بقوله: يشير المؤلف[يقصد نفسه] إلى علاقته بعالم الجن، والتي بدأت في حياة شيخه السيد محمد أبي العيون [١٩٦٥]، وتوطدت بعد ذلك حتى كانوا يأتونه، فرادى وجماعات، متقربين إليه، وكذلك تولى الكثير من شئونهم الاجتماعية كولي أمرهم، وله معهم مواقف كثيرة تدور كلها حول هذه المعاني. ويستطرد قائلا:

وهل تنسى صباك وكيف يوما وقاك بأمره من شر جني[2]

ويعلق بقوله: يشير المؤلف[القوصي] إلى حال كانت تنتابه في صباه ما بين [١٩٥٢، و١٩٥٥] بين النوم واليقظة، حيث كان يسري في جسمه مثل التيار الكهربائي الشديد لثلاث مرات متتالية يدك فيها جسده دكا شديدا، ويضيق نفسه، ويُصاب بمثل الذهول، وفقدان الوعي، ثم يظل أياما بعدها يعاني من الإجهاد الجسدي والذهني، وكان في بعضها يحضره بعض الجن حتى تشرف برؤية رسول الله ﷺ، وهو في هذه الحالة، وقال له: لا بأس.. لا بأس عليك، إن هذا الأمر يأتيك لكي تتحمل ما سوف يحدث لك بعد ذلك.. وبعدها انقطعت عنه هذه الحالة بالكيفية المذكور.

أتنسى يوم بشركم بعز رفيع الشأن محفوظا بصون

أتذكر يوم خصك في نداء عليه ليوم حرب أو لسجن

وكلفكم مراقبة وحفظا لجند الله في حرب وشن

وقال: متى تناديني ثلاثا أتيتك إن أردت العون مني

---

١ البيتان ٢١٧، ٢١٨ من ديوانه العتيق.

٢ البيت: ٢٣٩

ويعلق على هذه الأبيات بقوله: كانت هذه البشرى في ليلة الاثنين [٢٦ من ربيع الأول ١٤٠٠ هـ]، الموافق [١٥ أكتوبر ١٩٩٠م]، حيث قدم الشيخ محمد أبو العيون المؤلف في احتفال مهيب إلى سيدنا رسول الله ﷺ، وكلف الرسول ﷺ المؤلف بأمور روحية، تمثل تغييرا كبيرا في حياته، وأهم ما في هذه الرؤية:

- الجمع المباشر على رسول الله ﷺ، والأمر المباشر منه لأمور روحية للمؤلف، وإنهاء الوساطة بينه ﷺ، وبين الرائي، وقال له أبو العيون الآن سوف أتركك معهم.
- تغيير وظيفة الرائي الروحية، وتكليفه بأمور أخرى من خصائص الديوان، والتصريف، والإشارة إلى خضوع الجن له، وهيبتهم منه.
- إطلاق لقب الشيخ على المؤلف من ساداتنا، والأمر له بورد، وذكر خاص، غير تابع لغيره.
- الإشارة إلى مكان دفن المؤلف، وكذلك إلى مكانته الروحية، ودوره مع الخلق.

وقد اجتهد الصوفية في فك ألغاز الحروف، والتعرف على أسرارها، وصفاتها، واستخداماتها، ولذلك فقد قاموا بتجميع حروف أوائل السور، ووجدوا أنها أربعة عشر حرفا، أطلقوا عليها الأسماء النورانية، وبالتالي أطلقوا على باقي حروف اللغة العربية بالحروف الظلمانية، كما اشتغل المشايخ بالأوفاق، وقسموها إلى الوفق الثلاثي، والرباعي، والخماسي، وغير ذلك، وتعتمد هذه الأوفاق على قيمة كل حرف في علم الجمل، ويضعون في كل خانة من خانات الجدول حرفا لا يتكرر في باقي الجدول، بحيث تكون القيمة العددية لمجموع حروف كل صف، أو كل عمود، أو كل قُطر قيمة واحدة. وزعموا أن لهذه الأوفاق قوة تأثيرية في الأشياء، فمثلا الوفق الثلاثي له أثر في تيسير الوضع، وتخفيف آلامه، وما إلى ذلك من الخزعبلات والشعبذات.

وكثيرا ما ترى مشايخ الصوفية يكتبون بعض الحروف على طبق، ثم يغسلونه بالماء، ويسقون هذا الماء إلى صاحب الحاجة، ويوهمون الناس ببركة هذه الأشياء، وقد تصادف حدوث مراد الطالب، فتنة واستدراكا من الله ﷻ لهؤلاء الحمقى، وبالتالي تزداد المشايخ علوا،

وترتفع أسهم بركاتهم في المحافل الصوفية. وهكذا تحولت علوم الصوفية الباطنية إلى جملة من علوم السحر، وفنون بني إسرائيل، وتعاون مع الجن لفتنة الناس، وتحقيق الشهوات [1].

١ يقول صاحب العتيق في البيت ٣٦٨:

وفي الإحصاء بالأعداد سر وسر الحرف مستور بفن

ويعلق بقوله: تواردت على المؤلف بعض أسرار الحروف، والأعداد، وربط أسماء الأعلام بأسماء الله الحسنى، وذلك اعتبارا من ١٩٩٠م - ١٤١٠هـ.

الفصل الخامس

الأسماء السريانية فتوحات أم إلحاد؟

١. الصوفية على آثار الشيعة.

- نماذج من أوراد الصوفية.

٢. الصوفية المعاصرة والسريانية.

- كلام الأستاذ زينة
- كلام الشيخ العقاد
- مناقشة الأستاذ والشيخ
- آراء كبار الصوفية
- مناقشات للمؤلف مع المشايخ

٣. حقيقة الأسماء السريانية

الفصل الخامس

الأسماء السريانية فتوحات أم إلحاد؟

أولا: الصوفية على آثار الشيعة.

إذا سألت أي صوفي عن الأسماء السريانية المنتشرة في ورده الذي تلقاه عن شيخه، قال لك هي لغة الملائكة، وهو لا يعرف كغيره من الباطنية أن اللغة السريانية هي إحدى أهم اللهجات الآرامية التي تعد فرعا من اللغات السامية، وهي لغة الآراميين، الذين سموا أنفسهم بالسريان، بعد اعتناقهم الدين المسيحي، وتنقسم السريانية تبعا لانقسام الكنيسة المسيحية، إلى سريانية شرقية، وهي: سريانية المسيحيين التابعين لتعاليم "نسطوريس"، ويسمون بالنسطوريين، والفرع الآخر هو الخاص بالسريانية الغربية، وهي: سريانية المسيحيين التابعين لتعاليم "يعقوب البردعي"، ويسمون باليعاقبة" [١]. وما زالت بعض البقاع في الشام يتحدث أهلها إلى اليوم باللغة السريانية، والتي كانت معروفة في جزيرة العرب في عهد النبوة، بل لقد تلقى رسول الله ﷺ بعض الرسائل باللغة السريانية، حتى أنه حث زيد بن ثابت على تعلمها، وإتقانها. كما ورد في الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده، حيث يقول: قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: تُحْسِنُ السريانية؟، إنها تأتيني كتب، قال: قلت: لا، قال: فتعلمها. يقول زيد: فتعلمتها في سبعة عشر يوما [٢].

ولا نعرف كيف اعتقد الباطنيون أن لغة القرآن ليس فيها ما ينشدون من الأسرار حتى يبحثوا عنها في لغة النصارى، ومن ثم أضافوا إليها خصائص باطنية، ولم يكتفوا بإدخال المفردات العربية في قوالب لغوية آرامية التركيب في أورادهم، مثل: "ناسوت، رحموت، رهبوت، لاهوت، جبروت، روحاني، نفساني، جسماني، شعشعاني، وحدانية، فردانية" [٣]، بل

---

١ فصول من فقه العربية، للدكتور رمضان عبد التواب.

٢ حديث زيد بن ثابت، أخرجه أحمد في مسنده.

٣ تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني، للدكتور عبد الرحمن بدوي.

جعلوا ذكر الله باللغة السريانية من علوم الباطن، وينسب الشيعة اختصاص أئمتهم بهذه الفتوحات، بينما ينسبها الصوفية إلى المشايخ الكبار، والأقطاب الكُمل.

والأسماء السريانية في زعمهم أسماء لله ﷻ، وتشتمل في اعتقادهم على أسرار عجيبة، وخصائص باطنية، وهذه الأسماء لم يُسم الله بها نفسه، ولم يُنزلها في كتابه، ولم يُعْلمنا بها أحد من أنبياء الله ورسله، وبالتالي لم ينقلها أحد عن الله ﷻ نقلا صحيحا متواترا، وليس في سُنَّة رسول الله ﷺ، أنه ذكر الله بأسماء غير عربية، فمن أين أَتوا بها؟، ومن الذي دلهم عليها، وهذا ما يوضحه أثر يرويه الكليني – ثقة الشيعة الأكبر –، عن مفضل بن عمر الذي يقول: "أتيت باب أبي عبد الله، ونحن نريد الإذن عليه، فسمعناه يتكلم بكلام ليس بالعربية، فتوهمنا أنه بالسريانية، ثم بكى، فبكينا لبكائه، ثم خرج إلينا الغلام، فأذن لنا فدخلنا عليه، فقلت: أصلحك الله أتيناك نريد الإذن عليك، فسمعناك تتكلم بكلام ليس بالعربية، فتوهمنا أنه بالسريانية، ثم بكيت فبكينا لبكائك، فقال: نعم، ذكرت إلياس النبي، وكان من عباد أنبياء بني إسرائيل، فقلت كما كان يقول في سجوده، ثم اندفع فيه بالسريانية، فلا والله ما رأينا قسا، ولا جاثليقا [أي كبير القساوسة]، أفصح لهجة منه به، ثم فسره لنا بالعربية" [١].

فالذكر بالسريانية ميراث تزعمه الشيعة عن إلياس النبي، وقد تقدم بيان فساد القول بحياة الخضر، وإلياس في الكتاب الأول من هذه السلسلة، فكيف تلقت الشيعة هذه الأسماء، أمن كتب بني إسرائيل؟، أم من مشاهدات، واجتماعات روحية بين أئمتهم، ونبي الله إلياس؟، ثم كيف قبل الناس أن يعبدوا الله ﷻ بما لم يثبت عن المبعوث رحمة للعالمين، ثم ما سر تعلق الشيعة بأنبياء بني إسرائيل؟!.

إن أفكار الصوفية الغريبة التي افتروها في دين الله ﷻ ليست من عند أنفسهم، وإنما هي من تقليد الشيعة، والشيعة على آثار اليهود يقتدون، ويتنافسون. والرابطة بين هذه الفرق الثلاث لا يمكن تجاهلها، فالأمر واضح كالشمس في وضح النهار، لا ينكرها إلا من كان فاقدا لنعمة البصر، وإن زعم أن له عينين. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف– ١٧٩]

١ الأصول من الكافي ١:٢٢٧

يقسِّم الحكيم الترمذي علم الباطن، فيقول: "علم البدء، وعلم الميثاق، وعلم المقادير، وعلم الحروف، فهذه هي أصول الحكمة، وهي الحكمة العليا. وإنما يظهر هذا العلم عن كبراء الأولياء، ويقبله عنهم من له حظ من الولاية" [١]. ويعلق الدكتور بركة بقوله: "والترمذي الحكيم يضع علم الأسماء، والحروف على قمة العلوم، مع تمييزه بين علم الأسماء، وعلم الحروف، وجعله علم الحروف في منزلة أعلى من علم الأسماء، كما يضع علماء هذا العلم في قمة الخاصة من الأولياء" [٢].

ثانيا: الصوفية المعاصرة والسريانية.

يشرح الدباغ كيف ظهرت حضرات الذكر في الإسلام، وذلك في كتابه الإبريز الذي يعده المشايخ من كُتب الفتح الأكبر، فيقول: "إن الحضرة لم تكن في القرن الأول [يعني قرن الصحابة]، ولا القرن الثاني [يعني قرن التابعين]، ولا القرن الثالث [يعني قرن تابع التابعين]، وهذه القرون الثلاثة هي خير القرون، كما شهد بهذا الحديث الشريف، وإنما ظهرت في القرن الرابع، وسبب ظهورها أن أربعة، أو خمسة من أولياء الله تعالى، ومن المفتوح عليهم، كان لهم أتباع وأصحاب، وكانوا رضي الله عنهم في بعض الأحيان ربما شاهدوا عباد الله من الملائكة، وغيرهم، يذكرون الله تعالى، والملائكة منهم من يذكر الله بلسانه، وبذاته كلها، فترى ذاته تتحرك يمينا وشمالا، أماما وخلفا، فكان الولي من هؤلاء الخمسة إذا شاهد ملكا على هذه الحالة تُعْجِبه حالته، فتتأثر ذاته بالحالة التي يشاهدها من الملك، ثم تتكيف ذاته بحركة الملك، فتتحرك ذاته كما تتحرك ذات الملك، وتحاكي [أي تقلد] ذاته ذات الملك، وهو لا شعور له بما يصدر منه لغيبته في مشاهدة الحق سبحانه، فإذا رآه أتباعه يتحرك تبعوه، ثم هلك الأشياخ الخمسة أهل الباطن والصدق، فاشتغل أهل الزي الظاهر بالحضرة، وزادوا في حركتها، وجعلوا لها آلة [موسيقية]، وتكلفوا لها، وتوارثتها الأجيال جيلا بعد جيل" [٣].

---

١ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، للدكتور عبد الفتاح بركة ٢:٣١٤

٢ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، للدكتور عبد الفتاح بركة ٢:٣٢١

٣ الإبريز لعبد العزيز الدباغ ٢٦١

ولا تخلو حكاية الشيخ من إقرار الشيخ بحقيقة خلو القرون الثلاثة الأولى من الحضرات، وفي نفس الوقت لا تخلو من سذاجة، فالحضرات منقولة عن ذكر الملائكة، وهذا جهل لا يباريه إلا رواية الشيعة عن جعفر الصادق التي تلقى السريانية عن إلياس نبي بني إسرائيل كي يدعو بلسانه السرياني، ويترك دعاء النبي الخاتم سيد ولد آدم ﷺ، ولما كان جعفر الصادق توفي سنة ١٤٨ هـ، فمن المرجح أن يرجع ظهور دعوى معرفة السريانية إلى منتصف القرن الثاني الهجري، وقد فتح هذا الزعم على الأمة بابا من الإلحاد في أسماء الله الحسنى لم يغلق حتى اليوم، ليس فقط في أوساط الشيعة، ولكن عند الصوفية أيضا. ثم جاءت الصوفية فاختارت كل طريقة من طرقها عددا من الألفاظ، لا يعلم أحد من أين أتوا بها، وزعموا أنها أسماء لله تبارك وتعالى، وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾. [النجم-٢٣].

ومن أشهر الألفاظ السريانية تدوالا بين الصوفية، هي: "طَهُورٌ بَدْعَقٌ مَحْبَبَهٌ صُورَهٌ مَحْبَبَهٌ سَقْفَاطِيسٌ سَقَاطِيمٌ أَحُونٌ أَدُمَّ حَمَّ هَاءٌ آمين" [١]. ويزعم المتصوفة أن هذه الألفاظ تلقاها أبو الحسن الشاذلي عن الملائكة مباشرة. ويشرح الدباغ كيف وصلت هذه الأسماء السريانية إلى أوراد الطريقة الدسوقية، فيقول: "قدم علينا بعض أصحابنا من أخيار تلمسان، فأخبرني أنه سمع بعض من حج بيت الله الحرام يقول أنه زار قبر إبراهيم الدسوقي، فوقف عليه الشيخ الدسوقي [أي خرج من قبره، وكلمه في هيئة روحانية]، وعلمه هذا الدعاء: "باسم الإله الخالق الأكبر، وهو حرز مانع مما أخاف منه وأحذر، لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، يلجمه بلجام قدرته، أحمى حميثا، أطمى طميثا، وكان الله قويا عزيزا.. حم عسق حمايتنا، كهيعص كفايتنا، فسيكفيكهم الله، وهو السميع العليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال له الدسوقي: ادع بهذا الدعاء، ولا تخف من شيء، ثم سأل شيخه عن معنى "أحمى حميثا، أطمى طميثا"، فأجابه بكونها سريانيتين، وأن معنى "أحمى: يا مالك"، "وحميثا إشارة إلى مملكته"، أما قوله: أطمى، فهو بمنزلة من يصفه تعالى بالعظمة، والكبرياء، والقهر، والغلبة، والعز، والانفراد في

---

١ ورد الجلالة، لعبد القادر الجيلاني من كتاب الفيوضات الربانية في المآثر القادرية ١٧٣، ومجموع أوراد الطريقة البرهانية، صفحة ١٨ – ٢١، ومجموع الأوراد الكبير ١٦٩، وورد الاسم الثاني من أوراد الطريقة الخلوتية العونية العيونية.

ذلك كله، وطميثا إشارة إلى الأشياء التي يتصرف فيها، وإلى الممكنات التي يفعل فيها ما يشاء، ويحكم ما يريد، سبحانه لا إله إلا هو، وفي كل من العبارتين سر عجيب، لا يطيق القلم تبليغه أبدا" [١].

ألا ترى أيها القارئ الكريم أن تفسير الشيخ لهذه الألفاظ باللغة العربية، لا يضيف جديدا، ولذلك ترى الرجل يحيلك في آخر كلامه إلى الأسرار التي لا تقال، فيقول: وتحت هذه العبارتين سر عجيب لا يطيقه القلم. وتركز الطرق الصوفية على هذه الألفاظ بدعوى أنها من فتح الله على شيخ الطريقة، وتعاهدوها فيما بينهم، وتوارثوها شيخا عن شيخ على أنها أسماء حسنى لله ﷻ، وإذا سألتهم عنها قالوا: هذه تلقيناها عن علي بن أبي طالب ﵁، وهم لا يعرفون أن هذه الأسماء من افتراء الشيعة.

ومن المشايخ من يرى هذه الأسماء بشكل آخر، فيقول أحمد بن عياد الشاذلي: "واعلم أن الأسماء التي في الأوراد ليست بلسان عوالم الملك والملكوت، ولا بلغة من لغات العالمين، وإنما هي لغة جبروتية يذكر الله بها في روضة من رياض جبروته، وأنه قد جمع فيها علم الأولين والآخرين" [٢].

يروي الشعراني في طبقاته حديثا عن الشيخ أمين الدين إمام جامع الغمري، له إسناد سرياني، ومتنه بالعربي، فيقول: "ورأيته بعد موته بسنتين، فروى لي [أي مناما] حديثا سنده بالسرياني، ومتنه بالعربي، أن رسول الله ﷺ، قال: من أدمن النوم بعد صلاة الصبح ابتلاه الله تعالى بوجع الجنب، وفي رواية: ابتلاه في جنبه بالبعج" [٣]. وهكذا أدخلت الشيعة أسماء للجن، وزعموا أنها أسماء لله ﷻ، ودعت الناس إلى الذكر بهذه الأسماء، وقبلها الناس رغم أنها ألفاظ غير عربية، ولا معنى يرجى فيها، والله تبارك وتعالى لم يخاطبنا إلا بالعربية، وهي التي اختارها لتكون لغة كتابه، ولسان نبيه، ولغة خير أمة أخرجت للناس، وحتى يروجوا لبضاعتهم نسبوا الأمر إلى العلم الباطن، وأنه من أعظم الفتوحات، ومن العجب أن تسربت هذه الحماقات إلى

١ الإبريز للدباغ، نقلا عن كتاب جامع كرامات الأولياء، للنبهاني ١: ٣٩٨

٢ المفاخر الععلية في المآثر الشاذلية لأحمد بن عياد ٢٢٦

٣ الطبقات الكبرى للشعراني ٢: ١٣٢

الصوفية من أهل السنة، فلا يكاد يخلو كتاب أوراد من أوراد الطرق الصوفية في مصر، وغيرها من البلاد، إلا وهو مشحون بألفاظ غير مفهومة، مثل: "طهفلوش، برهتية، كرير، فجش، ثظخز... ".

وقد ناقشتُ كبار مشايخ الصوفية عن هذه الألفاظ، فقالوا: هي لغة تذكر بها الملائكة، يتلقاها العارفون، وهي فتح خاص لكل عارف على حدة.

فتعالوا بنا نتدارس أوراد أشهر الطرق الصوفية في مصر، ونتتبع الأسماء السريانية المبثوثة في ثناياها.

١. الطريقة الجيلانية:

تتبارى معظم الطرق الصوفية في إظهار الفتوحات العالية التي نالها الشيخ من بركة اتباعه للمسلك الصوفي، إلا أن الغريب حقا في الطريقة الجيلانية تلك الأسماء الجديدة التي أطلقوها على معبودهم، ومن بعض أسمائه: مهباش، وطهفلوش، وايتنوخ، وملوخ، ومخمت،.. فقد جاء في ورد الجلالة المنسوب زورا، وبهتانا للشيخ عبد القادر الجيلاني ما نصه: "وأسألك الوصول بالسر الذي تدهش منه العقول، فهو من قربه ذاهل، ايتنوخ، يا ملوخ، باي، وامن أي وامن، مهباش الذي له ملك السموات والأرض"، ثم يستطرد قائلا: "طهفلوش انقطع الرجاء إلا منك، وسدت الطرق إلا إليك، وخابت الآمال إلا فيك"[1].

إن القوم يعبدون مهباشا، وطهفلوشا، ولا علاقة لهم بالرسالة الخاتمة، ولا أعرف كيف يطمئن المريد إلى ورده الذي يقول فيه: "مهباش الذي له ملك السموات والأرض"، وماذا يفعل المريد إذا عاش حياته يظن أنه يعبد ربه عندما ينادي مهباش، ثم يكتشف عندما يُغلق عليه باب القبر، وحيل بينه وبين الدنيا، ثم تبين له أن مهباش هذا ليس إلا اسم من أسماء الشياطين، أو مردة الجان، أينفعه شيخه يومئذ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. كما يقرأ المريد باقي الأوراد التي تُقْحِم الأسماء السريانية بين آيات القرآن الكريم، وبالتالي يقرأ المريد سورة الواقعة متضمنة هذه الأدعية بين آيات السورة، ومنها: يا باسط، يا غني بمهبوب ذي لطف خفي بصعصع بسهسهوب ذي العز الشامخ، الذي له العظمة والكبرياء، بطهطهوب

١ مجموع الأوراد الكبير ورد الجلالة للجيلاني صفحة ١٠

لهوب ذي القدرة والبرهان، والعظمة، والسلطان"، ثم يستطرد قائلا: "بحق سورة الواقعة، وبحق فقج محمت مفتاح جبار فرد معطي خير الرازقين" [١].

٢. الطريقة الدسوقية:

يقول الدسوقي في ورده المسمى "الحزب الكبير" ما نصه: "اللهم آمني من كل خوف، وهم، وغم، وكرب كدكد كردد كردد كردد كرده كرده كرده ده ده ده الله رب العزة" [٢].

٣. الطريقة البرهانية:

وشيخ الطريقة هو: محمد عثمان عبده البرهاني، صاحب "كتاب تبرئة الذمة في نصح الأمة"، وقد أحدث هذا الكتاب ضجة عند ظهوره بين أبناء الطريقة في مصر والسودان[٣]، لما فيه من غلو وضلال، ونصوص واضحة لا تحتمل التأويل تزعم أن الله ﷻ هو محمد ﷺ، وأن محمدا ﷺ هو الله ﷻ، وقد اكتفى الأزهر آنذاك ببيان ما في الكتاب من شطط، إلا أن الطريقة ما زالت موجودة إلى عهد قريب، وقد أخذ الأزهر الشريف موقفا بحظر نشاط هذه الطريقة في مصر، ولله وحده الحمد والمنة. وما زالت توزع هذه الطريقة أورادها على المريدين في السودان، وغيرها، ومنها الحزب الصغير، وفيه: "أحمى حميثا أطمى طميثا، ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب-٢٥] [٤]، وفي نفس الحزب يقول المريد: "بها بها بهيا بهيا بهيا بهيات بهيات بهيات القديم الأزلي، يخضع لي كل من يراني، لمقفنجل يا أرض خذيهم، ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ [الإسراء-٥٠]، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات - ٢٤]، ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون-٤]، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، طَهُورٌ بَدْعَقٌ مَحْبَبَةٌ صُورَهٌ مَحْبَبَةٌ سَقْفَاطِيسٌ سَقَاطِيمٌ أَحُونٌ أَدُمَّ حَمَّ هاءٌ آمين" [٥]، نفس ههذهه [٦]

---

١ ذكر ودعاء جمع عبد الله أحمد زينة، صفحة ٥٣

٢ ذكر ودعاء جمع عبد الله أحمد زينة صفحة١١٧

٣ شيخ الطريقة البرهانية محمد عثمان عبده البرهاني من السودان.

٤ مجموع أوراد الطريقة البرهانية، صفحة ٢٣

٥ المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، لأحمد بن عياد ٢٢٢

٦ الصيغة وردت في مجموع أوراد الطريقة البرهانية، صفحة ١٨ – ٢١، وورد الاسم الثاني للطريقة الخلوتية العونية العيونية.

أرأيت يا أخي الكريم كيف يمزج الصوفية مفترياتهم مع آيات الكتاب العزيز، وكيف يدعون، ويستغيثون بأسماء لمجاهيل، لا يعرفون كنهها، ويحشرونها وسط الذكر الحكيم. كما أن هذه العبارة الأخيرة يكاد لا يخلو منها ورد صوفي، ومن حب البرهانية فيها فقد نظموها شعرا في قصيدة توسل البرهانية، وهذه الطريقة البرهانية تعد من أكثر الطرق شططا، وأبعدهم عن اعتقاد أهل السنة والجماعة، فأورادهم تفيض بوحدة الوجود.

٤ . الطريقة الشاذلية:

يحدد بعض الشاذلية مكانة الأسماء السريانية بقوله: "اعلم أن هذه الأسماء هي من أسماء الله تعالى، ليست بلسان من ألسنة عالَم المَلَك، ولا عالَم الملكوت، ولا بلغة من لغات العالمين، وإنما هي أسماء جبروتية، فمن ادعى القطبية الفردية، فليبين لنا عن هذه اللغة، وعن أهلها. "

الطرق الشاذلية:

تعد الطريقة الشاذلية من أكثر الطرق انتشارا وتشعبا، وكلما مات شيخ من شيوخ الطريقة كلما انقسم أبناؤه إلى طريقتين، أو أكثر، ونادرا ما تستمر طريقة مجتمعة عبر ثلاثة أجيال، أو أربعة إلا وتنقسم إلى فروع، وتتشرذم إلى جماعات أكثر، وهذا سر كثرة أسماء الطرق، حيث يتعرف المريدون على طريقتهم بمعرفة اسم شيخهم، أو خليفته، ونبدأ هنا بتتبع أشهر أفرع الشاذلية، وما ورد في أورادها من الأسماء السريانية.

الطريقة الشاذلية ودلائل الخيرات:

وقد ورد في كتاب "أدل الخيرات" من أوراد الشاذلية، للشيخ عبد الفتاح القاضي، ورد بعد صلوات الشيخ الفاسي نصه ما يلي: "يالله يوه واه هو يا هو يا من هو أنت، أنت هو يوه هو يايوه هو يا جليل يا هو يا من لا هو إلا أنت هو" [1]. كما يعتقد الشاذلية فيما يسمى الدائرة، والخاتم، والحرز، والسيف، وكلها أسماء لمسمى واحد، ويعتقدون أن من وضع هذه الدائرة على رأسه لا يموت، ويروون الحكايات عن أقوام لم يموتوا إلا بعد أن خلعوا هذه الدائرة، وتضم هذه الدائرة أشهر الألفاظ السريانية، والمتفق عليها بين عدد كبير من الطرق الصوفية،

---

١ كنوز الأسرار في الصلاة والسلام على النبي المختار ٧٩

وقد نقل شرح هذه الأسماء أحمد بن عياد في المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، يرويه عن أبي عبد الله اليافعي، ويشرح مجالات استخدام كل اسم منها، فيقول:

- طَهُورٌ: الاسم الأول الكامل في ذاته المنور لصفاته، [ويستخدم] للدخول على الملوك، كَبِّر الله سبعا، ثم قل: طاء، ثم اقرأ: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء-٤]، ثم قل حكمت على أنفسهم الطاء، واذكر الاسم سبعا.
- بَدْعَقٌ: الاسم الثاني، بمعنى الباقي الذي كل شيء به باق، ذات الأقسام [أي القسم] للدخول على العلماء والقضاة، هلل الله سبعا، ثم قل باء، ثم اقرأ: ﴿سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس-٥٨]، ثم قل: فلقت عقولهم بالقاف، ثم اذكر الاسم سبعا.
- مُحْبَبَةٌ: الاسم الثالث مبين الحكم، وملقن المنن، لاستجلاب الرزق، سبح لله سبعا، ثم اقرأ: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد-١]، إلى قوله ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد-٤]، ثم قل حاء، فتحت بها باب الاستمطار من الفتاح العليم، ثم اذكر الاسم سبعا.
- صُورَةٌ: الاسم الرابع، الذي لهيبته كل جبار خاضع، لدفع المضار، تقول: يا سلام سبعا، ثم تقول: سلبت عن نفسي، وعن فلان من كان من عباد الله المؤمنين جميع المضار، ثم اذكر الاسم سبعا.
- الخامس، وهو اسم العزة: مُحْبَبَةٌ، نظير ما تقدم، تقول هنا: الحمد لله سبعا، ثم تقول: عين ملأت قلبي عزة ونورا، ومن شئت من إخوانك المؤمنين، ثم تذكر الاسم سبعا.
- الاسم السادس، وهو المعروف بمفتاح الغيب: سَقْفَاطِيسٌ: للفتح على القلب، تقول: يا سلام سبعا، ثم تقول: سين، أسألك بالسناء الأعظم أن تعطيني مفتاح قلبي، وتذكر الاسم سبعا.
- الاسم السابع، وهو اسم الجلالة الموصل إلى مفتاح الكنوز، ولرتبة الكمال: سَقَاطِيمٌ، وهو أن تقول يا الله بألف الوصل، وهاء الرفع، والمد سبعا، ثم

تقول: ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون٩٨-٩٧]. رب أسألك حولا من حولك، وقوة من قوتك، وتأييدا من تأييدك حتى لا أرى غيرك، ولا أشهد سواك، ثم اذكر الاسم سبعا. ثم قال [اليافعي]: أدغمت الكلام في أوله صيانة له من غير أهله.

ويستطرد اليافعي في بيان أسراره، فيقول: "أَحُونٌ أَدُمَّ حَمَّ هَاءٌ آمين". هي الاسم الأعظم، بل ويعلم الأتباع من الصوفية كيف يذكرون بها، وينسب ذلك إلى شيخه الذي يقول: واتل الاسم الأعظم "أَحُونٌ أَدُمَّ حَمَّ هَاءٌ آمين" سبعين مرة، وسل ما تريد، وصفة السؤال أن تقول عقب تلاوتك في الوقت المخصوص: أسألك اللهم يا من هو: "أَحُونٌ أَدُمَّ حَمَّ هَاءٌ آمين" افعل لي كذا وكذا.

٥. الطريقة الفاسية:

يمزج الفاسي الآيات القرآنية بعقيدة وحدة الوجود بالألفاظ السريانية، فيقول: "اللهم صلِّ على كلمتك العليا من حيث الاختراع، والابتداع، وعروتك الوثقى من حيث تتابع الاتباع، وحبلك المعتصم عند الضيق، والاتساع، وصراطك المستقيم للهداية، والاتباع، ﴿الم﴾، ﴿حم﴾، أَدُمَّ، حَمَّ، ﴿ق﴾، ﴿طسم﴾، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح-٢٩]، أَحُونٌ ودود ﴿طه﴾، ﴿يس﴾، ﴿ق﴾، ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم-١]. اللهم صلِّ على المتخلق بصفاتك، المستغرق في مشاهدة ذاتك، الحق المتخلق بالحق، حقيقة الحق، ﴿أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس-٥٣].[1]

٦. الطريقة النقشبندية:

ورد في أوراد الطريقة النقشبندية: "وقلدنا بصمصام نصرك".

٧. الطريقة الخلوتية العونية العيونية:

يتلقى المريد في بداية سلوكه عشر آيات قرآنية مع دعاء يسمونه دعاء سر القاف، ويتكرر حرف القاف عشر مرات في كل آية من هذه الآيات العشر، فيصبح مجموع حروف القاف في

---

١ كنوز الأسرار في الصلاة والسلام على النبي المختار ٧٩

الآيات مائة قاف، وهذا العدد هو جُمَّل حرف القاف، حسب قواعد علم الجفر أحد علوم بني إسرائيل، بموجب قاعدة أبجد هوز.. وقد قرأت فيما أتذكر في أحد الكتب الصفراء، أن من يداوم على قراءة هذه الآيات يصبح من أهل التصريف، ومع تدرج المريد في مراتب الطريق السبعة تظهر الألفاظ السريانية تباعا، فإذا وصل المريد إلى الاسم السادس والسابع تلقى جرعة كبيرة من هذه الأسماء، وتبلغ الألفاظ السريانية في ورد الاسم السابع ثمانين اسما، منها ما هو مكتوب نثرا، ويسمى البرهتية، ومنها ما نظمه المشايخ في قصيدة الجلجلوتية.

والبرهتية يقرأ فيها المريد واحدا وأربعين اسما، كل منهم مكتوب مرتين بهذه الصورة: "برهتيه برهتيه، كرير كرير، تتليه تتليه، وهكذا.. " ورد الاسم السابع من أوراد الخلوتية العونية العيونية، وهو غير مطبوع، وينقله المريد عن شيخه، ويشرح البوني في كتابه "منبع أصول الحكمة" أسرار البرهتية بقوله: "فاعلم أن أسماء البرهتية، هي القسم المعّول عليه من قديم الزمان، وكان القدماء يسمونه بالعهد القديم، والميثاق العظيم، والسر المصون، والكنز المخزون، والعهد القديم، والكبريت الأحمر، وقد تكلم به الحكماء الأُول، ثم السيد سليمان بن داود عليه السلام، ثم آصف بن برخيا، ثم الحكيم قلفطيروس، ثم تتلمذ له إلى يومنا هذا، وهو قسم عظيم لا يتخلف عنه ملك، ولا يعصيه جني، ولا عفريت، ولا مارد، ولا شيطان، وكل طالب لم تكن عنده، أو لم يكن له علم بها، فعلمه أجذم. وبالجملة فهذه الأسماء قسم جليل عظيم الشأن، كثير البركة، والبرهان يغني عن جميع ما عداه من العزائم والأقسام، ويتصرف في جميع الأعمال من استنزال أملاك، واستحضار أعوان، وجلب ودفع، وصرع وقهر، وإخفاء وإظهار". ثم يشرح فوائد كل اسم من البرهتية، وما تستخدم فيه، فيقول: كرير "إن من خواصه أن من واظب على قراءته كل ليلة مائة مرة، فإنه يجتمع بالجن عيانا، وربما يصيرون له خداما، ومن واظب على ذكر برهتيه كرير تتليه.. خضعت له الأرواح العلوية والسفلية" [١].

ويشرح البوني مجموعة من الطلاسم، والعزائم المبنية على علم الجفر، ثم يذكر الرياضات المناسبة لكل عزيمة، حتى يجعلك تستحضر الجن والملائكة المقربين بزعمه، ثم يشرح لك علامة كل ملك، وتميزه عن غيره، فيقول: "أما السيد جبرائيل، فينزل في قبة من نور،

---

١ منبع أصول الحكمة للبوني ٦٧-٦٨

وعلى رأس القبة لواء أصفر، ولا يخرج من القبة إلا إذا وجه الطالب خطابه إليه، وله عشرة أعوان ينزلون معه، ووقته يوم الاثنين، وخادمه الأبيض"[١].

أما الجلجلوتية، فيشرحها البوني أيضا في كتابه "شمس المعارف الكبرى"، ولا يخرج الكلام فيها عما سبق بيانه عن البرهتية. **وهكذا يتلقى المريد علوم السحر على أنها فتوحات، وأسرار وإلهامات ربانية**، وبرغم اعتراف البوني أن هذه الأسرار ينسبها تارة إلى علوم الحكماء والفلاسفة، وينسبها تارة أخرى إلى علوم سليمان عليه السلام، إلا أن المشايخ، والمريدين يرونها أرقى الفتوحات في الإسلام.

ثالثا: السريانية فتوحات أم إلحاد.

اتفقت الشيعة والصوفية على أن الأسماء السريانية هي: أسماء الله تعالى بلغة الملائكة، ويَعتبر أتباعُ كل طريقة أن هذه الأسماء هي سر طريقتهم، وبركتهم، وخصوصيتهم بين الطرق الأخرى، ويزعمون تلقي مشايخهم لهذه الأسماء عن الملائكة، ولا يدري المريد أن غاية ما وصلت إليه الصوفية في هذا الصدد أنها فَصَّلَت ما أجملته الشيعة، ومن خلال المناقشات المتعددة التي دارت بيني وبين مشايخ الطرق المختلفة كانت حجتهم واحدة، لا تتغير، أن هذه الأسماء السريانية هي أسماء الله تبارك وتعالى بلغات أخرى سواء لغة الملائكة، أو أحد الأنبياء السابقين، وأنها تحوي أسرارا، وعلوما باطنية، ومذاقات سامية لا ينالها إلا المصدقون بأنوارها. ومن هنا اجتمع عندي ما سطره الصوفية في كتبهم، مع ما يعتقده المشايخ المعاصرون الآن.

١. كلام الأستاذ زينة:

يحاول الأستاذ عبد الله أحمد زينة، في كتابه "ذكر ودعاء" إضافة الشرعية على الذكر بالسريانية، حين يقول: "إن واضعي هذه الأحزاب والأوراد، إما أن: يكونوا من مؤسسي الطرق الصوفية الرئيسية، أو من مؤسسي فروع هذه الطرق، ولكل عارف منهم أسلوب خاص به في الصلاة على إمام الهداة عليه أفضل الصلاة والسلام، هي مفتاح أنوار روح ذلك العارف، وسبيل كماله، وباب فتوحه الموصل إلى خزائن العلوم الاصطفائية التي لا يطلع عليها سوى

---

١ منبع أصول الحكمة للبوني ٩٣

صفوة الله تعالى من خلقه. "ثم يستطرد قائلا: "والأحزاب التي أقرها أساتذة الطرق الصوفية على ثلاثة أنواع:

١. قسم خاص بما ورد في الحديث الشريف.
٢. وقسم سجل فيه العارف ما ألهمه الله ﷻ بعبارات واضحة.
٣. وقسم سجل فيه العارف ما أفيض عليه من الأنوار، بعبارات ممتزجة بحروف، لا يدري معانيها إلا من كان في مرتبته ومقامه، ومثال ذلك: الحروف الواردة في أوراد الجيلاني، والشاذلي، والدسوقي" [١].

وننقل عن صوفي آخر تأييده لأفكار الأستاذ زينة، وننقل هذا النص من كتاب في "ملكوت الله مع أسماء الله"، حيث يقول عبد المقصود سالم: "هناك أناس يذكرون أسماء كثيرة، مرة بالعبرية، وأخرى بالسريانية، وثالثة بالقبطية، وأحيانا بلغات أخرى غير عربية، ويزعمون أن فيها الاسم الأعظم، والذي يطمئن إليه قلبي، ألا نذكر أسماء غير عربية إلا بإذن من المشايخ الموثوق بهم، وهم أندر من الكبريت الأحمر" [٢].

ولا شك أن هذا المنطق يُقِّره الشيعة، فالإمام أولى عندهم بالإلهام، وتلقي الفيض من الله ﷻ عن أقطاب الصوفية، والأستاذ زينة بتقسيمه هذا لأنواع الأوراد، لا يضع أي شروط على هذه الحروف، إلا أن يكون واضعها شيخا مؤسسا لطريقة، وبالتالي يخصص مراد رسول الله ﷺ: ﴿من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ﴾ [٣]. بحيث يفهم منه من أحدث في أمرنا هذا، وهو غير مؤسس لطريقة فهو ردٌّ، أما إذا كان شيخا لجماعة، ولديه مريدون، فهو فتح من الله ﷻ، وليس ردا وعودةً إلى الضلالة والجاهلية، وربما لا يعلم الأستاذ زينة أن كل ناعق، له أتباع، يقود جماعته، ويتزعمها إلى النار، فيقدم قومه تحت راية زعامته، فيوردهم النار. بئس الورد المورود.

---

١ ذكر ودعاء لعبد الله أحمد زينة ٣٩

٢ في ملكوت الله مع أسماء الله الحسنى، لعبد المقصود سالم ١٢٢

٣ حديث متفق عليه، أخرجه البخاري ٢٤٩٩، ومسلم ٣٢٤٢، وأبو داود ٣٩٩٠، وأحمد في مسنده ٦: ٧٢، وابن ماجه

٢. كلام الشيخ العقاد:

يحاول أحد مشايخ التصوف، وهو الشيخ أحمد سعد العقاد أن يتخذ موقفا وسطا، فيقول: "ومن العجيب أن الأسماء الحسنى عربية، وكلامنا عربي، والأدعية المروية عن رسول الله ﷺ عربية، فلا يصح العدول عنها إلى الأسماء السريانية، أو العبرانية: لأن معانيها غير مفهومة، وربما كانت مطوية على معاني غير شرعية، فيقع العبد في البلية"[١]. وإلى هنا وقول الشيخ صحيح، لا نخالفه عليه، ولا تدوم فرحتنا طويلا بكلام الشيخ، فهاهو يهدمه في طرفة عين، فتأتي مخالفتنا لرأيه حين يستطرد قائلا: "ولا يجوز الذكر بها إلا بالتلقي من أستاذ عالم تقي واصل، أما من أخذها من الكتب، فلا يجوز له: لأن أسماء الله فيها كل الحقائق، وهي الكنز لكل صادق".

والمرء يصاب بالدهشة من كلام الشيخ العقاد، فبعد أن استنكر الذكر بأسماء أعجمية؛ لكونها غير مفهومة، واعترف أنها ربما كانت مطوية على معانٍ غير شرعية، فيقع العبد في البلية - عاد الشيخ، فأباحها لمن يتلقاها مشافهة من عارف واصل، أما من أخذها من الكتب، فقد وقع في البلية. وكأن منطق الشيخ هو رفض الأسماء السريانية شكلا، وقبولها موضوعا، فهي حق في ذاتها، شرعية لمن يتلقاها عن المشايخ، مرفوضة لمن يأخذها من الكتب، فقد يقع في البلية، وكأن الشيخ يقرر أهلية العارفين بالطرق الصوفية على تحليل الحرام!! ولا يخفى تطابق منطق الشيخ العقاد مع الأستاذ زينة. ودليل القوم فهم خاطئ لحديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: ﴿ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيْت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حُزني، وذهاب همِّي، إلا أذهب الله عنه همَّه وحزنه، وأبدله مكانه فرجا، قال: فقيل يا رسول الله: ألا نتعلمها؟ قال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها﴾[٢].

---

١ الأنوار القدسية في شرح أسماء الله الحسنى وأسرارها الخفية، للعارف الشيخ أحمد سعد العقاد ٤٠

٢ حديث عبد الله بن مسعود، أخرجه أحمد في مسنده ١: ٣٩١، وصححه ابن حبان، وأخرجه البيهقي في الأسماء، والصفات

يفهم الباطنيون هذا الحديث على أن الله تبارك وتعالى يُعَلِّم من يشاء من خلقه أسماءه التي يذكرونه بها، فما الحرج أن يأتي أحد الأولياء باسم من أسماء الله تعالى بأي لغة طالما أن الله علمه إياها؟!، وهذا الاسم لا يخرج عن كونه اسما من الأسماء الحسنى، ولكونه من الأسرار، ويحتوي على كنوز وفتوحات، فإن الله جعله من علوم الباطن التي لا ينالها إلا أهل العرفان، وهم فقط محل الاختصاص بفيوضات الله ﷻ.

٣. مناقشة الأستاذ والشيخ:

إذا أعدنا قراءة الحديث الشريف نجده يقرر في بساطة شديدة هذه الحقائق الهامة:

- أن الله هو الذي يسمي نفسه، وليس لأحد أن يسميه بأسماء من عنده.
- أن أسماء الله ﷻ تنقسم من ناحية مصدر التعريف بها إلى:

– أسماء وردت في كتاب الله ﷻ، وذلك قوله ﷺ: «أنزلته في كتابك».

– أسماء عَلَّمَها أحدا من الخلق، وذلك قوله ﷺ: «أو علمته أحدا من خلقك».

– أسماء لا يعلمها سواه جل جلاله، وذلك قوله ﷺ: «أو استأثرت به في علم الغيب عندك».

وبالتالي فلا سبيل لأحد أن يعلمها فهي مما استأثر الله ﷻ بعلمها. ومن ثم أطلع الله تبارك وتعالى الناس على نوعين من الأسماء يتلقونها عنه سبحانه، هما: أسماء أنزلها في كتابه، وأسماء يُعَلِّمها الله ﷻ أحدا من الخلق، إذ يستحيل أن يزعم أحد معرفة أسماء استأثر الله بها عنده.

وإذا علمنا أن وسيلة الإبلاغ، والإنباء عن الله ﷻ هي الرسل، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقط، فإن من يقول أن الله ﷻ علمه اسما من أسمائه وحيا، ينبغي إذن أن يكون نبيا، أما ادعاء مشايخ الطرق أنهم تلقوا عن الله ﷻ تعريفا مخصوصا باسم من أسمائه، فهذا القول هو دعوى تلقي وحيا عن الله أيا كانت صورته، وصدق الله العظيم القائل في كتابه العزيز: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهَّ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام- ٩٣]، ونسي أولئك أن الوحي انقطع بعد وفاة رسول الله ﷺ، وتغافل القائلون بالأسماء السريانية، أن أعلم الناس برب العالمين هو سيد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه، قد بلغ الرسالة كاملة، والدين الخاتم، وقد عَرَّف أمته بأسماء ربه الحسنى، إجمالا وتفصيلا، ما ورد منها في

كتاب الله ﷻ، وما أخبرنا بها بنفسه في سنته ﷺ، فقد ورد في البخاري، وغيره، أن رسول الله ﷺ، قال: ﴿إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة غير واحد، من حفظها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر﴾ [١]. وجاء في شرح الحديث لابن حجر العسقلاني قوله: "وقال جماعة من العلماء: "الحكمة في قوله: ﴿مائة غير واحد﴾، بعد قوله: ﴿تسعة وتسعين﴾، أن يتكرر هذا العدد في نفس السامع جمعا بين جهتي الإجمال والتفصيل" [٢]. وقد وردت روايات في كتب السنن تحدد الأسماء الحسنى، منها ما جاء في جامع الترمذي، والمستدرك، وغيرهما. كما تتبع كثير من العلماء الأسماء الحسنى التي وردت في القرآن الكريم، صح عند بعضهم قرابة ثمانين اسما، وقد أثبت ابن حجر: أن التسعة والتسعين اسما كلها في القرآن الكريم واردة بصيغة الاسم، ومواضعها كلها ظاهرة في القرآن.

٤. آراء كبار الصوفية:

أجمع علماء الأمة أن الأسماء الحسنى توقيفية، أي يتوقف معرفتها على تلقيها من الكتاب والسنة، ولا اختلاف على ذلك، ولن نذكر آراء السلف لأن هذه القضية لم تكن مطروحة عندهم، وإنما نعرض لآراء كبار رجال التصوف كالقشيري، والغزالي، والفخر الرازي".

- يقول الفخر الرازي: أسماء الله، وصفاته، لا تعلم إلا بالتوقيف من الكتاب، أو السنة، أو الإجماع، ولا يدخل فيها القياس.
- ويقول أبو حامد الغزالي: اتفق على أنه لا يجوز لنا أن نسمي رسول الله ﷺ باسم لم يسمه به أبوه، ولا سمى به نفسه، وكذا كل كبير من الخلق، فإذا امتنع ذلك في حق المخلوقين، فامتناعه في حق الله ﷻ أولى.
- يقول أبو القاسم القشيري: الأسماء تؤخذ توقيفا من الكتاب، والسنة، والإجماع، فكل اسم ورد فيها وجب إطلاقه في وصفه، وما لم يرد لا يجوز، ولو صح معناه.

ولمزيد من البيان نقول:

---

١ حديث أبي هريرة، متفق عليه، أخرجه البخاري ٢٥٣١، ومسلم ٤٨٣٥، والترمذي في سننه ٣٤٢٨، وأحمد في مسنده.

٢ فتح الباري بشرح صحيح البخاري - لابن حجر العسقلاني

إن أسماء الله تعالى تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

- **أولها**: صفات تدل على ذاته، وهي لازمة له سبحانه، ولا تنفك عنه، وتسمى أسماء كمالية: كالرحمن، والقدوس، والنور، والحي.
- **ثانيهما**: صفات أفعال متعلقة بالمشيئة، وتنقسم إلى أسماء الجلال: كالقهار، والجبار، والمنتقم، والمذل.
- **ثالثهما**: صفات الجمال كالرحيم، الحليم، الودود، الغفور، الستار.

فالأسماء الحسنى هي ما سمى الحق تبارك وتعالى بها نفسه، وهي دالة على تغاير الصفات، بينما الموصوف واحد لا شريك له، يقول الفخر الرازي: "الأسماء هي ألفاظ دالة على المعاني، فهي إنما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن في حق الله تبارك وتعالى إلا بذكر صفات الكمال، ونعوت الجلال، وهي محصورة في نوعين: عدم افتقاره إلى غيره، وثبوت افتقار غيره إليه" [1].

وسلف الأمة رضوان الله عليهم يؤمنون بأن القرآن الكريم، وسنة سيد المرسلين ﷺ، فيهما تعريف تام غير ناقص عن الله تبارك وتعالى، وأسمائه، وصفاته. ولا شك أن من يعتقد أن هناك صفات دالة على الذات، أو قائمة بها، أو صفات أفعال لم ترد في الكتاب والسنة، ويجب البحث عنها، وطلبها سواء من الملائكة، أو الأنبياء السابقين باللغة السريانية، أو العبرانية، لا شك أن من يقول بهذا يكون قد افترى ظلما، وإثما مبينا. ففي هذه الدعوة أمران كل منهما أخطر من الآخر:

أولهما: أن الله ارتضى لنا دينا ناقصا – معاذ الله، والقرآن الكريم يرد بجلاء هذه الفرية.

ثانيهما: أننا مأمورون بطلب، وتعلم العلم الديني الذي هو فرض عين على كل مسلم، فإذا كان الدين يطالبنا بتصحيح عبادتنا، فتصبح العقيدة التي من أصولها معرفة أسماء الله تعالى أجل وأخطر، وفي هذا طعن في

---

١ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٥: ٧٠

الصحابة والتابعين إذا اكتفوا بأسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، وبالتالي معرفتهم ناقصة.

فالداعي بالأسماء السريانية، أو من يتلقاها بالقبول هو في حقيقة الأمر يرى في دينه نقصا خطيرا موضوعه أسماء الله تعالى، وأن الإسلام لا يكفي لمعرفة أسماء الله ﷻ: لذا فهو يطلب سد هذا الخلل الذي هو مفتقر إليه.

إن المريد الذي يتلقى عن المشايخ العارفين من أهل التصوف هذه الأسماء السريانية يجد نفسه في النهاية يقرأ كلاما غير مفهوم، فكيف يزيده فهما، أو علما بربه، إذ اللفظ السرياني لا يقابله معنى يقع في قلب العبد، أو عقله، فكيف يقربه إلى ربه، ما ليس له دلالة في اللغة العربية، كمن يقول: "طهفلوش ومهباش وبرهتيه وكرير" وما إلى ذلك. والمريد يصدق أشياخه حين يقولون له: هذه الأسماء تلقاها شيخنا الأكبر عن الملائكة – وقد أوضحنا كيف وصلت هذه الأسماء إليهم – والمريد في حقيقة الأمر لا يكتفي بما ورد عن سيدنا محمد ﷺ، عن ربه ﷻ.

ويحسم القرآن الكريم هذه القضية بآيات محكمات لا لبس فيها ولا غموض: يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه – ٨]، وهذه الآية تقرر إجمالا أن لله ﷻ الأسماء الحسنى.

وفي سورة الحشر ورد بيان عدد من أسماء الله الحسنى ختمت بقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحشر – ٢٤]، وفي سورة الإسراء، يقول تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء –١١٠]، وفي هذه الآية أمر بالدعاء لله، أو للرحمن، أو بأي اسم من الأسماء الحسنى، فالموصوف واحد لا شريك له، وفي الآية تشريع إلهي بالدعاء بالأسماء الحسنى. ثم في سورة الأعراف قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف– ١٨٠]، وتقرر هذه الآية حصر الدعاء بالأسماء الحسنى فقط، كما أن فيها نهي عن الدعاء بغيرها، وبهذا اكتملت جوانب التكليف، وتم حصره في الدعاء بالأسماء الحسنى فقط دون غيرها، وجاء الأمر بترك الذين يُلحدون في أسمائه، ثم جاء الوعيد بالعقوبة والجزاء على فعلهم يوم القيامة، ولعل سائلا يقول: ما معنى الإلحاد في أسماء الله ﷻ ؟

نقول وبالله تعالى التوفيق: إن معنى الإلحاد في اللغة، هو: الميل عن القصد، والانحراف عن الطريق الموصل، يقول ابن السكيت: الملحد هو العادل [أي المنحرف] عن الحق، المُدخل

فيه ما ليس منه، أي العدول عن الاستقامة، والانحراف عنها. أما المعنى المقصود من الآية، فقد ورد في أمهات كتب التفسير – ما يلي:

- يقول الفخر الرازي: "الإلحاد في أسماء الله يقع على ثلاثة أوجه:

الأول: إطلاق أسماء الله المقدسة الطاهرة على غير الله ﷻ، مثل: تسمية الكفار لأصنامهم بأسماء مشتقة من أسماء الحق تبارك وتعالى، كقولهم اللات اشتقاقا من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، وكان مُسيلمة الكذاب يلقب نفسه بالرحمن.

الثاني: أن يطلقوا على الله تعالى أسماء لا تنبغي له مثل: أبا المسيح، وأبا العزير.

الثالث: أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه، ولا يتصور مسماه، فإنه ربما كان مسماه أمرا غير لائق بجلال الله ﷻ "[1].

- ويقول أبو حيان الأندلسي:

"وكون الاسم الذي أمر تعالى أن يدعى به حسنا، هو ما قرره الشرع... قال الفقهاء، والجمهور: لا يجوز الدعاء بالاسم الذي يقتضي مدحا خالصا لله تبارك وتعالى، ولا تتعلق به شبهة، ولا اشتراك، واختلف هل ندعو الله بالأفعال التي في القرآن الكريم، كقوله: الله مستهزئ بالكافرين، وماكر بالذين يمكرون، وهل يطلق عليه منه تعالى اسم فاعل مقيد بمتعلقه كـ: "يا بَنَّاء السماء، ويا ماهد الأرض، ويا داحي الأرض"، والصواب على منعه، وأما إطلاق اسم الفاعل بغير قيده أن تقول: "يا بَنَّاء، يا ماهد، يا وافي، يا سخي"، فإجماع العلماء على منعه" [2].

- ويقول ابن السكيت:

---

١ التفسير الكبير للفخر الرازي ١٥: ٧١

٢ البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي

"معنى يُلحدون في أسمائه، أي يقولوا بجهلهم: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا سخي، وغير ذلك، من الأسماء التي لم يثبت في الشرع إطلاقها على الله تعالى"[١].

وتدلنا هذه الأقوال على أن علماء الأمة يوجبون أخذ الأسماء الحسنى من القرآن والسنة كما هي، فما جاء منها صريحا دعونا الله به، أما الإلحاد في نظرهم، فهو إطلاق ما لم يرد من الأسماء على الله ﷻ، حتى ولو كانت تقتضي مدحا خالصا، لا شبهة فيه، ولا اشتراك، حتى وإن كانت مأخوذة من أسماء أفعال من القرآن الكريم كالبَنَّاء، وغيره، لأن العبد الصادق مع الله تعالى يأخذ عن مولاه، أما الزائغ عن الهدى والأدب، فهو من يترك سنة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه، ولا يكتفي بها، ويلتمس الأنوار في هذيان المجاهيل، وقد يعتقد أنها تحتوي صفات كمال، وهي في حقيقتها تنعت الله بما لا يليق بذاته العلية، فالذي يذكر مثلا بقوله: يا سخي، هو يظن أنه اسم يعبر عن مزيد كرم الله ﷻ، وبالتالي يجوز إطلاقه على الله ﷻ، نقول له: لقد أسأت مرتين:

- **أولا:** بأن جعلت نفسك مصدرا لتسمية ربك ومولاك. وأسأت
- **ثانيا:** حين ظننت أنك أحسنت، فقولك: يا سخي، تصف الله ﷻ بأنه يعطي فوق الحاجة، ينافي حكمة الله في العطاء، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر-٤٩].

فإذا كان إطلاق أسماء مثل البَنَّاء، والوفي، والسخي، عند سلف الأمة إلحاد في أسماء الله ﷻ، وينذرهم القرآن الكريم بالوعيد الشديد، فما قولك فيمن يقول: "طهفلوش ومهباش"؟، أليس ذلك أسوأ صور الإلحاد، والعدول عن الاستقامة، والميل عن الحق؟! وإذا كانت الأسماء السريانية ليست سوى الإلحاد في أسماء الله تعالى، فما الإلحاد عندكم بالله عليكم؟

١ النهر الماد من البحر لأبي حيان الأندلسي ٤ : ٤٢٨

٥. مناقشة للمؤلف مع مشايخ الطريق:

بعد أن تعرضنا لقضية الأسماء السريانية من الكتب، أود أن أعرض إجمالا للمناقشات التي جرت بيني وعدد من مشايخ الطريقة الخلوتية العونية العيونية حول موضوع الأسماء السريانية.

حيث استدل أحد المشايخ بحديث النبي ﷺ الذي يقول فيه: ﴿ما قال عبد قط إذا أصابه هم وحزن: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك: سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي. إلا أذهب الله ﷻ همه، وأبدله مكان حزنه فرحا، قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات، قال: أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن﴾، والرسول ﷺ يعلمنا في هذا الحديث كيف نسأل الله ﷻ بكل اسم هو له، وهذا الحديث يقرر أنواع الأسماء من حيث التعريف بها، وهي:

١. أسماء وردت في كتاب الله ﷻ.
٢. أسماء عَلَّمها أحدا من الخلق.
٣. أسماء لا يعلمها أحد سواه ﷻ.

فقال لي الشيخ: إن قولك: إن مصدر تعليم الأسماء الحسنى هم الأنبياء فقط، هو حَجْر على واسع، فلماذا حددتَ المقصود من قول النبي ﷺ في حديث الدعاء بأسماء الله: ﴿أو علمته أحدا من خلقك﴾، أنهم الأنبياء؟ ولِمَ لا يكون معهم الأولياء؟ ما الذي يمنع أن يكون ما علم الله ﷻ لأحد من خلقه هو الأسماء السريانية؟

قلت للشيخ: إذا افترضنا صحة قولكم هذا فلنا سؤال: هل الاسم الذي يأتي به الولي، ويكتبه لمريديه في أوراده[إن كان صحيحا حسب زعمه] يَعلمه النبي ﷺ، أم لا يعلمه؟ لا شك أنك ستقول يعلمه: لأن قولك أن النبي ﷺ لا يعلمه جرم فظيع في حقه ﷺ، ودعوى خطيرة أن يزعم المشايخ أن علمهم يزيد على علم النبي ﷺ.

قال الشيخ: النبي ﷺ يعلمه.

قلت للشيخ: أعلمه عن طريق الوحي؟، أم تلقاه عن علماء بني إسرائيل؟ لو علمه عن طريق الوحي لوقعنا في أمور ثلاثة:

١. كيف يأتيه الوحي بعلم يتناقله بنو إسرائيل عن قلفطيريوس، عن الحكماء الأول، كما يقول البوني؟.
٢. الوحي نزل بلسان عربي مبين، فأين برهانكم أن بعض الوحي نزل بلغة أخرى غير العربية؟.
٣. هل بلغ رسول الله ﷺ هذا الجزء من الوحي؟، أم كتمه عن المسلمين؟ ألا تعلمون أن الله تعالى، يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة- ٦٧]، والسيدة عائشة رضي الله تعالى عنها تقول في الحديث المتفق عليه: «ومن زعم أن محمدا كتم شيئا من الوحي فقد أعظم على الله الفرية»[1].

يقول الشيخ: هذا علم تلقاه النبي ﷺ عن طريق الوحي، ولم يكتمه، وإنما خص به علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقد وصل إلينا بسند مشايخ الطريق المرفوع إليه ﷺ.

قلت: هل هناك مصلحة في حجب هذا العلم عن كل المسلمين؟ أليست هي علوم تُقرب إلى الله عز وجل، وفتوحات تيسر معرفة الله عز وجل كما تزعمون؟، فما الضرر من نشرها في الأمة، فتصلنا صريحة في مصنفات السنة النبوية المطهرة، مثل: البخاري، ومسلم، وغيرهما من المصادر التي جمعت أحاديث رسول الله ﷺ، كما أن قولكم هذا يقتضي أن أكابر أصحاب النبي ﷺ: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وأبا عبيدة بن الجراح، وأبا الدرداء، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم، لا يعرفون هذا الاسم، فكيف تعرفونه أنتم اليوم، ويجهله سادة الأمة وخير القرون؟ أأنتم أهدى، أم أصحاب رسول الله ﷺ؟! وكيف يخصكم بالمعارف الباطنية، ويمنعها عن أصحابه من المهاجرين والأنصار الذين رضي الله عنهم، ورضوا عنه؟. وإذا كان الاسم يدل على صفة كمال، أو صفة جلال، أو جمال، فكيف استقام لكم أن تحيطوا بصفات لله عز وجل، لم

---

١ أخرجه مسلم في صحيحه ٢٥٩

يدركها أصحاب رسول الله ﷺ؟!، أأنتم أعلم بالله منهم؟!، ثم كيف ضمنتم شرعية معاني هذه الألفاظ السريانية، وليس لها مدلول في العربية؟

قال الشيخ: إن هذه الأسماء تحتوي على معانٍ شرعية، ونحن نعرف ترجمة معانيها بالعربية، وهذه الترجمة نقلناها عن شيوخنا، وتمسكنا باللفظ السرياني: لأنها من أذكار أنبياء قبل سيدنا محمد ﷺ، وقد قال شيخنا العارف بالله فلان: لو كان لي أن أغير في الأوراد لاستبدلت الألفاظ السريانية بمعانيها العربية، ولكن منعني أدبي مع شيخي أن أغير ما تلقيته عنه.

قلت للشيخ: قولكم أن هذه الأسماء هي من أذكار أنبياء قبل سيدنا محمد ﷺ يوافقكم عليه الشيعة، ويقرر البوني في كتابه "شمس المعارف الكبرى": أن هذه الأسماء ليست من أذكار الأنبياء، وإنما ترجع إلى الحكماء الأول قبل سليمان بن داود عليهما السلام، ثم وصلت بسندها إليكم.

قال الشيخ: وهل هناك ما يمنع من ذكر الله بأسماء معانيها شرعية، ذكر بها أنبياء لله تعالى قبل بعثة النبي ﷺ؟!

قلت له: بفرض صحة زعمكم هذا، وأن هذه الأسماء تناقلها الناس إلى وقت بعثة رسول الله ﷺ، فهذا القول يثير العديد من التساؤلات منها: كيف وصلت هذه الأسماء إلى رسول الله ﷺ؟ أبلغته عن طريق الوحي؟ أم تلقاها عن علماء بني إسرائيل؟ إن قلتم عن طريق الوحي كذبكم القرآن الكريم، وسنة سيد المرسلين ﷺ، وكيف تقبلون هذا المنطق الذي يتضمن دعوى كتم النبي شيئا من الوحي، وحديث عائشة رضي الله عنها يرد زعمكم هذا؟!، حيث تقول: ﴿ومن زعم أن محمدا كتم شيئا من الوحي فقد أعظم على الله الفرية﴾، وإن زعمتم أن رسول الله ﷺ تلقى هذه الأسماء عن علماء بني إسرائيل، فقد كررتم ما قاله كفار مكة في بدء الإسلام. وهذا الزعم دحضه القرآن الكريم، ورده على قائليه بقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل-١٠٣]، وهذه الآية المباركة تلزمكم بتنزيه رسول الله ﷺ عن ادعائكم بأنه كان يعرف الأعجمية، ويتكلم بها.

إن الله تبارك وتعالى أخذ العهد، والميثاق على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أنه إذا بعث فيهم سيدنا محمد ﷺ، أن يتركوا ما أنزل الله عليهم، ويتبعوه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ

وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران٨١-٨٢]. وأنتم بزعمكم هذا عكستم الآية، ونسبتم إلى رسول الله ﷺ ما يخالف صريح الآية، فبدلا من أن يُعلم أتباع الأنبياء ما أنزل إليه، ويأمرهم أن يتركوا ما عندهم، ويتبعوه، ادعيتم أنه ﷺ تلقى علوم أحبارهم، وخص بها علي بن أبي طالب، وأنتم من بعده!!. لو كان تلقي أصحاب رسول الله ﷺ للأسماء السريانية عن الأمم السابقة مكرمة، فلماذا غضب رسول الله ﷺ حين رأى عمر بن الخطاب يقرأ في التوراة؟، ونهاه قائلا: ﴿لو كان موسى بن عمران حيا لما وسعه إلا اتباعي﴾، ولقد حسم رسول الله ﷺ هذه القضية بما لا يدع مجالا للمناورة، أو المراوغة، فقد روى سفيان بن عينية، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة، قال: ﴿أتى النبي ﷺ بكتف فيه كتاب [أي من كتب بني إسرائيل]، فقال ﷺ: كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم، أو كتاب غير كتابهم، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت-٥١] ﴾، وفي رواية أخرى، "أنه ﷺ قال: ﴿ كفى بقوم حمقا وضلالة أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى نبي غير نبيهم، أو كتاب غير كتابهم ﴾، فنزلت الآية من سورة العنكبوت"[١].

وإضافة إلى ما تقدم، ونظرا لحبكم للمنهج الصوفي وآدابه، فإني أذكركم بآداب المريد مع شيخه، ومنها ألا يذكر إلا بالاسم الذي تلقاه عن شيخه، ولو أنك دعوت مريدا أن يذكر الله ﷻ باسم لم يتلقاه عن شيخه، فإنه يعتذر التزاما بشيخه، وما تلقاه عنه، فالذي يذكر قائلا[٢]:

"سألتك بالاسم المعظم قدره بآج أهوج جلجلوت بهلهلت

إذا عرض عليه شيخ آخر أن يذكر: "يا الله يا مغني بمهبهوب ذي لطف خفي بصعصع بسهسهوب ذي العز الشامخ الذي له العظمة، والكبرياء بطهطهوب لهوب لهوب ذي القدرة، والبرهان، والعظمة، والسلطان"[٣]. فإن المريد يعتذر راضيا مكتفيا بما لقنه شيخه، فلسان حال

---

١ أخرجه الدارمي في سننه ٤٧٨ من حديث يحيى بن جعدة مرسلا

٢ أوراد الطريقة الخلوتية العونية العيونية.

٣ أوراد الطريقة القادرية الجيلانية.

المريد إذن يقول رضيت بمعلمي شيخا، والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن: **يا قوم، لمَ لا تعاملون رسول الله ﷺ، وسنته كما تعاملون شيخكم، وطريقتكم؟!**. والله لو كنتم صادقين في حب رسول الله ﷺ لاكتفيتم بما جاء على لسانه، ولتركتم ما تَسَولْتُموه من السريانية والعبرية.

لو أنكم حقا تفهمون معنى: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، لأعرضتم عن أذكار لا تفهمونها، ولهداكم الله ﷻ إلى أنوار سنة رسول الله ﷺ، حتى لو ثبت أن السريانية لغة الملائكة، أو يتخاطب بها الجن، لقلتم: نحب أن نذكر بلغة رسول الله ﷺ، وصحابته الأطهار: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضوان الله عليهم أجمعين، ونقول لمن يعرضها علينا: **إن شيخنا الأكبر أبا القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلوات ربي وسلامه عليه لم يأذن لنا بها،** والله تبارك وتعالى يكره لنا أن يبعث لنا أحب خلقه إليه بسنن الهدى، ثم نذكره بلغة نظن أنها لغة الحكماء الأُول قبل سليمان بن داود عليهما السلام، كما يقول البوني في شمس المعارف الكبرى.

إن أحاديث رسول الله ﷺ التي تدعونا إلى التمسك بالكتاب والسنة، وتحذيره لمن يلتمس الهدى فيما سواهما حقيقة يقينية، يقول رسول الله ﷺ: ﴿وإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرا، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم، فعليه بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ﴾[1] "، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: ﴿من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ﴾، وذِكركم بأسماء سريانية تنسبونها للملائكة، أو الجن، أو الأنبياء مسألة ظنية، لا دليل عليها، ولا برهان، فأي الأمرين أحق بالاتباع، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۞ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم٢٨: ٣٠].

١ حديث العرباض بن سارية رواه الترمذي ٢٦٠٠ وقال عنه حديث حسن صحيح، وابن ماجة في سننه ٤٢، ٤٣، وأحمد ٤: ١٢٦، والدارمي في سننه ٩٥، وابن حبان في صحيحه

ولعل القارئ يتطلع إلى معرفة نتيجة هذه المناقشات مع مشايخ الصوفية، وقد يتوقع أن تجد هذه الردود آذانا للحق صاغية، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فما زادتهم الحقائق إلا إعراضا، وما زادهم إلا نفورا، واستكبارا في الأرض، فحب الجاه، والسلطان أولى عندهم من اتباع الحق. وأذكر أنني في إحدى هذه المناقشات قلت لأحد المشايخ، [وهو مستشار بالمعاش]: أنتم تأمرون الناس أن يذكروا: "برهتيه، برهتيه"، أليس من الأفضل أن يقولوا: "الله، الله"، أجابني بقوله: إنك إذا قلت: "برهتيه" كانت أكثر جمعا لك على الله من قولك: "الله"، إذن "برهتيه" التي تلقاها الشيخ عن شيخه أوثق في عقيدته من لفظ الجلالة "الله" الذي تلقاه عن رسول الله ﷺ.

رابعا: حقيقة الأسماء السريانية.

مما سبق يتبين لنا بوضوح عقيدة الصوفية في الأسماء السريانية، وخلاصة ما ورد عنها في كتب الشيعة، والصوفية، ما يلي:

١. أن الأسماء السريانية تؤثر في استدعاء الجن، وتسخيرهم.
٢. أن لها أسرار في قضاء الحوائج، ودفع الضر، وجلب النفع، من توفيق، ومحبة.
٣. رغم عجز الصوفية عن إثبات أي علاقة بين هذه الأسماء، وبين نبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ إلا أن غاية أماني الصوفية، أن يزعموا أن هذه الأسماء نوع من العلم الباطن الذي أسره، وعلَّمه النبي ﷺ علي بن أبي طالب.
٤. نسبتهم هذه الأسماء زورا إلى أنبياء بني إسرائيل، وخاصة نبي الله سليمان عليه السلام، وزعمهم أنه ما سخر الجن إلا بها.

ولبيان حقيقة هذه المزاعم، فإننا نروي جملة من أقوال السلف الصالح، ننقلها من أهم المصادر المعتمدة، والتي توضح لنا حقيقة نسبة هذه العلوم إلى نبي الله سليمان، ومَنْ تكون هذه الأيدي الخفية التي عبثت في هذا الموضوع. ونسوق أولا:

- ما رواه الطبري في تفسيره: يقول سعيد بن جبير: "كان سليمان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر، فيأخذه، فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته، فلم تقدر

الشياطين أن يصلوا إليه، فدنت إلى الإنس، فقالوا لهم: أتريدون العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين، والرياح، وغير ذلك؟ قالوا: نعم، قالوا: فإنه في بيت خزانته، وتحت كرسيه، فاستثارته الإنس فاستخرجوه، فعملوا به".

- يقول قتادة: "إن الشياطين ابتدعت كتابا فيه سحر، وأمر عظيم، ثم أفشوه في الناس، وأعلموهم إياه، فلما سمع سليمان نبي الله ﷺ، فتتبع تلك الكتب فأتى بها، فدفنها تحت كرسيه: كراهية أن يتعلمها الناس، فلما قبض الله نبيه سليمان عمدت الشياطين، فاستخرجوها من مكانها الذي كانت فيه، فعلموها الناس، فأخبروهم أن هذا علم كان يكتمه سليمان، ويستأثر به، فعذر الله نبيه سليمان، وبرأه من ذلك".
- وقول آخر لقتادة: كتبت الشياطين كتبا فيها سحر وشرك، ثم دفنت تلك الكتب تحت كرسي سليمان، فلما مات سليمان استخرج الناس تلك الكتب، فقالوا: هذا علم كَتَمَناه سليمانُ".
- ويرى مجاهد: "كانت الشياطين تستمع الوحي من السماء، فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مثلها، وأن سليمان أخذ ما كتبوا من ذلك، فدفنه تحت كرسيه، فلما توفي وجدته الشياطين، فعلمته الناس".
- ويقول شهر بن حوشب: "لما سُلب سليمان ملكه [1]، كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان، فكتبت من أراد أن يأتي كذا وكذا، فليستقبل الشمس، وليقل كذا وكذا، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا، فليستدبر الشمس، وليقل كذا وكذا، فكتبته وجعلت عنوانه: "هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر العلم"، ثم دفنته تحت كرسيه، فلما مات سليمان قام إبليس خطيبا، فقال: يا أيها الناس إن سليمان لم يكن نبيا، وإنما كان ساحرا، فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته، ثم دلهم على المكان الذي دفن فيه، فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحرا، هذا سحره بهذا تعبدنا، وبهذا قهرنا، فقال المؤمنون: بل كان نبيا مؤمنا،... ثم بعث الله النبي محمدا ﷺ

---

١ إشارة إلى اختبار أجراه الله ﷻ عليه حين تأخر عن صلاة العصر، فسُلب منه ملكه، ثم عاد إليه [راجع شرح الآيات من ٣١: ٣٤ من سورة ص]: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [سورة ص-٣٤].

فجعل يذكر الأنبياء حتى ذكر داود، وسليمان. فقالت اليهود: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، وإنما كان ساحرا يركب الريح، فأنزل الله عذر سليمان: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة-١٠٢].

- كما يؤكد القرطبي في تفسيره نفس المضمون بقوله: "قال الكلبي: كتبت الشياطين السحر، والنرجينات [النرجينات: نوع من الطلاسم]، وقسم من أقسام السحر على لسان آصف بن برخيا كاتب سليمان ﷺ، ودفنوها تحت مصلاه حين انتزع الله ملكه، ولم يشعر بذلك سليمان، فلما مات استخرجوه، وقالوا للناس: إنما ملككم بهذا فتعلموه، فأما علماء بني إسرائيل، فقالوا: معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان، وأما السفلة فقالوا: هذا علم سليمان، وأقبلوا على تعلُّمه، ورفضوا كتب أنبيائهم"[١].
- كما روى ابن كثير في تفسيره قول ابن عباس: "كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان، ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحرا وكفرا، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها"[٢].

وقد أكد علماء السلف هذه الواقعة في العديد من الكتب والمصادر التي لا يتسع المقام لحصرها، ولعل الحقائق قد ظهرت بجلاء تام، فالأسماء السريانية الباطنية من وضع الشياطين، ابتدعوها بعد موت سليمان ﷺ، وقالوا أن بها يتم التصريف، وتسخير الجن، وغيره، وتناقلت السحرة هذه الأسرار جيلا بعد جيل، حتى تلقاها أقطاب الصوفية، ولقنوها للمريدين، وأصبح ورد كل طريق يدعو بأسماء مختلفة، وجوهرها واحد هو: الاستعانة بغير الله ﷻ، والتعبد بغير ما شرع الله ﷻ، وما لم يأذن به الله ﷻ، وبغير هدى رسول الله ﷺ. والعجيب أن هذه الكتب ما زالت تتداول بين الصوفية والباطنية، وبنفس الأسلوب الذي حدث، ويحدث دائما مع مراحل الانحراف، فالشياطين التي كتبت بين أسطر الوحي الذي أنزله الله ﷻ على سليمان ﷺ، ما زالت تحث أعوانها على أن يسطر الواحد منهم بين آيات سورة الواقعة مثلا

١ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١: ٤٣٢

٢ مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ١:٥٩

مجموعة من الأسماء السريانية، ويعتقد المريد أنها أسماء الله تعالى، وهي في حقيقتها أسـماء للجـن ومردة الشياطين، يرددها من طلب الهدى عند أئمة الضلال، ولو أنه اتبع كتاب ربه، وسنة نبيـه ما هلك في أودية الغي، وتاه في شعاب الباطل، ولا يـدري كيـف يرجـع إلى ربـه، وصـدق الله العظيم القائل في كتابه العزيز: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف١٠٣:١٠٥].

الفصل السادس

التعدي في الدعاء وطلب التصريف

إن للدعاء آداب معروفة، منها التذلل والتضرع لله ﷻ، وقد حذر رسول الله ﷺ أصحابه من ظاهرة التعدي في الدعاء، ومن ثم نقل الصحابة هذا التحذير لأبنائهم، وللتابعين، وهكذا حتى علمونا كيف كان منهج النبي ﷺ في مناجاته لربه ﷻ، وقد روى أبو داود، وأحمد، أن ابنًا لسعد بن أبي وقاص، قال: سمعني أبي، وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة، ونعيمها، وبهجتها [وفي رواية أحمد: وإستبرقها]، وكذا، وكذا، وأعوذ بك من النار، وسلاسلها، وأغلالها، وكذا، وكذا، فقال: يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: ﴿سيكون قوم يعتدون في الدعاء، فإياك أن تكون منهم﴾. إنك إن أُعطيت الجنة، أُعطيتها وما فيها من الخير، وإن أُعذت من النار، أُعذت منها، وما فيها من الشر"[1].

وقد تكررت القصة مع صحابي آخر، هو عبد الله بن مغفل ﷺ، فقد سمع ابنه، يقول: "اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بني سل الله الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: ﴿إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء﴾[2].

إن مجرد تحديد نوع النعيم في الجنة، بأسلوب لم يرد في وصف الجنة سواء في الكتاب والسنة، اعتبره عبد الله بن مغفل الصحابي الجليل، تعديا في الدعاء، وحذر ابنه من طلب قصر أبيض على يمين الداخل إلى الجنة، بينما يرى سعد بن أبي وقاص، وهو المعروف باستجابة الدعاء، أن طلب نعيم الجنة، بهذا التفصيل والتحديد، والاستعاذة من صنوف عذاب النار، نوع من التعدي في الدعاء، فليس من المعقول أن يُدخل الله أحدا الجنة، ولا يعطيه نعيمها، وبهجتها، وإستبرقها، ولن يعتق الله ﷻ أحدا من النار، ثم يناله من سلاسلها، وأغلالها.

ترى ماذا يكون رد فعل الصحابة الكرام إذا أطلعناهم على أوراد الطرق الصوفية اليوم؟ وهذه الصور الفجة في التعدي في الدعاء، وسنكتفي بمثالين خشية الإطالة، ومَن أراد المزيد

---

١ ١حديث سعد بن أبي وقاص رواه أبو داود حديث ١٢٦٥، وأحمد في مسنده ١٤٨٦، ١٥٨٨

٢ حديث عبد الله بن مغفل، رواه أبو داود، حديث ٨٨، وأحمد في مسنده ١٤٨٦٤، ١٤٨٨٦، ١٤٨٨٧ الجزء ٥: ٥٥

فليطالع أوراد القوم، والتي تدور حول التعدي في الدعاء، وطلب التصريف في الكون، وما إلى ذلك من الصور، وصدق رسول الله ﷺ، حيث قال: ﴿إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء﴾.

أولا: أوراد الطريقة الخلوتية.

ورد في أوراد الطريقة الخلوتية العونية العيونية جملة من أدعية التصريف متناثرة هنا، وهناك تبدأ محدودة حين يتلقى المريد أول مراحل سلوكه، ثم تتدرج حسب همته في الطريق، ورضا شيخه عليه إلى الأسماء التالية ومن ثم تزداد الجرعة تباعا، ونحن هنا نشير إلى مجموع ما يشمله ورد الطريق من التعدي في الدعاء، وطلب التصريف في القلوب والأفئدة، وتسخير جميع الخلق، وقهرهم، فلا ينطقون إلا بإذن المريد، ونترك القارئ الكريم ليتابع بنفسه مدى الشطط الموجود في هذه الأوراد من خلال هذه النماذج المختارة:

- إلهي أسألك مددا من أسمائك القهرية، تقوي بها قواي القلبية والقالبية، حتى لا يلقاني صاحب قلب إلا انقلب على عقبيه مقهورا".
- "إلهي أسألك مددا من أسمائك الروحانية، تقوي بها قواي الكلية والجزئية، حتى أقهر به كل نفس قاهرة، تنقبض لي بها انقباضا يُسقِط قواها عند مقابلتي، حتى لا يبقى في الكون ذو روح إلا ونار القهر قد أخمدت ظهوره".
- "فلا يتحرك ذو طبع بمخالفتي إلا صغر بعظمتك، وقهر بكبريائك".
- "وسخر لي الملك الأخيضر".
- "أسألك أن تهب لي، من ذلك التجلي، تسخير الروح الملكوتي، القائم في خدمة نعت ذلك السر، الأقدس السريع الإجابة، بكلماتك الفرقانية، الممتثل لأوامر أسمائك الرحمانية، مصحوبا في ذلك بسر، تنقاد به إليَّ القلوب".
- أسألك اللهم، أن تمدني منك بدقيقة من دقائق عظمتك، ينفعل لي بها كل ما أتمثله، من كل شيء في علم غيبك، المحيط بحقيقة كل مشهود، فأتمكن

من فعل كل ما أريد، تمكنا أتصرف به في كل الوجود، بإذن العلي الساري في كل موجود".

- اللهم ألقِ علي من زينتك، ومحبتك، وكرامتك، من حضرة ربوبيتك، ما ترهب له القلوب، وتُذل به النفوس، وترمق له الأبصار، وتبدد دونه الأفكار، ويخضع لي كل متكبر جبار، ويُسخر لي كل ملك قهار".
- اللهم سخر لي جميع خلقك كما سخرت البحر لموسى ﷺ، وألن لي قلوبهم كما ألنت الحديد لداود ﷺ، واربط على قلوبهم، فهم لا ينطقون إلا بإذني".
- استطفأت غضب الناس بلا إله إلا الله، واستجلبت رضاهم، ومودتهم بسيدنا محمد رسول الله ﷺ.
- ضربت على وجه كل حاسد، وظالم، وضارب، وعدو، وشيطان، ومارد، ألف ألف ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، إلى آخر السورة.

ثانيا: الطريقة الإدريسية.

يقول أحمد بن إدريس في أوراده: "وأن تمدني يا إلهي بنور من عظمة ذاتك في بصري تجليا، لو قُدِّر تجزئة ذلك النور على خمسين مائة ألف ألف ألف ألف ألف جزء، كل ذلك يا إلهي مضروب في خمسين مائة ألف ألف ألف ألف ألف جزء مِثل من أمثاله، إلى ما لا نهاية له، جزء واحد من جميع ذلك، لو نظرت به لجميع العوالم لذابت، واحترقت في أقل من لمحة، ثم تمدني يا إلهي بمثل ذلك كله نورا مضروبا في كل ذلك، خمسين مائة ألف ألف ألف ألف ألف مرة في بصيرتي، ثم بمثل ذلك كله نورا في عقلي، ثم بمثل ذلك نورا في لساني، ثم بمثل ذلك كله نورا في يدي، ثم بمثل ذلك كله نورا في رجلي، ثم بمثل ذلك كله نورا في خيالي، ثم بمثل ذلك كله نورا في عظامي، ثم بمثل ذلك كله نورا في مخي، ثم بمثل ذلك كله نورا في لحمي، ثم بمثل ذلك كله نورا في عصبي، ثم بمثل ذلك كله نورا في دمي، ثم بمثل ذلك الجميع نورا مضروبا في الجميع، خمسين مائة ألف ألف ألف ألف مرة في ذاتي، لو قدر أن كل ذرة من ذرات أجزاء الوجود لوح، أو قرطاس سعته على قدر العالم خمسين مائة ألف ألف ألف ألف ألف مرة، تكتب في ذلك حصر عدد نوع واحد من أجزاء ذلك النور لعجزوا، ولم يستوفوه بوجه من

الوجوه، ويبقى في ذلك النوع من أعداد وجوهه ما فوق ذلك، مما لا يحيط به إلا أنت، كل ذلك يا إلهي على سبيل الكشف، والإحاطة الجامعة لوجوه الإدراكات كلها حتى أشهدك به شهودا ذاتيا، خارجا عن المعقولات والمحسوسات من طاقة البشر بعد أن تؤيدني يا إلهي بقوة كاملة إلهية، عناية منك أزلية أبدية، ثم تؤيدني يا إلهي بها وراء ذلك، مما لا يحصره عدد، ولا ينتهي إليه أمد، مما هو في إحاطة وسع علمك يا الله، يا أحد، ثم تصب يا إلهي على ذاتي فيوضات بحر محيط الرحمة الذاتية، حتى أكون كلي رحمة إلهية، في جميع جهاتي، يتلو في جميع جهات الخلق آية الرحمة الإلهية المطلقة، ورحمتي وسعت كل شيء، إنك على كل شيء قدير. وأن تتجلى لي يا إلهي في كل نفس مع صحة الأنفاس بالعافية الكاملة، أكثر من خمسين مائة ألف ألف ألف ألف ألف تجلٍ، ثم في النفس الذي يليه، أكثر من خمسين مائة ألف ألف ألف ألف ألف ضعف مما ذكر من العدد في الأول، ثم في النفس الثالث أكثر من خمسين مائة ألف ألف ألف ألف ألف ضعف مما وقع في الثاني، ثم هكذا بالتضعيف في جميع الأنفاس كل تجلٍ من ذلك يكون العالم الدنياوي بجميع أصنافه، والعالم الأخراوي بجميع أنواعه بالنسبة إليه، كذرة ملقاة في وسع هذه العوالم المشهودة، كل ذلك مصحوب بالمكالمة الإلهية مع الأنفاس التي تكون الشرائع المنزلة جميعها ظاهرا وباطنا مسموعة لي من حضرة الذات المقدسة، بجميع بحور أسرارها التوحيدية، وأسرار معاني وجوهها الخلقية، حتى تكون حركاتي، وسكناتي، وأنفاسي كلها لا يقع شيء منها إلا بإذن صريح من الحضرة القدسية، وأن تخرجني يا إلهي من المكر، والاستدراج، وأن تجعلني قائما في كل ذلك بالشرائع الإلهية، على أتم منهاج، حتى لا أخرج عن الأوامر الإلهية بمصاحبة الشهود الذاتي لحظة، وأن تقويني يا إلهي بالقوة التي يختل لي معها نظام تركيب بدن، ولا عقل [1].

١ أوراد أحمد بن إدريس ٩٣ – ١٠١

تعليق على التعدي في الدعاء:

يلاحظ القارئ معنا أن هذه الأدعية تخالف أدب الدعاء الذي أسس بنيانه سيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ، ذلك الدعاء الذي يؤكد آداب العبودية لله ﷻ، والخوف والخشية منه، كذلك أدعية الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، التي أوردها القرآن الكريم، ولا نجد فيها مثل هذا الاجتراء على الله ﷻ، وطلب السيادة، والسيطرة، والتصريف في الكون.

إن أدعية أدعياء الصوفية هي في حقيقتها مكر واستدراج، ولا نعرف مكرا واستدراجا أكثر من هذا الداعي الذي يطلب طاقات إلهية، حتى أنه لو نظر إلى جميع العوالم لذابت، واحترقت إلى غير هذه الصور البدعية، والتعدي الصارخ في الدعاء الذي يفتقد كل صور الأدب، والعبودية لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثالثا: نموذج من دعاء النبي ﷺ.

إن المسلم المحب لرسول الله ﷺ مطالب أن يثبت محبته هذه بصدق المتابعة، واتخاذ النبي الحبيب قدوة حقيقية، فلا يجد الهدى إلا في السير على نهجه، واقتفاء أثره. والمريد حين يلتقي بشيخ من مشايخ الصوفية يعتقد لأول وهلة أنه قد حظي برجل من رجال الله ﷻ، وأن هذا الشيخ يقتفي أثر سيد الخلق ﷺ. لذلك يأخذ المريد عن شيخه، ويستقيم على طاعته، وهو لا يعلم أن خطواته تباعد بينه، وبين المراد الحقيقي من هذا الطريق. ولو علم المريد حقيقة أن وجهته قد حولها شيخه بعيدا عن النبي ﷺ، وأخذ بيدي المريد إلى هواه، وتقليده الأعمى لشيخ الطريق الأكبر، ما وافق المريد أن يستمر في طريق يباعده عن الحبيب المحبوب ﷺ، ربما يقرأ بعض الصوفية هذه السلسلة من الكتب، ويوافقنا على ما ذهبنا إليه، ويشعر أن أركان الطريق الذي كان يسلكه قد قوضت بالحجة والبرهان، وربما خطر بباله أن ينهل من القدوة الحقيقية سيدنا محمد صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه وسلم، لذا نعرض فيما يلي نماذج مختارة من أدعية خرج معظمها من فم النبي ﷺ، وربما أضفنا عليها بعض أدعية السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ولا نهدف من ذكر هذه الأدعية أن نبتدع طريقا صوفيا جديدا، وإنما نعرض على القارئ نموذجا يوضح منهج رسول الله ﷺ في الدعاء، وليتأكد المريدون أن أورادهم ليست مستقاة من مشكاة النبوة كما يظنون، وكما سترى أخي القارئ ما تحويه أدعية الرسول ﷺ من أدب معبر عن كمال العبودية لله وحده، فكيف يأتي هؤلاء المشايخ ببضاعتهم

المزجاة، ويفترون على رسول الله ﷺ الكذب حين يزعمون أنهم تلقوها عنه ﷺ بإذن باطني، يقظة أو مناما؟!. ومن أراد أن ينتفع بأدعية نبوية، فليقرأ أولا الفاتحة، ثم يقول:

* "سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب، سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، اللهم لك الحمد حمدا كثيرا خالدا مع خلودك، ولك الحمد حمدا لا منتهى له دون علمك، ولك الحمد حمدا لا منتهى له دون مشيئتك، ولك الحمد حمدا لا آخر لقائله إلا رضاك عنه.
* اللهم إني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، أشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأن محمدا رسول الله الصادق الوعد الأمين، رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، وبالقرآن الكريم كتابا وإماما. اللهم صلِّ وسلم على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.
* اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، واسترني، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم إني أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم، أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه.
* اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. اللهم إنا نستغفرك من كل ذنب: تبنا إليك منه ثم عدنا فيه، ونستغفرك من كل عمل أردنا به وجهك فخالطه غيرك، ونستغفرك من كل ما وعدناك به من أنفسنا ثم لم نُوف به، ونستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علينا فاستعنا بها على معصيتك، ونستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب: أتيناه في بياض النهار، وفي سواد الليل، وفي ملء وخلاء، وسر وعلانية يا حليم، اللهم إنك تعلم سرنا وعلانيتنا، فاقبل معذرتنا، وتعلم ما في أنفسنا فاغفر لنا ذنوبنا. اللهم اغسل عني

خطاياي بالماء والثلج والبَرَد، ونقِ قلبي من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي، كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت، ومن شر ما لم أعمل، اللهم أعني على غمرات الموت، وسكرات الموت، اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء، اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطئي، وعمدي، وهزلي، وجدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت المُقَدِّمُ، وأنت المُؤَخِّرُ، وأنت على كل شيء قدير، اللهم اغفر لي ذنبي، ووسع لي في داري، وبارك لي في رزقي. اللهم إني أعوذ بك من الذنوب التي توجب النِّقَم، أعوذ بك من الذنوب التي تُغيِّر النِّعَم، وأعوذ بك من الذنوب التي تهتك الحُرُم، وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التي تذل إلى الأعداء، اللهم أخرجنا من ذل المعصية إلى عز الطاعة، ولا تذلنا لأحد من خلقك، وتوجنا بتاج عزك. اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا، اللهم إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئا أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه.

* اللهم نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حي قيوم، اللهم طلبي للجنة بطيء، وهربي من النار ضعيف، اللهم اجعل لي عندك هُدى ترده إليَّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.

* اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك.

* اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، وأنا البائس الفقير المستغيث، الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، مَن خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذَل لك جسمه، وَرَغِمَ لك أنفه، اللهم لا تجعلني بدعائك شقيا، وكن بي رءوفا رحيما، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين. اللهم رب الناس مذهب الباس اشفني أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، اشفني شفاء لا يغادر

سقما، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في قلبي وعقلي، اللهم عافني في قوتي، واجعلهم الوارث مني.

* اللهم إني أسألك العافية، اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت.

* اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيي، اللهم بارك لنا في أسماعنا وأبصارنا، وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها قائلين بها، وأتممها علينا، اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها، ولك مماتها ومحياها، إن أحييتها فاحفظها، وإن أمتها فاغفر لها.

* اللهم إني أعوذ بك من فتنة النساء، اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت، اللهم إني أعوذ بك من الفقر، والقلة، والذلة، وأعوذ بك أن أَظْلِمَ أو أُظْلَم، اللهم إني أعوذ بك أن أظلم في سلطانك، أو أضام، والأمر إليك. اللهم إني أعوذ بك من الشقاق، والنفاق، وسوء الأخلاق، اللهم إني أعوذ بك من الهم، والحزن، والعجز، والكسل، والجبن، والبخل، وضَلَع الدَّيْن، وغلبة الرجال، اللهم إني أعوذ بك من يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن صاحب السوء، ومن جار السوء في دار المقامة.

* اللهم الطف بي في تيسير كل عسير، فإن تيسير كل عسير عليك يسير، وأسألك اليسر، والمعافاة في الدنيا والآخرة، اللهم واقية كواقية الوليد[1]. اللهم كما حسنت خَلْقِى فحسن خُلُقِي.

* أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامات المباركات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر

---

١ الطفل.

ما يخرج من الأرض، ومن شر ما ينزل فيها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن.

* اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، ووجهت وجهي إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبرسولك الذي أرسلت.
* اللهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى، اللهم إني أسألك الصحة، والعافية، والعفة، والأمانة، وحسن الخلق، والرضا بالقدر، اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك، اللهم إني أسألك عيشة نقية، وميتة سوية، ومردا غير مخزٍ، ولا فاضح.
* اللهم عافني في قدرتك، واقضِ أجلي في طاعتك، واختم لي بخير عملي، واجعل ثوابه الجنة، اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق: أحيني ما علمت الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر، اللهم إني أسألك صحة في إيمان، وإيمانا في حسن خلق، ونجاحا يتبعه فلاحٌ، ورحمةٌ منك، وعافية، ومغفرة منك، ورضوانٌ.
* اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقائك، اللهم ثبتني بأمرك، وأيدني بنصرك، وارزقني من فضلك، ونجني من عذابك يوم تبعث عبادك، فقد أتيتك لرحمتك راجيا. اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك، اللهم طهر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور.
* اللهم أصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا، واهدنا سبل السلام، وأخرجنا من ظلمات المعصية إلى أنوار الطاعة. * اللهم إني قد دعوتك رجاء لما عندك، فلا تجعلني اليوم أخيبَ مَنْ دعاك، فأكرمني بالجنة ومُنَّ علي بالمغفرة والعافية، وأجرني من النار، وادرأ عني شر خلقك، انقطع الرجاء إلا منك، وأغلقت الأبواب إلا بابك، فلا تكلني إلى أحد

سواك في أمور ديني ودنياي طرفة عين، ولا أقل من ذلك، ونور قلبي وقبري، وأعذني من الشر كله، واجمع لي الخير كله، يا أكرم من سئل، وأجود من أعطى، اللهم بنورك اهتدينا، وبفضلك استغنينا، وفي كنفك، وإنعامك، وعطائك، وإحسانك أصبحنا وأمسينا، أنت الأول فلا شيء قبلك، والآخر فلا شيء بعدك، والظاهر فلا شيء فوقك، والباطن فلا شيء دونك، نعوذ بك من الفلس والكسل، وعذاب القبر وفتنة الغنى، أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، اللهم يا عالم الخفيات، ويا سامع الأصوات، ويا باعث الأموات، يا مجيب الدعوات، يا قاضي الحاجات، يا خالق الأرض والسموات، أنت الله الذي لا إله إلا أنت، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الوهاب الذي لا يبخل، والحليم الذي لا يعجل، لا رادَّ لأمرك، ولا معقب لحكمك، رب كل شيء، ومليك كل شيء، ومُقدر كل شيء، أسألك أن ترزقني علما نافعا، وعملا زكيا، وإيمانا خالصا، وهب لنا إنابة المخلصين، وخشوع المخبتين، وأعمال الصالحين، ويقين الصادقين، وسعادة المتقين، ودرجات الفائزين، يا أفضل من قُصِد، وأكرم من سُئل، وأحلم من أعطى، ما أحلمك على من عصاك، وأقربك إلى من دعاك، وأعطفك على من سألك، لا مهدي إلا من هديت، ولا ضال إلا من أضللت، ولا غني إلا من أغنيت، ولا فقير إلا من أفقرت، ولا معصوم إلا من عصمت، ولا مستور إلا من سترت، أسألك أن تهب لنا جزيل عطائك والسعادة بلقائك، والمزيد من نعمك وآلائك، وأن تجعل لنا نورا في حياتنا، ونورا عند قبضنا، ونورا في قبورنا، ونورا عند سؤالنا، ونورا عند حشرنا، ونورا بين أيدينا على الصراط، ونورا نتوسل به إليك، ونورا نفوز به لديك.

* اللهم اجعل لي نورا في قلبي، ونورا من أمامي، ونورا من خلفي، ونورا عن يميني، ونورا عن شمالي، ونورا من فوقي، ونورا من تحتي، ونورا في سمعي، ونورا في بصري، ونورا في شعري، ونورا في بشري، ونورا في لحمي، ونورا في دمي، ونورا في عظامي، اللهم أعظم لي نورا، واعطني نورا، واجعل لي نورا، فإنا ببابك واقفون، وبنَوالك معترفون، وللقائك راجون.

* اللهم إنا نسألك قلوبا أواهة مخبتة منيبة في سبيلك، اللهم إنا نسألك عزائم مغفرتك، ومنجيات أمرك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، الفوز بالجنة، والنجاة من النار.
* اللهم افتح مسامع قلبي لذكرك، وارزقني طاعتك، وطاعة رسولك، وعملا بكتابك، اللهم أغنني بالعلم، وزيني بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجَمّلني بالعافية، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يُسمع، ونفس لا تشبع، ومن الجوع فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة فإنها بئست البطانة، ومن الكسل، والبخل، والجبن، ومن الهَرَمِ وأن أُرَدَّ إلى أرذل العمر، ومن فتنة الدجال وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والمات، اللهم لك الحمد شكرا، ولك المنُّ فضلا، اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما، الحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار.
* اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي، ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي، ورضني من المعيشة بما قسمت لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الإخلاص في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، ونعيما لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بالقضاء، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضرَّاء مُضِرة، ولا فتنة مُضِلة، ومرافقة نبيك في الفردوس الأعلى، اللهم زَيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين.
* اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وعزيمة الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك لسانا صادقا، وقلبا سليما، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم إنك أنت علَّام الغيوب.
* اللهم يا ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، الركع السجود، الموفين بالعهود، إنك رحيم ودود، وإنك تفعل ما تريد.
* اللهم اجعلنا هداة مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، سلما لأوليائك، وعدوا لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان. اللهم احفظني بالإسلام على كل حال، ولا

تشمت بي عدوا ولا حاسدا، اللهم إني أُنْزِلُ بك حاجتي، وإن قصر رأيي، وضعف عملي، وافتقرت إلى رحمتك، فأسألك يا قاضي الأمور، ويا شافي الصدور، كما تجير بين البحور، أن تجيرني من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور. اللهم ما قصر عنه رأيي، ولم تبلغه نيتي، ولم تبلغه مسألتي: من خيرٍ وعدته أحدا من خلقك، أو خيرٍ أنت معطيه أحدا من عبادك، فإني أرغب إليك فيه، وأسألك برحمتك يا رب العالمين. اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مُضل لمن هديت، ولا مُعطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مُقرب لما باعدت، ولا مُبعد لما قربت. اللهم ابسط علينا من بركاتك، ورحمتك، وفضلك، ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم الغلبة، والأمن يوم الخوف.

* اللهم إنا نعوذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعت منا، اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينة في قلوبنا، وكره إلينا الكفر، والفسوق، والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين.

* اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني، أم إلى قريب ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عليَّ غضبك، أو ينزل علي سخطك، ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

* اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما يهون علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، اللهم اجعلني أخشاك حتى كأني أراك، وأسعدني بتقواك، ولا تشقني

بمعصيتك، وخِرْ لي في قضائك، وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجَّلت، واجعل غناي في نفسي.

* اللهم ارزقني عينين هطَّالتين، تشفيان القلب بذروف الدموع من خشيتك، قبل أن تكون الدموع والأضراس جمرا.

* اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم، اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك سيدنا محمد ﷺ، وأعوذ بك من شر ما استعاذ منه عبدك ونبيك سيدنا محمد ﷺ.

* اللهم إني أسألك الجنة، وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار، وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرا. اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم وما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم وما زويت عني مما أحب، فاجعله فراغا لي فيما تحب. اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إلي، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم، فأقرر عيني من عبادتك.

* اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء، واملأ قلوبنا بك فرحا، وأسكن في نفوسنا من عظمتك، وذلل جوارحنا لخدمتك، واجعلك أحب إلينا مما سواك، واجعلنا أخشى لك مما سواك.

* سبحان من تعطف بالعز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي المجد والكرم، سبحان ذي الجلال والإكرام. اللهم قنعني بما رزقتني، واسترني، وعافني أبدا ما أبقيتني، واغفر لي، وارحمني إذا توفيتني، اللهم لا تَفْتِنِّي في طلب ما لم تَقْدُر لي، وما قَدَرْتَهُ عليَّ فاجعله ميسرا سهلا، اللهم كافئ عني والديَّ، وكل من له نعمة علي خير مكافأتك، اللهم فرغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكفلت لي به، ولا تعذبني وإني استغفرك، ولا تحرمني وإني أسألك، اللهم عَظِّم شأنك في نفسي، وألهمني طاعتك، والعمل بما يرضيك، والتجنب لما يسخطك، يا أرحم الراحمين.

* اللهم إني أسألك الراحة بعد الموت، والعفو عند الحساب، اللهم إني أعوذ بك من غضبك، وسوء عقابك، وشر بعادك، وشر الشياطين وشركهم.
* اللهم اجعلني من أعظم عبادك عندك نصيبا في كل خير تقسمه الغداة، ونورا تهدي به، ورحمة تنشرها، ورزقا تبسطه، وضرا تكشفه، وبلاء ترفعه، وفتنة تصرفها.
* اللهم إني أعوذ بك أن أَفْتَقِرَ في غناك، أو أَضِلَّ في هُداك، أو أَذِلَّ في عزك، أو أُضطهد والأمر إليك، اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك، وصبرا على بليتك، وخروجا من الدنيا إلى رحمتك، اللهم ارحم غربتنا في الدنيا، ومصرعنا عند الموت، ووحشتنا في القبر، ومقامنا بين يديك. اللهم ثبتنا على نهج الاستقامة، وأعذنا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة، وخَفِّف عنا ثِقل الأوزار، وارزقنا عيشة الأبرار، واكفنا واصرف عنا شر الأشرار، واعتق رقابنا، ورقاب آبائنا، وأمهاتنا، وأخواتنا، وإخواننا من النار، برحمتك يا عزيز، يا غفار، يا كريم، يا ستار، يا حليم، يا جبار، يا الله برحمتك يا أرحم الراحمين، ويا أول الأولين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

ملخص الباب الثاني عشر

- اتفق الصوفية مع أهل السنة والجماعة على تفسيرهم للذكر، إلا أنهم زادوا فيه الذكر بالاسم المفرد.
- لم يثبت عن رسول الله ﷺ، أنه أقام حضرة بالمفهوم الصوفي، ولا ذكر الله تعالى بالأسلوب الصوفي، بحيث يختار اسما معينا، أو مجموعة أسماء ويرتب لنفسه، أو لأحد من أصحابه وردا يكرره يوميا، كما لم يثبت عن أحد من الصحابة والتابعين أنه فعل ذلك، والراجح أن الحضرة بشكلها الأولي لم تعقد في التاريخ الإسلامي قبل قرون الخيرية الثلاثة الأولى.
- ابتكرت الشيعة الأسماء السريانية، ونسبوها إلى جعفر الصادق، ثم تلقت الصوفية نفس الفكرة، وأمروا المريدين أن يذكروا الله بأسماء غير عربية، ويفسرونها لأتباعهم بأنها ذكر لله بلغة الملائكة، وصدَّق المريدون ذلك، وتركوا ذكر الله بالأسلوب الشرعي الذي يرضى عنه الله ﷻ، ورسوله ﷺ، كتلاوة القرآن الكريم، أو حضور مجالس العلم، أو الدعاء لله بما سنه النبي ﷺ، بل راحوا يذكرون أسماء ما أنزل الله بها من سلطان.
- ينسى الصوفية ما رواه المفسرون - ومنهم القرطبي وابن كثير، وغيره - في كتبهم عن نشأة الأسماء السريانية، وكيف وضع الشياطين كتب السحر في خزانة نبي الله سليمان عليه السلام بعد موته، ثم دلوا الناس عليها قائلين: هلموا إلى كنز سليمان عليه السلام، والأسرار التي كان بها يسخر الجن. فتلقاها سفلة الناس، وتناقلوها جيلا بعد جيل حتى وجدت لنفسها السبيل إلى الإسلام على يدي مشايخ الطرق الصوفية. ومن العجيب أن كتب الصوفية التي تتناول الأسماء السريانية تنسبها إلى نبي الله سليمان عليه السلام، لا إلى رسول الله ﷺ.
- ضربنا أمثلة عديدة تؤكد اعتقاد بعض الطرق الصوفية المعاصرة في الأسماء السريانية، وقد تعرضنا لمنطق المشايخ الذين يدينون بهذا الاعتقاد سواء من كتبهم، أو في لقاءات متعددة بيني، وبعض المشايخ الذين يتمسكون بهذه الأسماء،

ويعتبرونها من الفتوحات العليا على شيخهم الأكبر، وسر الطريق ومدده، فكيف يتنازلون عنها؟!

- كما ناقشنا خطورة ذكر الله تعالى بأسماء لم يأذن بها الله ﷻ، ولا عرفها رسول الله ﷺ، فما بالك إذا كانت بلغة أخرى، والمعروف عن أسرارها كما يزعم المروجون لها، أنها تقوي العلاقة مع الجن، وتعين على القيام بأعمال هي إلى السحر ما هي.
- شغل الباطنيون أنفسهم بتقسيم العلم إلى ظاهر، وباطن، وحين أقنعوا أنفسهم بذلك زعموا أن من أنواع العلم الباطن أسرار الحروف، وأن كل حرف له رقم يساويه، وقد كان السبق لليهود، وسارت الشيعة على دربهم، ثم تلقت الصوفية بعد الشيعة هذه الفتوحات.
- الفكر الباطني لا أصل له في الدين، وإنما هو نتاج مؤامرة واضحة المعالم على الإسلام، تهدف إلى تعطيل القرآن وإنكار السنة.
- ثم تناولنا قضية هامة تبرز لكل من اطلع على أوراد الصوفية، وما تشتمل عليه من عدوان وطلب للتصريف، وشن الحروب بين المريدين، وبين كل من يخالفهم، بصورة تخرج الهدف من الدعاء عن المراد منه.
- بعض كلام الصوفية له أصل في الدين خاصة عندما يتحدثون عن دقائق النفس ومراحل تهذيبها، والزهد والرقائق، ولكن هذا القدر لا يكفي، حتى لو قام المخلصون من مشايخ الطرق الصوفية بتنقية هذا الجزء من الفكر الصوفي مما علق به، إلا أن المشكلة الحقيقية في الفكر الصوفي المعاصر هي في جنوحه الشديد إلى ذلك التيار الباطني، وتبنيه لنظريات فلاسفة الإسلام الذين ساروا على درب من سبقهم في عقائد وحدة الوجود، وغير ذلك من الأمور التي تكاد تخرج التصوف من حظيرة الإسلام، بالإضافة إلى ذكرهم بالأسماء السريانية، واستخدامهم لعلوم الجفر والأوفاق والعدوان في الدعاء، وما إلى ذلك من علوم الباطنية.
- كما أوضحنا أدب النبي ﷺ في الدعاء، واخترنا نماذج من أدعية النبي ﷺ، والصحابة، والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، ونحن بالطبع لا نريد من تقديم هذا النموذج أن يتخذه بعض الناس وردا له، وإنما أردنا أن يتذوق الناس أسلوب النبي ﷺ في

الدعاء: حتى يُعرضوا عن أدعية الأدعياء الذين حرموا أنفسهم، وأتباعهم من الارتواء من حياض دعاء الحبيب ﷺ.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، أما بعد، لا شك أن المسلمين ينشطون إلى كل مكان يذكر فيه مناقب رسول الله ﷺ والصلاة عليه، وقد استغلت الصوفية ذلك عند جمهور المسلمين، فمجلس الذكر فيه ذكر لله تعالى، وصلوات على رسوله ﷺ، فكيف يعترض الناس على ذلك، أو يتجرأ بعضهم لنقد هؤلاء؟!، وحقيقة الأمر أن اجتماعات الصوفية وموالدهم حافلة بالأفكار الباطنية، والمفاهيم الفلسفية، بعيدة كل البعد عن طريقة رسول الله ﷺ، وسنته.

ولا نظن أن القارئ الكريم تنطلي عليه مقولة: هل التصوف الموجود اليوم في مصر يؤمن بهذه المزاعم؟ فقد تتبعنا أوراد أهم الطرق الصوفية في مصر وأكثرها انتشارا، وتوصلنا إلى أن الأسرار المرموز لها في الأوراد لا تعبر إلا عن فلسفة الوحدة، ولا مجال لحسن النية في الدفاع عن المصطلحات والألفاظ التي اختارها المشايخ من أفكار ابن عربي، والجيلي، وغيرهما من أهل الضلال، والإضلال. ونحن لا نوافق على تسميتهم بفلاسفة الإسلام، فنحن نسمي الأشياء بغير دلالاتها الحقيقية، وبدلا من تنبيه الناس من شرهم، وتحذير أتباعهم من مغبة التسليم لهم، نُطلق عليهم هذه الأسماء! إذن فنحن هنا لا نناقش حفريات تاريخية، ولا نبحث في قبور الأفكار التي ماتت، ونحاول صبغتها بحياة زائفة. ولا نتحدث عن أفكار فلسفية تجريدية لقضايا غير واقعية، وإنما نحن ندعو ملايين المسلمين سواء الذين يدينون بهذه الأفكار عن فهم، وعلم بها، أو الذين يرددونها في

أورادهم يوميا، ولا يعلمون حقيقة ما يقولون، ولا المقاصد التي ترمي إليها هذه الأدعية وتلك الأذكار، ندعوهم إلى الحق الذي لا غلو فيه، ولا تفريط.

الهدف من هذه السلسلة

يعتبر كثير من البسطاء علماء كانوا، أو من عامة الناس، أن بيان حقيقة الباطنية، والصوفية، وتحذير المسلمين من شرورهم، وفساد عقيدتهم، عمل مذموم يوقظ الفتنة، ويدعو إلى الفرقة بين المسلمين، وقد يقول قائل: "لِمَ شغلت نفسك بمن شهد أن لا إله إلا الله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وغفلت عن العصاة، والمبتعدين عن سبيل الله؟ أليسوا أولى بجهدك هذا؟ والإجابة على ذلك أن الأمر في حقيقته ليس بهذه السذاجة، بل هو أخطر من ذلك بكثير، ويساعدنا على تصوير مرادنا من هذه السلسلة من الكتب، أن نستدل بحديث رسول الله ﷺ الذي يصور فيه جماعة المسلمين أنهم ركاب سفينة واحدة، فيقول ﷺ: ﴿مثل القائم على حدود الله تعالى والواقع [وفي رواية أحمد: والراتع فيها والمدهن] فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذِ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا﴾[1]، ويوضح لنا هذا الحديث الأمر على حقيقته، فالمسلمون جميعا ركاب سفينة واحدة، وإذا تركنا كل صاحب عقيدة منحرفة يخرق السفينة من ناحيته، لهلكنا جميعا، ولو تركناهم وما يريدون وقع الغرق علينا، وعليهم، أما لماذا نركز على الباطنية، ونترك العصاة والمذنبين؟، فنقول: إن العصاة لا يتعرضون للتوحيد، ولا ينحرفون بالعقيدة الإسلامية، غاية ما هناك أنهم وقعوا في الشهوات، وربما الكبائر،

---

[1] حديث النعمان بن بشير، أخرجه البخاري، في كتاب الشركة ٢٣١٣، وفي كتاب الشهادات حديث ٢٤٨٩، والترمذي في الفتن ٢٠٩٩، وأحمد في مسنده ٢٠١٩٨،٢٠، ١٧٦٥٣، ١٧٦٤٧، ٢٠٢٠٠

وأمرهم متروك لربهم إن شاء حاسبهم، وإن شاء تاب عليهم، أما الذين يدعون الناس إلى الشرك، ويوجهون الناس إلى عقيدة الفلاسفة، ويعبدون الجن بأسماء سريانية لا يعرفون المراد منها، ويستغيثون بالحروف وجاهها، فهذا ما لا تحمد عقباه، ليس على هؤلاء وحدهم، وإنما على السفينة كلها.

ويجدر بنا أن نعرف أن سنن الله تعالى ثابتة، وكلماته تامة، ولا مغير لسنته، ولا مبدل لكلماته، وهذه القواعد الربانية هي التي تحكم فلاح الناس في حياتهم، وعلاقة البشر بربهم، وإذا اقترب العبد من ربه شبرا جاءه ربه بذراع، ومن جاء إلى ربه ذراعا جاءه ربه باعا، ومن جاء إلى ربه يمشي جاءه الحق ﷻ هرولة، فما بالك بإقبال أمة الإسلام، أو مصرٍ من أمصارها على الله؟، فما ظنك بعطاء الله تعالى لها على قدر خطى الإصلاح، ومقدار التصحيح في العقيدة، وكلما أزالت الأمة عن كاهلها مظاهر الشرك؟، ولا يخفى أن الحق تبارك وتعالى يكره لعباده الكفر، كما يبغض الشرك والمشركين، حتى أنه يغلق سبحانه أبواب الجنة يوم القيامة، وتوصد أبواب الرحمات في الدنيا، لمن أشرك به سبحانه، وهو أغنى الأغنياء عن الشرك، فكيف إذا شرعنا على مستوى الأفراد والأُسر في العودة إلى الله تعالى؟، وبادرنا بطاعته، وعاهدناه على عدم فعل المعاصي، وعزمنا على التوبة النصوح، لا شك أن بركات السماء والأرض ستفتح على العباد، ويهيئ لنا مولانا سبل الخروج من أزماتنا، وإذا صلح حال الرعية، أقام الله عليهم من يرفق بهم، ويحب دين الله تعالى ويسعى إلى تطبيقه، دون تشدد، أو غلظة، أو قهر، أو إكراه، فدين الله تعالى أعظم النعم، وأكبر الرحمات التي وهبها الله تعالى إلى خلقه، ولن ينعم أحد بخيرها إلا من يستحق سعادة الدنيا والآخرة. فما بالك إذا سارت الأمة في طريق تطبيق شرع الله تعالى على مراحل بنفس الأسلوب الإلهي الذي أراده الله تعالى في أول أمر الإسلام، وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج- ٤٠].

والمتتبع لفترات انتصار جيوش الإسلام في معاركها ضد الشرك، وأعوانه يجد النصر حليفا للمسلمين إذا كانوا مستمسكين بدين الله ﷻ، مطبقين لشرع الله تعالى، فما انتصر صلاح الدين الأيوبي في معاركه مع الصليبيون إلا بعد أن انتصر لدين الله في مصر، وأعادها إلى عقيدة أهل السنة والجماعة، وهدم الدولة الشيعية الفاطمية في البلاد، فلما تمكن دين الله تعالى في الديار، انتصر جيوش المسلمين على جيوش المشركين، وهذه سنة الله تعالى التي لا تتبدل، ولا تتغير، وحتى في عصرنا الحالي، فقد عشنا أحداثا كبيرة ومتلاحقة، رأينا خلالها الزعماء الذين ينتصرون للشيوعية والاشتراكية، ويضربون المسلمين في البلاد، ويذيقونهم الهوان في سجون الطغاة الذين لا يخشون ربا ولا دينا، يسلون سيوفهم على رقاب المؤمنين، ويحاربون المسلمين في اليمن لنصر الاشتراكية والقومية العربية، فأراد الله لهم الذل والهوان، ولم يسحبوا جيوشهم من اليمن إلا بعد أن اسودت وجوههم كما لم تسود وجوه في التاريخ، حتى أنهم أسموها نكسة. ولما أراد الله انتصار المسلمين في معاركهم ضد اليهود، يسر الله تعالى أسباب عودة الناس إلى شريعة ربهم، فاتجهوا إلى الله بقدر محدود، فكان انتصار المسلمين محدودا في معركة أكتوبر، ولو كان إيماننا أكبر، وتوجهنا إلى الله أشمل، لاتسعت رقعة الانتصار، ولفرح المسلمين بنصر الله، وصدق الحق ﷻ، حيث يقول: ﴿**يا أَيها الذِين آمنُوا إِن تَنْصروا الله ينْصـركُم ويثَبتْ أَقْدامكُم**﴾ [محمد-٤٧]، إن سنة الله في خلقه أنهم إذا أعرضوا عن وحي الله تبارك وتعالى، وأدخلوا في الدين ما ليس فيه من المفاهيم، والعلوم، والفلسفات أن يسلط على الناس عدوا يخرجهم من أرضهم ويستذلهم، والأمثلة في الأمة كثيرة إذا نظرنا لأحداث التاريخ، وربطناها بمستوى إيمان الناس، ومدى تمسكهم، أو انحرافهم عن النهج الصحيح: سنجد سنة الله ماضية، وهذا ما رآه علماء الإسلام، ومنهم أبي الفرج بن الجوزي، حيث يقول: "ففي أواخر المائة الثالثة، وأول الرابعة، اشتغل أهل العراق

بالفلسفة، وعلوم أهل الإلحاد، سلط الله عليهم القرامطة الباطنية، فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات، واستولوا على الحاج، واستعرضوهم قتلا وأسرا، واشتدت شوكتهم، واتهم بموافقتهم في الباطن كثير من الأعيان من الوزراء، والكتاب، والأدباء، وغيرهم. واستولى أهل دعوتهم على بلاد المغرب، واستقرت دار مملكتهم بمصر، واستولوا على الشام، والحجاز، واليمن، والمغرب. وكما سلط النصارى على بلاد الأندلس والمغرب، لما ظهرت فيها الفلسفة، واشتغلوا بها، فاستولت النصارى على أكثر بلادهم، وأصاروهم رعية لهم. وكذلك ظهر ذلك ببلاد المشرق، سلط عليهم عساكر التتار، فأبادوا أكثر البلاد الشرقية، واستولوا عليها". [1]

مما سبق يتبين قصدنا من هذه السلسلة من الكتب والتي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١. قياس مفاهيم الباطنية والصوفية في ضوء من هدي كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.
٢. دعوة الدعاة، وولاة أمر المسلمين في مصر، وغيرها من بلاد الإسلام: من رجال الأزهر الشريف، وعلى رأسهم صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر، الشيخ الجليل جاد الحق علي جاد الحق، ذلك العالم الفاضل صاحب المواقف التي ينتصر فيها لله ولرسوله ﷺ، ومفتي الديار المصرية، والمجلس الصوفي الأعلى، وأهل العلم أن يوضحوا للناس سبيل الحق، ودرب الهداية الذي هدانا إليه الحق سبحانه وتعالى، وفصّله وبيّنه المبلغ عنه، سيد ولد آدم ﷺ.

[1] تلبيس إبليس لأبي الفرج بن الجوزي ٣٦٣ – ٣٦٩

٣. دعوة المخلصين من أبناء التصوف إلى نبذ دواعي التفرق والتحلق حول الشيخ، إلى الالتفات إلى أنوار الكتاب والسنة، والفرار من كل أمر محدث في دين الله ﷻ يتعبد به الناس.

٤. اتخاذ الإجراءات اللازمة لإحكام الرقابة على دور المجلس الصوفي الأعلى، وأسلوب رعايته للطرق الصوفية.

٥. دراسة أوراد الطرق الصوفية كاملة بواسطة جماعة من علماء القرآن وأهل الحديث، وإصدار الفتاوى، ومحاورة المشايخ والمريدين، حتى نصل جميعا إلى كلمة سواء يرضى بها الله تبارك عنا، فينظر إلينا كأمة، وكأفراد نظرة رضا ورحمة، فيعيد إلينا عزنا ومجدنا الذي سلبته معاصينا، وآثامنا، وكثرة إعراضنا.

٦. دراسة منهج عمل المجلس الصوفي الأعلى، وتحليل جوانب القصور في دوره، وتنبيه مشايخ الطرق الحاليين، سواء بعقد ندوات علمية، أو محاضرات تثقيفية، مع برامج محو أمية لتعليم هؤلاء أصول الدين، ودعائمه الحقيقية حتى ينبذ الدراويش البدع، ويتركوا مظاهر الشرك في الأوراد سواء في الأسماء السريانية، أو الاستغاثة بالمشايخ، وطلب المدد منهم، أو التعدي في الدعاء، وطلب التصريف، والغلو في إطراء النبي ﷺ، والدخول في مفاهيم وحدة الوجود، وقد تألمت كثيرا وأنا أصل إلى حقيقة أوراد الصوفية المعاصرة، حيث يكاد يصل الباحث إلى حقيقة أنها ما كتبت في الأصل إلا للتعبير عن عقيدة الوجود.

٧. تحذير الناس من كتب الصوفية لما تحتويه من مظاهر الشطح، وأقوال الفناء، وغير ذلك من الأمور. وإعادة طباعة هذه الكتب بعد تحقيقها، واستخراج

زبدتها التي قد تفيد في الزهد والرقائق، ورفض الشطط، والزيغ، ودعاوى الغلو المتناثرة هنا وهناك.

٨. تنبيه الناس إلى التجاوزات الخطيرة التي تحدث في الموالد، والعمل على إلغاء الموالد، ومحاربة مظاهر الشرك المنتشرة في الأضرحة، والعودة إلى هدي الله، ورسوله صلوات الله وسلامه عليه فيما يخص القبور، والقضاء على تجصيص القبور، وتسنيمها، وإضاءتها، وتسويرها بالأسوار المصنوعة من الذهب الخالص، أو الفضة.

٩. تنشيط الإعلام الإسلامي لمعالجة المشاكل الفكرية التي يعتنقها فرق المسلمين وجماعاتهم، بالحكمة، والموعظة الحسنة، وإصدار الكتب، والنشرات، والدوريات التي تصحح العقيدة، وتجمع شتات أبنائها الذين اختفوا في متاهات الاختلافات في الأصول والفروع، حتى رضي الناس بالأحاديث الموضوعة، فجعلوا اختلاف الأمة رحمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فإذا كان الاختلاف رحمة، فكيف يكون الاتفاق؟!

١٠. زيادة جرعة علوم التوحيد في المدارس، حتى ينشأ المسلم صحيحا في عقيدته، فلا نخاف عليه إذا شب أن يتبع كل ناعق ينعق سواء: بتكفير المجتمع، أو بعبادة ما سوى الله، أو إتحاد الخالق والمخلوق في وحدة الوجود، ويظن كثير من الناس أن محاربة الإرهاب، وأصحاب أفكار التكفير والهجرة، وغيرها من تيارات التشدد أولى، ونحن لا نختلف معهم في ذلك، ولكننا نقول ينبغي أيضا أن نهتم بمن يعبد الله على هواه، وليس له شيخ، ولا دليل إلا أصحاب الفلسفات، والأفكار الباطنية، وإنما التوسط في الأمر أن ندرك خطورة الأمرين معا، ونهتم بالفرقتين جميعا، فكلاهما يحفر سفينة النجاة من ناحية، والماء الذي سيغرق

الناس لا يفضل بابا على باب، وكلاهما سبيل سيؤدي إلى نفس النتيجة، ويكفي أن يرانا الله سبحانه على غفلة عن توحيده، شاهرين سيوفنا على رقاب بعضنا البعض، وليس لنا حوار إلا بالبنادق والمتفجرات.

١١. تعتقد كثير من الجماعات الإسلامية أن الإصلاح يجب أن يبدأ من السلطة الحاكمة، ولذلك يمكرون للاستيلاء على الحكم، ونسوا أن دين الله تبارك وتعالى يأمرنا بطاعة ولاة الأمور، وليس علينا إلا أن ننصح لهم بالمعروف، وأن لا ننقطع عن الدعاء لهم، عسى الله تبارك وتعالى أن يوفقهم لما يحبه ويرضاه، وأعتقد أن انشغال الجماعات الإسلامية بقضية الحاكمية قد حرمها، وحرم الأمة من تحقيق أي نجاح لها، ولذلك لم تثمر جهودها إلا العنف، والمزيد من العنف. ولو أنهم شغلوا أنفسهم ببيان حقائق الدين وسماحته، ومظاهر الانحراف عن جادة الطريق، فإن الثمرة ستكون عظيمة جدا: لأنها أولا تصحيح لعقائد الناس، فإذا عادوا إلى توحيد مولاهم، فتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، وشغل الناس بما يصلح دنياهم وأخراهم، ولأدرك الناس طفرة في مجتمعهم وبركة من عند مليكهم وإلههم. **فكتابنا هذا دعوة للعودة إلى دين الله** ﷻ **وتصحيح العقيدة**، فبهذا بدأ رسول الله ﷺ في مكة، حيث مكث ثلاث سنين لا يُعلم أصحابه، ولا يقول لقومه إلا: ﴿قولوا لا إله إلا الله تفلحوا﴾...

أقول قولي هذا، واستغفر الله العلي العظيم، وأسأله أن يتقبل منا عملنا هذا، وأن يجعله في ميزان حسناتنا، وصحائفنا يوم القيامة، إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله